الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية
وزارة التعليم الابتدائي والثانوي

المختار
في
الأدب والنصوص والبلاغة والتراجم الأدبية

السنة السادسة الثانوية

منشورات المعهد التربوي الوطني الجزائر

الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية
وزارة التعليم الابتدائي والثانوي

المختار
في
الأدب والنصوص والبلاغة
والتراجم الأدبية

السنة السادسة الثانوية

إشراف المفتش العام
عبد الرحمن شيبان
تأليف الأساتذة
رابح بونار — محمد يونس
عبد الرحمن شاهين — عبد الفتاح حجازي

منشورات المعهد التربوي الوطني
الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا كتاب (الأدب والنصوص والبلاغة) للسنة السادسة الثانوية وفق آخر البرامج المعدلة، وقد تم إعداده، ووضعت خطته على النحو الذي التزمناه في كتاب السنة الخامسة الثانوية، حيث مهدنا لنصوص كل عصر بلمحة تاريخية تناولت الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية، ثم أوردنا بعد دراسة نصوص العصر. والخصائص الفنية والأدبية العامة.

وتتلخص خطة دراسة النصوص الأدبية في النقاط الآتية وهي: تعريف وتمهيد، إيضاح وتحليل، دراسة أدبية، دراسة بلاغية، مجمل القول مناقشة النص بالأسئلة، تدريبات تطبيقية، وقد جرى تعديل يسير في بعض الخطوات، وبخاصة في مناقشة النصوص، حيث تدرجنا في أسئلة المناقشة من العام إلى الخاص، أي أننا بدأنا بالأسئلة التي تتناول فهم معاني النص وأفكاره الأساسية والثانوية، ثم ثنينا بالأسئلة التي تتناول النقد والتذوق.

كذلك أتبعنا النصوص المقررة بنصوص أخرى مختارة، للأدباء أنفسهم، في أغراض متنوعة لإلقاء مزيد من الضوء على إنتاج كل أديب، وبذلك أتحنا الفرصة للأستاذ والتلميذ في مجال الدراسة الأدبية الكافية لهذه المرحلة.

وبعد الانتهاء من دراسة العصور الأدبية ترجمنا للشعراء والكتاب الذين قرر البرنامج الترجمة لهم، وقد اعتمدت دراستنا للشخصيات المترجم لها على إبراز بعض النماذج الأدبية، وإبراز أهم اتجاهات هؤلاء الأدباء وخصائص أدبهم.

وفي ختام الكتاب أفردنا قسماً خاصاً بالموضوعات البلاغية المقررة ، جمعنا فيه ما تفرق من أحكامها في أثناء النصوص الأدبية.

ونرجو في ختام هذا التقديم أن يراجع الأساتذة تفاصيل ما أجملناه هنا في تقديم كتاب (السنة الخامسة) كما نرجو أن يولوا توجيهاتنا التربوية التالية لهذا التقديم عناية واهتماماً ، وأن يوافونا بما يعن لهم من آراء وملاحظات واقتراحات بناءة في هذا الميدان.

وعلى الله قصد السبيل (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون).

المفتش العـــــام.
عبد الرحمـــن شيبــــــان

تـــوجيهـــات تـــربويـــة

أولا : ينبغي أن يراعي الأستاذ في تدريس الأدب والنصوص والتراجم ما يأتي :

1 ـ ربط التلميذ بالتراث الأدبي ، في عصوره المختلفة المقررة دراستها عليه ، للتزود بما فيها من قيم أخلاقية واجتماعية وفنية تلائم المجتمع الذي يعيش فيه ، وأن تزداد لدى التلميذ قدرته على فهم النصوص وتذوقها وأصدار الحكم عليها ، وأن يكتسب التلميذ من هذه الدراسة معرفة المبادىء الأخلاقية الرفيعة ، وأن يتمثلها ويعمل على نشرها في مجتمعه .

2 ـ أن تكون دراسة الشخصيات المترجم لها متصلة بدراسة عصرها الأدبي ، وفي طار تناول بيئة الأديب وحياته وصفاته وثقافته وآثاره الأدبية ، مع مراعاة أن تكون الأحكام الأدبية موضوعية مشفوعة بالشواهد.

3 ـ أن تكون دراسة الأحكام الأدبية لكل عصر عقب الإنتهاء من دراسة نصوصه ، وأن تعتمد هذه الدراسة على جمع شتات الأحكام الأدبية التي استنبطت من دراسة النصوص ، وأن تتناول الميزات العامة للعصر وفنونه الأدبية المختلفة.

4 ـ أن تهدف دراسة النقد والبلاغة إلى تذوق الأدب ، وإدراك ما فيه من جمال ، بتوجيه الأستاذ وإرشاده. ويراعى التدرج في معالجة هذه الموضوعات مع النصوص خلال العام الدراسي. ومن المستحسن تخصيص وقت بين آن وآخر لدراسة : الموضوعات المقررة في النقد والبلاغة.

ثانياً : لتحقيق الأهداف المشار إليها سابقاً ينبغي في عرض الدرس إتباع الخطوات التالية :

1 — تكليف التلاميذ إعداد النص قبل دراسته ، والإحاطة ببعض لغوياته وأفكاره.

2 — تمهيد للدرس موجز ومركز يضع التلميذ في جو الموضوع ، ويربطه ببيئته في إيجاز وتركيز ، ويكتفي في ذلك بما يلقى الضوء على الموضوع المتناول.

3 — قراءة نموذجية من الأستاذ ، تعقبها قراءات من بعض التلاميذ الذين يحسنون الأداء.

4 — مناقشة تتناول الفكرة العامة ، للنص ، ليدرك التلاميذ المعنى الإجمالي لموضوع النص.

5 — شرح تفصيلي للنص ، وحدة وحدة ، وفي كل وحدة تتناول مفرداتها اللغوية عند شرح أفكارها الجزئية ، ثم شرح الفكرة العامة لهذه الوحدة على أن يقوم الشرح على أسئلة جزئية متتابعة توصول إلى فهم المعنى العام ، ويتكرر ذلك في كل وحدة حتى نهاية الموضوع.

6 — عودة إلى السؤال عن الأفكار ، للتأكد من مدى فهم التلاميذ لها بعد الشرح والتحليل ، ويلاحظ أن تكون الأسئلة هنا أكثر عمقاً من سابقتها.

7 — نقد الموضوع ، ويتناول تحليل أفكار الموضوع ، وما تخلله من عاطفة ، وما تضمنه من صور ، وما عرض به من أساليب ، مع مراعاة القصد والتبسيط.

8 ــ استنباط الأحكام العامة ، والميزات التي كشفت عنها الدراسة ، سواء في ذلك ما يتصل بالقائل ، أو ما يتصل بالموضوع وعصره. وهذا كله حسب الخطة التي انتهجها الكتاب.

9 ــ تدريب التلاميذ على موضوع الدرس بالإجابة الشفوية أو التحريرية على بعض الأسئلة ، ومن الأفضل أن يكون هناك موضوع إنشائي يستفيد التلاميذ من النص في التعبير عنه.

ثالثاً : ينبغي أن يرتبط الأستاذ بالخطوط العامة للمنهاج ، وهذا أمر مقرر ، ولكنه مع ذلك يجدر به أن يراعي مستوى التلاميذ الذي يتحكم بطبيعة الحال في طريقه معالجة الدرس ؛ فالطريقة التي يعالج بها في الأقسام المعربة ، تختلف عنها في الأقسام المزدوجة. وهنا يبرز دور الأستاذ الواعي ، المدرك لروح المنهاج ، الحكيم في عرض مادته بالأسلوب الذي تفهم به وتستوعب عن طريقه ؛ فمثلا في الأقسام المزدوجة يعمد إلى التبسيط والإكتفاء بالقدر الضروري المناسب لمدارك التلاميذ ومستواهم اللغوي ، أما في الأقسام المعربة ، فللأستاذ أن ينطلق بتلاميذه في آفاق الدراسة الأدبية واللغوية والنقدية في حدود ما تسمح به قدراتهم ، وتساعد عليه مداركهم.

كذلك ينبغي أن يراعى التوقيت بحسب الشعب ؛ فالأقسام الأدبية بما يتاح لها من سعة في الزمن تنال من الدراسة والتحليل والتذوق ما يتفق وفرص الزمن المتــاحة لها، بينما يقل ذلك نسبياً في الأقسام العلمية لضيق وقتها عن الأقسام الأدبية.

والمدرس المستنير يستطيع إدراك ما يتطلبه درسه من إعداد ثقافي وتربوي ، ثم تقديمه لتلاميذه جرعات مناسبة ملائمة للمستوى كما وكيفاً وزمناً. ولا يغيب عن الذهن أن الدرس الناجح هو ما اشترك

فيه التلاميذ مع أستاذهم بفاعلية وإيجابية ، مع مراعاة أن ينال كل تلميذ منهم حظه من درسه فيرتقي بذلك قويهم ، وينهض ضعيفهم ، وينشط كسلانهم ، وتغمر الحيوية جميعهم. وبذلك تتحقق الفائدة المرجوة من الدرس.

والله الموفق والمعين.

المفتش العام
عبد الرحمن شيبان

العصر العباسي
بطوريه الأول والثاني

132 — 656 هـ

749 — 1242 م

- تمهيد
- أسباب القضاء على دولة بني أمية
- قيام دولة بني العباس
- العصر العباسي الأول
- العصر العباسي الثاني

العصر العباسي

بطوريه : الأول والثاني

مقدمة تاريخية عن قيام الدولة العباسية

موضوعات البحث

تمهيد – أسباب القضاء على دولة بني أمية – قيام دولة بني العباس
العصر العباسي : الفترة الأولى – الفترة الثانية

تمهيد :

قبل الشروع في عرض النماذج الأدبية للشعر والنثر في العصر العباسي بطوريه الأول والثاني نتناول في إيجاز أسباب القضاء على دولة بني أمية ، وقيام دولة بني العباس ، ثم نتبع ذلك بعرض لمظاهر الحياة المختلفة السياسية والاجتماعية والفكرية في الدولة العباسية ، وليس المقصود من ذلك هو الدراسة التاريخية في ذاتها ، وإنما نقصد إلى إبراز جانب هام هو أن الحياة في كلا العصرين كانت ذات طابع يميزها في نظمها السياسية والاجتماعية والفكرية مما انعكست آثاره على الأدب شعره ونثره ، وأوحى إلى الشعراء والأدباء بالكثير من الاتجاهات.

ومعلوم أن الدولة الأموية قامت بعد مقتل الإمام علي – كرم الله وجهه – (40 هـ – 660 م) واستمر حكمها حتى عام 132 هـ ، وفي أثناء هذه الفترة اتسعت رقعة الخلافة الإسلامية وعظم شأنها ، وقوي نفوذ العرب في أرجائها ، وكانت الدولة في أول الأمر قوية السلطان ، ثابتة الأركان ، راسخة البنيان ، ثم بدأت عوامل الضعف والانحلال تتسرب إليها شيئاً فشيئاً بفعل الفتن

الداخلية والمنازعات والحروب ، حتى قضى عليها نهائياً ، وانتزع السلطة بنو العباس وأقاموا دولتهم التي عرفت باسم « الدولة العباسية ».

أسباب القضاء على دولة بني أمية :

1 ــ تتابع حملات الإبادة لبني هاشم (آل البيت) من طرف بني أمية ، وقد بدأ هذا الصراع الدموي منذ مقتل الإمام علي وأبنائه الحسن والحسين وزيد رضي الله عنهم ، وقد تسبب هذا في سخط الناس وخاصة من كان منهم متشيعاً لآل البيت.

2 ــ ظهور كثير من الأحزاب السياسية التي تصدعت بسببها وحدة الأمة ، وكان من أقوى هذه الأحزاب وأعظمها خطرا ثلاثة : الشيعة الذين تشيعوا لبني هاشم آل البيت ، والخوارج الذين خرجوا على الإمام علي ، ونادوا بأن لا حكم إلا لله ، ثم خرجوا على الأمويين وحاربوهم ، وأنصار عبد الله بن الزبير الذين لم يعترفوا لبني أمية بالخلافة ، وناصبوهم العداء.

3 ــ تعصب بني أمية الشديد للعرب ، وإيثارهم بالمناصب ، وتفضيلهم على غيرهم ممن دخلوا في الإسلام من الشعوب الأخرى من فرس وروم ، وقد أثارت هذه التفرقة حقد هذه الشعوب فعملت على بعث أمجادها (قومياتها) وانظمت إلى الساخطين على بني أمية لتحطيم دولتهم.

4 ــ تعطيل بني أمية لمبدأ هام من مبادىء الحكم الإسلامي الرشيد ، ألا وهو مبدأ (الشوري) فقد جعل معاوية الخلافة وراثية لابنه يزيد ، واستمر الحال كذلك فيمن جاء وا بعده.

5 ــ اشتداد الطمع لدى بعض الخلفاء الأمويين ، وقوة حرصهم على الملك ، مما جعلهم يُسْندون ولاية العهد إلى اثنين من أبنائهم ، وأدى ذلك إلى بث الشقاق بين الأسرة الأموية الواحدة ، إذ كان لكل ولي عهد أنصار يؤيدونه للقضاء على خصمه ، فإذا تم لهم ما أرادوا انقلبوا إلى تحقيق أطماعهم ومآربهم ، وهكذا ازدادت عومل الشقاق ، وكثر الطامعون والمتربصون.

6 ــ ضعف أمر الخلفاء في نهاية الدولة، واهتمامهم بشؤونهم الخاصة، وإهمالهم لشؤون الرعية، وغفلتهم عن مكايد عدوهم الذي أخذ يستغل كل الإمكانيات للإطاحة بهم.

7 ــ اعتماد خصوم الأمويين ومنافسيهم على عناصر قوية من أمثال أبي مسلم الخرساني، القائد الفارسي الذي امتاز بالذكاء والدهاء، فرسم خطة محكمة لنصرة بني العباس، وقاد الجيوش لإسقاط دولة بني أمية في وقت تجمعت فيه كل الأسباب الداخلية والخارجية للقضاء عليها. ووجدت من يذكي نار العداوة والبغضاء ضد الأمويين من أمثال الشاعر سُديف ابن ميمون الذي يقول مخاطباً أبا العبّاس السّفاح كما جاء في الجزء الرابع من كتاب الأغاني:

يا ابن عمّ النبيّ أنتَ ضياء ... استَبَنّا بكَ اليقينَ الجليّا
جرِّد السيفَ، وارفع العفوَ حتّى ... لا ترى فوقَ ظهرِها أمويّا
لا يغُرَّنّكَ ما ترى من رجالٍ ... إن تحتَ الضلوع داءً دَوِيّا

قيام دولة بني العباس

1 ــ قبل أن يقضي على الأمويين ويخلص الحكم للعباسيين كانت الدعوة السرية لنقل الخلافة إلى بني العباس قد مرت بعدة مراحل:

أ) ــ كانت الدعوة في أول الأمر لآل البيت من سلالة الإمام علي ــ كرم الله وجهه ــ وقد حمل الشيعة عبء هذه الدعوة فنشروها، واستجاب الناس لها في كل الأصقاع.

ب) ــ كان الأمويون كلما أحسوا بشيئاً مما يدبر لهم قاموا بأعمال انتقامية ضد أعدائهم مستخدمين أساليب البطش والإرهاب من سجن وقتل وتشريد.

ج) ــ خلصت الدعوة بعد ذلك ــ لبني العباس عندما أوصى أحد أئمة العلويين بالخلافة من بعده إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس (أحد أعمام النبي صلى الله عليه وسلم) وحينئذ انفرد العباسيون بالدعوة

لأنفسهم ، وجندوا لتحقيق غايتهم قادة أكفاء من أمثال أبي مسلم الخرساني

2 — أقيمت أول لبنة في صرح الدولة العباسية عندما استولى أبو مسلم الخراساني على خراسان (بلاد قديمة في آسيا ، تتقاسمها اليوم إيران وأفغانستان وتركمانيستان) سنة 131 ه ثم انطلق رجاله من خراسان يستولون على البلاد التي في حوزة الأمويين.

3 — حاول مروان بن محمد — آخر خلفاء الدولة الأموية في المشرق — أن يوقف زحف جيوش أبي مسلم ولكنه هزم في واقعة الزاب المشهورة (الزاب نهر بالعراق) سنة 132 ه ، وهام الخليفة مروان على وجهه هارباً حتى لقي مصرعه في قرية (بوصير) المصرية ، وبذلك انتهت دولة بني أمية في المشرق ، وأسند الأمر نهائياً إلى بني العباس الذين حكموا الدولة الإسلامية أكثر من خمسة قرون ، بدأت بأبي العباس السفاح (سنة 132 ه/ 749 م) وانتهت على يد التتار في عهد المستعصم (سنة 656 ه/1242 م).

العصر العباسي

تمهيد :

ازدحمت هذه الفترة الطويلة بالتطورات والأحداث السياسية والاجتماعية والعقلية ، وعلى سبيل المثال نجد القرن الأول من تلك الفترة يمثل لوناً علمياً هو « الترجمة » ، كما أنه يمثل لوناً في السياسة والأدب امتاز بغلبة العنصر الفارسي ، وبحرية الفكر — إلى حد ما — ، وسلطان المعتزلة المعتمدين على العقل والرأي ، وبتلوين الأدب من شعر ونثر لوناً احتُذِيَ على مرّ العصور ، كما امتاز بتدوين العلوم والفنون المختلفة. وهو في كل هذا يخالف العصور قبله والعصور بعده ، ومن هنا عمد رجال الأداب إلى تقسيم العصر العباسي إلى فترتين متميزتين :

الأولى من سنة 132 ه إلى سنة 334 ه والثانية من سنة 334 ه إلى سنة 656 ه وليس الهدف من تقسيم العصور الأدبية إلى جاهلي وإسلامي واموي وعباسي..

هو أن هناك حدودا فاصلة بين تلك العصور ، وأن صفحة للتاريخ قد ختمت بانتهاء الدولة الأموية مثلا ، وأن صفحة أخرى ، بدئت بقيام الدولة العباسية ومن ثم فليس هناك كبير علاقة بين الدولة الإسلامية في كلا العصرين ، كلا. إن هذا الفهم أبعد ما يكون عن الصحة ، وخاصة من الناحيتين الاجتماعية والعقلية ، وإذن فالهدف من التقسيم لتلك العصور هو تيسير دراستها لا غير كتقسيم العصر العباسي إلى فترتين لتيسير فهمه على الدارسين بالإضافة إلى عوامل وفروق أخرى.

الفترة الأولى : (132 هـ — 334 هـ)

الحالة السياسية :

ارتبط قيام الدولة العباسية بكثير من الظروف والأوضاع السياسية التي كان لها آثارها في الحياة الأدبية والفكرية بصفة عامة ، وكان من أبرزها ما يلي :

1 — اختلفت وجهات النظر حول أحقية العباسيين بالخلافة ، فالعلويون يعتقدون أنهم سلبوهم حقاً كانوا أولى به منهم ، وما زال بعض العرب مرتبطاً بعاطفته مع الدولة القديمة ، وفي نفس الوقت يتسلح بالحذر تجاه الدولة الجديدة ، أما الفرس فكانوا أقوى العناصر تأييدا ومساندة للدولة الجديدة.

2 — كان الفرس — كما قلنا — أهم العناصر تأييدا ومناصرة لقيام الدولة العباسية ، ورأى منهم العباسيون ذلك فقربوهم ورفعوا شأنهم ، وأصبح منهم الوزراء والحجاب والكتّاب وقادة الجيوش ، وبذلك ضعفت السيادة العربية ، وتقلص ظل الحكم العربي تدريجياً ، مما أثار غضب العرب ، وملأ نفوسهم سخطاً ، كذلك حوّل العباسيون عاصمة الخلافة من (دمشق) إلى (بغداد) لتقترب من بلاد فارس الذين انطلقت الثورة من بلادهم ، وقامت على سواعدهم.

3 — ومع قوة النفوذ الفارسي ، وغلبة طابعه في السياسة والاجتماع ، نجد أن الخلفاء العباسيين في صدر دولتهم احتفظوا بما لهم من مكانة عالية ، وهيبة سياسية ، بفضل ما امتازوا به من مواهب أهلتهم للقيادة والسيادة.

4 — وفي القرن الثاني من حياة الدولة العباسية ظهر العنصر التركي ، وذلك حينما استكثر الخليفة المعتصم (218 — 227 هـ) من جلب المماليك الأتراك لاستخدامهم حرساً وجنودا ، وللاستعانة بهم ضد نفوذ الفرس ، فقويَ نفوذ الترك على العناصر الأخرى ، ولم تظهر آثار ذلك في عهد المعتصم لقوته ، وعندما وليَ الخلافة أفراد ضعفاء أفرطوا في الاستعانة بهم ، فاستشرى فسادهم ، وقتلوا الخلفاء ، ونصّبُوا من شاؤوا ، وكانوا بذلك من عوامل انهيار الدولة وضعف سلطانها.

5 — كان من نتائج اضطهاد العباسيين للأمويين فرارُ أحدهم إلى المغرب من وجه أبي جعفر المنصور (136 — 158 هـ) وكان ذلك الأموي هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الذي أقام في الأندلس الدولة الأموية الثانية في عام (138 هـ / 757 م) وقد أظهر مقدرة فائقة وعبقرية فذة.

6 — في أواخر هذه الفترة بدأ ظهور الدويلات المستقلة ، وكان ذلك الإتجاه نتيجة طبيعية بسبب ضعف سلطان الخلافة ، وزوال هيبتها على يد المماليك الأتراك ، بالإضافة إلى سوء الأحوال والفوضى والتخلف ، مما حدا بكثير من الولايات والأقاليم إلى الاستقلال ، ولم يبق للخلفاء العباسيين في أواخر هذه الفترة غيرُ السلطان الاسمي ، وكان من الدويلات التي استقلت :

- الدولة السامانية بتركستان (316 هـ/928 م)
- الدولة الحمدانية في الشام (317 هـ/929 م)
- الدولة الأخشيدية بمصر (323 هـ/935 م)

كما استولى البويهيون على عاصمة الخلافة (بغداد) سنة 334 هـ/945 م) وبهذا الاستيلاء انتهت الفترة الأولى من العصر العباسي ، وبدأت الفترة الثانية.

الحالة الاجتماعية :

كثير من الظواهر الاجتماعية وثيق الارتباط بالظروف السياسية . والاتجاهات الفكرية ، ومن الظواهر الاجتماعية التي تطورت ، وبرزت آثارها في العصر العباسي ما يلي :

1 ــ أعلن الإسلام المساواة بين البشر ، فدخل الناس فيه أفواجاً ، وامتزج العرب بغيرهم من الشعوب الأخرى عن طريق التزاوج ، كما أقبلت تلك الشعوب على اللغة العربية دراسة وإجادة حتى ظهر نبوغهم فيها ، وقد كان الامتزاج عن طريق التزاوج ضعيفاً في العصر الأموي لاعتزاز العرب بعروبتهم ، فقل زواج العربي من غير جنسه ، وندر زواج العربية من غير جنسها ، وحينما قامت الدولة العباسية ، وأصبح الفرس موضع اعتزاز ، وأصحاب نفوذ أقبل العرب على الزواج من غيرهم من الشعوب الأخرى ، وقوى الامتزاج بين العرب وتلك الشعوب ، ونتج عن هذا الاختلاط ظهور جيل جديد ، له خصائص وصفات جسمية ونفسية جديدة ، وهو يحمل في دمه صفات الدم العربي وغيره من الأجناس الأخرى ، وقد أطلق على هذا الجيل اسم (المولَّدين)(1).

2 ــ كان للبلاد المفتوحة تاريخ حضاري تأثر العرب بكثير من جوانبه ؛ فأخذوا من حضارة تلك البلاد ، وطرق معيشتها ، وازداد التأثر بالطابع الفارسي والعادات والتقاليد الفارسية لأن الفرس كانت حضارتهم ، أقوى الحضارات قبيل الإسلام ، كما كانوا القوة الحقيقية في قيام الدولة العباسية ؛ فأخذ العباسيون عنهم بعض نظم الحكم ، وطرق المعيشة ، وفن العمارة ، والثقافة ، وقلدوهم في المأكل والمشرب والملبس ، وتشييد القصور ، وتجميل المدن بالحدائق والنافورات ، كما تأثروا بهم في مجالس اللهو والطرب والموسيقى والغناء وألوان الزينة ووسائل الترفيه.

---

(1) يطلق المولود على المحدث من كل شيء وهو ما قصد في هذا المقام ووصف جيل من الشعراء بذلك لحدوثهم

3 — منح العباسيون المزيد من الحرية للشعوب غير العربية بعد أن كانت محددة في العصر الأموي ، وقد شملت تلك الحرية كلا من العقيدة والتفكير والتعبير ما لم تمس تلك الحرية سلطة الحاكم ، ولم يراع بَعْضُهُمْ حدود تلك الحرية مما نشأ عنه الانحلال الخلقي والاجتماعي ، وضعف الوازع الديني ، وقد انتهز أعداء الأمة العربية الفرصة فنشروا سمومهم ، وجاهروا بشعوبيتهم التي تفتخر بالأمجاد القديمة القائمة على العنصرية البغيضة والتي تقلل من شأن العرب ، وكان رد الفعل الطبيعي لموجة الانحلال والشعوبية هو قيام دعوة مضادة تنادي بالزهد والاستعداد لما بعد الموت ، وتعلي من قدر العرب وترفع شأنهم.

الحالة الفكرية :

تطور العقل العربي في العصر العباسي نتيجة لما مر به من أحداث سياسية واجتماعية ومن أبرز ظواهر هذا التطور ما يلي :

1 — كانت الترجمة في العصر الأموي عملا فردياً ينصرف إليه بعض الراغبين فيه ، ولما جاء العصر العباسي أصبحت عملا رسمياً توجهه الدولة ، وبدأت الترجمة بنقل العلوم والآداب والمعارف إلى اللغة العربية ، وقد سبق ذلك إرسال البعوث العلمية إلى القسطنطينية وغيرها من بلاد الروم لتعلم اليونانية ، ونقل ما ألف بها من كتب هامة ، وقد أعان ذلك على التقدم العلمي والأدبي بفضل نشاط هؤلاء المبعوثين وغيرهم في ترجمة العلوم والآداب والمعارف من حضارات اليونان والهند والفرس ، وقد تم نقل تلك العلوم إلى العربية عن طريق النقل من السريانية التي ترجم إليها كثير من العلوم والمعارف قبل الإسلام ، وكذلك عن طريق النقل من اللغات الأصلية نفسها ، وكان أبو جعفر المنصور أول خليفة عباسي يولي عناية خاصة بالترجمة ، ثم نشطت في عهد الرشيد (170 هـ/786 م) وابنه المأمون (198 هـ/813 م) الذي عرف عهده بازدياد نشاط الترجمة ، ونقل العلوم ، وقد تم نقل ما تميزت به كل أمة فنقلت علوم الحكمة والمنطق والطبيعة

والكيمياء والجغرافيا والفلك ، عن اليونان ونقلت الرّياضيات والفلك والقصص ، عن الهند ونقلت الحكايات والأمثال والحكم والتاريخ والآداب عن الفرس

2 ـ تطورت الحياة الفكرية في هذا العصر ، ولم يمض خمسون عاماً على دراسة العرب لثقافات الأمم الأخرى حتى وُضعت أسس العلوم والفنون ، وقد قام بذلك علماء العصر العباسي العباقرة من العرب وغيرهم ، وكان لغير العرب في تلك النهضة العلمية أثر واضح ، ومن العلوم التي ازدهرت في هذه الفترة علوم التفسير والفقه والنحو والمنطق واللغة والأدب.

3 ـ وإذا كانت علوم اللغة والدين قد حظيت بالنصيب الأوفى لدى علماء العصر العباسي فإن ذلك لم يحل دون اهتمامهم وعنايتهم بالعلوم الكونية من فلك وطب وكيمياء وطبيعة وفلسفة ومنطق وتاريخ وغير ذلك.

وقد كان من آثار هذا التطور الفكري والسياسي والاجتماعى ازدهار الحياة الأدبية في هذه الفترة ، وكثرة الأدباء الذين امتاز وا بالأصالة والإبداع ، في الشعر والنثر مما سنراه في النماذج الأدبية التي تقدم بعد قليل.

الفترة الثانية : (334 – 656 هـ)

الحالة السياسية :

تعرضت الدولة العباسية في هذه الفترة لفتن وحروب لم يسبق لها مثيل في حياة الدولة الإسلامية منذ قيامها ، وترجع أسباب ذلك الصراع إلى عاملين رئيسين :

الأول داخلي : ويتمثل في زيادة ضعف الخلفاء العباسيين في هذه الفترة ، وقوة شأن الدويلات المستقلة عن الدولة ، ولم يعد يربط هذه الدويلات بخلافة بغداد غيرُ اعتراف اسمي بها بالخلافة ، وقد اشتد الصراع بين تلك الإمارات ، وحاول أمرؤها إفناء بعضهم بعضاً ، وظهر منهم في هذه الفترة :

الدولة البويهية في فارس والعراق (321 – 447 هـ)
الدولة الغزنوية في الهند وأفغانستان (351 – 582 هـ)
الدولة الفاطمية في مصر والشام (357 – 567 هـ)
استيلاء السلاجقة على بغداد. (443 هـ)

الدولة الأيوبية في مصر والشام (567 هـ) وقد حكمت بعد الدولة الفاطمية. واستمر الصراع بين تلك الدويلات ، واشتدت بينها الفتن والنزاعات ، وهم في غفلة عن أعدائهم المتربصين بهم ، حتى أغار التتار على بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، وسقطت في أيديهم عام (656 هـ/1258 م) وبسقوط بغداد انتهى عهد الدولة العباسية.

والثاني خارجي : ويتمثل في تلك الحملة الاستعمارية التي قادتها أوربا الصليبية في عام (491 هـ/1097 م) لاحتلال بلاد الشرق العربي ، وقد ألقت أوربا بجيوش جرارة عبر البحر المتوسط إلى سواحل فلسطين والشام ، ورفع الاستعماريون الصليب ، وادعو حماية بيت المقدس ، وتمكنوا من اغتصاب

جزء كبير من أرض فلسطين حيث أنشئوا أربع إمارات صليبية هي : (الرها – طرابلس – أنطاكية – بيت المقدس) وأقاموا فيها الحصون والقلاع الصليبية ، وكانت غفلة المسلمين وانقسامهم وتنازع أمرائهم من أكبر العوامل في نجاح هذا الغزو الإستعماري الصليبي ، وأفاق المسلمون على وجود عدو مغتصب بين ظهرانيهم ، فحملوا السلاح ، وقاوموا المحتلين قرابة قرنين من الزمان ، وعرفت تلك المقاومة في التاريخ باسم (الحروب الصليبية) وتولى قيادة جيش المسلمين قادة أبطال كان منهم في نهاية المطاف البطل صلاح الدين الأيوبي الذي وحد الشام ومصر تحت رايته وتمكن بفضل هذه القوة المتحدة من انتزاع معظم الإمارات ، ومن استعادة بيت المقدس عام (583 هـ) وأخيرا تم القضاء على الصليبيين ، وطُردوا نهائياً من الشام على يد السلطان خليل بن قلاوون سنة (692 هـ/1292 م) وبذلك عادت الأرض إلى أصحابها العرب

الحالة الفكرية :

أ – من الناحية العلمية : في النصف الأول من هذه الفترة تقدمت الحركة العلمية حتى بلغت فروع المعارف العلمية أكثر من ثلثمائة فرع ، فوضعت أصول الطبيعيات وارتقت الفلسفة ، وكثرت كتب التاريخ وتقويم البلدان ، وكذلك معاجم اللغة.

وفي النصف الثاني من هذه الفترة ساءت الحال ، وتخلفت الحياة العلمية في بغداد بعد أن سقطت في يد السلاجقة ، ولكنها استمرت في مصر على يد الأيوبيين حيث ألفت الكتب العلمية ، ودوائر المعارف ، ومعاجم اللغة.

ب – من الناحية الأدبية : ومع وجود الانحلال السياسي الذي أصاب الدولة ، وظهور القوميات فإن الحركة الأدبية ظلت قائمة ، ففي النصف الأول من هذه الفترة سجلت النهضة الأدبية تقدماً رائعاً ، ولكنها ما لبثت أن تلاشت في النصف الثاني ، وكان من أسباب ذلك التقدم ما يلي :

1 ـ انقسام الدولة إلى دويلات ، ورغبة حكامها وأمرائها في إظهار استقلالهم عن بغداد عن طريق الاهتمام بالعلم والأدب وتشجيعهما.

2 ـ كان الكثيرون من أمراء هذه الولايات وساستها على صلة قوية بالعلوم والآداب كالحمدانيين بحلب الذين اشتهر أميرهم سيف الدولة ، وذاع صيتهم على يد المتنبي وغيره ، وكالبويهيين بفارس والعراق الذين كان منهم شعراء ، وكانوا لا يقلدون المناصب الرفيعة إلا أهل الأدب والعلم منهم ، وأما الفاطميون في مصر فقد نافسوا غيرهم بتشييد المعاهد العلمية كالأزهر ودار الحكمة وغيرهما.

3 ـ قوي التنافس بين حكام هذه الولايات ، وتسابقوا في اجتذاب العلماء والأدباء مما دفع بالنهضة العلمية والأدبية إلى التقدم ، وقد تعددت أمام الأدباء مراكز الثقافة ليغترفوا منها بحلب والقاهرة وقرطبة.

ولكن تلك النهضة ما لبثت أن ضَعُفَتْ في النصف الثاني من هذه الفترة.

المقالة الأدبية :

أكتب مقالا أدبياً تلخص فيه أسباب قيام الدولة العباسية ، وتوضح الظروف التي وصلت إليها في أخريات أيامها من الناحيتين السياسية والفكرية.

المراجع :

ضحى الإسلام لأحمد أمين
تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان
العصر العباسي للسباعي بيومي
تاريخ الإسلام السياسي لحسن إبراهيم

النصوص الأدبية

أولا: من الشعر العباسي

بشار بن برد
(95 — 167 هـ)

تهديد ونصح بشار بن برد

تعريف وتمهيد

بشار بن برد شاعر فارسي الأصل ، ولد في البصرة عام 95 هـ ، لأبوين فقيرين ، ونشأ في بني عقيل نشأة عربية ، فاكتسب فصاحة اللسان ، ومتانة الأسلوب ، وتمت له معرفة واسعة باللغة وأسرارها ، كما أفاد من البصرة ورجالها علماء اللغة والشعر والكلام ، فكانت له من جراء ذلك ثقافة شاملة ساعده على تحصيلها حدة ذكائه ، وقوة ذاكرته.

ولد بشار أعمى ، وعرف ميله إلى الشعر في سن مبكرة ، إذ قال الشعر وهو ابن عشر ، وكان الهجاء أول ما قاله مدفوعاً إليه بعوامل عديدة منها : قلة صبره على آفة العمى ، وحقده على الذين كانوا يتحرشون به ويضايقونه ، وحبه للتكسب عن طريق الهجاء. وقد صاحب بشار رجال العلم والكلام بالبصرة ، إلا أنهم جفوه لاستهتاره وتهتكه ، وعملوا على نفيه من هذه المدينة ، فنفي إلى الكوفة مرة ، وفي منفاه هناك اتصل بعاملها من قبل الأمويين آنذاك ، وهو يزيد بن عمر بن هبيرة ، فمدحه ومدح معه الخليفة الأموي مروان ابن محمد بقصيدته البائية المشهورة. ثم اتصل بشار بعد ذلك بالعباسيين ، وكان الخليفة المهدي أوفر خلفاء بني العباس حظاً من مدائحه ، لكن المهدي أعرض عنه فيما بعد لفسقه ومجونه ، وغزله الإباحي ، وقد سخط عليه أشد السخط حينما هجا المهدي ووزيره يعقوب بن داود بقوله :

بني أميةَ هبّوا طالَ نومكم ... إنّ الخليفةَ يعقوبُ بنُ داودِ
ضاعتْ خلافتكُمْ يا قومُ فالتمسوا ... خليفةَ اللهِ بين الزّقّ والعودِ !

وعند ذلك أمر المهدي أن يقتل بشار ، فقتل متّهماً بالزندقة وكان ذلك عام 167 هـ.

عرف بشار بإسرافه في اللهو والمجون ، وبشدة تعصبه لقومه الفرس ، ولكنه كان محباً لأهله وندمائه ، وقد ترك ديواناً شعرياً ضخماً يدل على براعته في فنون الغزل ، والهجاء ، والفخر ، والوصف ، كما يدل على معرفة عميقة باللغة العربية وأسرارها. وكان شعر بشار مرآة لعصره المضطرب ، ولذا لم يأنف أن يمدح الرجل اليوم ويذمه غدا ، وأن يكون اليوم أموياً ، وغدا عباسياً ، ويتحلى هذا التلون في قصيدته الميمية التي ستمر بك بعد قليل. ويقول أصحاب التاريخ في سبب إنشائها ما يلي :

لما قام إبراهيم بن عبد الله العلوي الفاطمي وأخوه محمد بثورة على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور أنشأ بشار قصيدة ميمية في هجاء المنصور ، وفي تحريض الثائر الفاطمي إبراهيم على المضي في الثورة وأنشده إياها ، لكنّ هذه الثورة أخفقت ، فخاف بشار من وصول تلك القصيدة إلى المنصور ، وعند ذلك قلبها هجاء لأبي مسلم الخراساني الذي كان المنصور قد غضب عليه قبل قيام ثورة الفاطمي ، كما جعل مدح الفاطمي مدحاً للمنصور ! وهكذا وضع في البيت الأول عبارة (أبا مسلم) بدلا من (أبا جعفر) وفي البيت الثامن (ابن وشيكة) وهي أم أبي مسلم الخراساني بدلا من (ابن سلامة) وهي أم أبي جعفر المنصور ، وحذف البيت الحادى عشر كما يقول صاحب الأغاني.

وإليك معظم ما جاء في هذه القصيدة التي ذكرت مناسبتها ، قبل أن يحولها بشار من صورتها الأولى إلى صورتها الثانية ، والتي قدمها أبو عبيدة على بعض ميميات جرير والفرزدق.

- أ -

1 ـ أبا جعفرٍ ، ما طولُ عَيْشٍ بدائمِ   ولا سالم عمَّا قليل بسالمِ
2 ـ على الملكِ الجبَّار يقتحمُ الرّدى   ويصرعه في المأزق المتلاحمِ
3 ـ كأنك لم تسمع بقتل مُتَوّجٍ   عظيمٍ ، ولم تسمع بفتك الأعاجم
4 ـ تقسَّم كسرى رهطه بسيوفهم   وأمسى أبو العباس أحلام نائمِ

5 ـ ومروانُ قد دارت على رأسهِ الرّحى وكان لما أجرمتَ نزرَ الجرائم

ب

6 ـ تجردتَ للإسلام تعفو طريقه وتُعري مَطَاهُ للّيوثِ الضراغمِ
7 ـ فما زلتَ.. حتى استنصر الدين أهله عليكَ ، فعادّوا بالسيوفِ الصوارمِ
8 ـ فرُمْ وَزَراً يُنجيكَ ياابنَ سلامة فلستَ بناجٍ مِنْ مَضيمٍ وضائم
9 ـ لحا اللهُ قوماً رأسوكَ عليهمُ ولازلتَ مرؤوساً خبيثَ المطاعمِ !

ج

10 ـ أقولُ لبسَّامٍ ، عليه جَلالةٌ غدا أريحيّاً ، عاشقاً للمكارم
11 ـ من الفاطميينَ الدّعاة إلى الهُدى جهارا ، ومن يهديكَ مثل ابن فاطم
12 ـ سراجٌ لعين المستضيء ، وتارةً يكونُ ظلاماً للعدوّ المزاحمِ :
13 ـ إذا بلغَ الرأي المشورةَ فاستعنْ برأي نصيحٍ ، أو نصيحة حازمِ
14 ـ ولا تجعل الشوري عليكَ غضاضة فإن الخوافيَ قوةً للقوادمِ
15 ـ وما خير كفّ أمسكَ الغلّ أختها؟ وما خيرُ سَيفٍ لم يُؤَيَّدْ بقائم ؟
16 ـ إذا كنت فرداً هرّك الناسِ مُقبلاً وإن كنتَ أدنَى لم تفز بالعزائم
17 ـ فأدْن، على القربى، المقرّبَ نفسَه ولا تشهد الشورى امرأً غير كاتمِ
18 ـ وخلّ الهُوَيْنى للضعيف، ولاتكنْ نَؤوماً ، فإن الحزْمَ ليس بنائمِ
19 ـ وحاربْ إذا لم تُعْطَ إلاّ ظُلامةً شَبا الحرب خيرٌ من قبول المظالم
20 ـ فإنك لاتستطردُ الهَمّ بالمنى ولا تبلغُ العَلْيَا بغير المكارمِ
21 ـ وما قَرَعَ الأقوامَ مِثْلُ مُشَيَّعٍ أريبٍ، ولا جلّ العَمى مثلُ عالمِ

شرح لغوى :

أبا جعفر : منادى ، والتقدير يا أبا جعفر ، الجبّار الشديد الظلم ، الطاغية. يقتحم الردى : يهجم الموت. المأزق : المكان الضيق. المتلاحم الشديد الضيق. كأنَّكَ يُخَيَّل إليّ. متوج ملك صاحب تاج ، ويريد بالمتوج كسرى ملك الفرس ذكره في صدر البيت الرابع. رهطه الرهط الجماعة عددهم تسعة ، ورهطة هنا حاشيته من غير نظر إلى العدد المذكور. أبو العباس :

كنية الوليد بن يزيد الخليفة الأموي الذي قتل بسبب استهتارْه بالدين.
مروان هو مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين. دارت على رأسه الرحى أهلكته الحرب. نزر الجرائم : قليل الجرائم. تجردت للإسلام : نصبت نفسك لحرب الإسلام. تعفو طريقه : تمحو تعاليمه. تعري مطاه : تجعل ظهره عارياً. .الليوث الضراغم : الأسود الكاسرة. سلامة اسم والدة أبي جعفر المنصور كما ذكرنا ، وقد نسب الشاعر الخليفة إلى أمه بدل أبيه إمعاناً في التحقير والهجاء. مَضيم مظلوم ، وهو اسم مفعول من ضيمَ. ضائم ظالم ، وهو اسم فاعل من ضام. لحا الله : لَعَنَ. بسَّام كثير الابتسام ، والمقصود بذلك الثائر الفاطمي إبراهيم بن الحسن. جلالة : مهابة. أريحيّاً إنساناً يرتاح لفعل الكرم. عاشقاً للمكارم : مشغوفاً بمعالي الأمور. من الفاطميين من المنتسبين إلى فاطمة الزهراء بنت النبي(ص) ، إذا بلغ الرأي المشورة إذا أحوجك الأمر إلى أن تستشير غيرك. الشورى : الاسم من الاستشارة ، ومعناها الإنتفاع برأي الأخرين في الأمور المهمَّة. غضاضة : مذلة. الخوافي الريش الصغير في جناح الطائر ، والمفرد خافية ، وعكسها القوادم : وهي الريش الكبير في مقدم جناح الطائر ، والمفرد قادمة الغُل القيد قائم السيف مقبضه فرداً واحداً لا أعوان له ولا أنصار هرّك الناس مقبلاً واجهوك بما تكره وتجرأوا عليك ، والأصل فيه هَرّ نبح الكلب بصوت منخفض. أدنى : ضعيف الهمة ، وهو اسم تفضيل مأخوذ من دَنِيَ يَدْنَى دَنَايَةً : أي صار ضعيفاً وساقطاً فهو أدنى ، وهي دُنيا ، والصفة المشبهة دَنِيّ ودنيَّةٌ. المقرّب نفسه : من يتقرب إليك من الأباعد. الهُوَيْنَى : الضعف والتردد في الأمور. نَؤُوماً : كثير النوم ، وهو مبالغة نائم ، والمراد غافلا عما يراد بك ظُلامةً : ظلما أو اعتداء على حقك. شَبا الحرب : شدتها ، وأصل الشَّبا حدُّ السيف ، أو رأس الرمح ، وهو جمع ، مفرده شَباة. تستطرد : تطرد وتبعد. العَلْيَا : المقاصد العالية ، والأصل العلياء ، حذفت منها الهمزة للضرورة الشعرية. المكارم : الأعمال الكريمة ، والمفرد مكرمة. قَرَعَ :

غَلب. الأقوام : الرجال ، والمفرد قوم. مُشَيَّع : شجاع . أديب : ذكي.
جَلّى العَمى : كشفه وأزاله ، والمراد بالعمى الحيرة والضلال.

إيضاح وتحليل :

يستهل بشار قصيدته السابقة بتهديد أبي جعفر المنصور ، وتذكير أمثاله من الجبابرة بمصير كل جبَّار ، فيقول له في الأبيات الخمسة الأولى : يا أبا جعفر ، لا تغترّ بقوتك وسلامتك من الافات ، فإن العيش ، مهما طال ، لا يدوم ، وإن السلامة سرعان ما تذهب وتتحول. ذلك أن الموت لا ينجو منه أحد ، فهو يقتحم على الملك الطاغية بابه وحصنه ، ويهلكه في مكان ضيق ، شديد الضيق ، فلا ينفعه في دفع الموت عنه حراس ولاجنود. وإنه ليخيل إلي — يا أبا جعفر — أنك غر جاهل ، لم تعرف شيئاً عن قتل الأعاجم الفرس لملكهم العظيم كسرى حين فتكت به حاشيته ، وقَطَّعه أعوانه بالسيف إرباً إرباً ، كما يخيل إلي أنك لم تعرف شيئاً عن نهاية الخليفة الأموي مروان بن محمد الذي طحنته الحرب طحناً ، مع أن جرائمه إذا قيست بجرائمك بدتْ هينةً يسيرة.

ثم يذكر بشار ، في الأبيات الأربعة التالية ، بعض ما ارتكبه أبو جعفر المنصور من جرائم ، ويهدده ويهجوه قائلا : لقد نصبت نفسك لحرب الإسلام ، فأخذت تمحو معالمه ، وتسيت سننه ، وتعرضه لأعظم المخاطر ، كي يتمكن أعداؤه المتربصون به من الأنقضاض عليه في الوقت المناسب. وما زلت — يا أبا جعفر — تحارب الدين حتى استنجد بأنصاره المخلصين ، من أبناء علي وفاطمة ، لإنقاذ هذا الدين منك ، فلجأ أولئك الأنصار الحقيقيون إلى الثورة المسلحة بقيادة إبراهيم بن عبد الله العلوي الفاطمي ، واعتمدوا في حربك على كل سيف مرصف الحد ، فاطلب ملجأ يحميك ، يا أبا جعفر ، من قبضة الثائرين إن استطعت ، وهيهات أن تجد ذلك الملجأ ما دام الناس جميعاً يطلبونك ، وما داموا جميعاً أحد اثنين : مظلوم له ثأر عندك ، وظالم مثلك لا ينجو منه أحد ، فكيف تنجو ؟ ألا قبَّح الله قوماً جعلوك رئيساً عليهم ، وجعلك تابعاً ذليلا تأكل من أخبث طعام !

ثم يخلص بعد التهديد والهجاء إلى مدح الثائر الفاطمي إبراهيم بن عبد الله فيقول له : أيها الثائر الفاطمي ، أيها السيد الكريم ، المهيب الطلعة ، المشغوف بمعالي الأمور... يا من تنتسب إلى أبناء فاطمة الزهراء ، دعاة الحق المعروفين بجرأتهم وشجاعتهم وهدايتهم للناس... أيها الفاطمي العظيم الذي أنت نور لأنصارك وأوليائك ، وظلام لمنافسيك وأعدائك ،... إني أوجه إليك النصيحة التالية :(إذا كنت في أمر مهم يحوجك إلى استشارة الآخرين فاستعن برأي كل مخلص يمحضك النصح والود ، وبرأي كل ذي حزم يضع الأمور في نصابها)(ولا تحسب استشارتك للآخرين — فمن هم دونك في المكانة والرأي — مذلة لك أو عارا عليك ، فقد يتقوّى القوي بالضعيف كما تتقوّى قوادم جناح الطائر بخوافيه) فاستشر أصحابك المخلصين ،(ولا تستبدّ برأيك ، لئلا تصبح عاجزا ضعيفاً شبيهاً باليد التي ربطت أختها بالقيد ، أو شبيهاً بالسيف الذي ليس له مقبض يمسك به الضارب.) وإذا كنت مستبدا في أمورك تفرق عنك أعوانك وأنصارك ، واستضعفك خصومك وأعداؤك ، وواجهوك بما تكره ، وتجرأوا عليك ، لا عتقادهم أنك عاجز ضعيف ليس لك من يحميك ويدافع عنك. وإذا كنت ضعيف الهمة ، متواضع الطموح لم تظفر بتحقيق أي عمل جليل ، فاعتمد على أقاربك ، واعتمد على كل من تأنس منه المودة ، وإن كان من غير أقاربك. ولكن إياك أن تطلع على أمورك المهمة أولئك الذين تضيق صدورهم بكتمان الأسرار ، وانهض للمطالبة بحقك في الخلافة ، ذلك الحق الذي اغتصبه أعداؤك العباسيون ، وكن حازماً قوياً ، ولا تكن مترددا ضعيفاً ، وكن يقظاً لا غافلا ، فصاحب الحزم لا يغفل عن أموره أبداً. وحارب خصومك العباسيين إذا لم يعطوك حقك في الخلافة ، وإذا كان نصيبك منهم الظلم والاعتداء على هذا الحق ؛ فاحتمال شدائد الحرب وأهوالها خير من الرضا بالظلم والهوان. وامض لتحقيق أمانيك معتمداً على الأعمال لا على التمني والأقوال ، فالأماني لا تدرك بالتمني ، والمقاصد الكريمة لا تنال إلا بالأعمال الجليلة. وكن شجاعاً ذكياً كما عرفناك ، فما غلب الرجال إلا كل شجاع

ذكي ، يستطيع بعمله وجرأته ، وخبرته وتجاربه ، أن يزيل الشبهات ، ويكشف المعمّيات.

دراسة أدبية :

الغرض العام من هذه القصيدة هو إذكاء نار الحرب التي قام بها الثائر الفاطمي ضد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ، وللوصول إلى هذا الغرض اتّبع بشار في نظم قصيدته خطة قامت على أربعة أفكار رئيسة هي : تهديد المنصور ، وهجاؤه ، ومدح الفاطمي ، ونصحه.

فالقصيدة تبدأ بحكمة تخفي وراءها الكثير من التهديد : البيتان 1 و 2 ، ثم تذكر مصارع الطغاة أمثال كسرى ملك الفرس ، والوليد بن يزيد ومروان بن محمد من الخلفاء الأمويين : الأبيات 3 و 4 و 5.

ثم ينتقل بشار إلى سرد بعض جرائم المنصور ، فيذكر محاربته للدين الإسلامي ، ويهدده بالمصير الذي ينتظره على أيدي الثائرين من أجل الحفاظ على الدين ، ويدعو عليه بالمذلة والهوان : الأبيات 6 و 7 و 8 و 9.

ثم يفيض الشاعر في مدح الفاطمي وإيراد الصفات التي تجعل منه رجلا جديرا بإنقاذ المسلمين من ظلم أبي جعفر المنصور : الأبيات 10 و11 و 12 ويمده بعد ذلك بنصائح ثمينة لا غنى عنها لكل ثائر ، فيوصيه بالاعتماد على الشورى ، وكتمان الأسرار ، ويحثه على الحزم ، وطرح التردد ، وينصحه بالاعتماد على الأعمال دون الأقوال : الأبيات من 13 — 21.

والأفكار التي تضمنتها القصيدة ليست جديدة لأنها موجودة قبل بشار ، ولكن هذه الأفكار جيدة وصحيحة ولا سيما في القسم الأخير من القصيدة ؛ وهي كذلك مناسبة للموضوع وللغرض الذي قيلت فيه : فتمادي المنصور في استبداده وطغيانه يستوجب تذكيره بمصارع المستبدين والطغاة ، والجرائم نسبها بشار إلى المنصور من شأنها أن تجر عليه نقمة الناس ، ولا سيما تلك الجريمة النكراء ، جريمة حربه للدين الإسلامي. أما الصفات التي أسبغها

صاحب القصيدة على الفاطمي فإنها جديرة بأن تجعل منه رجل الساعة ، الرجل الذي تتطلع إليه أنظار المسلمين لتخليصهم من ظلم بني العباس واستبدادهم ، والنصيحة التي ساقها الشاعر إلى الثائر الفاطمي هي خير ما يقدم إليه في هذا الموقف. وتتميز أفكارها أيضاً بالوضوح مع أن الإيجاز غلب على أسلوب القصيدة.

فقصيدة بشار تقوم على وحدة البيت لا على وحدة الموضوع ، شأنها شأن أية قصيدة عربية قديمة. ويلاحظ ، في دراسة الأفكار ، أن الشاعر لم يبدأ قصيدته بالغزل جرياً على الطريقة التقليدية المعروفة بعمود الشعر ، ولكنّه استهلها بحكمة مناسبة للموضوع أو المقام ، وهذه ظاهرة جديدة برزت في الشعر العباسي كما سيمر بك في النصوص الأخرى.

وفي القصيدة عواطف متنوعة ، منها الكراهية والاحتقار ، ومنها المودة والإكبار : أما عواطف الكراهية والإحتقار فهي التي أملت على الشاعر هجاء الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ، وبشار صادق في هذه العواطف لأنه أرضى بها نفسه الناقمة الثائرة ، وأرضى بها أهل العراق من الساخطين على ظلم بني العباس واستبدادهم. وأما عواطف المودة والإكبار فهي التي دفعته إلى مدح الثائر الفاطمي ، وتزويده بالنصائح الكفلية بإنجاح الثورة. والشاعر في هذا المدح وذلك النصح يعبر عن فرحه وفرح الجماعات المضطهدة التي تتطلع إلى يوم الخلاص من جلاديها ، ولذا أفاض الشاعر في مد الفاطمي بالآراء التي تضمن نجاح الثورة وصاغها بأسلوب رائع قوي ، فجرت مجرى الحكم والأمثال ، وتناقلها الناس في بغداد وغير بغداد ، وقد مها أبو عبيدة على ميميات جرير والفرزدق.

دراسة بلاغية :

علمت في الماضي أن الكلام خبر وإنشاء ، وحقيقة ومجاز ، واعلم الأن أن لكل من الحقيقة والمجاز مقاماً وموضعاً : فإذا كانت نفس الأديب ثائرة منفعلة اختارت الأسلوب الإنشائي للتعبير عن ثورتها وانفعالاتها بالأمر

والنهي والاستفهام والنداء وغير ذلك من أساليب الإنشاء ، وإذا كانت نفس الأديب مطمئنة هادئة اعتمدت أسلوباً خبرياً لا ثورة فيه ولا انفعال. وقد يعمد الأديب في الموضوع الواحد إلى تنويع أسلوبه فيلجأ إلى الانشاء تارة ، وإلى الخبر أخرى تبعاً لحالته النفسية ، ورغبة منه في التشويق وجذب الاهتمام. وإذا أنت نظرت في قصيدة بشار وجدت أسلوبها متنوعاً بتنوع المواقف والحالات النفسية : فهو إنشائي في مواطن التهديد والهجاء ، يتخذ أسلوب النداء والأمر كما في البيتين الأول والثامن والتاسع خبريّ في مواطن الرواية التاريخية وحكاية أعمال المنصور كما في الأبيات من 2 — 7. وقد غلب الأسلوب الإنشائي على القسم الثالث من القصيدة حيث اتخذ بشار لنفسه صفة الصديق الناصح الذي يوجه إلى صديقه جملة صالحة من الإرشادات ، فاعتمد على أسلوب الأمر في الأبيات (13 و17 و 18 و19) ، وعلى النهي في البيت(14) ، وعلى الاستفهام في البيت (15).

والقصيدة حافلة بالصور البيانية التي كان لها أثر قوي في إبراز المعاني الذهنية المجردة ، وإظهارها في قالب محسوس شديد الوقع في النفس: فالردى عند بشار فارس مهاجم يقتحم على الملك الجبار بابه أو حصنه ، ويتخطى إليه حراسه وجنده ، والصورة من قبيل الاستعارة المكنية ، ذكر فيها المشبه ، وحُذِفَ منها المشبه به ، ورمز إلى المحذوف بشيء من لوازمه وهو كلمة (يقتحم) ، والمعنى بهذه الاستعارة أبلغ من أسلوب الحقيقة الذي يقال فيه مثلا : (إن الموت يحلّ بالملك الجَبَّار) ، لأن الاستعارة تجسم هذا المعنى الذهني المجرّد وتبرزه في صورة محسوسة تتملاها بناظريك ، وتلمسها بيديك ، وهكذا يصل المعنى إلى العقل عن طريق الذهن ، وعن طريق الحواس المختلفة ، بخلاف أسلوب الحقيقة الذي يصل فيه المعنى إلى العقل عن طريق واحد ، هو الطريق الذهني المجرد ، ومعلوم أنه كلما تعددت طرق وصول المعاني إلى العقل كان تأثيرها في النفس أشد وأعمق ، ولذلك كان أسلوب المجاز أبلغ من أسلوب الحقيقة في هذه الاستعارة وفي غيرها.

وفي الخامس كناية عن هلاك مروان بالحرب ، والعبارة التي استخدمها

في ذلك هي قوله : (ومروان قد دارت على رأسه الرحى) ، وهذه الكناية أبلغ من أسلوب الحقيقة (مات مروان بالحرب أو أهلكته الحرب) لأن الكناية دعوى ومعها برهانها المحسوس ، ودليلها الملموس.

وفي القصيدة كثير من الاستعارات والتشابيه ، نلفت نظرك إلى ما جاء منها في الأبيات (4 و6 و12 و18 و18). وأروع ما نجده من صور التشبيه في هذه القصيدة تلك الصور الثلاث من صور التشبيه الضمني التي جاءت في البيتين (14 و15) حيث يقول بشار : إن القوي يزداد قوةً برأي من هو أضعف منه كما تزداد قوادم الطائر قوة بوجود خوافيه ؛ وإن الاستبداد بالرأي يجعل صاحبه عاجزا ضعيفاً قليل الخير والنفع ، لأنه يصبح كاليد التي رُبطت أختها بالقيد أو كالسيف الذي ليس له مقبض يساعد على استعماله. وروعة التشبيه في هذين البيتين جاءت من كونه بمثابة البرهان الحسي على صحة دعوى الشاعر فيما ذهب إليه وادّعاه. وصور بشار مستمدة من ثقافته ومعرفته بأساليب الشعر القديم ، وليست مستمدة من خياله ومشاهدته لأنه أعمى لم يرَ الدنيا قطّ كما ذكرنا ، لكن الشاعر بقوة ذكائه وسَعَة إطلاعه عرف كيف يتلافى هذا النقص الناجم عن آفة العمى ، وكيف يصوغ أفكاره وصوره صياغة فنية جميلة سبق في بعضها الكثير من الشعراء المبصرين المجيدين.

أما أسلوب القصيدة فيمتاز بالجزالة والقوة ومتانة السبك : فالألفاظ فصيحة ، قوية ، ضخمة تناسب أغراض التهديد والهجاء والجد ، ولذلك أكثر الشاعر من ذكر الكلمات التي تقرع السمع وتملأ الفم ، مثل (الجبّار ، يقتحم ، الردى ، يصوغه ، المأزق ، المتلاحم ، قتل ، سفك ، تقسّم ، الليوث ، الضراغم ، استنصر ، الصوارم إلخ...). والعبارات بليغة ، سُبكت سبكاً متيناً يذكرنا بشعر الحماسة القديم لذلك كان الإيجاز هو السمة الغالبة على النص. والإيجاز نوعان هنا : إيجاز قصر يتجلى في معظم أبيات القصيدة التي جاء قسم كبير منها على شكل حكم وأمثال ، ولا سيما أبيات القسم الثالث ؛ وإيجاز حذف يبدو في عدة أبيات منها قوله في البيت

الأول : (ولا سالم) فحذف الجار والمجرور والتقدير : ولا سالم من آفات ، الدهر. وقوله في البيت السابع (فما زلت...) فحذف خبر الفعل الناقص والتقدير : فما زلتَ تحارب الدين حتى استنصر الدين أهله. وقوله في البيت الحادي عشر (من الفاطميين) فحذف متعلَّق الجار والمجرور والتقدير : متحدرا من الفاطميين ، أو يتحدّر من الفاطميين.

هذا ولم تخل القصيدة من بعض فنون البديع كالتصريح في البيت الأول ، حيث كرر الشاعر قافية الميم مرتين : مرة في آخر الصدر ، ومرة في آخر العجز ، والتصريح ظاهرة تغلب على مطالع الشعر القديم. وهنالك فنون بديعية أخرى جاءت عفوية ، ومنحت القصيدة المزيد من الجمال ، مثل الطباق بين (مضيم) و(ضائم) ، والمقابلة بين قوله (رأسوك عليهم) وقوله (ولازلت مرؤوساً) ، وبين قوله (سراج لعين المستضيء) وقوله (يكونُ ظلاماً للعدوّ المزاحم) ، وبين قوله (ولا تكن نؤوماً) وقوله (فإن الحزم ليس بنائم). وهنالك الجناس في قوله (القربى المقرّب نفسه). وأما موسيقى القصيدة فعليها مسحة ظاهرة من الجد والرصانة ، ومن القوة والجلال ، مبعثها البحر الطويل ذو التفعيلات الكثيرة الملائمة لأغراض الجد والحماسة ، ومبعثها كذلك خصائص الألفاظ والعبارات التي عرفتها منذ قليل.

مجمل القول :

ميمية بشار التي سبقت دراستها نموذج للشعر السياسي الذي بلغ أوج ازدهاره في العصر الأموي بسبب تعدد الأحزاب السياسية وتطاحنها في ذلك العصر ، ثم خفت صوت هذا الشعر بسبب ضعف تلك الأحزاب وانقراضها. وغرض القصيدة هو إغراء الثائر الفاطمي بالمضي في الثورة ضد العباسيين وخليفتهم أبي جعفر المنصور. وقد استعان الشاعر بعدد من الأفكار المناسبة في التهديد والهجاء والمدح والنصح. وعاطفة الشاعر قوية صادقة ، صدرت عن قلب مليء بالحقد على العباسيين والعطف على الفاطميين. أما أسلوب القصيدة فقد جاء على جانب كبير من متانة السبك ، وجمال الصياغة ، وحفل بطائفة

من الصور البيانية والبديعية الجميلة. والقصيدة بهذه الخصائص الجيدة تدل أوضح دلالة على رسوخ قدم الشاعر في فن الشعر ، وقدرته على التصرف في المعاني والأساليب ، كما تدل على أن صاحبها جدير بإعجاب رواة الأدب والشعر كأبي عبيدة والأصمعي ، وجدير كذلك بلقب إمام المُحْدَثين. بيد أننا نلفت نظرك إلى مرونة أسلوب بشار ، وتلونه بحسب الأغراض والموضوعات ، ولذلك كان شعره ملتقى للقديم ، والجديد : فمن شعره ما هو جزل متين يذكرنا فيه بفحول الجاهلية، كما في القصيدة السابقة ، ومن شعره ما هو في منتهى الرقة والعذوبة والوضوح كما في كثير من أشعاره الغزلية. وأخيرا ، وليس آخرًا ، فإن الشاعر قد وفق في اختيار البحر الطويل الذي تتسع تفعيلاته الكثيرة للمعاني الغزيرة ، والمواقف الحماسية الجادة كالموقف الذي وقفه بشار في هذه القصيدة. أما تفعيلات البحير الطويل فهي :

فَعُولُنْ مفاعيلُنْ فَعولنْ مفاعلُنْ　　فعولُنْ مفاعيلنْ فعولنْ مفاعلُنْ

مناقشة النص :

1 ـ هدد بشار أبا جعفر المنصور في البيت الأول بعبارتين مختلفتين ، فماذا قال له في كل منهما ؟

2 ـ ماذا تعرف عن مصارع الأشخاص الذين ذكرهم في الأبيات من 3 ـ 5 ؟

3 ـ مااسم المعركة التي هُزم فيها مروان بن محمد ؟ متى وقعت ؟ وأين وقعت؟

4 ـ علام يدل ذكر بشار للحوادث التاريخية في الأبيات الخمسة الأولى ؟

5 ـ لماذا اختار بشار جريمة واحدة من الجرائم التي نسبها إلى المنصور ، وهي جريمة محاربته للدين الإسلامي ، دون جرائمه الأخرى ؟

6 ـ ما السبب الذي جعل بشارًا ينسب الخليفة المنصور إلى أمه بدلا من أن ينسبه إلى أبيه ؟

7 ـ ما رأيك في صحة الاتهامات التي وجهها بشار إلى الخليفة المنصور ؟

8 ــ ما صفات المدح التي أصبغها بشار على الثائر الفاطمي ؟ هل تعجبك ؟ ولماذا ؟

9 ــ ما هي النصائح التي أسداها الشاعر إلى الثائر الفاطمي ؟ وعلى أي شيء تدل ؟ وما رأيك في تلك النصائح ؟

10 ــ هل ترى أن الشاعر صادق في هجائه ومدحه ونصحه ؟ وضح إجابتك.

11 ــ ما أهم الخصائص التي اتصف بها أسلوب بشار في هذه القصيدة ؟ وهل يتناسب هذا الأسلوب مع الموضوع والمعاني التي تضمنتها ؟ وضح إجابتك.

12 ــ استخرج الصور البيانية الأخرى التي لم تتعرض لها الدراسة الأدبية بالشرح والتوضيح. وتَوَلَّ أنت شرحها وتوضيحها.

13 ــ ما الغرض العام للقصيدة ؟ وما الأفكار الأساسية التي تضمنتها ؟

14 ــ ما الأثر الذي تتركه هذه القصيدة في نفسك بعد قراءتها ؟ وضح إجابتك.

15 ــ أعجب الناس قديماً بهذه القصيدة أيّما إعجاب ، فحفظوها وتناقلوها وقدموها على بعض قصائد جرير والفرزدق كما مرّ بك. فهل لك أن تذكر الأسباب المختلفة لهذا الإعجاب ؟

16 ــ هل ترى أن هذه القصيدة تصور نفسية الشاعر وأحداث عصره ؟ وضح إجابتك ، وبين إلى أي مدى يصور الشعر نفسية صاحبه وأحداث عصره.

تدريب:

قال بشار:

إذا بلغ الرأيُ المشورة فاستعن ... برأي نصيحٍ، أو نصيحة حازمِ
ولا تجعل الشورى عليك غضاضةً ... فإنّ الخوافي قوّةٌ للقوادمِ
وما خيرُ كفٍّ أمسكَ الغُلُّ أختها ؟ ... وما خير سيفٍ لم يُؤيَّدْ بقائم ؟

استعن بهذه الأبيات الثلاثة على كتابة موضوع إنشائي تبين فيه: متى نستشير ؟ وفيم نستشير ؟ ومَنْ نستشير ؟ موضّحاً أثر الشورى في حياة الأفراد والجماعات، واستشهد بما تحفظه من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف وغيرهما في أثناء إجابتك.

مراجع

1) ديوان بشار: 4 أجزاء. تحقيق محمد الطاهر بن عاشور.
2) الأغاني لأبي الفرَج الأصبهاني ج 3.
3) بشار بن برد للمازني.
4) حديث الإربعاء لطه حسين. ج 2.
5) شخصية بشار للنويهي.
6) بشار بن برد. عدد من سلسلة نوابغ الفكر العربي.

نماذج من شعر بشار

أ ـ الغزل

قصيدته في حبي العامرية

1 ـ عَدِمتُكَ عاجلاً يا قلبُ قلبا
أتجعلُ من هويتَ عليكَ ربّا ؟(1)

2 ـ تحنّ صبابةً في كلّ يوم إلى حُبَّى، وقد كرَبتْكَ كربا(2)

3 ـ وتهجرُ النساءَ إلى سواها كأنك ضامنٌ منهنّ نَحبا(3)

4 ـ أمِنْ ريحانةٍ حَسُنتْ وطابتْ
تبيتُ مروّعاً، وتظلّ صبّا ؟!

5 ـ كأنّكَ لا ترى حسناً سواها ولا تلقى لها في الناس ضرْبا ! (4)

6 ـ بكيتَ من الهوى، وهواكَ طفلٌ
فويلكَ ثُمّ ويلكَ حين شبّا !

7 ـ إذا أصبحتَ صبّحكَ التصابي
وأطرابٌ تُصبُّ عليكَ صبّا(5)

8 ـ وتُمسي والمساءُ عليك مُرٌّ يُقلّبُكَ الهوى جنْباً فجنْبا

9 ـ أظنّكَ من حذارِ البينِ يوْماً بداء الحُبّ سوفَ تموتُ رُعْبا

10 ـ أتُظهرُ رَهْبةً وتُسرّ رَغْباً لقد عذّبتني رَغْباً ورَهْبا

11 ـ فما لكَ في مودّتها نَصيبٌ سوى عِدةٍ فخُذْ بيديك تُرْبا ! (6)

12 ـ إذا وُدّ جَفَــا وأرَبّ وِدٌّ   فجانبْ مَنْ جَفَاكَ لمن أرَبّا(7)
13 ـ لقدْ خَبَبْتَ عليك وأنت ساهٍ   فكُنْ خَبّاً إذا لاقَيْتَ خَبّاً(8)
14 ـ ألا يا قلبُ هل لكَ في التعزّي؟
لقــد عــذّبتَنــي ولقيــتُ حَسْبَــا(9)

(1) عدمتك عاجلا يا قلب : أفقدني الله إياك يا قلبي في وقت قريب ، والجملة دعائية لا خبرية. قلباً : تمييز ـ (2) كربتك كربا : لقيت منهـا الشدائد . ـ (3) نحبا : موتاً . يقـال : قضى فـلان نحبه أي مات كـأن الموت نذر في عنقـه ـ (4) ضربا : شبيهـاً ـ (5) التصابي : الميل إلى نـزوات الشباب . أطـراب : جمع طـرب وهـو الشـوق . ـ (6) خذ بيديك تربا : دعاء بالخيبـة، أي خيّبك الله ـ (7) ودّ : محبّ. أربّ : أقام وقرب (8) ـ خبت عليك : خببا : مخـادعا ـ (9) لقيتُ حسبا : لقيت كفاني من العـذاب أو ما يكفيني منـه .

ب ــ المدح

مدح مروان بن محمد

ثارت قبيلة بني شيبان على الخليفة الأموي مروان بن محمد بقيادة الضحاك بن قيس الشيباني ، فهزمهم الخليفة بجيش كان يقوده يزيد بن عمر ابن هبيرة الفزاري ، وقتل الضحاك. فقال بشار هذه القصيدة يمدح الخليفة وقائده المذكور ، ويفخر بقبيلة بني عيلان التي أيدت مروان على أعدائه، وكان بشار ينتسب إلى بني عيلان بالولاء :

1 ــ وسامٍ لمروانٍ ، ومن دونه الشَّجَا
وهول كلُجّ البَحْرِ جَاشَتْ غواربُهُ (1)

2 ــ أحلَّتْ به أمّ المنايا بناتها بأسيافنا ، إنَّا رَدى من نُحارِبُه ! (2)

3 ــ وكنا إذا دَبّ العدوّ لسخطنا وراقبَنَا في ظاهرٍ لا نُرَاقبُهُ (3)

4 ــ رَكبْنَا لهُ جَهْرًا بكلّ مُثَقَّف
وأبيضَ تَستَقي الدماءَ مَضَارِبُهْ (4)

5 ــ وجَيشٍ كجُنحِ اللّيْلِ ، يزحَفُ بالحَصَى
وبالشَّوكِ ، والخطيّ حُمرًا ثَعَالبُهْ (5)

6 ــ غدَوْنَا له ، والشمسُ في خدْرِ أمِّها
تُطَالعُنَا ، والطَّلّ لم يَجْرِ ذائبُهْ (6)

7 ــ بضَرْبٍ يذوقُ الموتَ مَنْ ذَاقَ طَعمَهُ
وتُدْرِكُ مِنْ نَجّى الفرَارُ مثَالبُهْ

8 ــ كأنّ مُثَارَ النَّقْع فَوْقَ رُؤُوسِنَا
وأسْيافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهْ (7)

9 ـ بَعَثْنا لهمْ مَوْتَ الفُجَاءة ، إنّنَا
بنُو الموتِ ، خفّاقٌ علينا سبائبُهْ (8)

10 ـ فرَاحَوا : فَرِيقٌ في الإسَارِ ، ومثلُهُ
قتيلٌ ، ومثْلٌ لاذَ بالبحرِ هَارِبُهْ

11 ـ إذَا المَلْكُ الجَبَّارُ صَعَّرَ خدّهُ مَشَيْنَا إليه بالسُّيُوفِ نُعَاتبُهْ (9)

---

(1) وسام لمروان : ورب ثائر على مروان ، وأراد به الضحاك بن قيس ، الشجا ، الصعاب جاشت غواربه : اضطربت أمواجه ـ (2) أم المنايا : الحرب . بناتها : مصائبها ـ (3) دب العدو : سار خفية . بسخطنا : لقتالنا . ـ (4) مثقف : رمح مقوم. أبيض : سيف. (5) جنح الليل : القسم منه . الحصى : العدد الكثير . الشوك : السلاح . الخطي : الرمح. ثعالبة : جمع ثعلبة وهي رأس الرمح . ـ (6) خدر أمها : بيت أمها ، أراد أنه ما يزال القسم الأكبر من قرصها محجبا وراء الأفق . ـ (7) مثار النقع : غبار الحرب . تهاوى : أصله تتهاوى أي تتحرك صعودا وهبوطا . ـ (8) موت الفجاءة : هو موت سريعا . بنو الموت : شجعان . سبائبه : راياته وأعلامه . ـ (9) صعر خده : أماله تيهاً وكبرا . وفي القرآن الكريم : « ولا تصعر خدك للناس » أي لا تتكبر عليهم . م

وقال بشار يمدح خالد بن برمك الذي صار ولياً على بلاد فارس من قبل الخليفة المنصور العباسي.

1 ـ لعمري لَقَـدْ أجدى عليّ ابن بـرمـك
وما كـُلّ من كانَ الغنى عنده يجـدي(1)

2 ـ حلبتُ بشعـري راحتيـه فَدَرّتَـا
سماحاً كما دَرّ السحابُ مَعَ الرّعْـد(2)

3 ـ إذا جئتَه للحمد أشرَقَ وجههُ　　إليكَ وأعطاكَ الكرامةَ بالحمدِ(3)

4 ـ له نعَمٌ في القوم لا يستثيبها　　جَزاء، وكيلُ التاجرِ المدّ بالمدّ(4)

5 ـ مُفيدٌ ومتلافٌ: سبيلُ تراثهِ　　إذا ما غدا أوراح كالجزر والمدّ(5)

6 ـ لمَستُ بكفي كفَّه أبتغي الغنى　　ولم أدر أنّ الجود من كفه يعدي(6)

7 ـ فلا أنا منه ما أفادَ ذوو الغنَى　　أفَدتُ، وأعداني فأتلفت ما عندي(7)

8 ـ أخالدُ، إنّ الحمدَ يَبْقَى لأهلـه
جمالاً، ولا تَبْقَى الكنوزُ على الكـدّ(8)

9 ـ فأطعمْ، وكُلْ من عَارة مُستردّة
ولا تُبْقِهَا، إنّ العَـواريَ للـرّدِّ(9)

(1) لعمري: وحياتي، وديني. اللام لام الابتداء،. عَمْري: حياتي أو ديني، وهي مبتدأ والخبر محذوف وجوبا تقديره: قسمي. أجدى علي: أنعم علي، أعطاني. (2) حلبت بشعري راحتيه: مدحتُه بشعري ليعطيني، أو التمست العطاء من كفيه. درتا: جادتا سماحاً: عطاءً كثيرا وافرًا. (3) الكرامة: التكريم. بالحمد: بدلا من الحمد، والباء هنا للبدلِ، والمراد بالحمد الثناء والمدح. (4) نعَم: عطايا لايستثيبها: لايطلب ثواباً عليها ولاجزاء. المُدُّ بالمدِّ: نوع

من المكاييل القديمة يساوي ثمانية عشر ليترًا بالمكاييل الحديثة ، وكيل التاجر المد : الواء استئنافية ، ومعنى العبارة أنّ التاجر لا يعطي شيئا إلا مقابل ثمن يأخذه بخلاف المَمدوح . (5) مفيد : غني ، كثير المال ، وهو اسم فاعل من أفاد يفيد علما أو مالا إذا استفاده وحصل عليه . سبيل تُراثه : مَثَل ميراثه أو ماله وأصل السبيل الطريق ، وهنا الشبيه والمثيل ، والتُّراث كالإرث والوراثة، وهو مصدر الفعل وَرِثَ ، لكن واوه قلبت تاء . إذا ما غدا : إذا غدا ، وما : زائدة . غدا : ذهب أو انطلق في الغداة وهي ما بين الفجر وطلوع الشمس . راح : ذهب او انطلق في الرّواح وهو العشى ، أو من الزوال إلى الليل . وتستعمل غدا وراح لمطلق الذهاب أو المجيء بصرف النظر عن الوقت . الجزر : حركة انخفاض البحر . المد: حركة ارتفاع البحر .(6) أبتغي الغني: أطلبه . (7) ذوو الغناء : أصحابه الأغنياء — أفدت : استفدت ، يقال : أفدت منه علماً أو مالاً إذا استفدت أحدهما منه. (8) أخالد : الهمزة للنداء. الكنوز : الأموال الكثيرة والمفرد كنز . الكدّ : الحرص . ولا تبقى الكنوز على الكد : لاتبقى الأموال الكثيرة ولو حرص أصحابها على بقائها والمحافظة عليها بل تذهب وتنفد . (9) : عارة : شيء مستعار .

ج ــ الحكمــة

1 ــ خيرُ إخوانكَ المشاركُ في المرّ وأينَ الشّريكُ في المُرّ أينا ؟(1)

2 ــ الذي إنْ شهدتَ سَرّكَ في الحـــيّ
وإنْ غبْتَ كانَ أذْنـاً وعَيْنــا ؟ (2)

2 ــ مثلُ حُرّ الياقُوتِ ، إن مَسَّهُ النـــا
رُجَـــلاَهُ البلاءُ ، فــازْدَادَ زَيْنَـــا (2)

4 ــ أنتَ في مَعْشرٍ إذا غبتَ عَنْهُـــــمْ
بَـــدّلُوا كُـــلّ ما يَزِينُكَ شَيْنَــــــا(4)

5 ــ وإذا ما رأوْكَ قالُــوا جميعاً أنتَ من أكرمِ البرّايَـــا علينا !(5)

6 ــ لا أرى للأنام وُدّا صحيحاً عادَ كُلّ الأنامِ زُورًا ومَيْنا(6)

د ــ الفلسفــة :

د ـ الفلسفـة : الإيمان بالقضـاء والقـدر

1 ــ إن الطبيبَ بطبّهِ ودوائـــــهِ لا يستطيعُ دِفاعَ مقـدورٍ أتى(7)

2 ــ ما للطبيبِ يَمُوتُ بالداء الذي قد كانَ يُبْرِىء مثلَهُ فيمَا مَضَى؟

3 ــ إلاّ لأنّ الخلقَ يَحكُـــمُ فيهُـــمُ
من لا يُـــرَدّ ، ولا يُجَـــاوِزُ مَـــا قَضَـــى

---

(1) المر : الأمر الشديد . والاستفهام في البيت لإظهار اليأس من وجود هذا الأخ المخلص .
(2) شهدت : حضرت . كان أذنا وعينا : دافع عنك ضد من يغتاب بك ــ (3) حر الياقوت : الياقوت الخالص ، وهو معدن كريم . البلاء : التجربة . ــ (4) شينا : قبحا وسوءا .
(5) البرايا : الخلق ، والمفرد برية . (6) عاد : صار . ود الأنام : حب الناس مينا : كذبا وباطلا . ــ (7) دفاع مقدورا : رد القدر .

رأي في الصداقة

1 ـ إذا كنتَ في الأمور معاتباً صديقَكَ لم تَلْقَ الذي لا تُعاتبُهْ

2 ـ فعشْ واحداً ، أوصلْ أخاكَ فإنَّــهُ
مُعَارِفُ ذَنْبٍ تــارةً ومُجَــانبُـــهْ (1)

3 ـ إذا أنتَ لم تَشْرَبْ مِرَارًا على القَذَى
ظَمِئْتَ ، وأيّ النَّــاسِ تصفو مَشَارِبُــهْ (2)

4 ـ ومَنْ ذَا الذي تُرْضَى سَجاياهُ كُلُّهَا
كَفَى المرءَ نُبْلاً أنْ تُعَدَّ مَعَايِبُــهْ (3)

(1) مقارف ذنب . مرتكب ذنب. مجانبه : مبتعد عنه . ـ (2) القـذى : ما يقـع في الماء من تراب وغيره ، والقـذى هنـاالخطأ الذي يقـع فيـه الصديق . والاستفهـام في البيت للنفـي. (3) سجاياه : خصالـه وأخـلاقـه ، والمفـرد سجيـة ، والاستفهـام للنفي أيضـا .

ابـــــو نواس

130 — 198 هـ.

من مجالس الفرس لأبـــي نــواس

تعريف وتمهيد :

الشاعر هو أبو علي الحسن بن هانىء بن عبد الأول بن الصباح الحكمي ، المعروف بأبي نوآس ، ولد بالأهواز من بلاد الفرس حوالي سنة (130 هـ/747م) من أم فارسية ، ونشأ في البصرة إحدى الحواضر العربية التي ازدهرت فيها الثقافة — درس أبو نواس الشعر وتخرج على يد الشاعر الكوفي الماجن والبةَ بنِ الحُباب الأسدي ، ورحل معه إلى الكوفة فأخذ عن أئمتها علوم اللغة والنحو والأدب ، وأجاد الشعر على طريقة شعرائها في الغزل والمجون ، وتاقت نفس أبي نواس إلى الإستزادة من غريب اللغة ، فأخرجه والبةُ مع قوم من بني أسد إلى البادية ، فخالط العرب الخلص ، وأخذ عنهم ، ففصح لسانه ، وبعد إقامته مدة سنة بينهم انحدر إلى البصرة موطنه الأصلي ، وأقام بها ، ولكنه سرعان ما سئم المقام فيها ، فتوجه إلى بغداد ، واتصل بحكامها ، ومدح الرشيد ثم ابنه الأمين.

وقد اشتهر أبو نواس بشعر اللهو والمجون ، ووصف كئوس الخمر ورحلات الصيد كما عرف بشعوبيته وميله إلى أصله الفارسي ، ولكنه في أخريات أيامه عزف عن هذا الاون من الشعر ، وزهد في اللهو وا لمجون ، وتوفي عام (198 هـ/813 م). ولأبي نواس ديوانُ شعر يحتوي على زهاء ثلاثة عشر ألف بيت جمعتْ كلَّ أغراض الشعر المقصودة وقد طبع هذا الديوان عدة مرات.

وفي حياة أبي نواس الأولى التي فتن فيها باللهو ، وما لإلى المتعة قال هذه الأبيات ويقال إنه مر بالمدائن (عاصمة الفرس القديمة) مع بعض أصحابه ، وعدلوا إلى إيوان كسرى (ملكُ الفرس) فرأوا فيه آثارا تدل على اجتماع

ندامى قبلهم، فاستهواهم المكان وأقاموا فيه يشربون، وسألوا أبا نواس وصف الحال فقال هذه الأبيات.

ودارِ نَدامى عطّلوها وأدْلجوا بها أثرٌ منهم: جديدٌ ودارسُ
مساحبُ من جر الزقاق على الثرى وأضغاثُ ريحانٍ: جنيٌّ ويابسُ
حَبَسْتُ بها صحبي، فجددتُ عهدهم وإني على أمثال تلك لحابسُ
ولم أدر منهم غير ما شهدتْ به بشرقي ساباطَ الديارُ البسابسُ
أقمنا بها يوماً، ويومين بعدَه ويوماً له يومُ الترحلِ خامسُ
تُدار علينا الكأسُ في عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارسُ
فللراح مازُرتْ عليه جيوبُها وللماء ما دارتْ عليه القلانسُ

شرح لغوي :

ودار ندامى: رب دار للندامى، والندامى: رفاق الشراب، ومفرده الندمان. عطلوها: المراد تركوها بعد شرابهم خالية. أدلجوا: ساروا من أول الليل. دارس: اسم فاعل من درس الرسم: عفاو تهدم، ومضارعه يدرس. مساحب: جمع مسحب وهو مكان السحب وأثره. الزقاق: جمع كثرة، ومفرده الزق وهو السقاء، والمقصود وعاء الخمر. الثرى: التراب. أضغاث: جمع ضغث: قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس. جني: المقصود جديد طرى. يابس: جاف. حبست بها صحبي: المراد أقمت بها مع رفاقي. جددت عهدهم: أعدت لرفاقي أيام لهوهم. لم أدر منهم: لم أعلم عن حال من مضوا. ما شهدت به: ما أظهرته من آثارهم. المذكورة في البيتين الأولين. ساباط: بلد بالمدائن. البسابس: القفار، واحدها بسبس ومثلها السباسب، واحدها سبسب وأصلها الصحراء الملساء. الترحل: الرحيل. عسجدية: كأس مصنوعة من العسجد وهو الذهب. حبتها: خصتها. قرارتها كسرى: أي في قاع الكأس صورة كسرى.

وفي جنباتها مها : وفي نواحيها صور المها ، جمع المهاة وهي البقرة الوحشية. تدريها : تخادعها ، ماضية : ادّرى ، والدريئة الشيء الذي يرمى. الراح : الخمر. زرت : أغلقت. جيوبها : أطواق قمصان الفوارس ، أو مكان إغلاقها من أعلى. القلانس : جمع قلنسوة : غطاء للرأس ، ومراد الشاعر أنه صب الخمر في الكأس إلى أن بلغت صور حلوق الفرسان ، وهو موضع الطوق من العنق ، ثم صب الماء مقدار رؤوس الصور.

دراسة أدبية :

هذه مقطوعة شعرية قصيرة تتضمن فكرتها العامة وصف مجلس من مجالس الشراب الفارسية التي كثرت في عصر الشاعر ، وتتضمن أبيات المقطوعة فكرتين أساسيتين :

الأولى : وصف الدار التي نزل بها الشاعر بعض أيام مع رفاقه ، وما بقي في تلك الدار من آثار الراحلين عنها ما بين آنية خمر وأعواد ريحان.

والثانية : وصف الشاعر لمجلسه مع رفاقه واستخدامهم كئوساً فارسية مصنوعة من ذهب ، ومحلاة بتصاوير فارسية.

وأفكار الأبيات – على هذا النحو – واضحة ، قريبة التناول ، وهي مبنية على الملاحظة السريعة لما يحيط بالشاعر ؛ إذ ركز فيها على وصف محتويات الدار والكأس ، وامتاز في وصفه للكأس بالدقة ، واستقصاء جوانب الصورة التي جذبت انتباهه في حال امتلاء الكأس أو فراغه وكثير من معاني هذه الأبيات جديد مبتكر.

وتسيطر على أبيات المقطوعة عاطفة هادئة معجبة ، ولعل مردها إلى مواءمة هذا المكان لنفس الشاعر المحبة للهو وما يتصل به ، وكان من آثار تلك العاطفة حرص الشاعر على تسجيل عدد الأيام التي قضاها مع أصحابه ، ودقة وصفه لكئوس الشراب في تعبير سهل وخيال قريب.

يقول الجاحظ عن هذه الأبيات : لا أعرف شعرا يفضل هذه الأبيات ،

وقد أنشدتها أبا شعيب القلال فقال : يا أبا عثمان : لو نقر (لحن) هذا الشعر لطن (لَرَنَّ) .

ومن خلال هذه الأبيات نتعرف شخصية قائلها ، فقد عاش أيام شبابه لاهيا ، ماجناً ، مستهترا كما كان ولوعاً بقول الشعر في مجالس اللهو ، داعياً الشعراء إلى التخلي عن قديمهم في افتتاح قصائدهم واستبدالهم بذلك وصف الخمر ، والإشادة بها ، يقول :

صفـــةُ الطلـــول بلاغةُ القـــدم فاجعـــل صفاتك لابنةِ الكـــرم

ولعل اهتمام الشاعر بمثل هذه المجالس راجع إلى أصله الفارسي ، وإلى تعلقه بما خلف الفرس من ذكريات ، وافتتانه بالحضارة الفارسية ، يدل على ذلك من الأبيات : «حبتها بأنواع التصاوير فارس» والفرس معروفون منذ القدم بالميل إلى اللهو ، والإفراط في شرب الخمر ، وكانوا يفرطون في فنون كثيرة من اللهو الطيب ، واللهو الخبيث ، فلما عاد سلطانهم في الدولة العباسية نشروا مع نفوذهم . حياة الأكاسرة وما كان فيها من حضارة ولهو وعبث .

كذلك يدلنا النص على بعض ظواهر الحياة الإجتماعية في عصر الشاعر وبيئته ، فقد اندفع بعض الناس إلى اللهو والمتعة في عبث واستهتار ، مقلدين في ذلك تيار المجون الذي وفد عليهم من الأمم المغلوبة من فرس وروم ، وكان الإسلام قد حجز المسلمين عن ذلك ، ولـكن العصر العباسي بما ساده من حرية واسعة جعل بعض الشعراء يجاهرون بمثل هذه الآراء المتطرفة المنافية للدين والآداب العامة.

لقد انتشر قول الشعر في الخمر ومجالسها على يد أبي نواس ، وظهر هذا اللون من الشعر الذي عرف فيما بعد (بخمريات أبي نواس) كما سار بعض الشعراء على هذا المنوال ، فتأثروا به ، ونقلوا معانيه ، ومن ذلك قول السري الرفاء :

وموسومة كـاساتهـا بفـوارس من الفرس تطفو في المُدام وتغرق
أقابل منهمّ كلّ شاك سـلاحَـه وفي يده سهـمٌ إليّ مفـوّق
كأن الحباب المستديرَ قـلادةٌ عليه ، وتوريـدُ المدامة يَلْمَقُ

وتجدر الإشارة في ختام هذه الدراسة إلى أن أبا نواس بأساليبه ومعانيه قد عدل عن كثير من أساليب العرب ومعانيهم وأوصافهم إلى أشياء جديدة توافق بيئته بأغراضها وتصوراتها فكانت مكانة أبي نواس بين شعراء عصره كما قال أبو عبيدة : (أبو نواس في المحدثين مثل امرىء القيس في المتقدمين فتح لهم هذه الفطن ، ودلهم على المعاني ، وأرشدهم إلى طريق الأدب والتصرف في فنونه).

لكن فشو المجون والمتعة في ذلك العصر كان من الآثار السيئة التي قضت على الدولة العباسية ، وكذلك الحال بالنسبة إلى كل مجتمع يسلك نفس السبيل ، فالمجتمعات الجادة لا تسمح بمثل هذا الأسلوب من الحياة العابثة.

دراسة بلاغية :

تمتاز هذه المقطوعة الشعرية بوحدة موضوعها ، ووحدة الحالة النفسية الهادئة لقائلها ، ومن ثم كانت أساليبها خبرية ، لأن الشاعر في موقف الواصف المقرر لما يقع تحت بصره ، وتحمل تلك الأساليب معنى التعجب المشوب بالأسف كالأبيات الأولى ، والإعجاب كالأبيات الثلاثة الأخيرة التي وصف فيها الكأس وما أبدعته يد الفنّان الفارسي في نقشها ورسمها.

وقد اشتمل النص على بعض أساليب المجاز ، والأساليب المجازية نوعان :
الأول ما كانت علاقته المشابهة وهو الاستعارة في مثل قوله (شهدت به الديار) وهي استعارة مكنية.
والثاني ما كانت علاقته غير المشابهة وهو المجاز المرسل، ومنه في النص (الكأس) في البيت السادس حيث يراد به الخمر ، وهو مجاز علاقته الظرفية لأن العلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي هنا هي الظرفية.

ونلاحظ أن خيال الشاعر في البيتين الأخيرين كان بمثابة آلة تصوير دقيقة جمعت في لوحتها الأدبية بين الشكل والحركة ، وتلك بعض ابتكارات أبي نواس في معاني الشعر وأساليبه ، وخاصة في شعر (الخمريات) التي أكثر فيها من المعاني المبتكرة ، والتشبيهات البديعة وفاق بذلك من سبقه من الشعراء.

أما ألفاظ المقطوعة وأساليبها فقد اختار الشاعر منها ما كان موحياً معبرا عن إحساسه ومن ذلك قوله : حبست بها صحبي – جددت عهدهم – وإني على أمثال تلك لحابس. وفي العبارة الأخيرة تأكيد يدل على مدى ارتباطه بتلك المجالس وتفضيله لأطلال الحاضرة على أطلال البادية التي أعلن ثورته عليها في أشعار أخرى.

وللأعلام الفارسية ورود في هذه الأبيات ، ومنها : (ساباط) اسم مدينة ، و(كسرى) ملك الفرس ، وذلك من آثار اختلاط العرب بالدول المجاورة بعد الفتح الإسلامي.

وفي المقطوعة من المحسنات البديعة الطباق في البيت الأول بين جديد ودارس ، وفي البيت الثاني بين جنى ويابس ، وقد جاء عفوا بحسب متطلبات الموقف ، وفي البيت الأخير حسن تقسيم بين شطري البيت ، وكل هذه الألوان مما يعين على تقوية المعنى وتوضيحه ، فضلا عن أثرها الإيقاعي الذي ترتاح إليه الأذن.

مجمل القول في النص :

هذه مقطوعة شعرية ، موضوعها جديد ، وكثير من معانيها مبتكر ، أفكارها سهلة قريبة ، بعيدة عن التعمق ، وعاطفة الشاعر فيها هي مزيج من التحسر والإعجاب ، وقد أجاد الشاعر في استخدام الملائم من الألفاظ والأساليب ، وكان خياله مبتكرا وقريباً ، ومحسناته البديعية بعيدة عن التكلف.

والأبيات من بحر الطويل ، وأجزاؤه.

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلـــن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلـــن

مناقشة النص :

1 ـ ماذا قال أبو نواس في وصف المكان الذي نزلوا به ؟

2 ـ ما الذي أثار انتباه الشاعر من أمور تلك الدار ؟ وعلام يدل اهتمامه بتلك الأمور ؟

3 ـ ينقل البيت الثالث انفعال الشاعر بالموقف ، وتجاوبه معه ـ وضح ذلك .

4 ـ علام يدل تحديد الشاعر للمكان الذي نزلوا به، وللأيام التي قضوها فيه؟ استخرج من المقطوعة أسلوباً مجازياً واشرحه.

5 ـ إلى أي مدى كانت أفكار الشاعـر وأساليبـه ملائمة لـروح العصر الذي عاش فيه؟

6 ـ بم تمتاز هذه المقطوعة الشعرية من حيث موضوعها، والحالة النفسية لقائلها ؟

7 ـ وضح جوانب اللوحة الفنية التي رسمها أبو نواس للكأس في حال فراغها وامتلائها ؛؟

8 ـ استبدل بعنوان المقطوعة عنواناً آخر ، وانثر الأبيات بأسلوبك.

9 ـ ما الجديد الذي ابتكره الشاعر في هذه المقطوعة ؟

تدريب نموذجي

السؤال الكتابي :

1) يقال : الأدب مرآة عصره ـ بين في ضوء دراستك لهذه الأبيات حالة المجتمع العباسي في عصر الشاعر.

المقالة الأدبية:

2) الأديب الحق هو الذي يعني في أدبه بالنواحي الإيجابية للمجتمع. فصل القول في ذلك.

نماذج منْ شعر أبي نواس

ـ أ ـ الخمر و الغزل

1 ـ دَعْ عنكَ لومي فإن اللَّـوْمَ إغـرَاء
وداونـي بـالتـي كـانتْ هـيَ الـدّاءُ (1)
2 ـ صفراءَ ، لاَ تَنْزِلُ الأحزَانُ ساحتَهـَا
لـو مسَّهـَا حَجَرٌ مَسَّتْـهُ سَـرّاءُ (2)
3 ـ قـامتْ بإبْرِيقهـَا والليْلُ مُعْتَكـرٌ
فـلاح من وجهـا في البيـت لألاءُ (3)
4 ـ فأرسلـتْ من فم الإبريقِ صافيـةً
كَأنَّمَا أخـذُهَا بالعيـن إغفـَاءُ
5 ـ رقَّتْ عن الماء حتى ما يُمَازِجُهَـا
لَطَـافَـةً ، وجَفَـا عـن شَـكْلهَا الماءُ
6 ـ فلو مَزَجَتْ بها نُورًا لمازَجها حتَّى تَوَلَّدَ أنـوارٌ وأضـواءُ
7 ـ لتلكَ أبـكي ، ولا أبـكي لمنْزِلَـةٍ
كانت تَحـلّ بهَا هِنْدٌ وأسْمَـاءُ (4)
8 ـ حاشا لدَرّةَ أن تُبْنَى الخيامُ لهَـا
وأنْ تروحَ عليهَا الإبْلُ والشـاءُ (5)

9 — فقل لمن يدعي في العلم فلسفةً حفظْتَ شيئاً ، وغابتْ عنكَ أشياءُ

10 — لا تَحْظُرِ العفوَ إن كنتَ امرأ حرِجاً فإنَّ حظرَكَهُ بالدين إزراءُ(6)

---

(1) دع : اترك . اغراء : حضى على شربها وتحريض . وكانت هي الداء : كان هنا زائدة أو تامة — (2) صفراء : أي خمرة صفراء . سراء : سرور . — (3) الليل معتكر : مظلم . لألاء : ضياء .

(4) لتالك أبكي : المشار إليه بتلك هو الخمرة الموصوفة بالأبيات السابقة . منزلة : منزل. هند وأسماء : اسمان من عرائس الشعر العربي التي يرددها شعراء العرب التقليديون ، وفي هذا البيت والذي يليه تعريض بالثقافة العربية والحضارة العربية . — (5) الدرة : اللؤلؤة الكبيرة ، وقد جعلها الشاعر علما للخمرة ، ولذلك منعها من الصرف ، للعلمية والتأنيث . الشاء : الغنم ، والمفرد شاة .

(6) لاتحظر العفو : لاتمنعه . حرجاً : متشدّداً في أمور الدين . إزراء : تحقير للدين ، والمخاطب بهذا البيت والذي قبله هو ابراهيم النظام شيخ المعتزلة .

ب ـ المدح

قال أبو نواس يمدح الخصيب أمير مصر من قبل هرون الرشيد :

1 ـ تقولُ التي عن بيتها خفَّ موكبي
عزيزٌ علينا أن نراكَ تسيرُ(1)

2 ـ أما دونَ مصرٍ للغنى متطلَّبٌ؟ بلى إن أسبابَ الغنى لكثيرُ !(2)

3 ـ فقلتُ لها واستعجلتْها بوادرٌ جرَتْ فجرى في جريهن عبيرُ:(3)

4 ـ ذريني أكثرْ حاسديك برحلةٍ إلى بلدٍ فيه الخصيبُ أميرُ(4)

5 ـ إذا لم تزُرْ أرضَ الخصيبِ ركابُنا
فأيَّ فتى بعدَ الخصيبِ تزورُ؟

6 ـ فتى يشتري حسن الثناء بما لهِ ويعلمُ أنَّ الدائراتِ تدورُ(5)

7 ـ فما جازهُ جودٌ، ولا حلَّ دونَهُ
ولكنْ يصيرُ الجودُ حيثُ يصيرُ

8 ـ فلم ترَ عينٍ سُؤْدَدًا مثلَ سؤددٍ
يَحلُّ أبو نصرٍ بهِ ويسيرُ(6)

9 ـ زها بالخصيبِ السيفُ والرمح في الوغى
وفي السلم يزهو منبَرٌ وسريرُ(7)

10 ـ جوادٌ إذا الأيدي كففْنَ عن النَّدى
ومن دون عوْرات النساء غيُورُ(8)

11 ـ وإنِّي جديرٌ إذْ بلغتُكَ بالمنى وأنتَ بما أمَّلتُ منكَ جديرُ

12 – فإن تُولني منكَ الجميلَ فأهلُـــــــهُ
وإلاّ فــإنّــي عــاذِرٌ وشَـكُـــــــورُ

---

(1) خف موكبي : ارتحلت مطيتي أو ناقتي مسرعة . عزيز علينا : صعب علينا . نسير : ترحل . وهذه المرأة التي يصف حزنها على فراقه هي امرأته الحقيقية ، أو امرأة خيالية على عادة شعراء العرب . (2) متطلب : مكان يطلب فيه . أسباب الغنى : وسائله المؤدية اليه . – (3) بوادر : دموع . عبير : أخلاط من الطيب ، يريد أن الدمع امتزج بالطيب . – (4) ذرني : اتركيني . أكثر حاسديك برحلة الخ ... : يريد اتركيني أجعلك غنية من عطاء الممدوح وهذه كناية بارعة من كنايات الطلب . – (5) الدائرات : الأيام . تدور : تتبدل سريعاً ، فلا يبقى إلاّ الذكر الحسن . (6) سؤدداً : شرفا ومجداً . – (7) يمدحه في هذا البيت بالشجاعة والبيان ، وقوة السلطان . (8) الندى : الكرم :

جـ ـ الحكم

1 ــ خَلِّ جَنْبَيْكَ لِرامٍ   وامضِ عنه بسلام(1)
2 ــ مُتْ بداء الصَّمْتِ خيرٌ   لكَ من داءِ الكلامِ
3 ــ رُبَّمَا استفتحتَ بالمزْحِ   مغاليق الحِمَامِ (2)
4 ــ رُبَّ لفظٍ ساق آجالَ   نِيَامٍ وقِيَامِ
5 ــ إنما السالمُ من ألجم   فَاهُ بلجامِ
6 ــ فالبسِ الناسَ على الصِّحَّة   منهم والسَّقَامِ
7 ــ وعليك القصدَ إن   القَصْدَ أبقى للحِمَامِ(3)

د ــ الزهد

1 ــ اصبرْ لمُرِّ حوادثِ الدَّهْرِ   فلتَحمدَنَّ مَغَبَّةَ الصَّبْرِ(4)
2 ــ وامهَدْ لنفسك قبلَ ميتتها   واذخرْ ليومِ تفاضُلِ الذُّخْرِ(5)
3 ــ فكأن أهلك قد دعوك، فلم   تَسمع ، وأنتَ مُحشرِجُ الصَّدْرِ(6)
4 ــ وكأنهم قد عطَّرُوكَ بما   يَتَزَوَّدُ الهَلْكى من العطْرِ(7)
5 ــ وكأنَّهمْ قد قلَّبُوكَ على   ظَهْرِ السرير ، وظلمه القبرِ
6 ــ يا ليتَ شعرِي كيف أنتَ على   ظهر السريرِ ، وأنت لا تدري ؟
7 ــ أو ليت شعري كيف أنت إذا   غُسِّلْتَ بالكافُورِ والسِّدْرِ؟(8)
8 ــ أو ليت شعري كيف أنت إذا   وُضِعَ الحسابُ صبيحةَ الحَشْرِ؟

9 ـ ما حاجتي فيما أتيتُ ، وما   قولي لربي ؟ بل وما عُـذْري ؟
10 ـ ألا أكونَ قصدتُ رشديَ أوْ   أقْبَلْتُ ما استدبرْتُ من أمري
11 ـ يا سوءتا مما اكتبتُ ، ويـا   أسَفي على ما فاتَ من عُمْري

المراجع :

ـ ديـوان أبـي نـواس
ـ الكامـل لِلمبـرد
ـ تاريخ الأدب العربي لبروكلمان
ـ زهر الآداب للحصرى

(1) خل جنبيك لرام : احمل إساءة من يسيء إليك ، ولاتخاصمة ـ (2) مغاليق الحمام : أبواب الموت المغلقة ، ـ (3) القصد : الاعتدال في أمورك . الحمام : السيد الشريف . ـ (4) مغبة الصبر : عاقبته اونتيجته . ـ (5) اذخر : اعمل صالحا . يوم تفاضل الذخر : هو يوم القيامة أو الآخرة ـ (6) فكأن: تفيد التخيل هنا ، وكذلك في الأبيات السابقة . محشرج الصدر : تموت ، تخرج روحك من صدرك . ـ (7) الهلكي : الموتى ، والمفرد هالك . ـ (8) السدر : نوع من الأشجار تغسل بمائه الموتى .

أبو تمام
188 ـ 231 هـ

فتح عموريـــة
لأبي تمـــام

تعريف وتمهيد:

الشاعر هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائي ، ينتسب إلى قبيلة طيء العربية ، ولد بقرية (جاسم) بإقليم حوران (قرب دمشق) حوالي سنة 188هـ ، ونشأ فقيرا وانتقل مع أبيه إلى دمشق ، والتحق بعمل عند حائك هناك ، ثم ترك دمشق إلى حمص ، وكانت موهبة الشعر عنده قد بدأت تظهر ، ثم غادر حمص إلى مصر ، وعمل في سقي الماء بالجرة في جامع عمر وبن العاص بالفسطاط ، واستمع في أثناء ذلك إلى العلماء والأدباء في جامع عمرو فنضجت شاعريته ، ونبغ في هذا الفن حتى فاق شعراء زمانه ، ثم عاد إلى الشام ، ومنها رحل إلى العراق ، ولماذا ذاعت شهرته ، وسمت في الشعر مكانته اتخذه الخليفة المعتصم شاعرا خاصاً له ، فكان أبو تمام يمدحه ، ويحضر غزواته ، ويشيد بانتصاراته ، ثم إن أبا تمام كان يحب الرحلة والتجول ، ولذا فقد ظل يتنقل في المدن والبلدان ، ويتصل بالكبراء والعظماء ، وينال جوائزهم ، ويتولى لهم بعض الوظائف التي لا يولونها إلا أهل التعقل والدراية إلى أن تُوفي حوالي سنة 231 هـ بعد أن وضع اللبنات الأولى لمدرسة جديدة في الشعر تعني بالمحسنات اللفظية ، والزخرف البديعي إلى جانب عنايتها بالفكرة والمضمون. وخلَّف أبو تمام من الآثار الأدبية ديوان شعر يجمع مختلف فنون الشعر من مدح ورثاء ووصف وغزل وهجاء وفخر وزهد وعتاب ، كما خلف مجموعات شعرية أشهرها كتاب الحماسة ، ونقائض جرير والأخطل ، وفحول الشعراء ، وغيرها مما جمع فيه عيون الشعر العربي في الجاهلية والإسلام.

وكانت غارات الروم على ما جاورهم من البلاد الإسلامية لا تكاد تنقطع ، وفي عهد الخليفة المعتصم اعتدى الروم على (زبطرة) إحدى المدن العربية عام 223 هـ/837 م وأسروا بعض أهلها من الرجال والنساء ، وحدث أن استغاثت منهم امرأة عربية وصاحت (وامعتصماه) فلما بلغ ذلك مسامع المعتصم عزم على الثأر ، وخرج على رأس جيشه لحرب الروم قاصدا فتح (عمورية) التي كانت حصناً من حصون الروم ، وفيها ولد الإمبراطور ، ولم يأبه المعتصم بتحذير المنجمين الذين قالوا له : إن الكتب تنبئنا بأنّ عمورية لا تفتح إلا في وقت نضج العنب والتين ، وسار المعتصم بجيشه فاحتل (أنقرة) عاصمة تركيا الآن ، ثم زحف إلى (عمورية) ففتحها بعد أن أشعل النار في نواحيها وقتل نحو عشرة آلاف من جنود الروم ، وأسر كبار قوادهم. وكانت لذلك النصر فرحة عظيمة سجلها أبو تمام الذي كان يرافق الخليفة في هذه الحرب الظافرة ، فقال هذه القصيدة يرد فيها على المنجمين ، ويشيد بالنصر المبين ، ويصف المعركة ، ويمدح الخليفة المعتصم ، وهذا النص أبيات منها :

ـ أ ـ

1 ـ السيفُ أصدقُ أنبـاء منَ الـكتُـبِ
في حـدّهِ الحَـدُّ بَيْنَ الجِـدّ واللّعبِ

2 ـ بيضُ الصفائحِ ، لا سُودُ الصَحائفُ، في
مُتُونهِنّ جَلاءُ الشّكّ والرِّيَبِ

3 ـ والعلمُ في شُهُبِ الأرماحِ لامعَةً
بينَ الخميسينَ، لا في السّبعَةِ الشُّهُبِ

ـ ب ـ

4 ـ فتحُ الفتوحِ، تعالى أن يحيط بـه
نظمٌ من الشعرِ ، أو نثرٌ من الخُطَبِ

5 ـ فتحٌ تَفَتّحُ أبوابُ السماء لهُ
وتبرزُ الأرضُ في أبْرادِها القُشُبِ

6 ـ يا يومَ وقعةِ عموريّةَ انصرفَتْ
عنكَ المنى حُفّلاً معسولَةَ الحَلَبِ

ـ ج ـ

7 ـ أنتهمُ الكربةُ السوداءُ سادرةً
منهـا وكانَ اسمهـا فـرّاجـةَ الكُرَبِ
8 ـ جرى لها الفألُ نحساً يـومَ أنقـرة
إذْ غُودرتْ وحشةً الساحات والـرحب
9 ـ لقد تركتَ أميرَ المؤمنين بها للنار يوماً ذليلَ الصخرِ والخَشَبِ
10 ـ غادرتَ فيها بهيمَ الليلِ وهو ضُحى
يَشلـه وَسْطَهَـا صُبحٌ من اللّهَـب
11 ـ حتى كأنّ جلابيبَ الدّجَى رَغَبَـتْ
عـن لونهـا ، أو كأنّ الشمسَ لـم تَغبِ
12 ـ ضوء من النار ، والظلماءُ عاكفـةٌ
وظلمـة من دخـانٍ في ضُحى شَحـبِ

ـ د ـ

13 ـ تدبيرُ مُعتصم بالله ، مُنْتَقِم لله ، مُرتَغبٍ في الله ، مُرتَهبِ
14 ـ ومُطعم النصر ، لم تَـكهم أسنّتُـهُ
يومـاً ، ولا حُجبتْ عن روح مُحْتَجـبِ
15 ـ لم يَغْزُ قَوْماً ، ولم يَنهضْ إلى بلـد
إلاّ تَقَدّمَـهُ جيشٌ مـن الـرّعُـبِ
16 ـ لو لم يقدْ جحفلا يومَ الوَغَى لغدا
من نفسـه وحـدها في جَحْفَـلٍ لَجِـبِ
17 ـ رمى بكَ اللهُ بُرْجَيْهَـا فهدّمَهَـا
ولو رمـى بك غيـرُ اللهِ لم تُصِـبِ
18 ـ من بعدما أشبـوها واثقين بها واللهُ مفتـاحُ باب المعقِـلِ الأشبِ
19 ـ لبَّيْتَ صوتاً زِبَطْرِياً هـرَقْتَ لَهُ
كأسَ الكـرَى ، ورُضابَ الخُـرّدِ العُرُبِ

20 ـ لما رأى الحربَ رأيَ العينِ تَوْفِلِسٌ
والحَرْبُ مشتقَّــةُ المعنــى مِنَ الحَــرَبِ
21 ـ ولىَّ وقَدْ ألجَمَ الخَطِّيُّ مَنطقَــهُ
بسكتَــةٍ تحتهــا الأحشاءُ فــي صَخَــبِ
22 ـ خليفةَ الله ، جازى الله سعيَكَ عنْ
جُرْثُومَةِ الدين والإسلامِ والحســـبِ
23 ـ بَصُرْتَ بالراحَةِ الكبْرَى فلم تَرَهَا
تُنَالُ إلاَّ على جســرٍ منَ التَّعَـــبِ

شرح لغوي :

أنباء : جمع نبأ وهو الخبر. الكتب : يقصد بها كتب المنجمين. في حده : يعني حد السيف الحد : الفصل بين الشيبين. الصفائح : جمع صفيحة وهي السيف العريض. الصحائف : جمع صحيفة وهي ما يكتب فيه. متونهن : جمع متن وهو من الشيء ظهره ، والمقصود هنا جوانبهن. جلاء : كشف. الرِّيب : جمع ريبة وهي الشك. شهب الأرماح : الشهب جمع أشهب وهو الشيء الأبيض الذي يخالط بياضه سواد قليل ، والمقصود الرماح اللامعة كالشهب. الخميسين : مثنى خميس وهو الجيش الذي ينقسم إلى خمسة أقسام هي المقدمة والمؤخرة والميمنة والميسرة والقلب. السبعة الشهب : الشهب هنا جمع شهاب وهو الكوكب ، ويقصد بالشهب السبعة الكواكب السبعة السيارة وهي زحل والمشتري والمريخ والشمس والقمر وعطارد والزهرة. فتح الفتوح : أعظم الفتوحات. تعالى : عظم وكبر. أبرادها : أثوابها جمع بُرد. القشب : جمع قشيب وهو الجديد. حفَّلا : جمع حافل وهي الناقة التي يمتلىء ضرعها باللبن. معسولة الحلب : حلوة اللبن. الكربة السوداء : الكارثة العظمى. سادرة : متحيرة والمقصود تُحير من ألمت به. الفأل : توقع الخير. نحساً : شؤماً. غودرت : تركت وحشةَ الساحات والرِّحبِ : جهاتها وأماكنها مخربة موحشة ، والرحب جمع رحبة. بهيم الليلَ : الليل الشديد الظلام. يَشُلُّه : يطرده. الدجى : جمع دجية وهي

الظلمة. رغبت عن لونها : كرهت لونها. عاكفة : مقيمة لم تنصرف. شحب : متغير اللون. مرتغب : راغب ومحب. لم تكهم : لم تكل ولم تضعف. أسنته : جمع سنان وهو نصل الرمح. جحفلا : جيشاً عظيماً. الوغى : الحرب. لجب : مختلط الأصوات التي تدل على كثرة العدد. أشبوها : أحاطوها بالحراس. المعقل الأشب : الحصن المنيع. لبيت : أجبت مسرعاً. هرقت : أرقت وطرحت. الكرى : النوم. الرضاب : الريق. الخرّد : جمع خرود أو خريد وهي الفتاة البكر. العُرُب : جمع عروب أو عَرُوبة وهي المتحببة من النساء إلى زوجها. توفلس : امبراطور الروم. الحرب : الهلاك والويل. الخطّيّ : الرمح. الصخب : اختلاط الأصوات ، والمقصود هنا ثورة النفس وهياجها. جرثومة الدين : أصله. بصرت الراحة : عرفت طريقها.

دراسة أدبية :

هذه الأبيات من قصيدة لأبي تمام تعد من روائع الشعر العربي في الحماسة ، وغرضها العام هو وصف إحدى معارك المسلمين مع الروم ، والإشادة بانتصارهم. وقد استهل الشاعر قصيدته بالإشادة بالسيف ، والدعوة إلى الاعتماد عليه ، والتنديد بالتنجيم والمنجمين ، وهذا من الشاعر اتجاه جميل وجديد إذ خالف مألوف عادته ومألوف الشعراء من قبله حين كانوا يبدؤون قصائدهم بالغزل. ثم انتقل إلى التعبير عن نشوة الفرح بالنصر ، والابتهاج بالفتح المبين ، ثم وصف المعركة ، وصور مدينة عمورية تحت وطأة الحريق الذي اشتعل في جوانبها وتركها خراباً موحشة ، وانتهى إلى مدح الخليفة المعتصم بما يستحق من صفات الحزم والبطولة والهيبة ، والإيمان بالعقل ، وحماية الدين والدولة.

وقد جاءت الأفكار في هذه الأبيات المختارة من القصيدة مترابطة متسلسلة ، والمعاني واضحة دقيقة ، تدور حول عدة نقط جزئية تكون في مجموعها واحدا يصف معركة العرب مع الروم ، ويشيد بقائد جيش الخليفة المعتصم.

كما أن عاطفة الشاعر فيها كانت صادقة تنم عن سخط الشاعر على المنجمين ، وابتهاجه بالنصر ، وتقديره للخليفة المعتصم ، وإعجابه ببطولته وحسن تدبيره واعتماده على الله.

وتبدو لنا من خلال الأبيات ثقافة الشاعر الإسلامية في دعوته إلى أنه لا يعلم الغيب إلا الله ، وكذب المنجمون ولو صدقوا ، وأن النصر من عند الله ، كما تتجلى معرفته بثقافات عصره إذ حفلت القصيدة بالمعلومات الفلكية التي هي أثر من آثار الثقافة الأجنبية التي ترجمت إلى العزبية في هذا العصر العباسي ، وإلى جانب ذلك فإن القصيدة تكشف عن الخصائص الفنية لأبي تمام من دقة الفكرة وعمق المعنى ، وجودة التصوير والرسم ، والإسراف في استعمال المحسنات البديعية حتى اشتهر بين شعراء العربية بأنه من شعراء المعاني ، وأنه شاعر الألوان والزخرف.

وقد احتل أبو تمام مكانة أدبية مرموقة بين شعراء العربية ، وعرف له الخليفة المعتصم العباسي مكانته فأدناه منه ، وقربه إليه ، فكان أبو تمام يجالس الخليفة ويرافقه في حله وترحاله ، ويشهد معاركه ، ويمجد انتصاراته ولذا فإن أشعاره في هذا الميدان تسجل أحداث عصره ، ومفاخر أمته.

والنص بعدما تقدم يصور لنا جانباً من حياة المجتمع العباسي وهو انتشار التنجيم وسيطرة المنجمين على عقول الناس برواياتهم الكاذبة وخرافاتهم المضللة ، كما تصور الكفاح العربي في سبيل رد العدوان الرومي عن الدولة الإسلامية وتطلعنا على أدواته وأسلحته.

دراسة بلاغية :

كان الشاعر أبو تمام في مقام الموجه والواصف والمادح يحكي ويخبر دون حاجة كبيرة إلى الطلب ، ولهذا غلب عليه في الأبيات استعمال الأسلوب الخبري الذي تنوعت أغراضه بين الإرشاد والتوجيه ، والسخرية والتهكم ، والتمجيد والتعظيم.

أما ألوان البيان في النص فقد نجح أبو تمام كثيرا في تجسيد المعاني، وإبرازها في صور محسوسة تتنوع بين التشبيه والاستعارة والكناية، فمن التشبيه قوله: جلابيب الدجى - غادرت بهيم الليل وهو ضُحى. ومن الاستعارة قوله: السيف أصدق أنباء - تفتح أبواب السماء له - تبرز الأرض في أبْرادها القشب - انصرفت عنك المنى حفلا معسولة الحلب - يوماً ذليل الصخر والخشب ومن الكناية قوله: فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم... فهذا تعبير قصد منه الكناية عن عظمة هذا الفتح - وقوله: تفتح أبواب السماء له، وتبرز الأرض في أبرادها القشب فهو كناية عن فرحة كل من السماء والأرض بهـذا الفتح - ولقد وفق الشاعر في تصويره حريق عمورية حيث أبدع غاية الإبداع في دقة الوصف وإبراز الألوان التي تنبعث من الحريق يصارع كل منها الآخر ويغالبه، كما وفق في رسم صورة امبراطور الروم في فراره وهزيمته:

وقد اتسم أسلوب الشاعر بالفخامة والجزالة، وجاء ملائماً لأفكار النص وغرضه الحماسي، معبرا عن انفعالات الشاعر وأحاسيسه، ودليل ذلك استعماله أسلوب القصر (وهو حصر شيء وتخصيصه به دون سواه) ومن صور هذا الأسلوب في النص تقديم ما حقه التأخير كما في قول الشاعر: (في حده الحد) حيث قدم الجار والمجرور لإفادة حصر المبتدأ في الخبر دون غيره ومن صوره أيضاً في الأبيات استعمال حرف العطف (لا) في قوله: (العلم في شهب الأرماح لا في السبعة الشهب)، وكذلك استخدامه النفي والاستثناء في البيت الأخير. والقصر من الأساليب البلاغية التي تحدد المعنى وتؤكده.

وقد أكثر أبو تمام من استخدام المحسنات البديعية، ومال إلى الإسراف في استعمالها، إنك ترى ذلك في الجناس التام بين حده والحد، والجناس الناقص في الصفائح والصحائف، والحرب والحرَب. وفي الطباق بين الجد واللعب، وبيض وسود، والفأل ونحساً. وفي المقابلة بين نظم من الشعر ونثر من الخطب، وبين شطري البيت الثاني عشر. إلى غير ذلك من أساليب البديع التي تحفل بها الأبيات.

أما ألفاظ النص فقد أحسن الشاعر اختيارها ، وجاءت ملائمة للأفكار ، موحية بالمعاني التي عبرت عنها ، ففي إبراز عظمة الفتح وقيمته أتى بالألفاظ : فتح الفتوح – تعالى – تفتح أبواب السماء له – القشب . وفي تصويره لحريق عمورية استخدم الألفاظ التي توحي بالدمار والخراب من مثل : الكربة السوداء – سادرة – نحسا – ذليل الصخر – الظلماء عاكفة. وفي مدح الخليفة والإشادة بصنيعه أتى بالألفاظ : مطعم النصل – تقدمه جيش من الرعب – جحفل لجب – إلى غير ذلك من الألفاظ التي ناسبت المعنى ، وعبرت عن أحاسيس الشاعر.

مجمل القول في النص:

هذا النص من قصيدة أبي تمام البائية التي أنشدها في مدح الخليفة المعتصم حين انتصر على الروم في فتح عمورية ، وجاءت قصيدته هذه مصورة لحال المجتمع في عصره سياسياً في معاركه المستمرة مع الروم ، واجتماعياً في سيطرة المنجمين على عقول الناس بآرائهم الضالة ورواياتهم عن النجوم أشياء خرافية ، وثقافياً فيما تجلى في الأبيات من معلومات فلكية جاءت أثرا من آثار الثقافات الأجنبية التي ترجمت إلى العربية ، وفيما تجلي فيها من اتجاه إلى تقدير العقل والاعتماد عليه.

كما أبانت القصيدة عن شخصية أبي تمام الشاعر العربي المسلم المثقف صاحب الأفكار الدقيقة ، والمعاني العميقة ، والخيال الواسع ، والصور الحية ، والعبارة الجزلة ، والألفاظ الموحية ، والزخرف البديعي.
والقصيدة تفيض عواطفها بالسخط على المنجمين وآرائهم وتطفح ابتهاجاً بالنصر المبين ، وتشيد بخليفة المسلمين. وهي من بحر البسيط وأجزاؤه.
مستفعلـــن فاعلـــن مستفعلن فاعلن   مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلـــن

مناقشة النص :

أولا : أجب عما يأتي :

1 – بم استهل أبو تمام أبيات هذا النص ؟

2 ـ اعتمد الشاعر في أبيات المجموعة (أ) على المقارنة لتوضيح فكرته اشرح ذلك.

3 ـ كيف استطاع الشاعر في المجموعة (ب) أن يظهر عظمة فتح عمورية؟

4 ـ ماالحال التي كانت عليها عمورية قبل المعركة ؟ وكيف صارت بعدها كما تفهم من أبيات المجموعة (ج) ؟

5 ـ انثر بأسلوبك الأبيات التي تصور حريق عمورية.

6 ـ ما أبرز الصفات التي وصف بها أبو تمام الخليفة المعتصم في أبيات المجموعة (د)

7 ـ وما صلة هذه الصفات بالمعركة وتحقيق النصر.؟

8 ـ ما الصورة التي رسمها الشاعر لامبراطور الروم في فراره وهزيمته ؟

9 ـ وما الأبيات التي عبرت عن ذلك ؟

10 ـ بم دعا الشاعر لخليفة المسلمين ؟

11 ـ تضمن البيت الأخير معنى يشير إلى حكمة رائعة ـ وضح ذلك ، ثم ايت بحكمة أخرى تتفق ومعنى البيت.

ثانياً : أعد قراءة الأبيات ثم أجب عن الأسئلة الآتية :

1 ـ ما رأيك في بدء أبي تمام لقصيدته بهذا المطلع الذي خالف فيه مألوف الشعراء قبله ؟

2 ـ إلى أي مدى وفق الشاعر في الموازنة بين السيف وكتب المنجمين ؟ وما صلة قوله هذا بما جاء به الدين الإسلامي ؟

3 ـ في أبيات المجموعة (أ) دليل على حرص أبي تمام على الصناعة اللفظية وضح ذلك مع التمثيل.

4 ـ (السيف أصدق أنباء من الكتب) وضح الصورة البلاغية في هذا الشطر.

5 ـ (بيض الصفائح لا سود الصحائف ... ، العلم في شهب الأرماح.. لا في السبعة الشهب) في كل من هذين التعبيرين قصر عن طريق العطف بكلمة « لا ». وضح ذلك مع ذكر المقصور والمقصور عليه ، وفائدة استعمال أسلوب القصر.

6 ــ يبدو أبو تمام في أبيات المجموعة (أ) مصلحاً اجتماعياً ــ اشرح ذلك.
ضع عنواناً مناسباً لأبيات المجموعة (ب).

7 ــ إلام يشير الشاعر بمشاركة السماء للأرض في الفرحة بهذا النصر.؟

8 ــ في البيت الرابع حشو ناتج من زيادة اللفظ على المعنى ــ وضح مكانه في البيت.

9 ــ في البيت السادس صورة مأخوذة من البيئة العربية ــ وضحها.

10 ــ ماذا تضمنت أبيات المجموعة (ج) ؟

11 ــ رسم الشاعر لوحة رائعة تصور هول الحريق الذي أشعله المعتصم في عمورية وضح في ضوء فهمك للأبيات ــ ملامح هذه اللوحة، ثم حاول أن ترسمها بيدك على لوحة خاصة

12 ــ يقال : أن أبا تمام شاعر الألوان والأضواء ــ استدل لصحة هذا القول بما ترى في أبيات المجموعة (ج).

13 ــ كيف صور أبو تمام شخصية المعتصم في أبيات المجموعة (د) ؟

14 ــ في أول أبيات المجموعة (د) تقسيم أتى به الشاعر ــ وضحه، وبين قيمته في المعنى واللفظ.

15 ــ الرعب الذي يقذف في قلوب الأعداء، ويضعف روحهم المعنوية، يكون عاملا أساسياً في النصر.

16 ــ أين أشار الشاعر إلى هذا المعنى في أبياته ؟

17 ــ قال الله تعالى : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »، وقد تأثر الشاعر بذلك في النص حدد مكان ذلك في الأبيات.

18 ــ في البيت العشرين ألفاظ وحشية ثقيلة، وأخرى عذبة مأنوسة ــ ايت بمثل لكل مثال

19 ــ تنوعت أحاسيس الشاعر، وتغيرت عاطفته تبعاً للأفكار التي تضمنها النص. اشرح ذلك.

20 ــ إلى أي مدى نجح الشاعر في اختيار الألفاظ المعبرة عن معانيه وأفكاره؟

21 ــ تعكس هذه القصيدة ثقافة الشاعر الواسعة، كما تعكس جانباً من حياة العرب السياسية والاجتماعية ــ اشرح ذلك.

تدريب تطبيقي

المقالة الأدبية :

في عيد التحرير وقفت لتلقي كلمة تشيد فيها بصمود الشعب الجزائري في المعارك الضارية التي خاضها ضد العدو ، وتمجد كفاح الأبطال واستبسالهم وتهنىء الأمة بالنصر — فماذا تقول ؟

السؤال الكتابي :

عرف أبو تمام بدقة الفكرة وعمق المعنى ، كما عرف بخصب الخيال وحيوية الصورة ، وتميز بولوعه بالمحسنات اللفظية والزخرف البديعي.
وضح ذلك مستشهدا بما تجده في هذا النص ، وفي نصوص أخرى له.

نماذج من شعر أبي تمام

أ ـ الرثاء : رثاؤه لابنه أبي علي

1 ـ كان الذي خفتُ أن يكونا ... إنا إلى الله راجعونا!(1)
2 ـ أمسى المرجَّى أبو علي ... مُوَسَّداً في الثرى يمينا
3 ـ حينَ انتهى واستوى شباباً ... وحقَّقَ الرأي والظنونا
4 ـ أُصِبْتُ فيه وكان عندي ... على المُصيبات أن يُعينا
5 ـ كنتُ عزيزا به كثيراً ... وكنتُ صَبّاً به ضَنينَا(2)
6 ـ دافعتُ إلاَّ المَنونَ عنه ... والمرءُ لا يَدْفَعِ المنونا(3)
7 ـ آخرُ عَهدي به صَريعاً ... للموتِ بالداء مُستكينا(4)
8 ـ إذا شكا غُصَّةً وكرْبا ... لاحَظَ ، أو راجَعَ الأنينا(5)
9 ـ يديرُ في رَجْعِهِ لساناً ... يَمْنَعُهُ الموتُ أن يُبينا(6)
10 ـ يَتَشْخَصُ طورًا بناظريهِ ... وتارةً يُطبقُ الجُفُونا(7)
11 ـ ثم قَضَى نحبَهُ فأمسَى ... في جَدَثٍ للثَّرَى دفينَا(8)

12 ـ بعيدَ دارٍ ، قريبَ جارٍ قد فارقَ الإلْفَ والخدينا (9)
13 ـ باشَرَ بَرْدَ الثرَى بوَجْهٍ قد كانَ من قبله مَصُونا
14 ـ بُنَيَّ يا واحدَ البنينا غادرتني مُفرَداً حزينا
15 ـ هوّنَ رُزْئي بك الرّزايا عَلَيَّ في الناسِ أجمعينا
16 ـ آليتُ أنساكَ ما تَجَلّى صُبْحُ نهار المصبحينا (10)
17 ـ وما دعا طائرٌ هديلاً ورجّعَتْ والهٌ حنينا
18 ـ تصرف الدهرُ بي صروفاً وعَاد لي شأنُهُ شؤونا
19 ـ وحزّ في اللَّحم بل بَرَاهُ واجتثّ من طلحتي فنونا (11)
20 ـ أصاب مني صميم قلبي وخفتُ أن يقطعَ الوتينا (12)
21 ـ فالمرءُ رَهْنٌ بحالتيه : فشدّةٌ مرّةٌ ، ولينا

---

(1) كان : حدث ، فهي تامة . ـ (2) صبا : مولعاً . ضنينا : بخيلا ـ (3) المنون : الموت . (4) مستكينا خاضعاً . ـ (5) لاحظ : نظر إلى أهله مستغيثاً . راجع الأنينا : ردده . ـ (6) رجعه ترديده للأنين . ـ (7) شخص : يفتح عينيه ولايغلقهما. ـ (8) قضى نحبه : مات . ـ (9) (9) الإلف : الصاحب . الخدنيا : الزوجة ـ (10) آليت انساك : أقسمت لاأنساك (11) طلحتي : شجرتي . (12) الوتينا : عرق في القلب .

ب ـ الزهد

1 ـ أتامُلُ في الدنيا تَجدّ وتَعمرُ وأنتَ غداً فيها تموتُ وتُقبَرُ ؟(1)

2 ـ تلَقَحَ آمالاً ، وترجو نتاجها وعُمْرُكَ مما قَدْ تُرَجيه أقْصرُ(2)

3 ـ وهذا صباحُ اليومِ، ينعاكَ ضَوْؤُهُ
وليلتُهُ تَنْعَاكَ إن كُنْتَ تَشْعُرُ(3)

4 ـ ورِزْقُكَ لا يعدوكَ : إما مُعَجّلٌ
على حالِه يَوْماً ، وإمّا مُؤَخّرُ(4)

5 ـ فلا تأمن الدنيا ، وإن هي أقبلَتْ
عليكَ ، فما زالتْ تَخُونُ و تَغْدُرُ

6 ـ فما تَمّ فيها الصفْوُ يوماً لأهلِه
ولا الرّنْقُ إلاّ ريثمَا يتَغَيّرُ(5)

7 ـ وما لاح نجمٌ ، لا ولا ذرّ شارقٌ
على الخَلْقِ إلاّ حبلُ عمركَ يَقْصُرُ(6)

8 ـ تطهّرْ والحقّ ذنبكَ اليومَ تَوبَةً
لعلكَ منهُ إن تَطَهّرْتَ تَطْهُرُ

9 ـ وشَمّرْ ، فقد أبدى لكَ الموتُ وَجْهَهُ
فليسَ ينالُ الفَوْزَ إلاّ المُشَمِّرُ(7)

10 ـ وأخلِصْ لدين الله صدراً ونيّةً
فإنّ الذي تُخفيهِ يَوْماً سيَظْهَرُ

11 ـ تذكّرْ ، وفكّرْ في الذي أنتَ صائرٌ
إليهِ غداً إن كنْتَ ممّنْ يُفَكّرُ

12 ـ فلا بُدّ يوماً أن تصيرَ لحُفْرَةٍ بأثنائها تُطوى إلى يومِ تُنْشَرُ(8)

---

(1) تجد : تصبح جديداً أو قويا شابا . ـ (2) تلقح آمالاً : تؤمل آمالاً . نتاجها : نتيجتها أو تحقيقها . ـ (3) ينعاك: يخبر بموتك . ـ (4) لايعدوك : لايتجاوزك ، أولا يفوتك . ـ (5) الصفو : السعادة . الرّنق : الكدر ، الشقاء ، إلاّ ريثما يتغير : إلاّ مقدار المدة التي يتغير بعدها . ـ (6) وما لاح نجم : وما ظهر نجم . ذَرّ شارق : طلعت الشمس من جهة المشرق . (7) وشمر : اجتهد في طاعة الله . ـ (8) لحفرة : لقبر . تُطوى : تدفن . تنشر : يبعثك الله حياً لمحاسبتك على أعمالك .

ج ـ الوصف : وصف الربيع

1 ـ يا صاحبيَّ تقصيا نظريكما ... تريا وجوه الأرض كيف تصوّرُ
2 ـ تريا نهاراً مشمساً قد شابه ... زهرُ الرُّبى ، فكأنّما هو مقمرُ(2)
3 ـ دُنيا مَعاشٍ للورى حتى إذا ... حلّ الربيعُ فإنما هيَ منظرُ(3)
4 ـ أضحت تصوغُ بطونها لظهورها
نَوْراً تكادُ له القلوبُ تَنَوَّرُ(4)
5 ـ من كلّ زاهرةٍ تُرقرقُ بالنَّدى
فكأنّها عَيْنٌ إليكَ تحدّرُ(5)
6 ـ تبدو، ويحجُبُها الجميمُ ، كأنّها
عذْراءُ تبدو تارةً ، وتَخَفَّرُ(6)
7 ـ حتى غدتْ وهداتُها ونجادها ... فئتيْنِ في خِلَعِ الربيع تبختَرُ(7)
8 ـ مصفرّةٌ، محمرّةٌ، فكأنها ... عُصَبٌ تيمَّنُ في الورى وتمضّرُ(8)
9 ـ من فاقعٍ غضّ النبات كأنّهُ ... دُرَرٌ تُشقّقُ قبلُ ، ثمّ تزعفرُ(9)
10 ـ أو ساطعٍ في حمرةٍ فكأنّما ... يدنو إليه من الهواء مُعَصْفَرُ(10)
11 ـ صُنْعُ الذي لولا بدائعُ لطفه ... ما عاد أصفرَ بعدَ إذْ هُوَ أخضرُ(11)
12 ـ خُلُقٌ أطلّ من الربيع كأنه ... خُلُقُ الإمام وهديُهُ المتَنَشِّرُ(12)

د ـ الحكمة

1 ـ إذا جاريتَ في خُلُقٍ دنيّاً ... فأنتَ ومن تجاريه سَواءُ(13)
2 ـ رأيتُ الحُرَّ يجتنبُ المخازي ... ويحميه عن الغدْرِ الوفاءُ
3 ـ وما من شدّة إلاّ سيأتي ... لها من بَعْدِ شدّتها رَخاءُ

4 — لقدْ جرّبْتُ هذا الدهرَ حتى . . . أفادتْني التجاربُ والعنَاءُ (14)

5 — إذا ما رأسُ أهلِ البيتِ وَلّى . . . بدا لَهُمُ من الناس الجَفَاءُ

6 — يعيش المرء ما استحيا بخيرٍ . . . ويبقى العُودُ ما بقيَ اللحَاءُ (15)

7 — فلا واللهِ ما في العيشِ خيرٌ . . . ولا الدّنْيا إذا ذَهَبَ الحَيَاءُ

8 — إذا لم تَخْشَ عاقبةَ الليالي . . . ولم تَسْتَحي فاصنَعْ ما تشاءُ

---

(1) تقه يا نظريكما : تتبعا جيدا مناظر الطبيعة في فصل الربيع . تصور : أصلها تصور ، أي تتخذ أشكالاً وصورًا عديدة — (2) شابه : خالطه . والمقصود أن أزدهار الربى قد خففت ببياضها الناصع من نور الشمس عندما طلعت عليها فأصبح النهار كانه مقمر لأشمسي . — (3) دنيا معاش : كلمة دنيا خبر لمبتدإ محذوف تقديره : الدنيا ، أوهي . — (4) نورًا : زهرًا أبيض . تنور : تتفتح . — (5) زاهرة : زهرة جميلة . ترقرق : أصلها تترقرق أي تتحرك . تحدد : تنظر . — (6) الجميم : النبات الكثير . تخفّر : تستر نفسها بأوراق الجميم من حيائها . (7) وهدائها : أماكنها المنخفضة. نجادها : أماكنها المرتفعة والمفرد نجد (8) عُصَب : جماعات . تيمّن : تنتسب إلى اليمن وهم أصحاب الرايات الصفر، تمضّر : تنتسب إلى مُضروم أصحاب الراياتّ الحمر . — (9) فاقع : شديد الصفرة . تشقّق قبل : تشقق أولاً . ثم تزعّفر : ثم تصبغ بلون أصفر شبيه بلون الزعفران . — (10) ساطع : منتشر الرائحة . معصفر : صابغ بالعصفر . — (11) أي صنع الله تعالى . — (12) الإمام : المقصود به الخليفة المعتصم الذي مدحه أبو تمام بهذه القصيدة وجعل وصف الربيع مقدمة للمديح . المتنشّر : المتنَشر .

(13) جاريت : فعلت مثل فعله . دنياً : لئيماً ساقط الأخلاق والشرف . سواء : متساويان في الدناية .
(14) العناء : التعب والمشقة . — (15) ما استحيا : مدة حياته . فما مصدرية ظرفية . اللحاء : القشر .

البحتـــــــرى

206 ـ 284 هـ.

إيــوان كســرى

للبحـتـري

تعريف وتمهيد :

البحتري لقب عرف به الشاعر ، وهو مأخوذ من اسم أحد أجداده بحتر ، من قبيلة طيء ، إحدى القبائل اليمانية المشهورة. أما اسمه فهو الوَليد بن عبيد ، وأما كنيته فأبو عبادة.

وُلد البحتري عام 206 هـ في بلدة منبج بشمـال سوريـة ، وهـي بلدة معروفة بـكثرة أشجارها ، وجمال مناظرها، ووفرة مياها ، فكان للتلك البلدة الرائعة أثر بعيد في إرهاف حسه ، وبراعته في الوصف.

نشأ في باديـة حلب ، فاكتسب مـن نشأتـه فصـاحة اللغـة وجمـال الأسلوب. ويذكر مؤرخوه أن قلبه تعلّق ، في أول صباه ، بفتاة حلبية تدعى علوة ، فظل يذكرها بشعره حتى آخر حياته المديدة ، كما يذكر أولئك المؤرخون أن البحتري اتصل في شبابه بأبي تمام الطائي الذي كان آنذاك شاعرًا مشهورا فأعجب بمواهب البحتري ونفحه وصية قيمة تضمنت أصول الصناعة الشعرية الجيدة ، فأفاد شاعرنا من تلك الوصية ، أعظم فائـدة.

وعندما وثق البحتري بشاعريته ذهب إلى بغداد ، عاصمة الخلافة الإسلامية ، ومدح ابن الزيات وزير الواثق ، وغيره من رجال الدولة ، لكنه لم يتصل بالخليفة الواثق ، بل اتصل بابنه المتوكل الذي أصبح الخليفة بعد أبيه ، فعاش في كنفه وكنف وزيره الفتح بن خاقان ست عشرة سنة لقي فيها كل حفاوة وإكرام. بيد أن الشاعر شهد مقتل ولي نعمته الخليفة المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ، فحزن عليهما حزناً شديدا ، وعاد من

بغداد إلى بلدته منبج ، ولم يتخذ العراق مقاماً بعدهما ، وإنما كان يتردد بين العراق ومنبج ، يمدح الخلفاء والقادة الذين جاءوا بعد مقتل المتوكل عام 247 م وكان ممد وحوه أعداء يكيد بعضهم لبعض ، فاضطر إلى هجاء بعضهم بعد مدحه إياه ، ولذلك نسب إلى قلة الوفاء.

وظل البحتري يتردد بين العراق ومنبج حتى وافاه أجله عام 284 هـ. وقد خلف عدة آثار أهمها ديوانه الضخم ، وكتاب الحماسة الذي نسج فيه على منوال أستاذه أبي تمام.

وفي ديوان البحتري فنون شعرية كثيرة ، منها المدح والهجاء والرثاء والفخر والوصف والغزل وغير ذلك. إلا أن عبقرية الشاعر تجلت في الغزل ، وفي الوصف ، ولا سيما وصف آثار الحضارة والعمران كما سترى ؛ كما تجلت تلك العبقرية في ديباجته (أسلوبه) الجميلة الصافية ، وصوره الطريفة الرائعة ، وموسيقاه العذبة الساحرة ، وقد عرف الناس منذ القديم هذه المزايا الفريدة. فقالوا في كل ديباجة جميلة : إنها ديباجة بحترية ؛ وسموه شاعر الطيف ، وسموا قصائده سلاسل الذهب ، وقالوا فيه : إنه أراد أن يشعر فغنى.

ويبدو أن البحتري بعد مقتل المتوكل ووزيره المذكور بمدة اختلف الباحثون في تحديدها استبدت به الهموم والأحزان ، ولا سيما بعد تسلط قادة الجيش على بغداد ، وبعد تنكر أحد أبناء عمه له ، فقام الشاعر بزيارة لإيوان كسرى ، أحد أطلال المدائن الواقعة على بعد ثلاثين كيلو متراً جنوبي بغداد ، وقد قال عنه ياقوت في كتابه معجم البلدان : إنه من عجائب الدنيا. ويقول المؤرخون المعاصرون : إنّ عرض القسم الباقي من الإيوان ويسمونه بطاق كسرى ، هو خمسة وعشرون متراً ، وإنّ ارتفاعه يبلغ سبعة وثلاثين متراً. ولقد شاهد البحتري إيوان كسرى قبل أن تزول معظم أجزائه فأعجب به أشد إعجاب ، ونظم فيه سينيته الخالدة التي قال فيها الشاعر العباسي المشهور ابن المعتز : « لو لم يكن للبحتري إلاّ قصيدته في إيوان كسرى لكان أشعر الناس ».

وإليك فيما يلي أبياتاً مختارة من تلك القصيدة الفريدة وهي مقدار منها يساوي نصفها.

— أ —

1 — صُنتُ نفسي عمَّا يُدنِّسُ نفسي
وترفَّعْتُ عن جدا كلِّ جِبْسِ

2 — وتماسكت حينَ زعزعني الدهرُ
التماساً منهُ لتَعسي ونكْسي

— ب —

3 — حضرتْ رحلي الهمومُ فوجهتُ
إلى أبيض المدائن عَنْسي

4 — أتسلّى عن الحظوظ وآسى لمحل من آل ساسانَ دَرْسِ

5 — ذكر تنيهِمُ الخطوبُ التوالي ولقد تُذكِرُ الخطوبُ وتُنسيَ

— ج —

6 — فكأنّ الجرماز من عدم الأنْسِ
وإخلالهِ بنيةُ رَمْسَ

7 — لو تراهُ علمتَ أن الليالي جعلتْ فيه مأتماً بعدَ عُرْسِ

— د —

8 — فإذا ما رأيتَ صورةَ أنطاكيَّة ارْتعتَ بينَ روم وفُرْسِ

9 — والمنايا مواثلٌ، وأنو شروانُ يزجي الصفوفَ تحتَ الدِّرَفْسِ

10 — في اخضرار من اللِّباس، على أصفرَ
يختالُ في صبيغةِ وَرْسِ

11 — وعراكُ الرجالِ بينَ يديه في خنوت منهم وإغماضِ جَرْسِ

12 – من مُشيح يُهوي بعامل رُمح ومُليح من السنان بتُرس

13 – تصفُ العينُ أنهمْ جدّ أحياء لهمْ بينهُمْ إشارةُ خُرْس

14 – يغتلي فيهم ارتيابي حتّى تتعرّاهُمُ يداي بلمْس

– هـ –

15 – وكأنّ الإيوانَ مِنْ عَجَبِ الصّنْعَةِ
جَوْبٌ في جَنْبِ أرْعَنَ جَلْسِ

16 – يتَظَنّى من الكآبَةِ أنْ يبدو
لِعَيْنَيْ مُصَبِّحٍ أوْ مُمَسّ

17 – مُزْعَجاً بالفراقِ عنْ أنْسِ إلْفٍ
عَزّ، أو مُرْهقاً بتطليقِ عِرْسِ

18 – عكسَتْ حظَّهُ الليالي فبات المشتري
فيه وهو كوكبُ نحْسِ

19 – فهوَ يُبدي تجلّدا وَعلَيْهِ كَلْكَلٌ من كلاكلِ الدّهرِ مُرْسِ

20 – لم يَعْبِهُ أنْ بُزّ منْ بُسُطِ الديباجِ
واستُلّ من ستُورِ الدّمَقْسِ

21 – ليسَ يُدْرى : أصُنْعُ إنسٍ لجِنّ
سكَنوهُ أم صُنْعُ جِنّ لإنْسِ؟!

22 – غيْرَ أني أراهُ يشهدُ أن لمْ يَكُ بانيهِ في الملوكِ بنكْسِ

– و –

23 – فكأني أرى المراتبَ والقومَ إذا ما بلغتُ آخرَ حسبي

24 – وكأنّ الوفودَ ضاحينَ حَسْرى
من وُقوفٍ خلْفَ الزّحامِ وخُنْسِ

25 ـ عَمَرَتْ للسرورِ دَهْرًا فصارتْ
للتعــزي رِبَــاعُهـــمْ والتَّــأســـي

26 ـ فلهــا أن أُعينهــا بـدمـوع مُـــوقَفَــات على الصبابةِ حُبْسِ

27 ـ ذاكَ عندي ، وليستِ الدارُ داري
بـاقتِـــراب منهـــا ، ولا الجِنْــسُ جِنْسي

28 ـ وأراني من بَعْدُ أكْلَفُ بالأشراف
طُـــرّا ، مِــن كــلِّ سِنْــخ وإسِّ

شرح لغوي :

صنتُ نفسي : حفظتها. ترفَّعت : رفضتُ في عزة وإباء. جَدا : عطاء. جِبْس : لئيم. تماسكتُ : تجلدتُ وثبّتُّ. زعزعني الدهرُ : حرّكني بعنف ، أصابني. التماساً : طلباً. تَعْسي : شقائي أو تعاستي : نكسي : إذلالي ، وأصل النكس عودة المريض إلى مرضه بعد البرْء. حضرت رحلي الهموم : جعلت الأحزانُ رحلي مهيأ للسفر ، وأصل الرحل ما يوضع على ظهر الناقة كالسرج للفرس. أبيض المدائن : قصر المدائن الأبيض ، والعبارة من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف ؛ وأبيض المدائن هو أحد قصور إيوان كسرى ، والمدائن اسم لعاصمة الفرس في العراق قبل الإسلام ، وسميت بالمدائن بدلاً من المدينة لكبرها ، فتحها سعد بن أبي وقاص بعد معركة القادسية في العام الخامس عشر للهجرة. عنسي : ناقتي. الحظوظ : جمع حظ وهو نصيب الإنسان من الخير والشر ، والمراد هنا الحظوظ السيئة. آسى : أحزن ، وهو من أسيَ يَأسَى بمعنى حَزِنَ يحزن. محلّ من آل ساسان : مكان بال بناه آل ساسان ، وهم ملوك الفرس الذين انتهى ملكهم بعد الفتح العربي الإسلامي ، ويريد بهذا المحل إيوان كسرى. الخطوب : المصائب الشديدة ، والمفرد خطب. التوالي : المتتابعة. الجرماز :

معرّب لفظة (كرمازي) الفارسية ومعناها الإيوان. الأنس : المؤانسة ، ضد الوحشة. إخلاله : فساده ، وهو مصدر أخلّ بمعنى وَهَنَ وفَسَدَ. بنية : بناء. رمس : قبر. مأتماً : اجتماعاً خاصاً بالحزن. إذا ما رأيت : إذا رأيت ، وما زائدة. صورة أنطاكية : صورة معركة أنطاكية ، وهي مدينة في شمال سورية انتصر فيها الفرس على الروم عام 540 م فخلدوا انتصارهم العظيم برسم يمثل تلك المعركة على أحد جدران الإيوان. ارتعت : خفت خوفاً شديدا. المنايا : جمع منية وهي الموت. مواثلٌ : بادياتٌ للعين. والمفرد ماثلة. أنو شروان : هو كسرى الأول (531 — 579 م) وقاهر الروم في معركة أنطاكية المشهورة، اشتهر بحسن سياسته وتدبيره. يزجي : يدفع. الدرفس : العلم الكبير . والكلمة من الفارسية. على أصفرَ : على جواد أصفر ، فالموصوف محذوف. يختال : يمشي الخُيَلاءَ ، وهي مشية فيها كبرياء ، والضمير في يمشي أو يختال عائد إلى الجواد. في صبيغة وَرْس : في حلة مصبوغة بورس ، وهو نبات أصفر يصبغ به ، ويسمى الزعفران أيضاً. في خنوت : في سكوت وهدوء صوت. جرْس: صوت خفي. إغماض جرْس : أي في صوت منخفض. مشيح : اسم فاعل من أشاح في أمره إذا جدّ في حذر. عامل الرمح : صدره ، وهو مما يلي السنان. مليح : اسم فاعل من ألاح بثوبه أو بسيفه إذا لمع به ، والمقصود هنا المحارب الذي وضع الترس بينه وبين عدوه فظهر بريق ترسه ولمعانه. تصف العين : يخيل إليها ، أو يبدو لها ، جدّ أحياء : أحياءٌ جدّا. أضيفت الصفة إلى الموصوف ، والمعنى أنهم أحياء كل الحياة ، أو أن حياتهم حقيقة لا شك فيها. يغتلي فيهم ارتيابي : يشتد شكي في حقيقة المحاربين : هل هم أحياء أم غير أحيا ؟ تتقرّاهم : تتبعهم. الإيوان : هو إيوان كسرى الذي قصده البحتري في رحلته ، ويطلقه الشاعر على القصور التي بناها الفرس في عاصمتهم المدائن ، والإيوان في فن البناء هو المكان المتسع من البيت يحيط به ثلاثة جدران. جَوْبٌ : فجوة. جنب : سفح. أرعن : أي جبل أرعن ، وهو الشديد البروز والإرتفاع. جَلْس : صفة أخرى لكلمة جبل المحذوفة ، ومعناها الجبل الشديد الإنتصاب. يتظنّى :

يُظَنّ بالبناء للمجهول. أنْ يبدو : أي وقتَ أن يبدو ، فهناك مضاف محذوف. مصبِّح : اسم فاعل من صبَّح القومَ إذا زارهم في الصباح. مُمَسّ : اسم فاعل من مسّى القوم إذا زارهم في المساء. مُزْعِجاً : مفعول به ثان للفعل يتظنّى المذكور في البيت السابق. إلف : حبيب أو صديق. عزّ : كان عزيزًا عند صاحبه. مرهقاً : مكلَّفاً أو مجبرا. عِرْس : زوجة. عكست حظه الليالي : قلبت حظه فجعلته شقياً بعد أن كان سعيدا. المشتري : أحد الكواكب السيَّارة ، وطالعه سعدٌ في نظر الأقدمين. كلكل : صدر ، وهو صدر البعير عادة ، وكلاكل الدهر نوائبه وآلامه. مُرْسٍ : اسم فاعل من أرسى المركبُ إذا ألقى مراسيه ووقف في الميناء ، وهنا ثابت ومستقر. لم يعبه : لم يلتحق به عيباً. بزّ : سلبَ ، بالبناء للمجهول. الديباج : ثوب سداهُ ولحمته حرير. الدمقس : الحرير الأبيض. استُلّ : انتزع منه وجُرّد ، بالبناء للمجهول. النكس : الضعيف الذي لا خير فيه. كأني : يخيَّلُ إليّ. المراتب : مجالس الفرس عند كسرى ، كل حسب رتبته الاجتماعية. آخر حسي : نهاية تصوري. ضاحين : بارزين للشمس ، والكلمة حال من حسرى التي هي خبر كأن ، ومعنى حسرى متعبون ، ضعفاء ، والمفرد حسير. خنس : راجعين أو متأخرين ، والمفرد أخنس. عَمَرَتْ للسرور دهرًا : سكن بها أهلها مسرورين زمناً طويلاً. التأسّي : التصبر ، وهو مصدر الفعل تَأسَّى. الصّبابة : الحب والشوق. حُبْس : موقفةٌ ومخصصة ، والكلمة جمع مفرده حبيس. أراني : أجد نفسي. أكْلَفُ : أولَعُ وأحب. سنخ : أصل. إس : مبدأ. من بعدُ : أي من بعد الكلام الذي تقدم ذكره ، وبعدُ هنا ظرف زمان مبني على الضم لأنه مقطوع عن الإضافة.

إيضاح وتحليل :

عصفت بالبحتري رياح الهموم ، فشدّ رحاله إلى المدائن عاصمة الفرس ، وإلى إيوان كسرى المشهور ، علَّه يلقى في هذه الزيارة شبيها له في همومه وأحزانه فيجد فيه بعض العزاء والسلوان...

ويفتتح الشاعر قصيدته بالحديث عن إبائه وعزة نفسه فيقول : لقد حفظت نفسي من الدنايا ، ونزهتها عما لا يليق بها ، وأبيت عطاء اللئيم النذل ، أوظهرت الكثير من الصبر والثبات حين نكبني الدهر مريدا شقائي وإذلالي. وعندما حلت بي الهموم والأحزان أردت أن أسرّي عن نفسي فقمت برحلة إلى قصر أبيض المدائن ممتطياً ظهر ناقتي البيضاء ، لأتسلى عن حظوظي السيئة العاثرة ، ولأجدد الحزن على آثار الفرس الساسانيين ، التي عدت عليها العوادي فجعلتها أطلالاً بالية. ولقد تذكرت هذه الآثار بسبب النكبات المتتالية التي أصابتني ، وقد تكون إحداها نكبة الخليفة المتوكل ، وقد تكون جفاء ابن عم لي ، وقد تكون غير ذلك. ومصائب الدهر قد تذكر المرء بعض الأمور ، وقد تنسيه بعضها الآخر .

ثم يقف البحتري عند أثر من هذه الآثر الفارسية التي زارها ، وهو إيوان كسرى ، الذي ضرب به المثل في العظمة فيقول : لقد تغير حال الإيوان ، وتبدل من العزة إلى الذلة ، ومن الرفعة إلى الضعة ، فأمسى قبرًا غامرًا بعد أن كان قصرًا عامرًا. ولو أنك زرته لعلمت عدوان الدهر عليه ، ولأدركت كيف انتقلت حاله من السعادة إلى الشقاء ، ومن السرور إلى الحزن ، ولتبينت كيف كان من ماضيه في عرس ، فأصبح من حاضره في مأتم !

وفي أثناء تجوال الشاعر في أطلال الإيوان تقع عيناه النفاذتان على رسوم رائعة نقشت على أحد جدرانه ، وكانت تلك الرسوم التي تمثل حرباً ضروساً دارت رحاها في مدينة أنطاكية بين جيشي الفرس والروم ، قد بلغت حدا بعيدا من الإتقان والروعة : فأنت حين تنظر إلى تلك الرسوم يخيل إليك لبراعتها وروعتها أنك ترى معركة حقيقية لا صورة لمعركة رسمت على الجدار ، فتخاف أعظم الخوف من أشباح الموت الماثلة فيها ، إذ بدا كسرى يقود جيشه ، وهو يحث جنوده على القتال ، تظلله الراية الملكية الكبيرة ، وكان كسرى في تلك الصورة يبدو مرتدياً لباسه الأخضر التقليدي ، ممتطياً ظهر جواد نشيط ، يختال في مشيه ، وعلى الجواد جُلّ

أصفر اونه شبيه بالزعفران ، وكان رجال كسرى يحاربون الأعداء بين يديه ، وهيئتهم توحي بأنهم صامتون ، جادون ، لهول المعركة وضراوتها. وكان بعض هؤلاء الرجال يهوي بصدر رمحه نحو العدو في جد وحذر ، وكان بعضهم الآخر يتلقى ضربة خصمه بالترس... ترى هذه الصورة التي جاءت آية من آيات الفن والإبداع فيخيل للعين أن رسومها أشخاص حقيقيون لا رسوم فحسب ، ولكنهم أشخاص لا يتفاهمون بالصوت كبقية الناس ، وإنما يتفاهمون بالإشارة كالخرس... وعندما كنت أتأمل في هذه الصورة البارعة اشتد شكي في حقيقتها ، فدفعني هذا الشك القوي إلى تتبع أجزائها باللمس لأعرف حقيقتها .

ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك من وصف هذا المشهد الجزئي إلى وصف منظر الإيوان وحالته بشكل عام. والإيوان ، كما ذكرنا ، بناء رائع في ضخامته وعظمته ، إذ هو مكان عظيم الاتساع والارتفاع ، محاط بثلاثة جدران ، وله سقف يربو علوه على ثلاثين متراً. ويستبد الإعجاب بالشاعر ذي الإحساس المرهف والمخيلة الخصبة فيقول : كأن هذا الإيوان ، لإتقان صنعته وضخامة شكله وشدة اتساعه وارتفاعه ، فجوة عظيمة في سفح جبل شديد الارتفاع والانتصاب ، بيد أن هذا الإيوان ، بسبب ما عليه من مظاهر الحزن والكآبة ، يبدو أمام عيني زائره في الصباح والمساء ، شبيها بحبيب فارقه حبيبه ، أو رجل أرغم على طلاق زوجه التي يحبها...

ويمضي البحتري في رسم معالم الكآبة البادية على الإيوان قائلا : لقد تنكر الدهر للإيوان العظيم ، وشيمة الدهر أن يتنكر للعظماء ، فبات سعده شقاء ، وأصبح عزه ذلاً ، وصار كوكب المشتري الميمون الطالع كوكب شؤم فيه ، وأصابه الدهر بنوائبه ، فهدّم قسماً كبيرا منه ، ولكن بقيت من الإيوان بقية تشهد بعظمته ، وتدل على مدى ثباته أمام النوائب والخطوب... إنه لم يبق في الإيوان الآن شيء مما كان فيه من مظاهر الترف والثراء : فلا بسط من الديباج ، ولا ستائر من الدمقس! أجل لقد خلا الإيوان من كل أثاث ورياش ، إلا أن ذلك لا يعيبه ، لأن ما فيه من الرسوم

والزخارف مضافاً إلى عظمة البناء وروعته أجمل من كل أثاث ورياش ، ولذلك ظل الإيوان يوحي إلى زائره بالعظمة : فلا يدري هذا الزائر : أكان الإيوان من صنع الجن أم من صنع الإنس؟! ومهما يكن من شيء فإني أرى أن الملك الذي بناه لم يكن ضعيفاً بين الملوك ، لأن عظمة البناء تشهد بعظمة الباني؛

ثم ينتقل البحتري من هذا الوصف الواقعي لحاضر الإيوان الكئيب إلى وصف خيالي لماضيه الرائع ، فيحيي أمام أعيننا مشاهد جميلة لهذا الماضي ، فيقول : يخيل إلي ، إذا أغرقت في الخيال والتصور ، أنني أرى الإيوان حين كان عامراً بأهله ، وحين كانت حاشيه كسرى تأتي إلى مجلسه في هذا الإيوان ، فيجلس كل واحد من أفراد الحاشية في الموضع المناسب لمكانته الاجتماعية... وحين كانت الوفود الكثيرة تأتي إليه من جميع الأنحاء ، فيكون جمع حاشد يقف بعضه في الشمس متعباً من شد الحر والزحام ، ويقف بعضه الآخر بعيدا عن هذا الزحام ، متخلفاً عنه...

ثم يفيق البحتري من غيبوبته ، وينتبه إلى الواقع ، فيقول : كانت ديار كسرى ميداناً للسرور يجرى فيه القوم أشواطاً بعيدة ، فأصبحت دياره الآن مثاراً للكآبة والحزن ، وباعثاً على العبرة والعزاء... ومن حق هذه الديار علي أن أبكيها بدموع حارة غزيرة ، وقفتها على بكاء العظماء المنكوبين ممن أحبهم ، وتشوقني ذكراهم... ...أجل لقد تألمت لمصير الإيوان ، وبكيت من أجله ، مع أنه ليس لي بدار ، ومع أن بانيه ليسوا من قومي ولا من عشيرتي ، ولا غر وفي ذلك ما دامت إنساناً يحب الأشراف والعظماء من أي جنس كانوا.

دراسة أدبية :

توجه البحتري إلى أطلال المدائن ليتعزى بمشاهدتها عن المصائب المتتالية عليه ، وقد كانت الرحلات ، وما تزال ، وسيلة من أهم الوسائل التي تسلّي المحزون ، وتفرج المكروب ، كما يقرر ذلك علماء النفس...

والبحتري ، في نظر نفسه ، شاعر لم يتنفس عصره عن مثله ، أقبلت عليه الدنيا ذات يوم ، فأذاقته حلاوة العيش ، وجعلته يجر مطارف المجد في قصور الخلفاء ، ولا سيما في ظل ولي نعمته المتوكل ، ووزيره الفتح بن خاقان ، حيث قضى الشاعر ست عشرة سنةً كانت ربيع عمره ، وزهرة حياته... لـكن الأيام تغيرت عليه ، ففجعته بمقتل الخليفة المتوكل ووزير الفتح بمرأى منه ومسمع ، ثم أعقب مقتلهما عهد مليء بالفوضى والاضطراب فـكثرت في هذا العهد السعايات والوشايات ، ووهنت أخلاق الناس ، وانحلت روابط القربى ، وتفـكـكت عرا الصداقة... ولم ينج الشاعر من آفات العهد المذكور ، إذ تغير عليه أصدقاؤه ، وتنـكر له أقاربه وأبناء عمه. مع أنه شاعر مجيد ، أكسب قومه وأقاربه مجدا شامخاً ، وشرفاً باذخاً...

والإيوان ، إيوان كسرى. مثوى الأكاسرة العظـام ، ومقر حـكمهم ، ومسرح عزهم وأمجادهم ، الإيوان الذي لم تعرف الدنيا في أيامه بناءً أعظم منه ولا أروع... ويحدثنا التاريخ أن مملـكة الفرس كانت مزدهرة قوية في القرن السادس الميلادي، وهو القرن الذي بني فيه الإيوان ، وأن حدودها كـانت محـاطـة بالأسوار المرتفعة ، كذلك السور الذي بناه كسرى في القرن المذكور ، فجعل عرضه ثلاثمائة ذراع ، وعلاّه حتى ألحقه برؤوس الجبال ، ثم قاده إلى البحر ، وجعل عليه باباً ، ووكَّل به الحراس... ويحدثنا التاريخ كذلك أن الفرس آنذاك أحرزوا انتصارات باهرة ، من أشهرها ذلك الانتصار الذي أحرزه كسرى على الروم في مدنية أنطاكية عام 540 م فخلده الرسامون على أحد جدران الإيوان... وكانت الوفود تغدو إلى هذا الإيوان وتروح ، راجية مؤملة، أو معتذرة تائبة !. لـكنّ الأيام عدت على الإيوان أي عدوان ، وعبثت به أسوأ عبث ،... بيد أن ما بقي من الإيوان ظل دليلا قاطعاً على عظمة ماضيه.

وهـكذا وحدت المأساةُ بين الشاعر وبين الإيوان : فالشاعر في ماضيه وحاضره شبيه بالإيوان في ماضيه وحاضره : فـكان ذلك الشبه مثارا لهموم

الشاعر وأحزانه ودافعاً له على التذكر والتفكر والاعتبار... ومن هنا كان للشاعر في قصيدته غرضان رئيسان ذكرهما بقوله :

حضرتْ رحلي الهمومُ فوجهتُ إلى أبيض المدائن عنسي
أتسلّى عن الحظوظ وآسى لمحل من آل ساسانَ دَرْسِ

وفي الحق أن هذين الغرضين ، أي الترويح عن النفس والحزن على الآثار الفارسية الدارسة ، يطالعاننا في مواطن عدة من القصيدة. أما الغرض الأول ، وهو الترويح عن النفس ، فقد تحقق بالرحلة إلى المدائن ومشاهدة آثارها. وأما الغرض الثاني فقد تمّ بالتأمل في أطلال تلك الآثار ، وتذكر ماضيها ، ووصف ما رأته العين ، وما وعته الذاكرة وصفا حياً أميناً ، يبدو فيه هذا التجاوب النفسي الرائع بين الشاعر وبين ما يصفه ، وتلك مزية فنية نادرة مبعثها الإحساس الصادق ، وهي مزية لا يوفق إليها إلا أفذاذ الشعراء كصاحبنا البحتري.

وإلى جانب الفكرتين الأساسيتين اللتين أشرنا إليهما من قبل نجد أفكاراً ثانوية أخرى مبثوثة في ثنايا القصيدة حسب الترتيب التالي :

يستهل البحتري سينيته مفتخراً بترفعه وإبائه ، وصبره على محن الدهر وشدائده : البيتان 1 و 2 .

ويذكر أسباب الرحلة إلى الإيوان : الأبيات 3 و 4 و 5

ويصف الجرماز أو الإيوان وصفاً عاماً : البيتان 6 و 7.

ويقف عند مشهد جزئي يمثل معركة أنطاكية التي جرت بين الروم والفرس : الأبيات من 8 — 14.

ثم يعود إلى وصف حاضرا الإيوان وضخامته، ومظاهر الكآبة البادية عليه : الأبيات من 15 — 22.

ثم يصف ماضي الإيوان ومظاهر عزه على أيام كسرى : البيتان 23 و 24.

ثم يخلص إلى الحديث عن أثر الرحلة في نفسه ، ويبين أسباب حزنه على الإيوان : الأبيات من 25—28

ومن تتبع الأفكار التي جاءت في سينية البحتري ، بل في الأبيات التي اخترنا ها لك منها ، تبدو خطة الشاعر في عرض أفكاره ومعانيه ، وهي خطة منطقية ، يظهر منها حسن الارتباط والتسلسل ، كما تبدو فيها سلامة الذوق ، وجودة الاختيار : فمطلع القصيدة الذي حدثنا فيه الشاعر عن كآبته وهمومه هيأجوا ملائماً للحديث عن كآبة الإيوان العظيم المنكوب ، والحديث عن حاضر الإيوان الكئيب تمهيد مناسب للحديث عن ماضي الإيوان المجيد ، وإن شئت فقل إنه قد يكون تعويضاً عما أحسه الشاعر من نقص في عناصر الجمال المحسوس ، ومحاولة فذة منه لبعث الحياة والحركة من جديد في تلك الأطلال البالية !

والأفكار التي جاءت في أقسام القصيدة ملائمة لها كما يبدو للمتأمل فيها ، وقد غلب الوصف عليها فجاءت كلها فيه تقريباً ، وكان الوصف رائعاً لأنه يقلب السمع بصرا كما يقولون. وذلك أن هذا الوصف غني متنوع تلتقي فيه الألوان والظلال والحركات... ويخرج من ذلك كله مشهد حي للإيوان منحه الخلود على تطاول الأزمان هو آية هذا الغنى في الوصف والتنوع أن منه ما هو عام ، وماهو خاص ، كما أن منه ما هو واقعي ، وما هو إبداعي ، وكذلك منه ما هو مادي ، وما هو معنوي ، وأخيرا وليس آخرا منه ما هو من نصيب العين ومنه ما هو من نصيب الأذن :

فوصف البحتري للجرماز ، ولضخامة الإيوان من قبيل الوصف العام الذي لا يعنى فيه بذكر الدقائق والتفاصيل عناية كبيرة ، وأما وصفه للصورة التي تمثل معركة أنطاكية فإنه من قبيل الوصف الخاص أو الجزئي الذي عني فيه الشاعر بذكر الحالات النفسية ، ووصف الحركات والألوان والأصوات

الخافتة ، ووقف فيه عند كثير من الدقائق والتفاصيل حتى أعـاد المشهـد كاملا أمام أعيننا ، ولـكن ليس بالخطوط والألوان كما يفعل الرسامون والمصورون ، بل بالحروف والـكلمات كما يفصعل الشعراء المبدعون ، وإن شـككت في هذا فإليك معركة أنطاكية كأنك تراها بعد أن خلدها في شعـره البحتري :

هـا هـو كسـرى أنـو شـروان تظـلله رايتـه الملـكيـة الـكبيـرة ، وهو يزجي صفوف المحاربين الصامتين لهول المعركة وشدتها ، ويرتدي ثيابه الخضراء ، ويمتطي جوادا ذا حُلّ أصفر كالزعفران،... وها هو محارب يشد على عدوه بطعنة من رمحه ، وها هو محارب آخر يتلقى سلاح عدوه بالترس ،... وها هي أشباح الموت تخيم في سماء المعركة ! حتماً لقد أعاد البحتري رسم صورة المعركة ، ولـكن في ديوان شعره ، وليس على جدران إيوان كسرى ، وكان كسرى في الديوان أخلد منه في الإيوان ، وشتان بين فن يزول ويفنى ، وفن يخلد ويبقى !

ونريد بالوصف الواقعي ذلك الذي يستمد الشاعر عناصره مما تقع عليه حواسه ، وهو الوصف الغالب على القصيدة...

ونريد بالوصف الإبداعي أو الخيالي ذلك الذي يعتمد فيه الشاعر على ما تعيه ذاكرته أو ما تبدعه قريحته مما لا تقع عليه حواسه ، ومثاله في السينية وصف البحتري لماضي الإيوان ، وحديثه عن منازل الفرس بين يدي كسرى ، وصور الوفود المتزاحمة حول الإيوان في حر الشمس ، وهنا يحلق الشاعر في سماء الفن إلى حيث لا يخفق إلا جناحاه.

ولا ننسى ذلك الوصف الذي مزج فيه الشاعر بين نفسه وبين الإيوان في مواضع عديدة من القصيدة ، ولا سيما في القسم الأخير منها ، وقد كان لهذا الأسلوب من الوصف أثره البعيد في نفوسنا ، إذ جعلنا نشعر بصدق عواطف الشاعر ، ونحس عمقها وحرارتها ، وندرك أن صاحبها ينقل إلينا

تجارب نفسية مر بها وذاقها... وهي عواطف متباينة ، يمتزج فيها الفخر بالحزن والإعجاب :

فالبحتري فخور بإبائه وترفعه وصبره وتجلده... حزين على حظوظه العاثرة ، وآماله الضائعة ، حزين لما آلت إليه المدائن عاصمة الفرس من وحشة وكآبة وخراب... وهو في الوقت نفسه معجب بما بقي من الآثار الفارسية إعجاباً لا حدود له... وقد كان هذا الإعجاب أحد العوامل التي دفعته إلى زيارة تلك الآثار وتخليدها في شعره ، بل كان سبباً في دمعه السخين الذي ذرفه على أطلالها الموحشة البالية ، وهنا نحس سمو عواطف الشاعر ، وتحليقه في جو إنساني رفيع يتخطى به حدود البيئة والجنس.

وآثار العصر واضحة كل الوضوح في سينية البحتري ، وهو العصر العباسي الذي تمازجت فيه الثقافات الأجنبية بالثقافة العربية ، فدخل إلى العربية من جرائه الكثير من ألفاظ الأمم الأخرى ، ولا سيما الفرس ، أقوى هذه الأمم تأثيرا ، وأوسعها سلطاناً ونفوذا في العصر الذي أظل شاعرنا البحتري ،...

ومن الألفاظ الفارسية الواضحة في القصيدة ، لفظة (الإيوان) و(الجرماز) و(الدرفس) و(الديباج) و(الدمقس) ، وقد عرفت معناها من قبل ، ونحن لا نحس أي نبوأ و عجمة في الألفاظ السابقة ، لأن يد الشاعر الملهم عرفت كيف تمسح عنها آثار العجمة ، وعرفت كيف تخضعها للشعر العربي وقوافيه ؟!.

وشخصية البحتري ماثلة في هذه السينية من نواح عديدة : منها براعته في الوصف وافتنانه فيه ، ومنها ثقافة الشاعر التاريخية ، وإلمامه بتاريخ الأسر الفارسية المالكة ، وإطلاعه على عادات الفرس وتقاليدهم... ومثل البحتري في ذلك مثل كثير من رجال الأدب والفكر في العصر العباسي...

دراسة بلاغية :

ذكرنا أن لسينية البحتري منزلة كبيرة أشاد بها الكثير من الأدباء والنقاد في القديم والحديث. وما من شك في أن سينية البحتري لم تبلغ هذه المنزلة الرفيعة لو لم يكن لأسلوبها حظ عظيم من الإجادة الفنية. فما المزايا التي اتسم بها ذلك الأسلوب حتى حظيت، بإعجاب النقاد والأدباء قديماً وحديثاً ؟

للإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن نلم بعبارات القصيدة ، وألفاظها ، وأن نبين طبيعة تلك العبارات والألفاظ من حيث الفصاحة والبلاغة ، والاعتماد على الخبر والإنشاء ، والحقيقة والمجاز ، كما أنه لا بد لنا من معرفة خصائص الموسيقى وعلاقتها بالموضوع والأفكار ، وبالوزن والقافية لأن أسلوب القصيدة هو حصيلة هذه الأشياء مجتمعة...

فعبارات القصيدة جزلة قوية ، متينة السبك ، شديدة الأسر ، ليس فيها ضعف ولا تنافر... وقد اعتمد فيها الشاعر على الأسلوب الخبري دون الإنشائي لأن الموقف موقف عظة واعتبار ، وتأمل وتفكير ، ووصف وتصوير ، والأسلوب الخبري أكثر ملاءمة من الإنشائي في مثل هذه المواقف ، كما اعتمد الشاعر ، في إبراز معانيه على طائفة حسنة من التشابيه والاستعارات والكنايات ، تركنا لك شرحها وتحليلها.

فمن صور التشبيه ما تجده في الأبيات 6 و 15 و 16 و 17 و 18.

ومن صور الاستعارة ما تجده في الأبيات 2 و 3 و 9 و 13 و 14 و 19.

وهنالك كناية بارزة في البيت الثامن أراد بها البحتري أن يعبر عن جودة الفن وبراعة التصوير... والقارىء لا يشعر بأن البحتري يتكلف هذه الصور البيانية لأنه كان ذا مخيلة خصبة تسعفه بما يشاء من الأخيلة والصور، كما كان ذا طبع شعري أصيل ، وذوق أدبي سليم ، وعاطفة جياشة صادقة.

وألفاظ السينية عذبة ، متآلفة الحروف ، وهي مما قبلته الأذواق السليمة ، وصقلها الاستعمال الجيد ، وقل فيها الغريب النافر ، هذا ولا تتناقض الأحكام السابقة مع طول الشرح اللغوي لأن ذلك الطول يعود إلى عوامل منها وعورة القافية ، وطول الأبيات المختارة ، وكثرة الإشارات التاريخية... والبحتري في ألفاظه ، فنّان بارع ، يعرف كيف يختار الألفاظ المناسبة للموضوع العام، وللأفكار الخاصة بكل جزء من أجزاء القصيدة : فألفاظ الفخر قوية توحي بالثقة بالنفس (ترفعت ، تماسكت..) وألفاظ الشكوى حزينة تشعر بالكآبة والوجوم (الهموم ، الحظوظ ، آسى ، درس) ، وألفاظ الوصف معبرة تدل على رهافة الحس ، وصدق الشعور ، وسعة الخيال ، وسلامة الذوق ، وبراعة الفن ، ولذا أكثر الشاعر من أدوات التشبيه والتخيل ، فكرر كلمة (كأن) عدة مرات ، كما أكثر من الكلمات الدالة على الصور البصرية (لو تراه ، إذا ما رأيت ، تصف العين..) وتبدو الخصائص السابقة جلية في القسمين الرابع والخامس أي في القسم د والقسم هـ.

وقد اختار البحتري كلماته من نوع معين تكثر فيه حروف الصفير وهي حروف السين والصاد والزاي ، وقد كان هذا الاختيار ملائماً لجو الخشوع والهمس ، جو الإيوان الكئيب الخاشع الهامس ، الذي يفرض على زائره أن يخشع قلبه ، ويخفض صوته ، كما يفعل كل من يزور مكاناً مقدساً جليلا ، وقد جاءت كلمات البحتري المهموسة لتعبر عن ذلك كله ، وتوحي بذلك كله ! ولا تظهر هذه المزية جيدا إلا حين نستبدل كلمات البحتري الجميلة المهموسة بما يرادفها من كلمات أخرى غير مهموسة ، وخاصة كلمات الشطر الأول من البيت الأول...

وقد كان لاختيار الكلمات أثر بعيد فيما يسمى بالموسيقى الداخلية للقصيدة ، وهي الموسيقى التي تنشأ عن اختيار كلمات معينة ذات خصائص صوتية مناسبة للموضوع وللمعاني ، كما كان لاختيار الوزن الشعري ، وهو البحر الخفيف ذو التفعيلات الرصينة الجادة الموحية بمعاني الجلال والخشوع أثره الواضح في موسيقى القصيدة الرائعة ، الملائمة للموضوع

وللمعاني كذلك. وهكذا جاءت موسيقى السينية حصيلة لما يسمى بالموسيقى الداخلية الناشئة عن حسن انتقاء الكلمات والعبارات ، والموسيقى الخارجية الناشئة عن حسن اختيار الوزن والقافية، وقد رأينا أن البحتري كان موفقاً في كل ما أتى به.

وفي السينية محسنات بديعية قليلة ، مثل التصريع في البيت الأول ، والطباق في قوله (مأتماً بعد عُرس) وقوله (مصبّح أو ممسّ) وقوله (جنّ وإنس) ، ومثل الجناس الناقص في قوله (من مشح... ومليح)... إلاّ أن هذه المحسنات جاءت عفوية غير متكلفة ، لأن عناية الشاعر كانت متجهة أولا إلى الوصف والتصوير وتوفية المعاني حقها ، قبل أن تكون متجهة إلى الزخرنة الكلامية ، والزركشة اللفظية البديعية...

مجمل القول :

سينية البحتري نسيج وحدها في الشعر العربي ، ذلك أن وصف الآثار القديمة موضوع لم يطرقه أي شاعر عربي قبل البحتري ، فيما نعلم ، وقد كان الوصف هو الموضوع الغالب على القصيدة ، وهنالك أفكار أخرى إلى جانب الوصف منها الفخر والشكوى والإعجاب بالحضارة الفارسية.. وكانت خطة القصيدة حسنة انتقل فيها الشاعر من الخاص إلى العام ، ومن الجزئي إلى الكلي.

وقد أجاد الشاعر في هذه السينية إجادة منقطعة النظير ، لم يسبقه إليها سابق ، ولم يلحق به فيها لاحق ، وقد أسعفه في هذه الإجادة خيال خصب ، وإحساس صادق ، وطبع فياض ، وذوق سليم ، وعبارات رصينة جزلة ، وموسيقى شجية مؤثرة... ومن أجل ذلك قال النقاد في السينية : «وصف البحتري إيوان كسرى ، فانتقل كسرى من الإيوان إلى الديوان ، وكان كسرى في الديوان أخلد منه في الإيوان». أما وزن القصيدة فهو البحر الخفيف ، وتفعيلاته :

فاعلاتُنْ مستفعلن فاعلاتُنْ فاعلاتُنْ مستفعلن فاعلاتُنْ

مناقشة القصيدة :

1 – بم يفتخر البحتري في مطلع قصيدته ؟ وما دواعي هذا الافتخار ؟

2 – لماذا توجه البحتري إلى إيوان كسرى دون غيره عندما نكبه الدهر ؟

3 – ما الأثر الذي يتركه في نفسك وصف البحتري للجرماز ؟

4 – أفتن الشاعر في حديثه عن الصورة التي تمثل معركة أنطاكية ، أعد شرح الأبيات المتعلقة بهذه الصورة بأسلوبك الخاص ، وبين سر براعته فيها.

5 – استخرج من وصف الشاعر للمعركة المذكورة (لوحة) فنية ، إن كنت من هواة الرسم ، ثم قارن ، بعد الانتهاء من عملك ، بين بلاغة الشعر وبلاغة الرسم.

6 – ما الصورة التي رسمها الشاعر للإيوان في الأبيات من 15 – 22 ؟ وهل أعجبتك تلك الصورة ؟ ولماذا ؟

7 – أكان الوصف الذي أورده البحتري في البيتين (23 و 24) مما تراه العين أم مما تعيه الذاكرة ؟ وماذا تسمي الوصف في ذينك البيتين ؟ وضح إجابتك.

8 – هل يعجبك موقف الشاعر من الإيوان بعد زيارته له ؟ وعلى أي شيء يدل هذا الموقف ؟

9 – أكان وصف الشاعر يكتفي برسم المظاهر الخارجية أم كان وصفاً وجدانياً ضمنه أحاسيه ومشاعره ؟ وضح إجابتك.

10 – في السينية أبيات تدل على إعجاب الشاعر بالحضارة الفارسية. عين هذه الأبيات.

11 – قسم القصيدة إلى أفكارها الأساسية ، وضع لكل قسم عنوانه المناسب.

12 — إذكر الأبيات التي تدل على عصر الشاعر وعلى شخصيته.

13 — في القصيدة عواطف متباينة. حدد هذه العواطف، وبين خصائصها.

14 — ما رأيك في أسلوب القصيدة. اشرح خصائص هذا الأسلوب.

15 — استخرج التشابيه والاستعارات المشار إليها في الدراسة البلاغية، وبين جمالها الفني.

16 — في القصيدة موسيقى داخلية وخارجية، اشرح كلا منها، ومثل له بما تراه مناسباً من أبيات القصيدة.

17 — استخرج أهم الألوان البديعية الواردة فيها، وبين أثرها في القصيدة.

18 — ما الأثر الذي تركته سينية البحتري في نفسك؟ وضح إجابتك توضيحا كا فياً.

تدريب تطبيقي :

قمت بزيارة لأحد الأماكن الأثرية في بلادك الجزائر، صف مشاهداتك وانطباعاتك على ضوء ما مر بك في سينية البحتري.

مراجع :

1) ديوان البحتري. أربعة أجزاء. تحقيق حسن كامل الصيرفي.

2) الموازنة بين الطائيين للآمادي. تحقيق محيء الدين عبد الحميد.

3) من حديث الشعر والنثر لطه حسين.

4) الفن ومذاهبه في الشعر العربي لشوقي ضيف.

5) البحتري. عدد من سلسلة نوابغ الفكر العربي لأحمد أحمد بدوي.

نماذج من شعر البحتري

أ ـ المدح

مدحه للمتوكل وتهنئته بعيد الفطر

1 ـ اللهُ مَكَّنَ لِلخَليفَةِ جَعْفَرٍ مُلْكاً يُحَسِّنُهُ الخَليفَةُ جعفرُ
2 ـ نُعمى من الله اصطفاهُ بفضلها واللهُ يرزُقُ من يشاءُ ويقدُرُ(1)
3 ـ فاسْلمْ، أميرَ المؤمنينَ ولا تَزَلْ
تُعطي الزيادَةَ في البقاءِ وتَشْكُرُ
4 ـ عمَّتْ فواضلُكَ البريةَ فالتَقَى
فيها المُقِلّ على الغِنَى والمُكْثِرُ(2)
5 ـ بالبرّ صُمْتَ، وأنتَ أفضلُ صائم
وسُنَّةِ اللهِ الرَّضيَّةُ تُفْطِرُ
6 ـ فانعَمْ بيوم الفطْرِ عيداً، إنه يومٌ أغرّ على الزمانِ مُشَهَّرُ
7 ـ أظْهَرتَ عزّ الملك فيه بجَحْفَل
لَجبٍ، يُحَاطُ الدينُ فيه، ويُنْصَرُ(3)
8 ـ خِلنَا الجبالَ تسيرُ فيه وقدْ غدَتْ
عُدَداً يسيرُ بها العَديدُ الأكثرُ(4)
9 ـ فالخيلُ تَصْهَلُ، والفوارسُ تدّعي
والبيضُ تَلْمَعُ، والأسنةُ تَزْهَرُ(5)
10 ـ والأرضُ خاشعةٌ تَميدُ بثقلها
والجوّ مُعْتَكِرُ الجوَانبِ أغْبَرُ(6)
11 ـ والشّمسُ ماتعَةٌ تَوَقّدُ بالضّحَى
طوراً، ويُطْفئُهَا العَجاجُ الأكدرُ(7)

12 ـ حتى طلعْتَ بضُوء وجهكَ، فانجلتْ
تلك الدّجَى، وانجابَ ذاك العِثْيَرُ(8)

13 ـ وافتَنَّ فيكَ الناظرون : فإصبَعٌ
يُومَا إليكَ بهَا، وعينٌ تَنْظُرُ

14 ـ يجدونَ رؤيتكَ التي فازوا بها
من أنعم الله التي لا تُكْفَرُ

15 ـ ذكروا بطلعتكَ النبيّ، فهلّلوا لما طلعتَ من الصفوفِ وكبَّرُوا

16 ـ ومشَيْتَ مِشْيَةَ خاشعٍ، متواضعٍ
لله لا يُزْهَى، ولا يَتَكَبَّرُ

17 ـ فلو أنّ مُشتاقاً تَكَلَّفَ فوق ما
في وُسْعِهِ لسعى إليكَ المِنْبَرُ

(1) يقدر : يضيق الرزق أو يمنعه . ـ (2) فواضلك : نعملك الكثيرة . المقل : الفقير المكثر : الغني . (3) ـ جحفل لحب : جيش كثير العدد ـ (4) عدداً : سلاحاً والمفرد عدة . العديد : العدد . ـ (5) تدعي : تفتخر بذكر أنسابها . تزهر : تتلألأ . ـ (6) تميد : تتحرك وتضطرب . معتكر الجوانب : مظلم الجوانب . ـ (7) ماتقة : مرتفعة . المجاج : الغبار . الأكدر : الأسود .
(8) إنجاب ذاك العثير : زال ذلك الغبار .

ب ــ الوصــف:

وصف بـركـة المتوكـل في حـديقتـــه:.

1 ــ يَا مَنْ رَأى البِرْكَةَ الحَسْنَاءَ رُؤْيتُها
وَالآنسَــاتِ إذَا لاَحَــتْ مَغَــانيهَـــا(1)

2 ــ بِحَسْبِهَا أنَّهَا في فَضْــلِ رُتْبَتِهَا
تُعَـدُّ وَاحِـدَةً ، وَالبَحْـرُ ثَـانيهَـــا(2)

3 ــ مَا بَال دِجْلَةَ كَالغَيْرَى تُنَافِسُهَا
في الحُسْنِ طَوْرًا ، وَأطْوَارًا تُبَاهيهَـا(3)

4 ــ تَنْصَبُّ فِيهَا وُفُودُ المَاء مُعْجَلَـةً
كَالخَيْلِ جَارِيَـةً مِنْ حَبْلِ مُجْـرِيهَـا(4)

5 ــ كَأنَّمَا الفضَّـةُ البَيْضَـاءُ سَـائلَـةً
مِنَ السَّبَـائِـكِ تَجْـرِي في مَجَـارِيهَـا(5)

6 ــ إذَا عَلَتْهَـا الصَّبَـا أبْدَتْ لَهَا حُبُـكاً
مِثْلَ الجَوَاشِنِ مَصْقُـولاً حَـوَاشيهَـــا(6)

7 ــ فَحَاجِبُ الشَّمْسِ أحْيَاناً يُغَازِلُهَـــا
وَرَيِّـقُ الغَيْثِ أحْيَـانـاً يُبَـاكيهَــــــا(7)

8 ــ إذَا النجُـومُ تَرَاءتْ في جَوَانِبِهَـــا
لَيْـــلاً حَسِبْـتَ سَمَـاءً رُكِّبَـتْ فِيهَـا(8)

9 ــ لا يبلغ السمكُ المحصورُ غَـايتَهَـــا
لبُعْــدِ مـا بَيْــنَ قاصيهـا ودانيهَـــا

(1) مغانيها : مفردها مغْنى وهو المنزل . والمقصود المقاصير المبنية حول البركة لاغتسال الجواري (2) رتبتها : منزلتها . ــ (3) تنافسها : تسابقها في البهاء والحسن . ــ (4) وفود : جمع وافد . معجلة : مسرعة في تدفقها وجريانها . ــ (5) السبائك : جمع سبيكة : البوتقة التي تذوب فيها الفضة أوهي القطعة من الفضة ونحوها ذوبت وأمحرغت في قالب . ــ (6) الصبا : ريح خفيفة لينة . أبدت : أظهرت . حبكا : جمع حبيكة ، ويرادبها تجعد وجه الماء وتكسره . الجواشن : جمع جوشن وهو الدرع . ــ (7) حاجب الشمس : بعض شعاعها . ريق الغيث : أول المطر . ــ (8) فراءت : ظهرت . ــ (9) غايتها : نهايتها .

ج ـ الرثـــاء

رثاؤه للمتوكل الذي قتل بيد ابنه المنتصر والمتامرين عليه من قادة الجيش عام 247هـ

1 ـ مَحَلٌّ على القاطول أخلَق داثِرُهْ
وعادتْ صروفُ الدهر جيشاً تُغاوِرُهْ (1)

2 ـ كأنّ الصَّبا تُوفي نذوراً إذا نبرتْ
تراوحُهُ أذيالُهَا ، وتباكره (2)

3 ـ ورُبَّ زَمَانٍ ناعمٍ ثَمَّ عَهْدُهُ
تَرِق حواشيهِ ، ويُورقُ ناضِرُهْ

4 ـ تَغَيَّرَ وجهُ الجعفريّ وأنسُهُ وقُوِّضَ بادي الجعفريّ وحاضرُهُ 3

5 ـ تحمَّلَ عنه ساكنوهُ فُجاءةً فَاضتْ سَوَاءً دَوْرُهُ ومَقَابرُهْ (4)

6 ـ إذا نحن زُرناهُ أجدّ لنا الأسى وقد كان قبْلَ اليوم يُبْهَجُ زائرُهْ

7 ـ ولم أنسَ وحشَ القَصْرِ إذْ رِيعَ سربُهُ
وإذ ذُعِرَتْ أطلاؤُهُ وجآذِرُهْ (5)

8 ـ وإذ صِيحَ فيه بالرّحيلِ ، فَهتّكَتْ
على عَجَلٍ أستَارُهُ وستَائرُهْ (6)

9 ومُغْتَصَبٍ للقتلِ لم يُخْشَ رَمْطُهُ
ولم تُحْتَشَمْ أسبَابُهُ وأواصِرُهْ (7)

10 ـ صريعٍ تَقَاضاه السيوفُ حُشَاشَةً
يجودُ بها والموتُ حُمْرٌ أظافرُهْ (8)

11 ـ أدافعُ عنه باليدينِ ، ولم يكُنْ ليثني الأعادي أعزلُ الليلِ ، حاسرُهْ

12 ـ ولو كان سيفي ساعةَ الفتك في يدي
درى الفاتكُ العَجْلانُ كيف أسَاوِرُهْ (10)

13 ـ أكان وليّ العهد أضمرُ غَـدْرَةً
فمن عَجَبٍ أنْ وُلِيَ العَهْدَ غادِرُهْ ؟!(11)

14 ـ فلا مُلِّيَ الباقي تُراثَ الذي مضى
ولا حَمَلَتْ ذاكَ الدعاءَ منابِرُهْ !(12)

---

(1) القاطول نهر صغير بالعراق بني حوله قصر الجعفري الذي قتل فيه الخليفة المتوكل . أخلق : بلي . داثره : بناؤه المتهدم . صروف الدهر : مصائبه . تغادره : تغير عليه . ـ (2) الصبا : الريح الشرقية . تراوحه تأتيه عشية أو عند الرواح ، وتباكره : تأتيه بكرة أو عند الصباح الباكر . ـ (3) الجعفري : قصر الخليفة جعفر المتوكل . قوص : هدم . بادي الجعفري وحاضره : منازله البدوية والحضرية . (4) آضت : صارت . ـ (5) وحش القصر : وحوشه أو نساءه . سربه : جماعته . أطلاؤه وجآذره : أطلاؤه : غزلانه ، والمفرد طلي . جآذره : أولاد البقر الوحشي ، والمفرد جؤذر ويضرب المثل بجمال عيني الغزال والجؤذر هذا ويحتمل أن يكون المقصود بالأطلاء والجآذر معناها الحقيقي أي الحيوانات التي كانت في حديقة القصر فخرجت مذعورة ساعة مقتل المتوكل ، ويحتمل أن يكون المقصود معناها المجازي أي النساء والأطفال . ـ (6) هُتِّكت : مزقت وشقت . أستار : جمع لستر ، وستائره : جمع لستارة والمعنى واحد تقريبا وهو ما يستر به . ـ (7) ومغتصب للقتل : درب مغتصب للقتل والمقصود به المتوكل . رهطه : جماعته أو أنصاره . تحتشم : تحترم . أسبابه : جمع سبب ، وأواصره : جمع آصرة ، والمقصود صلات القرابة . ـ (8) صريع : مقتول . تقاضاه : أي تقاضيا ، بمعنى تطلبه . حشاشة : بقية روح . ـ (9) أعزل الليل حاسره : الذي لاسلاح معه ، ويقصد به نفسه . ـ (10) أسادره : أحاربه (11) ولي العهد : هو المنتصر الذي تامر على قتل أبيه . ـ (12) فلا ملّي الباقي تراث الذي مضى : لامتّع الله المنتصر بتراث أبيه الذي مات .

ابـــن الـــرومي

221 ـ 286 هـ

في وصف وحيد المغنية

لابـن الـرمي

تعـريـف وتمهيـد :

الشاعر هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريج المعروف بابن الرومي ، ولد ببغداد سنة 221 هـ ، وهو ينتسب إلى الروم من ناحية أبيه ، وإلى الفرس من ناحية أمه ، وقد نشأ في بغداد يطلب العلم ، وينتفع بما كانت تزخر به مكتباتها وقتئذ من العلوم والمعارف حتى تهيأت له ثقافة واسعة ، وعلم غزير ، واستقام له اللسان العربي استقامة كاملة ، وقد أهلته ثقافته واستعداده الفطري لقول الشعر والنبوغ فيه حتى صار من أبرز شعراء العصر العباسي الأول ؛ لما تميز به من رهافة الحس ، وسرعة التأثر ، وسعة الخيال ، ودقة التصوير ، وقد مات مسموماً على الأرجح سنة 284 هـ. ومن الآثار الأدبية لابن الرومي بعض رسائل نثرية كتبها إلى بعض أصدقائه ، وديوان ضخم في الشعر يضم أغراض الشعر وفنونه المعروفة من مدح وهجاء ورثاء ، وفخر وغزل ووصف ، وعتاب ، وطرد ، وغير ذلك.

وقد كان الاسترسال في الخلاعة والمجون ، وانتشار بيوت القيان ، والإقبال على مجالس السمر والغناء نتيجة طبيعية لدخول العناصر غير العربية من فرس وترك وسريان وروم وغيرهم في الدولة العباسية ، وتقلدهم أعظم المناصب فيها ، وإحيائهم تقاليد مجتمعاتهم السابقة في المجتمع العربي الجديد ، ونظرا لما حظي به الغناء والمغنون من مكانة عالية في ذلك العصر صنف أبو الفرج الأصبهاني (284 — 356 هـ) كتابه الأغاني الذي جمع فيه أصوات الغناء وعيون الأغاني التي كانت شائعة في عصره ، وترجم لقائليها ، ومغنيها ، وأضاف إلى ذلك أشعارا وأخبارا ونوادر تتصل بتاريخ العرب وملوكهم ، وعن هذا الكتاب يقول الصاحب بن عباد : « هو للزاهد فكاهة ،

وللعالم مادة وزيادة ، وللكاتب والمتأدب بضاعة وتجارة ، وللمتظرف رياضة وصناعة ، ولقد اشتملت خزانتي على مائة ألف وسبعة عشر ألف مجلد ، ما فيها سميري غيره ».

وابن الرومي الذي عاش في ذلك العصر كان مع ما عرف عنه من عصبية في المزاج ، وإفراط في التشاؤم يتعشق الجمال ، ويحرص على التمتع بلذائذ الحياة قدر ما يتسنى له ، وما تساعده الظروف عليه ، وهذا النص أبيات له من قصيدة قالها في وصف المغنية (وحيد) التي فتنه جمالها ، وراعه غناؤها ، وصورة لمجتمع العصر الذي كثرتْ فيه مجالس اللهو والغناء..

ـ أ ـ

1 ـ يا خليليّ تيَّمتْني وحيدُ ففؤادي بهَا مُعَنًّى عميدُ
2 ـ وغريرٍ بحسْنها قال : صفها قُلْتُ : أمرانِ : بيّنٌ وشديدٌ
3 ـ يسهُل القولُ : إنهَا أحسنُ الأشياءِ طرًّا ، ويصعُبُ التحديدُ

ـ ب ـ

4 ـ تتغنّى كأنهَا لا تغنـي من سُكونِ الأوصال وهيَ تُجيدُ
5 ـ لا تراها هناك تَجْحَظُ عيْنٌ لكَ منها ولا يَدِرُّ وَرِيدُ
6 ـ من هُدُوٍّ وليسَ فيه انقطاعٌ وسُجُوٍّ وما به تبليدُ
7 ـ مدٌّ في شأوِ صوتها نَفَسٌ كا فٍ ، كأنفاس عاشقيها مديدُ
8 ـ فتراهُ يموتُ طورًا ، ويحيا مُسْتَلَذٌّ بسيطُهُ والنَّشيدُ

ـ جـ ـ

9 ـ وتَرُ العزْفِ في يَدَيها مُضَاهٍ وَتَرَ الرّجْفِ فيه سَهْمٌ شديدُ
10 ـ عَيْبُها أنها إذا غنَّتْ الأحرا رَ ظلوا وهم لديها عبيدُ
11 ـ خُلقَتْ فتْنةً : غناءً وحُسْناً ما لها فيهما جميعاً نديدُ

شـرح لغوي:

يا خليليّ: نداء للمثنى المضاف إلى ياء المتـكلم معناه يا صاحبيّ. تيمتني : ملـكت قلبي .وحيد : اسم المغنية التي يتحدث عنها الشاعر. معنى : معذب. عميد : أمرضه العشق. غرير بحسنها : الغرير قليل المعرفة والتجربة ، والمعنى رب مفتون بحسنها وجمالها. يين : سهل واضح. شديد : صعب. طرا : جميعاً. الأوصال : الأطراف ، أو مفاصل الأعضاء. تجحظ : تبرز ، وجحوظ العين صفة تشينها. يدرّ : ينتفخ. وريد : عرق في العنق. هدوّ : المقصود هدوء الصوت وخفضه. سجوّ : مصدر سجا ومعناه مد الصوت. تبليد : انقطاع. شأو صوتها : غايته وامتداده. بسيطه والنشيد : يقصد من البسيط الصوت الهادىء ، ومن النشيد الصوت العالي. وتر العزف : مـكان إحداث الصوت في الآلة الموسيقية. مضاه : مماثل ومشابه. وتر الرجف : مـكان انطلاق السهم في الآلة الحربية. نديد : مثيل.

منـاقشـة النص :

أولا : أجب عما يأتي :

1 ــ من اللذان يناديهما الشاعر في البيت الأول ؟ وماذا يقول لهما ؟

2 ــ بم وصف ابن الرومي جمال المغنية ؟

3 ــ ماذا كان جواب الشاعر على من طلب منه أن يصف له جمال المغنية ؟

4 ــ عم يتحدث الشاعر في أبيات المجموعة (ب) ؟

5 ــ ماالصورة التي رسمها الشاعر للمغنية حال غنائها ؟ وماذا قال عن صوتها ؟

6 ــ ماذا تضمن حديث الشاعر في أبيات المجموعة (ج) ؟

7 ــ كانت وحيد تقوم بالعزف والغناء معاً ــ أين تجد ذلك في النص. ؟

ثانياً : أعد قراءة الأبيات ، ثم أجب عن الأسئلة الآتية :

1 — هل كان ابن الرومي مجددا أم مقلدا فيما استهل به أبياته ، وفيما شبه به المغنية ؟ وضح ما ترى.

2 — بين البيتين الرابع والخامس صلة — وضحها.

3 — في البيت السادس حسن تقسيم ، وفي البيت السابع براعة تشبيه — اشرح موضحاً كلا منهما.

4 — تشير أبيات المجموعة (ب) إلى أن الشاعر كان صاحب ذوق في الغناء ، ومعرفة بطرق الإبداع فيه — وضح ذلك.

5 — في البيت التاسع تشبيه — وضحه ، وبين مدى ارتباطه بالبيئة.

6 — البيت العاشر أسلوب ظاهره ذم وحقيقته مدح وإطراء — وضح ذلك.

7 — هل كان الشاعر صادق العاطفة في حبه لتلك المغنية أم أنه كان مفتوناً بجمالها المادي ؟ وضح ما ترى.

8 — ما مدى ملاءمة الشاعر بين المعاني والألفاظ التي تعبر عنها؟ وضح مع التمثيل.

9 — يعكس هذا النص صورة من حياة المجتمع في عصره — اشرح هذا القول.

10 — قسم الأبيات إلى أفكارها الأساسية ، ثم اختر فكرة منها وخصها بمزيد من الإيضاح والتحليل.

تدريب تطبيقي

المقالة الأدبية :

يؤدي الفن دورا هاماً في بناء المجتمعات ، كما يلعب دورا خطيرا في هدمها. فكيف نجعل من الفن أداة بناء لا معول هدم ؟

السؤال الكتابي :

عرف ابن الرومي بالقدرة على التحليل ، واستقصاء المعاني ، وبراعة التصوير وضح ذلك مع الاستشهاد بأمثلة من النص.

نماذج من شعر ابن الرومي

أ ـ الوصف

أولا

وصف غروب الشمس

1 ـ وقد رنَّقت شمسُ الأصيلِ ، ونَفَّضَتْ
على الأُفُقِ الغَربيِّ وَرْساً مُذَعْذَعا(1)

2 ـ وودّعتِ الدنيا لتقضيَ نحبها وشوّلَ باقي عمرِها فتَشَعْشَعا(2)

3 ـ ولاحظَتِ النُّوّارَ وهي مريضةٌ
وقد وضَعَتْ خدًّا على الأرضِ أضرعا(3)

4 ـ كما لاحَظَتْ عُوّادَهُ عَيْنُ مُدْنَفٍ
توَجَّعَ من أوصابِهِ ما توَجَّعا(4)

5 ـ وظلَّتْ عيونُ النَّوْرِ تخضَلُّ بالنَّدى
كما اغرورقتْ عينُ الشَّجِيِّ لتدمعا(5)

6 ـ يُراعينَهَا صُوراً إليْهَا روانياً
ويَلْحَظْنَ ألحاظاً من الشَّجْوِ خُشَّعا(6)

7 ـ وبيَّنَ إغضاءُ الفراقِ عليهما كأنهما خلاَّ صَفَاءٍ تَوَدَّعا(7)

8 ـ وقد ضَرَبَتْ في خُضْرَةِ الرَّوْضِ صُفْرَةٌ
من الشَّمْسِ فاخضرَّ اخضراراً مُشَعْشَعاً(8)

9 ـ وأذكَى نسيمُ الروض رَيْعَانَ ظلّه
وغَنّى مُغَنّي الطَّيْرِ فيـهِ وسجَّعَـا (9)

(1) رنقت : ضعف نورها . ورساً : أشعة صفراء كالورس . مذعذعاً : مُفَرّقاً . ـ (2) لتقضي نحبها : لتغيب . شوّل باقي عمرها : ذهب . تشعشعا : لم يبق منه إلاّ القليل . (3) النوار : الزهر الأبيض . أضرعا : ذليلاً . والمقصود أنها غابت وراء اليابسة . ـ (4) عوّاده : زائرته في في المرض والمفرد عائد . مدنف : مريض شرف على الهلاك . أو صابه : أو جاعه والمفرد وصب . (5) تخضل . تبتل . اغرورقت : تجمع الدمع فيها . الشجي : الحزين . ـ (6) يراعينها : يراقبنها ، وضمير النسوة يعود إلى عبارة (عيون النور) المذكورة في البيت السابق . صورا إليها : مائلات الأعناق ، والمفرد صوراء . روانيا : مديمات النظر إليها . الشجو : الحزن . ـ (7) وبيّن إغضاء الفراق عليهما : ظهرت على الشمس والنور آثار الإغضاء وهو الإظلام بعد غروب الشمس . (8) ضربت : خالطت . مُشعشعا : ممزوجاً بالصفرة . ـ (9) وأذكى نسيمُ الروض ريعانَ ظله : وهب نسيم الروضي على نباتاته ذات الظلال الممتدة فجعلها ذكية اي منتشرة الرائحة ، سجّعا : ردّد صوته عند الغناء .

ثـانيـا

وصف قالي الزلابية

1 ــ ومُستقرٍّ على كرسيِّه ، تَعبٍ   روحي الفداءُ له من مُنْصَبٍ تعبِ(1)
2 ــ رأيتُهُ سَحَرًا ، يقلي زلابيةً   في رِقّةِ القشرِ والتجويفِ كالقصبِ
3 ــ كأنما زيتُهُ المقليّ حينَ بدا   كالكيمياءِ التي قالوا ، ولم تُصِبِ(2)
4 ــ يُلقي العجينَ لُجيناً من أناملهِ   فيستحيلُ شبابيكا من الذّهبِ(3)

ثـالثـا

وصف خباز الرقاق

1 ــ ما أنسَ لا أنْسَى خبازًا مررتُ بــه
يـدحو الرقـاقـةَ وَشْكَ اللّمْـحِ بـالبَصَـرِ(4)
2 ــ ما بينَ رؤيتِها في كفّهِ كُـرَةً
وبيـنَ رؤيتِهـا قـوراءَ كـالقَمَـرِ(5)
3 ــ إلاّ بمقدار ما تنداحُ دائرةٌ   في صفحة الماء يُرمَى فيهِ بالحجرِ(6)

رابـعـا

وصف الأحدب

1 ــ قَصُرَتْ أخادعُهُ ، وغار قـذالُـــهُ
فـكـأنّـــهُ متـربّـصٌ أنْ يُصْفَعَـــا(7)
2 ــ وكأنّمَا صُفِعَتْ قَفَاهُ مرّةً   وأحسّ ثانيـةً لهـا فتَجَمّعَـا

---

(1) مُنْصب : مُتْعب . ــ (2) الكيمياء : يريد به البحث عن الحجر الذي يحوّل جميع المعادن إلى ذهب في زعم القدماء ، ويبدو أن الناس في عصر ابن الرومي قد تأكدوا من بطلان ذلك الزعم الفاسد ، ولذلك قال : لم تصب . ــ (3) لجيناً : أبيض كاللجين وهو الفضة .. ــ (4) يدحو الرقاقة : يبسط قطعة الخبز . وشك : سرعة ــ (5) قوراء : واسعة ومستديرة (6) تنداح : تنبسط . صفحة الماء : وجهه. ــ (7) أخادعه : الأخادع جمع أخدع وهو عرق في جانب العنق ، وهما أخدعان . قذاله : القذال : ما بين الأذنين من مؤخر الرأس . متربص : منتظر او متوقع .

ب ــ الهجـاء :

هجاء اللحية الطويلة

1 ــ إن تَطلْ لحيةٌ عليكَ وتعرض فالمخالي معروفَـةٌ للحميرِ !(1)

2 ــ عَلَّقَ اللهُ في عذاريْكَ مخـلاةً
ولـكنّهـا بغيـر شعيـرِ

3 ــ لو غدا حُكْمُهَـا إليّ لطارتْ
في مهَـبِّ الـرّيَـاحِ كُـلَّ مَطيرِ

4 ــ ألْقِيها عنكَ ، يا طويلةُ أولا فاحْتبسْها شرارةً في السعير(2)

5 ــ أرْعِ فيها المُوسى فإنكَ منها يَشْهَدُ اللهُ في إثـامٍ كبيرِ(3)

6 ــ أيّمَا كَوْسَجٍ يَرَاها فيَلْقَى رَبَّهُ بعدَها صحيحَ الضميرِ ؟(4)

7 ــ هو أحرى بأن يشُكَّ، ويُغرَى
باتّهَـامِ الحـكيـمِ في التقـديـرِ !(5)

8 ــ مـا تلقّـاكَ كوسجٌ قطّ إلاّ جوّرَ اللهَ أيّمَا تجويـرِ !(6)

9 ــ لحيةٌ أهملتْ فسالتْ وفاضتْ فإليها يُشيـرُ كُلَّ مُشيـرِ

10 ــ ما رأتْها عيْنٌ امرىءٍ ، مـا رآهـا
قـطّ إلاّ أهـلَّ بـالتّـكْبيـرِ(7)

11 ــ رَوْعةٌ تَستخفّهُ لم يُرَعْهَا من رأى وجْهَ مُنْكَرٍ ونكيرِ(8)

12 ــ فاتقِ اللهَ ذا الجلالِ وغيِّرْ مُنكَرًا فيكَ مُنْكَرَ التّغْييرِ !

13 ــ أوْ فقَصّرْ منها ، فحسبُكَ منها نِصفُ شبْرٍ، علامةَ التذكيرِ !

14 ـ لو رأى مثْلَها النبيّ لأجرى   في لحى الناس سُنَّةَ التقصيرِ !

15 ـ واستحبّ الإحفاءَ فيهنّ والحلق   مَـكَـانَ الإعفَـاءِ و التـوفيــــر !(9)

(1) المخلاة : وعاء لعلف الحمار ، يعلق في رقبته ، وجمعها مخالي . ـ (2) ألقها عنك : أرمها وأطرحها ، والمخاطب هو المهجو صاحب اللحية الطويلة . ياطويلة : أيتها اللحية الطويلة . أولا : وإذا لم تلق لحيتك أي تحلقها . فاحتبسها : فاجعلها محبوسة أو موقوفة على النار ، لأن صاحب اللحية الطويلة ، في رأي الشاعر ، مذنب يستحق النار . ـ (3) أرع فيها الموسى : اجعل الموسي ترعى الماشية العشب ، أي احلقها . إثام : ذنب . ـ (4) كوسج : رجل خفيف اللحية ـ (5) يغرى : يولع . ـ (6) جوّر الله : نسب الله إلى الجور ، والعياذ بالله والمقصود أن صاحب اللحية الخفيفة عندما ينظر إلى صاحب اللحية الطويلة يشك في عدالة الله الذي لم يعط الناس عطاء متساوياً فيكفر بذلك ، ويكون صاحب اللحية هو السبب في كفر الكوسج ، وفي البيت سخرة شديدة كما هو ظاهر . (7) أهل بالتكبير : رفع صوته بعبارة الله أكبر من شدة دهشته وخوفه . ـ (8) روعة : خوف شديد أو فزاعة شديدة . مستخفة : تجعله خفيفا جبانا . منكر ونكير : هما الملكان الموكلان بامتحان الميت بعد وضعه في قبره ، فيخاف منهما أشد الخوف ولذلك جاء في الدعاء : أعوذ بك من عذاب القبر . ـ (9) الإخفاء والحلق : بمعنى واحد تقريبا وهو إزالة اللحية ، أو المبالغة في الأخذ منها. الإعفاء والتوفير : بمعنى واحد تقريبا وهو ترك اللحية حتى تطول ، وفي الحديث الشريف : إنه أمران : تحفى الشوارب ، وتعفى اللحى .

جـ ـ الرثـاء

في أيام ابن الرومي حدثت فتنة في جنوب العراق ، قام بها الزنوج وتمكنوا خلالها من الاستيلاء على مدينة البصرة عام 257 هـ فأحرقوها ثم أغرقوها وقتلوا كثيرا من أهلها ، فقال ابن الرومي هذه القصيدة يرثي المدينة المنكوبة ، ويصف ما فعله المخربون بها :

ـ أ ـ

1 ـ ذادَ عن مُقلتي لذيذَ المنام   شغلُهَا عنهُ بالدموع السِّجَامِ

2 ـ أيَّ نومٍ من بعد ما حلَّ بالبَصْـرةِ ، ما حلَّ من هنَاتٍ عظامٍ ؟

3 ـ أيَّ نومٍ من بعدما انتهكَ الزِّنْجُ
جِهَاراً مَحَارِمَ الإسلامِ ؟

4 ـ إنَّ هذا من الأمورِ لأمْـرٌ   كادَ ألاّ يقومَ في الأوهَامِ

ـ ب ـ

5 ـ لهْفَ نفسي عليكِ أيتُها البصـرَةُ ، لَهفاً كمثلِ لَهْبِ الضِّرَامِ

6 ـ لهفَ نفسي عليكِ يا معدنَ الخَيْرات لهْفاً يُعضِّني إبهَامي

7 ـ لَهْفَ نفسي عليكِ يا قُبَّةَ الإسلامِ لهفاً يطُولُ منهُ غَرامي

8 ـ لهفَ نفسي عليك يا فُرْضةَ البلدان ، لهفاً يَبْقَى على الأيَّامِ

9 ـ لهفَ نفسي لجمعكِ المتفاني   لهْفَ نَفْسي لعزِّكَ المستظامِ

ـ جـ ـ

10 ـ بينما أهلُها بأحسنِ حالٍ   إذ رما همَّ عبيدُهم باصطلامِ

11 ـ دخلُوها كأنهمْ قطَعُ اللَّيْلِ   إذا راحَ مُدْلهمَّ الظَّلامِ

12 ـ أيَّ هَوْلٍ رَأوْا بهم؟ أيَّ هَوْلٍ ؟
حُقَّ منه يَشَيبُ رأسُ الغُلامِ

13 ـ إذ رَمَوْهُمْ بنارِهمْ من يمينٍ   وشمالٍ ، وخلْفهمْ ، وأمامِ

14 ـ كَمْ أغَصّوا من شاربٍ بشرابٍ
كم أغصّوا من طاعمٍ بطعامِ !

15 ـ كَمْ ضنينٍ بنفسه رامَ منْجى
فتلقّوا جبينَهُ بالحُسَامِ !

16 ـ كَمْ أخٍ قد رأى أخاه صريعاً تَرِبَ الخدّ بين صَرْعى كرامِ

17 ـ كمْ أبٍ قد رأى عزيزَ بنيهِ وهو يُعْلَى بصارمٍ صَمْصَامِ

18 ـ كَمْ مُفَدّى في أهلهِ أسْلَمُوهُ
حينَ لم يَحْمِهِ هنالكَ حَامِ

19 ـ كَمْ رضيعٍ هُناكَ قَدْ فَطَمُوهُ
بشَبَا السَّيْفِ قبلَ حينِ الفطَامِ

20 ـ كَمْ فتاةٍ مَصُونة قدْ سَبَوْهَا
بَارزًا وجهُهَا بغيرِ لثَامِ

21 ـ صَبّحُوهم فكابَدَ القومُ منهُمْ
طُولَ يومٍ كأنهُ ألفُ عَامِ

22 ـ من رآهُنّ في المَسَاقِ سَبَايَا
داميَاتِ الوُجُوهِ للأقْدامِ ؟

23 ـ من رآهُنّ في المقَاسمِ وَسْطَ الزّنْجِ
يُقْسَمْنَ بَيْنَهُمْ بالسِّهَامِ ؟

24 ـ من رآهُنّ يُتّخَذْنَ إماءً بَعْدَ ملكِ الإماءِ والخُدّامِ ؟

ـ د ـ

25 ـ ما تَذَكّرْتُ ما أتى الزّنْجُ إلاّ أضْرِمَ القلْبُ أيّمَا إضْرَامِ

26 ـ ما تذكّرْتُ ما أتى الزنجُ إلاّ أوجعتني مَرَارَةُ الإرْغَامِ

27 ـ رُبّ بيعٍ هناكَ قد أرْخَصُوهُ طالما قد غَلاَ على السُّوّامِ

28 ــ رُبّ بيتٍ هناك قد أخْرَبُوهُ　　كان مأوَى الضّعافِ والأيتامِ

29 ــ رُبّ قصْرٍ هناكَ قد دخلُوهُ　　كان من قبلِ ذاكَ صَعْبَ المَرَامِ

30 ــ رُبّ ذي نعمة هناكَ ومال　　تركُوهُ مُحَالِفَ الإعــدَامِ

31 ــ رُبّ قومٍ باتوا بأجْمعِ شَمْلٍ　　تركــوا شملَهُمْ بغيرِ نظــامِ

ــ هـ ــ

32 ــ عرّجَا ، صَاحبيّ ، بالبصرة الزّهْـراءِ ، تَعريجَ مُدنَفٍ ذِي سَقَامِ

33 ــ فاسألاها ، ولا جوابَ لديهـا　　لسؤالٍ ، ومَنْ لَها بـالكـلامِ ؟

34 ــ أين ضوضاءُ ذلكَ الخلقِ فيها　　أينَ أسواقُها ذواتُ الزّحـامِ ؟

35 ــ أينَ فُلكٌ فيها وفُلكٌ إليها　　منشاتٌ في البَحرِ كالأعــلامِ ؟

36 ــ أين تلكَ القُصُورُ والدورُ فيها　　أين ذاك البُنيانُ ذو الإحكـامِ ؟

37 ــ بُدّلَتْ تلكمُ القُصُورُ تلالاً　　من رَمادٍ ، ومن تُرَابٍ رُكامِ

38 ــ سُلّطَ البَثْقُ والحريقُ عليها　　فتداعَتْ أركانُهَا بـانهــــدامِ

39 ــ وخلَتْ من حلُولها ، فهْيَ قفْــرٌ
لا تــرى العَيْــنُ بيــنَ تلكَ الأكَامِ

40 ــ غيرَ أيْدٍ وأرْجُلٍ بائنَـات　　نُبذَتْ بينَهُنّ أفلاقُ هـَـامِ

41 ــ ووجوهٍ قد رمّلَتْهَا دِمَـاءٌ　　بأبي تلكُمُ الوُجُوهُ الدوامي

42 ــ وُطئَتْ بالهَوان والذّلّ قسْرًا　　بعد طولِ التّبجيلِ والإعظـامِ

43 ــ فتراها تَسْفي الرّياحُ عليها　　جاريات بهبـوةٍ وقتَـــــامِ

44 ــ خاشعات كأنها بـاكيــاتٌ　　باديـاتِ الثغورِ ، لا لابتســامِ

45 ــ بل ألمّا ساحة المسجد الجـا　　مع ، إن كنتما ذوي إلمـــامِ

46 ــ فاسألاهُ ــ ولا جوابَ لديه ــ　　أينَ عُبّادُهُ الطّوَالُ القيَامِ ؟

47 ــ أينَ عُمّارُهُ الألى عَمَرُوهُ　　دَهْرَهُمْ في تلاوَةٍ وصيَامِ

48 ــ أين فتيَانُهُ الحسَانُ وُجوهاً　　أينَ أشياخُهُ أولُو الأحلامِ ؟ـ

49 — بأبي تلكمُ العظامُ عظاماً   وسقَتْهَا السماءُ صَوْبَ الغَمامِ
50 — وعليها من المليك صلاةٌ   وسلامٌ مُؤَكَّدٌ بسلامِ

شرح لغوي :

ذاد : دفع وطرد. الدموع السجام : الدموع المنصبة. هَنَات : ويلات ، مصائب عظيمة. محارم الإسلام : الأشياء التي لا يحل انتهاكها كالأعراض وغيرها. غرامي : عذابي الشديد. فرضة البلدان : محط السفن ، والمقصود أنها مرفأ بحرهام. اصطلام : استئصال. مُدْلَهِمّ الظلام : شديد الظلام. ضنين بنفسه : بخيل بها ، حريص عليها. صريعا : مقتولا. ترب الخد : ملتصقا خده بالتراب. صارم صمصام : سيف قاطع . شبا السيف : حدّه. صبّحوهم : جاءوهم في الصباح . المساق : مصدر ميمي بمعني السَّوْق وهو الدفع إلى الأمام ، والفعل ، ساق وعكسه قاد . المقاسم : مواضع القسمة . الإرغام : الإذلال. أرخصوه : جعلوه رخيصا. السوام : المشترين. صعب المرام : صعب الدخول إليه. الإعدام : القفر الشديد. عرجا : ميلا ، زورا. البصرة الزهراء : البصرة الجميلة المزدهرة . مدنف : مريض مشرف على الهلاك. فُلك : سفينة. وتطلق على الواحد والجمع . فلك فيها : سفينة راسية فيها. فلك إليها : سفينة قادمة إليها. منشات : مشرعة القلوع ؛ مرفوعة القلوع. الأعلام : الجبال ، وفي البيت اقتباس من القرآن الكريم. ذو الإحكام : ذو الإتقان. ركام : متراكم ، متجمع بعضه فوق بعض البثق : الماء ، أو تفجير مياه النهر بكسر جانبه. حلولها : ساكنيها والمفرد حال الآكام : التلال من التراب والرماد ، والمفرد أكمة. بائنات : منفصلات عن أجسادها. نبذت : طرحت. أفلاق جمع فلقة وهي القسم أو الشطر. هام : رؤوس ، والمفرد هامة. رملتها : لطختها خضبتها. بأبي تلكم الوجوه الدوامي : أفدي تلك الوجوه بأبي. قسرا : بالقوة. تسفي الرياح : تهب. هبوة : غبار. قتام : دخان أسود. عُمّاره الألى : بناته الأوائل. عمروه دهرهم : أقاموا فيه أو لزموه دهرهم. أولوا الأحلام : أصحاب العقول.

مناقشة النص :

1 – يقول ابن الرومي في الفقرة الأولى (أ) إنه لم يستطع أن ينام نوماً لذيذا. فما الذي حرمه ذلك النّوم ؟

2 – وفي الفقرة الثانية (ب) يعبر عن لهفته على المدينة المنكوبة. بين كيف عبر الشاعر عن تلك اللهفة ؟ واذكر الأساليب المختلفة التي استخدمها من أجل التعبير عن لهفته ، ووضح رأيك فيها.

3 – في الفقرة (ج) حكاية للمأساة التي حلت بمدينة البصرة ، فأجب عما يلي

– من هم الذين خربوا تلك المدينة ؟ ومتى ؟ وكيف ؟

– اذكر المشاهد المختلفة التي أوردها الشاعر لتصوير وحشية أولئك المخربين.

– وقف الشاعر وقفة طويلة عند ما تحدث عن سبي فتيات البصرة. اذكر السبب في تلك الوقفة.

4 – عن أي شيء يتحدث الشاعر في الفقرة (د) ؟ وهل تجد حديثه هنا تكرارا لما جاء في الفقرة (ب) ؟ وهل أورد صورا جديدة توضح غرضه ؟

5 – اعتمد الشاعر في الفقرة (د) على التقابل أو التضاد بين المعاني. وضح ذلك وبين أثره في أداء تلك المعاني.

6 – لماذا يطلب الشاعر من صاحبه زيارة البصرة بعد نكبتها ؟

7 – أشار ابن الرومي إلى بعض جوانب الازدهار الذي كانت عليه البصرة قبل نكبتها. حدد الأبيات الدالة على ذلك.

8 – ذكر الشاعر في البيت (38) وسيلتين تم بهما تخريب البصرة. ما هما هاتان الوسيلتان ؟

9 – تتبع مختلف الصور الجزئية التي استعان بها الشاعر في الفقرة (هـ) لتصوير المأساة التي حلت بالبصرة. وبين أثرها في نفسك.

10 – خص الشاعر مسجد البصرة الجامع بأربعة أبيات. أذكر الدور الذي كان يقوم به هذا المسجد وغيره في مجتمع البصرة بشكل خاص وفي المجتمعات الإسلامية بشكل عام.

11 – بم ختم الشاعر رثاءه للبصرة ؟ وهل تعد ذلك الختام شيئاً جديدا في الرثاء؟

12 – ما الفكرة العامة لهذه القصيدة ؟ وما نوع هذه الفكرة ؟ أهي رثاء شخصي شبيه بما مر بك من رثاء الخنساء لأخيها صخر أم هو رثاء إنساني يبكي فيه الشاعر حضارة البصرة ومدنيتها ؟ أهو نوع جديد في الشعر العربي أم أنه رثاء تقليدي ؟ وضح إجابتك.

13 – أذكر الأفكار الأساسية التي تضمنتها القصيدة ، وضع لكل منها عنوانا مناسباً.

14 – عرف ابن الرومي باستقصائه الشديد للمعاني والأفكار. وضح هذه الخاصة معتمدا في إجابتك على القسم الخامس (هـ).

15 – وعرف كذلك باعتماده على التعليل المنطقي في إيراد معانيه. وضح هذه الخاصة معتمدا في إجابتك على القسم الأول (أ).

16 – كيف تجد أسلوب الشاعر ؟ أيعتمد على البساطة أ والسهولة أم يعتمد على الغرابة والصنعة ؟

أيعتمد على الحقيقة أم على المجاز ؟ وضح إجابتك.

17 – أكانت غاية الشاعر متجهة إلى المعنى أم إلى الأسلوب ؟ وضح إجابتك.

18 – اعتمد الشاعر على الأسلوب الخبري حيناً ، وعلى الإنشائي حيناً آخر. وضح الأسباب الموجبة لهذا التنويع في كل فقرة من فقرات القصيدة ، وبين أثره في جمالها.

19 – التكرار ظاهرة بارزة جدا في سائر أقسام القصيدة : فَسِّرْ هذا التكرار ، وبين آثاره في أداء المعاني.

20 – هل شاركت الشاعر في حزنه على مدينة البصرة ؟ ولماذا ؟ اذكر الأسباب التي حملتك على هذه المشاركة.

21 – هل تعرف شعراء آخرين رثوا مذن بلادهم المنكوبة ؟ سمّ بعض هؤلاء.

22 – قارن بين رثاء ابن الرومي للبصرة وبين رثاء أبي البقاء الرندي للأندلس بعد سقوطها بيد الأسبان.

23 – لقد خرب المستعمرون في عهد الاحتلال البغيض كثيرا من أحياء بلادك وقراها. اختر قرية من هذه القرى أو حيّاً من تلك الأحياء ، وتحدث عنه مستعيناً في حديثك بما جاء في قصيدة ابن الرومي.

المتنبي
303 — 354 هـ.

المدح للمتنبي

تعريف وتمهيد :

الشاعر هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الكوفي الكندي ، المعروف بالمتنبي ، ولد سنة 303 هـ بمحلة كندة بالكوفة ، وتربى فيها ، ولما بدت عليه أمارات النجابة أخذ العلم عن علماء الكوفة ، ثم انتقل إلى الشام ، ونزل بالقبائل البدوية فأخذ عنهم الفصاحة ، واستقام له الشعر .

وكان في المتنبي طموح جعله يتنقل كثيرا بين البوادي والحواضر يقصد العظماء واحدا بعد الآخر ، وكان من هؤلاء الذين اتصل بهم سيف الدولة الحمداني أمير حلب ، الذي قربه منه ، واصطحبه معه في رحلاته وحروبه ، وظل المتنبي يسعد بتلك الصحبة ، ويتقلب في تلك النعمة حتى دس له بعض منافسيه عند سيف الدولة ، وأغضبوه عليه ، ففر المتنبي إلى مصر ، ثم عاد بعدها إلى الكوفة ، ومنها رحل إلى فارس ، ثم عاد إلى العراق ، ولكنه قتل وهو في طريق عودته إليها سنة 354 هـ (وستأتي ترجمة مفصلة له).

وللمتنبي ديوان يجمع الكثير من شعره الذي يدور حول المدح والرثاء والفخر والهجاء ، والغزل والوصف والحكم.

كانت الحرب لا تكاد تهدأ بين دولة الحمدانيين ودولة الروم ، وكان من أبرز المعارك التي خاضها سيف الدولة ضد الروم معركة (الحَدَث) تلك التي يرجع سببها إلى أن الروم استولوا على ثغر من ثغور الدولة العربية يسمى ثغر الحدث ، وأرادوا هدم القلعة التي كان قد بناها به سيف الدولة فخرج الأمير الحمداني في سنة 343 هـ ، ولقي الروم في معركة طاحنة ، وقتل وأسر الألوف من جنودهم وانتهت المعركة بهزيمة منكرة لجيش

الروم ، ونصر مبين لسيف الدولة الذي أقام بعد ذلك بثغر الحدث حتى أعاد بناءه ، وأتم بناء قلعته. وكان المتنبي قد شهد تلك المعركة بنفسه ، وأعجب ببطولة سيف الدولة ، فقال قصيدة رائعة سجل فيها أحداث تلك المعركة ، ومدح فيها سيف الدولة ، وهذا النص أبيات منها :

- أ -

عَلَى قَدْرِ أهْلِ العَزْمِ تَأتي العَزَائِمُ
وَتَأتي عَلَى قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ
وَيَعْظُمُ في عَيْنِ الصّغيرِ صِغارُهَا
وَتَصْغُرُ في عَيْنِ العَظيمِ العَظَائِمُ
يُكَلّفُ سَيْفُ الدّوْلَةِ الجَيْشَ هَمّهُ
وَقَدْ عَجِزَتْ عَنْهُ الجُيُوشُ الخَضَارِمُ
وَيَطْلُبُ عِنْدَ النّاسِ مَا عِنْدَ نَفْسِهِ ؛
وَذَلِكَ مَا لا تَدّعيهِ الضّرَاغِمُ

- ب -

هَلِ الحَدَثُ الحَمْرَاءُ تَعْرِفُ لَوْنَهَا ،
وَتَعْلَمُ ، أيّ السّاقِيَيْنِ الغَمَائِمُ
سَقَتْهَا الغَمَامُ الغُرّ قَبْلَ نُزُولِهِ ،
فَلَمّا دَنَا مِنْهَا سَقَتْهَا الجَمَاجِمُ
بَنَاهَا فَأعْلَى ، وَالقَنَا يَقْرَعُ القَنَا ،
وَمَوْجُ المَنَايَا ، حَوْلَهَا ، مُتَلاطِمُ
وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الجُنُونِ فَأصْبَحَتْ ،
وَمِنْ جُثَثِ القَتْلَى ، عَلَيْهَا تَمَائِمُ

طَرِيدَةُ دَهْرٍ سَاقَهَا ، فَرَدَدْتَهَا
عَلَى الدِّينِ بالخَطِّيِّ ، وَالدَّهْرُ رَاغِمُ
وَكَيْفَ تُرَجَّى الرُّومُ وَالرُّوسُ هَدْمَهَا ،
وَذَا الطَّعْنُ آسَاسٌ لَهَا ، وَدَعَائِمُ

- ج -

أتَوْكَ يَجُرُّونَ الحَدِيدَ ، كَأَنَّمَا
سَرَوْا بِجِيَادٍ ، مَالَهُنَّ قَوَائِمُ
إذَا بَرَقُوا لَمْ تُعْرَفِ البِيضُ مِنْهُمُ
ثِيَابُهُمُ مِنْ مِثْلِهَا ، وَالعَمَائِمُ
خَمِيسٌ ، بِشَرْقِ الأرْضِ وَالغَرْبِ زَحْفُهُ
وَفي أذُنِ الجَوْزَاءِ ، مِنْهُ زَمَازِمُ
تَجَمَّعَ فيهِ كُلُّ لِسْنٍ وَأُمَّةٍ
فَمَا يُفْهِمُ الحُدَّاثَ إلاّ التَّرَاجِمُ
فَلِلّهِ وَقْتٌ! ذَوَّبَ الغِشَّ نَارُهُ ،
فَلَمْ يَبْقَ إلاّ صَارِمٌ أوْ ضُبَارِمُ
تَقَطَّعَ مَا لاَ يَقْطَعَ الدِّرْعَ وَالقَنَا ،
وَفَرَّ مِنَ الفُرْسَانِ مَنْ لاَ يُصَادِمُ

- د -

وَقَفْتَ وَمَا في المَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ ،
كَأنَّكَ في جَفْنِ الرَّدَى وَهْوَ نَائِمُ
تَمُرُّ بِكَ الأبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً ،
وَوَجْهُكَ وَضّاحٌ ، وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

تَجَاوَزْتَ مِقْدَارَ الشَّجَاعَةِ وَالنُّهَى ،
إلى قَوْلِ قَوْمٍ : أنْتَ بالغَيْبِ عَالِمُ
ضَمَمْتَ جَنَاحَيْهِمْ على القَلْبِ ضَمَّةً ،
تَمُوتُ الخَوَافي ، تَحْتَهَا وَالقَوَادِمُ
بِضَرْبٍ أتى الهَامَاتِ ، وَالنَّصْرُ غَائِبٌ ،
وَصَارَ إلى اللَّبَّاتِ ، وَالنَّصْرُ قَادِمُ
حَقَرْتَ الرُّدَيْنِيَّاتِ، حَتَّى طَرَحْتَهَا ؛
وَحَتَّى كَأنَّ السَّيْفَ للرُّمْحِ شَاتِمُ
وَمَنْ طَلَبَ الفَتْحَ الجَليلَ ، فَإنَّمَا
مَفَاتِيحُهُ البِيضُ الخِفَافُ الصَّوَارِمُ
نَثَرْتَهُمُ فَوْقَ الأُحَيْدِبِ نَثْرَةً
كَمَا نُثِرَتْ فَوْقَ العَرُوسِ الدَّرَاهِمُ
تَدُوسُ بِكَ الخَيْلُ الوُكُورَ ، على الذُّرَى ،
وَقَدْ كَثُرَتْ حَوْلَ الوُكُورِ المَطَاعِمُ
تَظُنُّ فِرَاخُ الفُتْخِ أنَّكَ زُرْتَهَا
بِأُمَّاتِهَا ، وَهْيَ العِتَاقُ الصَّلادِمُ
إذَا زَلَقَتْ، مَشَّيْتَهَا بِبُطُونِهَا ،
كمَا تَتَمَشَّى في الصَّعِيدِ الأرَاقِمُ

— هـ —

أفي كُلَّ يوم ذا الدُّمُسْتُقُ مُقْدِمٌ
قَفَاه على الإقْدامِ للوجهِ لائِمُ

يُسَرّ بمَا أعطَاكَ لا عن جهَالة
ولكن مغنوماً نجا منك غانمُ
ولست مليكاً هازماً لنظيره
ولكنكَ التوحيدُ للشرك هازِمُ

شرح لغوي :

العزم : مصدر عزم ، ومعناه عقد النية على فعل الشيء. العزائم : جمع عزيمة وهي قوة الإرادة والتصميم. المكارم : جمع مكرمة وهي إتيان الشيء الكريم من قول أو فعل. الهمّ : ما يهم به الإنسان من أمر. الخضارم : جمع خِضْرِمْ وهو الكثير. الضراغم : الأسود. الحدث الحمراء : المقصود قلعة الحدث التي تلطخت بدماء الأعداء. الغمائم : جمع غمام وهو السحاب ، والقطعة منه غمامة. الغرّ : البيض. القنا : أعواد الرماح ، جمع قناة. تمائم : جمع تميمة وهي ما يعلق للشخص توقياً للحسد ودفعاً للمكروه. طريدة دهر : طاردها الدهر كما يطارد الصياد صيده. الخطّيّ : الرمح. راغم : خاضع وذليل. آساس : جمع مفرده أسّ وهو أصل البناء وأساسه. سرَوْا : مشوا ليلا. جياد : خيل. البيض : السيوف. العمائم : المقصود ما يوضع على الرأس في أثناء المعركة من خوذ ونحوها. خميس : جيش. الجوزاء : أحد الأبراج السماوية. الزمازم : الأصوات التي لا تفهم لتداخلها ، والمفرد منه زمزمة. لِسْن : لغة. الحداث : الجماعة يتحدثون. التراجم : جمع ترجمان وهو من ينقل الحديث من لغة إلى أخرى. لله وقت : هذا النمط من التعبير عربي قديم يقال عند التعجب ومعناه هنا ما أعجب ذلك اليوم. الغش : المقصود ما لا خير فيه من الرجال والسلاح. صارم : سيف قاطع. الضّبارم : الأسد القوي ، والمقصود هنا الرجل الشجاع المقدام. الردى : الهلاك. كلمى : جمع كليم أي جريح. هزيمة : مهزومة. وضاح : كثير الإشراق. النهَى : جمع نُهْيَة وهي العقل. جناحيهم : يقصد ميمنة جيش العدو وميسرته. القلب : يقصد وسط جيش العدو. القوادم :

ريش طويل في مقدمة جناحي الطائر. الخوافي : ريش صغير يلي القوادم في الجناحين. الهامات : جمع هامة وهي أعلى الرأس. اللَّبَّات : جمع لبة وهي أعلى الصدر ، أي النحر. الردينيات : جمع رديني وهو الرمح نسبة إلى امرأة باليمامة في الجزيرة العربية اشتهرت بصنع الرماح وتقويمها. الصوارم : الحادة القاطعة. نثرتهم : فرقتهم. الأحيدب : اسم جبل. الوكور : جمع وكر وهو عش الطائر. الذّرَى : جمع ذروة وهي أعلى الشيء ، والمقصود هنا أعالي الجبل. الفتخ : جمع فتخاء وهي أنثى العُقَاب من الطيور الجوارح. أمَّات : جمع أم ، يقال في الجمع أمهات لمن يعقل وأمات لما لا يعقل. العتاق : كرام الخيل والأصيلة منها. الصلادم : جمع صلْدَم وهو الفرس الشديدة الحافر. زلقت : زلت ولم تلبث أرجلها. الصعيد : وجه الأرض. الأراقم : جمع أرقم وهو الحية التي فيها سواد وبياض. الدّمُسْتُقُ : لقب كان لقائد جيش الروم. الإقدام : الجرأة والتقدم للهجوم.

إيضاح وتحليل :

المتنبي من شعراء الحكمة المجيدين ، يعبر بها عن تجاربه ، ويبثها في شعره ، وها هو ذا في أبيات المجموعة (أ) قد استهل قصيدته ببيتين ضمنهما حكمته وفلسفته حيث يقول : إن الأمور تأتي على قدر فاعليها ، وتقاس بمقدار همم أصحابها ، فعلى قدر ما يكون عندهم من تأكيد النية ، والجد في الأمور تكون الإرادة الصلبة والعزائم القوية ، وعلى قدر ما يتمتعون به من كرم النفس تكون الأفعال الكريمة ، ولذا نرى الناس يختلفون في النظر إلى الأمور ، فخائر العزيمة ضعيف الهمة يستعظم الشيء الصغير ، ويرتضي الوضع الحقير ، بينما صاحب الهمة العالية والنفس الكريمة يستصغر ما عظم من الأمور ، ويأتي كل المكارم والمحامد.

ثم أعقب الشاعر حكمته تلك ببيتين ضمنهما أن سيف الدولة من هذا صنف العظيم الذي يتمتع بالإرادة الغلابة ، والطموح إلى نيل أعلى مراتب الشرف والكرامة ، ولذا فإنه يحمل جيشه على تحقيق ما تصبو إليه همته من

الغزوات والفتوحات التي طالما عجزت عن مثلها جيوش كثيرة لأنها كانت تفقد مثل همة سيف الدولة الذي يريد ممن يكون معه أن يكون مثله صلب العزيمة ، بعيد الهمة ، وذلك أمر في الناس نادر وعجيب إذ أنه لا تدعيه الأسود ، فكيف يمكن وجوده في مجتمع البشر ؟!!

وفي أبيات المجموعة (ب) يتحدث المتنبي عن قلعة الحدث بين الروم والعرب فيقول متسائلا : هل قلعة الحدث تعرف لونها الذي كانت عليه قبل أن تلونها دماء الأعداء؟ وهل تعلم حقيقة ما أمطرها أهو الغمائم أم الجماجم؟ لقد كانت من قبل تسقى بمطر السحاب حتى إذا كان يوم المعركة سقيت بدماء الأعداء التي سالت عليها كما يسيل ماء المطر. إن هذه القلعة بناها وأعلى بناءها سيف الدولة ، ورماحه تحطم رماح العدو ، والقتل يتزايد حولها حتى كأن المنايا بحر متلاطم الأمواج. وبعد أن كانت الحدث تعيش بسبب غارات الروم في اضطراب وفتنة أصبحت ساكنة هادئة إذ علق سيف الدولة على حوائطها جثث قتلى الروم كما تعلق التمائم على المصابين بالمس والجنون ، فيهدءون في زعمهم. لقد كانت كالطريدة تطاردها أحداث الدهر ، وتتوالى عليها غارات الروم حتى قيضك الله — يا سيف الدولة — لها فدفعتهم عنها برماحك وأبقيت لها وجهها العربي ، وقهرت الزمن. وإنه لمن الغريب أن يطمع هؤلاء الأعداء من روم وروس في هدمها ولها من وسائل الدفاع وقوة الحماية ما يشبه أسسها ودعائمها متانة وقوة !!

وفي أبيات المجموعة (ج) يتحدث الشاعر عن قوة الاستعداد ، ووفرة العدد في جيش الروم موجها قوله إلى سيف الدولة فيقول : لقد جاءك الأعداء في جيش تحمل فيه الخيول فرساناً مدججين بالسلاح لابسين الدروع ، تغطي أسلحتهم ودروعهم قوائم الخيل حتى ليظنها الرائي خيلا بلا قوائم. وإذا سطعت الشمس على هؤلاء الجنود لمعت أسلحتهم ودروعهم وخوذهم ، ولم يستطع من يراهم أن يميز السيوف من غيرها. إنهم جاءوا جيش في كثير العدد ، يدل لذلك أنه في زحفه يملأ فراغ الأرض شرقاً وغرباً ، وأن أصوات رجاله تصل إلى الجوزاء في السماء وأنه قد جُمع فيه أجناس

من الناس يتحدثون بلغات شتى ، ويستعينون في تفاهمهم بالتراجمة. وما أعجب ذلك اليوم الذي تميز فيه الجيد من الرديء ، حيث لم يثبت لأهوال المعركة إلا كل سيف صارم ، وكل بطل شجاع ، بينما تحطم من السيوف ما لا قدرة له على قطع الدروع والرماح ، وفر من الفرسان من لا طاقة له بالنزال والكفاح.

وفي أبيات المجموعة (د) يصف الشاعر المعركة ، ويمدح سيف الدولة فيقول له : لقد وقفت في ساحة القتال في وقت تتخطف فيه المنايا الأبطال من حولك ، والموت يحيط بك ولكن رباطة جأشك ، وثقتك بالله وبنفسك جعلت عناية الله ترعاك ، والموت يتخطاك كأنك في جفنه وهو غافل عنك فسلمت ولم يصبك سوء ، على حين كان الأبطال من جند العدو يمرون بك وقد ولوا منهزمين ، أوهنتهم جراحهم ، واصفرت وجوههم ، أما أنت فقد كنت ثابتاً مشرق الوجه ، باسم الثغر. ولقد أتيت من ضروب الإقدام ، وأظهرت من الجرأة ، ورسمت من الخطط ما لم يكن يتصوره العقل حتى قال عنك بعض الناس إنك تعلم الغيب وتعرف أن النصر لك. لقد هجمت على جنود العدو هجمة قوية مذهلة اختل بسببها نظامهم ، واختلطت أقسامهم ، واشتدت وطأة الهجوم عليهم فهلكوا جميعاً ، حيث لم تكن منك إلا حملة بالسيوف هوت على رؤوسهم ، وما كادت السيوف تصل من رؤوسهم إلى نحورهم حتى تحقق لك النصر السريع الساحق عليهم. وكان من دلائل شجاعتك وبطولتك أنك تركت الرماح لأنها تضرب من بعيد ، وعمدت إلى السيوف التي تقتضي قرباً والتحاماً بالعدو ، فأعليت بذلك شأن السيف وحقرت شأن الرمح حتى لكأن السيف يعير الرمح بقلة نفعه وجدواه.

وليس في ذلك من عجب فإن من يطلب النصر العزيز والفتح المبين ليس له من سبيل إلى تحقيق غايته سوى التسلح بالسيوف القاطعة ، وبأكثر الأسلحة فعالية وإيجابية.

لقد طرحت جثث القتلى من الأعداء فوق جبل الأحيدب مبعثرة في نواحي الجبل كما تطرح الدراهم على رأس العروس ليلة الزفاف. ولقد تتبعت أعداءك في رؤوس الجبال حيث توجد أعشاش الطيور الجارحة فقتلتهم هناك وتركتهم طعاماً للطير حول وكورها. ولقد ظنت فراخ العقبان حين رأتك تصعد الجبال بتلك الخيول أنك جئتها بأماتها لأنها رأت الخيل سريعة منقضة مثلها.

وكنت إذا زلقت خيلك في صعودها ذلك الجبل الوعر جعلتها تمشي زحفاً على بطونها كما تزحف الحيات فوق التراب ، حرصاً منك على إدراك العدو وملاحقته.

وفي ختام النص يذكر الشاعر لسيف الدولة حال قائد جيش الروم وفراره فيقول :

إن قائد الروم كان يقدم ثم يحجم ، وعند إحجامه كان الضرب يقع في قفاه مما جعل قفاه يلوم وجهه على الإقدام الذي ناله بسببه هذا الضرب. وإن هذا القائد الذي نجا من يديك ، وفر من وجهك لمسرور بما بذل من تضحيات ، ويعدّ نفسه غانماً لا عن جهل منه بقيمة الضحايا من أصحابه وأدواته ولكن لأنه غنم منك روحه وحياته. وأخيرا يعود المتنبي ليقول لسيف الدولة : إن هذه المعركة التي ألحقت فيها الهزيمة بالروم لا تعد معركة بين مليكين هزم أحدهما الأخر ، وإنما هي أجلّ من ذلك وأعظم لأنها معركة الإيمان والعقيدة ، كنت فيها رجل التوحيد ، وحامل لواء الحق وقائد رجاله ، وكان عدوك فيها رجل الشرك والباطل ، فقذف الله بحقك على باطل عدوك فدمغه فإذا هو زاهق ، وإذا الشرك مندحر ، والإيمان منتصر.

دراسة أدبيـــة :

هذا النص يندرج تحت غرض الشعر الحماسي الذي انتشر في العصر العباسي ، وهذه القصيدة للمتنبي تعد سجلا تاريخياً يضم مفاخر إمارة عربية

صغيرة استطاعت بفضل أميرها وقائدها أن تذيق امبراطورية عظيمة ويلات الحرب ، وتجرعها كأس الهزيمة ، وتحول دون مطامعها التوسعية. والمتنبي شاعر العروبة النابه الذي حضر مع سيف الدولة معركة الحدث وأعجب بالأمير أنشد في تلك المناسبة قصيدته هذه التي هي إحدى قصائده العديدة في سيف الدولة ، وقد بدأ ها ببيتين في الحكمة يمجد فيهما ذوى الطموح والمتطلعين إلى تحقيق الأمال العريضة ، ولعله في ذلك كان يشبع رغبة في نفسه لأنه كان من أولئك الذين لا حدّ لطموحهم ، ثم تناول بعد ذلك وصف قلعة الحدث وما تعرضت له على أيدي الروم ، وما نالته على يد سيف الدولة ، ثم انتقل إلى وصف جيش الروم في زحفه ، وما كان عليه من استعداد كامل ، وعدد هائل ، ثم تحدث عن شجاعة سيف الدولة وبطولته وحسن تخطيطه للمعركة ثم صور المعركة تصويرا واقعياً استمده مما ر آه رأي العين ، وانتهى إلى الحديث عن قائد جيش العدو الذي لاذ بالفرار. والأفكار على هذا النحو مرتبة منسقة ، والمعاني عميقة دقيقة ، واضحة مؤتلفة ، تدل على قدرة الشاعر الفائقة في جمع الأفكار والتأليف بينها في نسق رائع ، ونظم جميل. وإذا كان بعض هذه الأفكار قد جاء قديماً مطروقاً فإن بعضها تبدو طرافته وجدته كما في مثل قوله : (في أذن الجوزاء منه زمازم — بضرب أتى الهامات والنصر غائب وصار إلى اللبات والنصر قادم). ولئن كان الشاعر قد لجأ إلى المبالغة أحياناً كما في قوله : (بجياد ما لهن قوائم — تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى — إذا زلقت مشيتها ببطونها » فإن ذلك منه أمر مقبول لا يفسد المعنى ، بل يستدعيه المقام.

وكان من الجميل فيما عرضه الشاعر تصويره جيش العدو في قوته وكثرته ليجعل بعد ذلك انتصار سيف الدولة عليه شيئاً ينطوي على العظمة ، ويدعو للفخار.

وإنه ليتجلى لنا حين نتأمل النص أن الشاعر كان يعبر عن انفعال صادق وعاطفة جياشه بحب سيف الدولة ، والإعجاب به ، والفرحة بالنصر ورد كيد العدو.

وهكذا يمكننا أن ننتهي إلى تقرير أن الشاعر بقصيدته هذه كان ابن مجتمعه وعصره يعبر عنهما ، ويعكس ما يجري فيهما على مرآة شعره.

دراسة بلاغية :

عندما نتأمل أسلوب النص نرى أنه جمع بين الأساليب الخبرية والإنشائية بحسب ما يقتضيه المقام ، غير أن الأسلوب الخبري كان هو الغالب على النص ، وقد قصد منه في معظم الأحيان المدح والتعظيم ، ولعل الميل إلى الإكثار من الأسلوب الخبري راجع إلى أنه أنسب لمثل هذا الموقف الذي يقفه المتنبي ليصف ويمدح عن طريق عرض المشاهد وسرد الصفات. كما أن الشاعر أعطى كل معنى ما يلائمه ، ولذلك نراه قد عمد إلى التقديم الذي يدل على الاهتمام في قوله : (على قدر أهل العزم تأتي العزائم) كما نراه حين أراد أن يمتدح السيوف جعلها وحدها التي تأتي بالنصر ، واستعمل لذلك أسلوب القصر بكلمة (إنما) في قوله : (إنما مفاتيحه البيض) فالشاعر قد قصر أداة النصر ووسيلته على السيوف دون غيرها عن طريق كلمة (إنما) التي تقدمت الجملة.

أما الخيال في النص فقد جاء صافياً يصور المعاني ، ويوضح الأفكار ، وقد تنوعت فيه الصور بين واقعية مستمدة من واقع المعركة ومشاهدة الشاعر كتلك التي يصور بها جيش الروم والتي يصف بها سيف الدولة ، وبين خيالية من تشبيه واستعارة وكناية.

وكان من التشبيه قوله : (كأنما سروا بجياد مالهن قوائم — كأنك في جفن الردى — نثرتهم فوق الأحيدب نثرة كما نثرت فوق العروس الدراهم) وغيرها من التشبيهات الجميلة التي تبرز المعنى وتوضحه ، وإن كان هذا التشبيه الأخير قد اعترض على الشاعر فيه بأن طرفي التشبيه غير متلائمين.

وجاءت الاستعارة في مثل قوله : (هل الحدث الحمراء تعرف لونها — موج المنايا حولها متلاطم — أذن الجوزاء —جفن الردى — السيف للرمح شاتم) وبالنص كثير غير ذلك من أساليب الاستعارة التي تقوى المعنى وتثبته.

وجاءت الكناية بوفرة في النص، وكان منها مثل قوله: (أتوك يجرون الحديد) فهو كناية عن قوة العدة وكثرتها ، وقوله : (خميس بشرق الأرض والغرب زحفه – في أذن الجوزاء منه زمازم) فهما كنايتان عن كثرة عدد الجيش. وقوله : (ضمة تموت الخوافي تحتها والقوادم) فهو كناية عن قسوة هذه الضمة على الأعداء ، إلى غير ذلك من الصور البيانية التي حفل بها النص، وساعدت على تبيين المعنى وتأكيده في الذهن.

- هذا وقد قلت في النص المحسنات البديعية لأن المتنبي لم يكن من شعراء الصنعة ، ولذا فإن ما جاء في الأبيات من ألوان البديع كان حسن الوقع لأنه غير مقصود ولا متكلف ، كالمقابلة التي تجدها في البيت الثاني ، وفي البيت الحادي والعشرين ، وكالطباق في مثل : (ساقها فرددتها) (الخوافي والقوادم) ، وكالجناس الناقص في مثل (صارم وضبارم).

أما عبارة النص فقد كانت جزلة رصينة تناسب الغرض ، وتجانس الأفكار ، فقد اختار الشاعر لكل فكرة ما يلائمها من الألفاظ والكلمات ، ومن أمثلة ذلك أنه عند وصف المعركة استعمل كلمات : الحديد ، الجياد ، خميس ، زحف ، صارم ، الفرسان. وعند المدح أتى بألفاظ : وضاح ، باسم ، بالغيب عالم ، النصر قادم. وعند حديثه عن قائد الروم أتى بالكلمات : قفاه ، لائم ، مغنوم. وهكذا وضع الشاعر كل لفظة في المكان الذي توحي فيه بما يناسب المضمون ، ويعبر عن المقصود.

مجمل القول في النص :

المتنبي شاعر له مكانته الفريده بين شعراء العربية ، وقد اتصل بسيف الدولة الحمداني اتصال شاعر بأمير ، ولكنه لم يلبث أن صار اتصال إعجاب وتقدير ، وتوطدت العلاقة بينهما حتى كان المتنبي يصاحب سيف الدولة في رحلاته ، ويشهد معه معاركه ضد الروم ، وها هو ذا قد حضر معه معركة الحدث سنة 343 هـ ، وأعجب ببطولة سيف الدولة التي حققت له

النصر على الروم ، فانفعل المتنبي بما رأى ، وأنشده قصيدته هذه يسجل بها التاريخ العربي الظافر ، ويصف المعركة التي دارت أمامه ، ويشيد بعظمة سيف الدولة.

والأفكار التي تضمنتها القصيدة جاءت مرتبة تجعل من تتابعها موضوعاً مترابط الأجزاء وقد قلد في بعض المعاني ، وجدد في بعضها الآخر ، وتجلى الصدق العاطفي والتدفق الشعوري في القصيدة التي كانت صورة من صور الحياة والمجتمع والعصر ، وجاء الخيال فيها موضحاً للمعاني ، مبرزا للأفكار ، وتناسبت الألفاظ مع المعاني ، واختيرت من وادي الفكرة التي تعبر عنها اختيارا دقيقاً موفقاً ، وما جاء من المحسنات البديعية كان عفوياً وغير متكلف فأضفى على المعنى جمالا وروعة ، ولم تخل القصيدة أيضاً من بعض المبالغات التي تقبل في هذا المقام لأنها تناسب غرض الموضوع.

والقصيدة من بحر الطويل ، وأجزاؤه :

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

مناقشة النص :

أولا : أجب عما يأتي :

1 — ما المناسبة التي قيلت فيها القصيدة ؟ وما الحكمة التي عبر عنها الشاعر في مطلعها ؟

2 — ذكر المتنبي في البيتين الثالث والرابع بعض صفات سيف الدولة — وضحها ، ثم اذكر العلاقة بين مضمون هذين البيتين وما قبلهما.

3 — كيف صور الشاعر قلعة الحدث تحت يد الروم ؟ وماذا قال عن حالها في حماية سيف الدولة ؟

4 — بم وصف الشاعر جيش الروم في أبيات المجموعة (ج) ؟

لماذا حرص المتنبي على إبراز قوة جيش الروم؟ اذكر من النص ما عبر به عن كل من قوة استعداد هذا الجيش ووفرة عدده.

5 — كان سيف الدولة ثابت الجنان، ناجح الخطة — أين تجد ذلك في النص؟

6 — ماذا كانت قيمة كل من السيف وكرام الخيل في جلب النصر، وتحقيق الظفر كما يتضح لك من الأبيات؟

7 — يتعقب الجيش المنتصر فلول أعدائه لتطهير الأرض من آثارهم — فهل فعل سيف الدولة ذلك؟ استدل على ما تقول من النص.

8 — ماذا صورت أبيات المجموعة الأخيرة من حال قائد جيش الروم في المعركة؟ وكيف جعله الشاعر مسرورا مع أنه مهزوم ومغنوم؟

9 — بم مدح الشاعر سيف الدولة في البيت الأخير؟ وما قيمة ذلك بين الصفات الأخرى التي مدحها بها؟

ثانياً: أعد قراءة الأبيات ثم أجب عن الأسئلة الآتية:

1 — هل ترى علاقة بين مضمون الحكمة التي استهل بها المتنبي قصيدته وبين نفسيته؟ وضح ما تراه؟

2 — اذكر الغرض البلاغي للاستفهام في كل من: (هل الحدث الحمراء... وكيف ترجى الروم...). (موج المنايا حولها متلاطم) وضح هذه الصورة البيانية، وبين أثرها في المعنى.

3 — هل كان المتنبي مبالغاً فيما وصف به قوة جيش الروم واستعداده؟ وضح ماترى

4 — اشرح الصورة البيانية التي في البيت الرابع والعشرين، واذكر رأيك فيها.

5 — لجأ المتنبي أحياناً إلى المبالغة — هات من النص مثالين، ووضح ما في كل منهما من المبالغة.

6 — ما مدى صدق الشاعر في عاطفته؟ وما مدى ملاءمته بين المعاني والألفاظ التي تعبر عنها؟

7 ــ الشاعر النابه هو الذي يعبر عن حياة مجتمعه، وأحداث عصره ــ طبق هذا القول على المتنبي في ضوء هذه الأبيات.

8 ــ خص المتنبي سيف الدولة بالإشادة والتمجيد، وأهمل حق جنود الجيش العربي في ذلك فما رأيك في هذا المسلك؟ وهل لديك ما تبرر به موقف المتنبي؟ اذكر ما تعرف.

9 ــ تعتبر هذه القصيدة وثيقة تاريخية توضح العلاقة بين العرب والروم في العصر الذي قيلت فيه ــ وضح ذلك.

10 ــ ما الأفكار الأساسية التي تضمنها النص؟ ضع لكل منها عنواناً مناسباً.

تدريب تطبيقي

المقالة الأدبية :

يتحقق النصر لمن تكتمل لديه القوة المادية والقوة الروحية. اكتب مقالا في ذلك ، وأيد حديثك بنصوص قرآنية ، ونبوية.

السؤال الكتابي :

أعقد موازنة بين هذه القصيدة وقصيدة أبي تمام في فتح عمورية مبيناً أوجه التشابه والاختلاف في القصيدتين.

وصف شعب بوان

(أ)

مغاني الشِّعْبِ طيباً في المغاني ... بمَنْزِلَةِ الربيع من الزّمَانِ
ولكنّ الفتى العربيّ فيها ... غريب الوَجْهِ وَاليَدِ واللِّسَانِ
مَلاَعبُ جِنَّةٍ لو سَارَ فيهَا ... سليمَانٌ لسَارَ بتَرْجمَانِ
طبَتْ فرْسَانَنَا والخيلَ حتَّى ... خَشيتُ – وإن كرُمنَ – من الحران

(ب)

غَدَوْنَا تَنْفضُ الأغصانُ فيه ... على أعرافهَا مِثلَ الجُمَانِ
فَسرتُ وقد حَجَبْنَ الشمسَ عني ... وجئنَ من الضياء بمَا كفاني
وألقي الشَّرقُ منها في ثيابي ... دَنَانيرًا تَفرّ مِنَ البَنَانِ
لهَا ثَمَرٌ تشيرُ إليكَ منهُ ... بأشْرِبةٍ وَقَفْنَ بلا أوَانِ
وأمواهٌ يَصِلّ بها حَصَاها ... صَليلَ الحَلْيِ في أيدي الغَوَاني
إذا غَنَّى الحَمَامُ الوُرْقُ فيهَا ... أجَابَتْهُ أغَانيّ القيَانِ

تعريف وتمهيد:

سبق التعريف بالشاعر ، وستأتي ترجمة مفصلة لحياته.

وقد سافر المتنبي إلى بلاد فارس لزيارة عضد الدولة بن بويه ووزيره الكاتب ابن العميد في عام 354 ه ، وفي أثناء سفره مر بشعب بوان ، ذلك الموقع الجميل الذي يقع بالقرب من شيراز ، وهو مكان كثير الشجر والمياه ، ويعد من جنان الدنيا ، وقد استهوى هذا المكان شاعرنا المتنبي ، واشتد إعجابه بسحره وجماله ، فسجل بعض مشاعره في هذه الأبيات ،

وهي من قصيدة طويلة أنشدها المتنبي عند لقائـه عضد الدولة بن بويه حاكم فارس يمدحه فيها كما يمدح ولديه أبا الفوارس وأبا دلف ، وفي الأبيات التي بين يديك يحن المتنبي إلى العربية التي افتقدها في فارس فما وجد لها أثرا.

شرح لغوي :

مغاني الشعب : مغاني جمع مغنى وهو المكان الذي أقام به أهلـه ثم ظعنوا عنه ، والشعب هو المنفرج بين جبلين ، والمراد بمغاني الشعب بساتين هذا المكان. غريب الوجه : يختلف عن أهل الشعب لسمرة وجهـه. غريب اليد : المراد أن العربي يستخدم الرمح على عكس أهل فارس الذين يستخدمون القوس. غريب اللسان : المراد اللغة. جنة : جن. سليمان : نبي الله الذي علمه الله لغات الطير والنمل. ترجمان مترجم. طبت : يقال طباه يطبوه ويطبيه طبياً وطبوا إذا دعاه ، والمراد هنا استمالت. كرمن : أي أن الخيل كريمة أصيلة. الحران : العصيان وعدم الانقياد. غدونا : مشينا أول النهار. تنفض : تسقط. أعرافها : جمع عرف وهو الشعر النابت على رقبة الخيل. الجمان : الفضة ، والمقصود أن قطرات الماء كحبات الفضة. حجبن : منعن. الشرق : الشمس. دنانيرا : يصور أشعة الشمس المستديرة التي تنفذ من خلال الأغصان بالدنانير. تفر من البنان : المراد لا تمسك بها الأصابع. بلا أوان : بغير أوان ، جمع آنية وهي الوعاء. يصلّ : يحدث صوتاً كصوت النحاس. الحلي : ما تلبسه النساء من الذهب والفضة وغيرهما. الغواني : جمع غانية وهي المرأة التي تكتفي بجمالها عن وسائل الزينة. الورق : جمع ورقاء وهي الحمامة التي تجمع بين لوني البياض والسواد. القيان : جمع قينة وهي المغنية.

دراسة أدبية :

موضوع هذه الأبيات هو وصف بعض مظاهر الطبيعة ، وقد اشتملت على جملة أفكار أساسية

تدور كلها حول وصف هذا المكان الفارسي والإعجاب به ، فحدائقه من أجمل الحدائق ، يفوق غيره من الأماكن كما يفضل الربيع سائر الأزمنة ، وهو مكان فارسي إذا نزل به العربي وجد نفسه غريباً عن أهله في لونه ولغته وسلاحه ، لكن تلك الحدائق واسعة ساحرة كأنما أبدع الجن صنعها ، ولو أن نبي الله سليمان زارها لاحتاج إلى من يترجم له آيات إبداعها ولغات من احتشد فيها من الزائرين ، لقد استهوت الإنسان والحيوان ، فأشجارها وارفة ، وثمارها ناضجة ، ومياهها رقراقة ، وطيورها صداحة مغردة تتجاوب معها أصوات المغنيات في كل مكان.

والأفكار على هذا النحو مرتبة ، قريبة التناول ، قائمة على الملاحظة الدقيقة ، وهي نابعة من عاطفة معجبة ، فقد عاش شاعر الإحساس لحظات في هذا المكان الساحر فجاءت أبياته صورة صادقة لتجربة مفعمة بالإعجاب وتقدير الجمال ، وصدق التعبير عنه.

ويعد وصف مظاهر الطبيعة من أغراض الشعر التي كثر القول فيها في العصر العباسي ، وتسجل أبيات المتنبي بعض ظواهر البيئة التي عاش فيها ، وتنقل بين أرجائها ، فهي بيئة غنية بمشاهدها ، فاتنة بطبيعتها. كذلك تبدو من خلال الأبيات بعض سمات شخصية للمتنبي ، فهو الشاعر الرحالة ذو الإحساس المرهف والملاحظة الدقيقة ، وإنه ليتعمق ويتأمل ، ثم يسجل صورا فنية رائعة ، يهتم فيها بألوان البيان ، ويجعلها تنبض بالحياة والحركة.

دراسة بلاغية :

هذه الأبيات لوحة فنية ، عبر المتنبي بأساليبها عن تجربة حية مر بها ، وقد اقتصر في وصفه لظواهر الفتنة والجمال في هذا الشعب على الأساليب الخبرية ، لأن النفس أكثر استجابة لها في تلك المواطن ، وكل أساليبه تحمل معاني الإعجاب والدهشة.

وكان من آثار انفعال الشاعر بمشاهداته تلك الصور الفنية التي أضفت على أساليبه حيوية وأكثرها قريب التناول ، وبعضها يجمع بين اللون والشكل والحركة ، ومن ذلك الصور التي رسمها في البيتين السابع والثامن ، فأشعة الشمس المستديرة تبدو من خلال الأعصان في لون الدنانير واستدارتها ، ولكن اليد لا تستطيع الإمساك ، بها وثما ر الحدائق لشدة نضجها تشير إلى القاطفين بعد أن صارت شراباً معلقاً في غير إناء ، وكذلك الصورة الواردة في البيت التاسع ، ألا ما أروع الطبيعة!!! إنها للفنان المبدع وحي وإلهام ، وبالإضافة إلى تلك اللوحات الفنية اشتملت الأبيات على مختلف ألوان البيان من تشبيهات واستعارات وكنايات ، وكلها مما يعين على توضيح الفكرة ، ويكشف عن إحساس الشاعر وانفعاله بما يقع تحت بصره ، فمن التشبيه البيت الأول الذي جعل منازل هذا الشعب بين غيرها كالربيع بين فصول العام ، وكذلك التشبيه في قوله : ملاعب جنة — تنفض الأغصان على أعرافها مثل الجمان. وغير ذلك.

ومن الاستعارة قوله : وألقى الشرق... دنانيرا — تفر من البيان — غنى الحمام.

ومن الكناية: غريب اللسان كناية عن اللغة، والبيت الثامن كناية عن نضج الثمار وصفاء قشرتها.

ومن المجاز المرسل قوله : تفر من البنان ، وهو مجاز علاقته الجزئية حيث أطلق البنان وهو الجزء وأراد الكل وهو أصابع اليد.

وقد جاءت ألفاظ الأبيات وأساليبها ملائمة موحية ، معبرة عن المعنى والإحساس معاً ، وكثير من الألفاظ ذو إيقاع موسيقي ترتاح إليه الأذن ، ومن ذلك : الربيع — الأغصان — الجمان — دنانيرا — يصل بها حصاها — غنى الحمام —

أما الأساليب ففي اختيارها دقة ومهارة يبدو ذلك من الأسف الذي أوحت به (لكن...) في البيت الثاني، والإضافة في (ملاعب جنة) موحية بمدى حيوية هذا المكان وإبداعه، والجملة الاعتراضية (وإن كرمن) تنبىء عن الجودة والأصالة. وفي البيت الثامن قدم ماحقه التأخير وهو الجار والمجرور في قوله (لها ثمر) وهو أسلوب يفيد تفرد المكان بميزات لم تتهيأ لغيره، وتكاد الأبيات تخلو من المحسنات البديعية إلا ما جاء عفوا كقوله في البيت السادس: حجبن الشمس، وجئن من الضياء بما كفاني، وهو طباق يحقق وضوح الفكرة ويؤكدها.

مجمل القول في النص :

الوصف من الأغراض التي ازدهر القول فيها في العصر العباسي، وقد ساعد على الإجادة فيه ما شهدته الدولة من تقدم حضاري وعمراني، والمتنبي شاعر مطبوع شهدت بذلك آثاره في كل فنون الشعر التي أبدع فيها القول،

ويرشدنا هذا النص إلى دقة ملاحظات المتنبي وقرب أفكاره وجودة صياغتها في أساليب صافية جمعت بين براعة التصوير والتعبير، وامتازت الأبيات بوحدة موضوعها، ووحدة الجو النفسي (العاطفة) التي تسودها، وكان المتنبي – كعادته – بارعاً في استخدام الألفاظ والأساليب الموحية، القادرة على نقل تصويره الدقيق وإحساسه العميق، وكانت أبياته لوحة فنية ملونة تفيض بالحياة والحركة وأبيات النص من بحر الوافر، وأجزاؤه مفاعلتن مفاعلتن فعولن مفاعلتن مفاعلتن فعولن

مناقشة النص :

1 — عم يتحدث المتنبي في البيت الأول ؟ اشرح المقارنة التي تضمنها هذا البيت.

2 — لم يتأسف الشاعر في البيت الثاني ؟ ومن أين تفهم تأسفه ؟

3 — بم يوحي قول المتنبي في صدر البيت الثالث : (ملاعب جنة) ؟ ولم خص النبي سليمان بالذكر في هذا المقام ؟

4 — كيف كان أثر تلك المغاني على الخيل وفرسانها ؟ وماذا أفادت الجملة الاعتراضية (وإن كرمن) ؟

5 — ما الوقت الذي وصل فيه الشاعر إلى مغاني هذا الشعب ؟ ومن أين تفهم وجود صحبة معه ؟

6 — رسم المتنبي لوحة فنية في البيتين السادس والسابع — وضح جوانب تلك الصورة.

7 — كيف صور المتنبي كلا من ثمار هذا المكان وجداوله ؟

8 — في البيتين الأخيرين ثلاثة أصوات مختلفة — وضح ذلك.

9 — للتصوير عند المتنبي دور واضح في إبراز المعنى وتسجيل المشاعر — وضح مع التمثيل لما تقول.

10 — ضع عنواناً جديدا لأبيات المتنبي، وقسمها بحسب معانيها الأساسية.

تـدريـب تطبيقـــي

المقـالـة الأدبيـــة :

الوصف من الفنون الشعرية التي قال فيها شعراء العربية منذ العصر الجاهلي. اكتب مقالا تتناول فيه موضوعات هذا الوصف حتى عصر المتنبي ، مبيناً أثر البيئة في ذلك الوصف وموضوعاته.

السؤال الـكتابـي :

انثر بأسلوبك الأبيات الثلاثة الأخيرة من نص المتنبي ، ثم استخرج منها ثلاثة ألوان بيانية مختلفة ، موضحاً أثرها.

المراجع :

ديوان المتنبي : شرح البرقوقي.
مـع المتنبي لطه حسين.

المتنبي وسيف الدولة

كان بين المتنبي وسيف الدولة ، كما سبق القول ، أقوى صلة عرفت بين شاعر وأمير. وفي مجلس من مجالسه ألقى الشاعر إحدى قصائده في الرثاء أمامه ، وقد جمعت هذه القصيدة بالإضافة إلى ذلك أغراضاً أخرى ، وهي المديح والحكمة والفخر ، وهذا تحليل أدبي لتلك القصيدة :

1 – بنا منك فوقَ الرّملِ ما بكَ في الرّملِ
وهذا الذي يضني كذاكَ الذي يبْلي

2 – كأنك أبصرْتَ الذي بي وخفتَه
إذا عشتَ، فاخترتَ الحِمامَ على الشكلِ

3 – فإن تَكُ في قبر فإنك في الحشا
وإن تك طفلا فالأسى ليسَ بالطفلِ

4 – ومثلك لا يُبكي على قدر سنه
ولكن على قدْرِ المخيلة والأصلِ

5 – أيفطمه التواربُ قبل فطامه
ويأكله قبلَ البلوغ إلى الأكلِ ؟!

6 – وقبلَ يرى من جوده ما رأيته
ويسمع فيه ما يسمّعُ من عذْلِ

7 – ويلقى كما يلقى من المسلم والوغي
ويمسي كما تمسي مليكاً بلا مِثْلِ

8 – عزاءكَ سيفَ الدولة المقتدى به
فانك نصل ، والشدائد للنّصلِ

9 – ولم أر أعصى منك للحزن عبرةً
وأثبتَ عقلاً ، والقلوبُ بلا عقْلِ

10 – ومن كان ذا نفس كنفسك حرةٍ
ففيه لها مُغْنٍ ، وفيهَا لها مثْلِ

11 – نُبَكّي لموتانا على غير رغبة
تفوتُ من الدنيا ، ولا موهبٍ جَزْلِ
12 – هل الولدُ المحبوبُ إلاّ تَعلَّةٌ
وهل خلوةُ الحسناء إلاّ أذى البعلِ ؟
13 – وقد ذقتُ حلواء البنينَ على الصِّبا
فلا تحسبنّي قلتُ ما قلتُ عن جَهْلِ
14 – وما تسعُ الأزمانُ علمي بأمرها
ولا تحسُنُ الأيامُ تكتبُ ما أملي
15 – وما الدهرُ أهلٌ أن تؤمَّلَ عندَهُ
حياةٌ ، وأن يشتاقَ فيهِ إلى النَّسْلِ

المتنبي وسيف الدولة :

في يوم من أيام الشتاء العابسة المكفهرة اكتظّت ساحات قصر « آل حمدان » بمدينة حلب بالوزراء والأعيان والعلماء والشعراء ، كما امتلأت غرفه وحجراته بربات الحجال على اختلاف طبقاتهن ودرجاتهن.

وهناك على أريكة رفيعة وثيرة ، تربع الملك الهمام سيف الدولة بطرف كسير ، وقلب جريح ، وكبد حرى ، وحوله الجمهور القادم لأداء واجب التعزية ، في ولده الأمير أبي الهيجاء ، الذي اختطفه المنون ، وهو ما يزال في ميعة الصبا.

لقد كان المشهد جليلا رهيباً ، لهول المصاب ، وكان الحزن مخيماً على كل الأرجاء ، والسكون مستولياً على كل النفوس ، ولو لا تلك الزفرات المنبعثة من حين لآخر من خلف السجوف والستائر ؛ لخلت القصر قبرا موحشاً.

إن المقام هنا هو مقام الحكمة ، والشاعر هو أقوى وأفصح من يعبر عن هذا المقام ، وأبلغ من يلطف من وقع مصابه الجلل.

ومن هو الشاعر الكفء الذي سيقوم هذا المقام من شعراء سيف الدولة إن لم يكن المتنبي زعيم الشعراء ورسول البيان ؟

وقد قام المتنبي بما كان يرجى منه في هذا المقام الرهيب وأنشأ قصيدته الرائعة في رثاء الفقيد وتعزية سيف الدولة على أن أول ما يفعله اللبيب في مثل هذا المقام ، هو إبداء مشاركته للمعزّى في مصابه ومشاطرته إياه في أساه. ثم يتخلص بعد ذلك إلى التسلية التي هي القصد من التعزية ، أما أبو الطيب فإنه لا يقتصر على إبداء ذلك فقط ، بل زاد فقرر أن ما رزىء به الفقيد نفسه – من الموت الذي يبلي ويفني – ليس أعظم وأشد من موجعات القلب المضنية التي أحدثها في نفسه ونفوس بقية الثاكلين ، بل أن الثكل وفقد الأحبة أشق على نفسه من الحمام ، فلذلك لم يؤثر الفقيد :

بنا منك فوق الرمل ما بك في الرمل وهذا الذي يضنى كذاك الذي يبلى(1)
كأنك أبصرت الذي بي وخفته إذا عشت ، فاخترت الحمام على الثُّكل(2)

ثم يبين أبو الطيب أن الأسى أشد على الناس جميعاً حتى الغواني قد استرسلن في البكاء على الراحل ، ثم مضى يذكي نار الحزن ويذكر أن للطفل الراحل من القيمة على صغر سنه ما يجعل ذكراه منقوشة على صفحات الأفئدة وصورته متمثلة في العيون أبد الدهر لأنه وإن كان طفلا لكنه « كبير » بالقياس إلى ما ينتظر أن سيكون عليه في مستقبل أيامه ، لو لم تعالجه المنون ، إذ أنه مرشح لعرش الإمارة ، والإحسان إلى الجماهير وتوسيع مناطق النفوذ ، ووراثة مجد بني حمدان. وخصالهم الكريمة :

فإن تكُ في قبر فإنك في الحشى وإن تك طفلا فالأسى ليس بالطفل(3)
ومثلك لا يبكي على قدر سنه ولكن على قدر المخيلة والأصل(4)

---

(1) يقصد أننا اموات حزنا عليك . – (2) الحمام : الموت ، الثكل : فقد الحبيب .
(3) الأسى : الحزن – (4) المخيلة هنا : الفراسة

أيفطمه التراب قبل فطامه ويأكله قبل البلوغ إلى الأكل ؟(1)
وقبل يرى من جوده ما رأيته ويسمع فيه ما يسمع من عذل(2)
ويلقى كما تلقى من السلم والوغى ويمسى كما تمسى مليكا بلا مثل(3)

وإذا فقد جعل الشاعر الأحشاء تلتهب ، والمهج تتأجج من الحزن والجوى ، بذكر ما للفقيد من مكان مرموق ، وملك باذخ ، وتظهر عبقرية المتنبي في المواساة والإقناع : فقد اتخذ لهذه الغاية وسيلتين اثنتين إن لم تنجحا جميعاً ، فإحداهما لا محالة ناجحة ، فهو أولاً : يسلم — ضمنيا — بأن موت الأمير الطفل كارثة عظمى ، لكنه يعمد إلى استثارة مكامن الحمية والنخوة من نفس سيف الدولة ، بتعداد ما اشتهر به من خصال المروءة والصبر على الشدائد ، والثبات في المكاره ، حتى أنه صار أسوة في هذا الخلق ، يقتدي به وهو غني عن الحاجة إلى من يواسيه ويسليه مهما اشتد الخطب ، وعظمت البلوى.

عزاءك سيف الدولة المقتدي به فإنك نصل والشدائد للنصل(4)
ولم أر أعصى منك للحزن عبرة واثبت عقلا والقلوب بلا عقل(5)
ومن كان ذا نفس كنفسك حرة ففيه لها مغْنٍ وفيها له مسلى

أما الوسيلة الثانية فهو ينفي فيها أن يكون موت الولد مصيبة ، وقد سلك في ذلك مسلك الزهاد في الدنيا الناظرين إليها نظرة استصغار ، فيقرر بأنه ليس من اللياقة في شيء أن تجزع وتحزن على من يفارق الحياة من أعزائك ؛ إذ ليس فيها ما يؤسف على فراقه ، ويمضي فيذكر بأن الأبناء الذين تحسبهم قرة عينك وبهجة فؤادك إن هم إلا تعلة تتعلل بهم زمناً قصيرا كعمر الوردة ثم لا يلبثون أن ينقلبوا فتنة لك وابتلاء ، ويضيف فيقرر أن

---

(1) التواب : لغة في التراب . والفطام منع الصبيى من الرضاع . — (2) وقبل يرى : يريد وقبل أن يرى . — (3) السلم : المسالمة ، الوغى : الحرب . — (4) النصل : حديدة السيف .
(5) عبرة : دمعة .

« الزواج » الذي هو « أحلى أمنية » يهفو إليها المرء في مستقبل حياته ما هو إلا الأذى المحض لما ينجر على الوالد من غصص الأبناء وتكاليف الحياة الزوجيـــة.

نبكّي لموتانا على غير رغبـــة تفوت من الدنيا ولا موهب جزل(1)
هل الولد المحبوب إلا تعلـــة وهل خلوة الحسناء إلا أذى البعل(2)
وقد ذقت حلواء البنين على الصبـا فلا تحسبني قلت ما قلت عن جهل(3)

هذا وكأن بشاعرنا الخالد يعز عليه أن يكون في هذا الموقف مجرد شاعر يرثى أو يسلى فحسب ، كما هو الشأن عند الشعراء الآخرين في مثل هذا المقام ، بل إن نفسه لتأبي له إلا أن يختم هذه المرثية بحكم تدعو إلى عدم الاكتراث بالمصاب والالتجاء إلى الزهد الذي هو أدعى إلى التسلية والتجمل وهو يعلن بأن الدنيا وما فيها. مما يحسبه الناس خيرا وسعادة ، ومجدا وسيادة هو أحقر من أن يحرص عليها العاقل البصير ؛ إذ ما هو إلا شيء تافه ، وتدعيماً لهذا الرأي الفلسفي يمهد له الشاعر بحكمة من حكمه الساحرة فيرمي الدهر وأبناءه بالغباوة والقصور عن إدراك ما يعلمه من صروف الزمـان ، وعجائب الحدثان ، وجوامع الكلم ، وبدائع الحكم ، وروائع البيان :

وما تسع الأزمان علمي بأمـــرهـا ولا تحسنُ الأيام تكتب ما أملي
وما الدهر أهل أن تؤمل عنـــده حياةٌ ، وأن يشتاق فيه إلى النسل

(1) الموهبة ، كالموهبة : العطية ؛ الجزل : الكثر . — (2) : تعلة تعلل ، والبعل : الزوج .
(3) الحلـواء : الحلاوة .

نمـاذج من شعـر المتنـبي

أ ـ الفخـر

1 ـ ما مقـامي بأرضِ نخلةَ إلاّ   كمقامِ المسيح بيْنَ اليَهودِ(1)
2 ـ مَفْرشي صَهْـوَةُ الحصان ولكِـن   قميصـي مَسْـرودةٌ مـن حـديـدِ(2)
3 ـ أينَ فضلي إذا قَنعتُ مِنَ الدّهـر   بعيـشٍ معَجّـلِ التّنْكيـدِ
4 ـ ضاقَ صدري، وطال في طَلَبِ الرِّزْ   قِ قِيَـامـي ، وقَـلّ عنهُ قعـودي
5 ـ أبـداً أقطـعُ البلادَ ونَجمِي   في نحوسٍ ، وهمّتي في سعـود
6 ـ ولعلي مؤمِّلٌ بعضَ ما أبْلغُ   باللُّطْـفِ من عزيزٍ حَميدِ(3)
7 ـ حشْ عزيزًا ، أو متْ وأنـتَ كريـمٌ   بينَ طَعْـنِ القَنَا ، وخَفْقِ البنـودِ(4)
8 ـ فرُؤوسُ الرمـاحِ أذْهَبُ للغَيْـظ   وأشْفَـى لِغـلِّ صَـدْرِ الحقـودِ
9 ـ لا كمـا قد حَيِيتَ غيرَ حَميد   وإذا مـتّ مت غيـرَ فَقيـدِ
10 ـ فاطلبِ العزّ في لظىً ، ودَعِ الـذّلّ   ولـو كـانَ فـي جنـانِ الخُلـودِ(5)
11 ـ مـا بقـومـي شَرُفْتُ بل شَرُفُـوا بـي   وبنفسـي فَخَـرْتُ لا بجُـدُودِي
12 ـ وبهمْ فَخْرُ كُلّ من نَطَقَ الضّـادَ   وعَـوْذُ الجانـي ، وغَـوْثُ الطّـريـدِ(6)

---

(1) أرض نخلة قرية لبنانية قرب بعلبك (2) صهوة الحصان : ظهر الحصان . مسرورة : درع (3) عزيز حميد : صفتان من صفات الله عز وجل . ـ (4) القنا : الرمح ، والمفرد قناة ، البنود : الأعلام ، والمفرد بند . ـ (5) لظى : جهنم . ـ (6) الضاد : اللغة العربية . العوذ : الملجأ . الجاني : المجرم . غوث : عون . الطريد : المطرود ، المنفي .

13 ـ إنْ أكُـنْ مُعْجَبـاً فَعُجْبُ عجيب
لم يَجِدْ فـوقَ نَفْسـهِ مِنْ مَـزِيـدِ

ب ـ مدح سيف الدولة وتهنئته بعيد الأضحى

1 ـ لـكلّ امرىءٍ من دَهْرِهِ ما تَعَوّدَا
وعـادَةُ سَيْفِ الدّوْلَـةِ الطّعْـنُ في العدَى
2 ـ هُوَ البحرُ، غُصْ فيه إذا كان ساكناً
على الـدّرّ، واحْـذَرْهُ إذا كـانَ مُـزْبِداً
تظلّ ملوكُ الأرضِ خاشعةً لـهُ تُفارقُهُ هَلْـكَى، وتلقاهُ سُجّدا
4 ـ وتُحيي له المالَ الصوارمُ والقَنَـا
ويقتـل مـا تُحيِي التبسُّـمُ والجَـدا(1)
5 ـ ذَكيٌّ، تَظَنّيهِ طَليعةُ عينه يرى قلبُهُ في يومِهِ ما تَرَى غدا(2)
6 ـ وَصُـولٌ إلى المستصعبَـاتِ بخيلـه
فلـو كـانَ قَـرْنُ الشّمْسِ مـاءً لأوردا(3)
7 ـ لذلك سمّى ابن الدّمُسْتُقُ يـومَـه
مَمَـاتـاً، وسمّـاهُ الـدّمُسْتُـقُ مَوْلدا(4)
8 ـ هنيئاً لكَ العيدُ الذي أنتَ عيـدُهُ
وعيـدٌ لمـن سَمّـى، وضَحّـى، وعَيّدا
9 ـ فذا اليومُ في الأيّامِ مثلكَ فـي الـوَرَى
كمـا كنـتَ فيهم أوحـداً كـانَ أوحـدا
10 ـ هو الجَدّ حتى تفضُلَ العَينُ أختَهَـا
وحتى يـكونَ اليومُ لليومِ سَيّـداً...(5)

---

(1) الصوارم : السيوف القاطعة ، القنا : الرماح . الجدا : العطاء . ـ (2) تظنيه : ظنه . طليعة عينه : مثل الطليعة لعينه ، والطليعة مقدمة الجيش . ـ (3) قرن الشمس : قرصها . (4) الدمستق قائد جيش الروم . سمى : ابن الدمستق يومه مماتاً : لأنه أسر فيه . وسماه الدمستق مولدا : لأنه تمكن فيه من الفرار . (5) الجد : الحظ .

11 ـ رأيتكَ مَحْضَ الحِلْـمِ في مَحض قُدرة
ولـو شئتَ كـان الحلـمُ منكَ المُهَنَّـدا(1)
12 ـ وما قتَلَ الأحرارَ كالعفـوِ عَنْهُـمُ
ومَـنْ لكَ بالحُـرِّ الـذي يَحْفَظُ اليَـدَا ؟(2)

ج ـ الرثاء :

رثـاء جدتـه

1 ـ ألا لا أري الأحداثَ مَدْحاً ولا ذَمّـاً
فمـا بَطْشُهَـا جَهْـلا ، ولا كَفُّهَا حلمَا(3)
2 ـ لكِ اللهُ مِن مفجوعةٍ بحبيبها قتيلةِ شَوقٍ غيرِ ملحقها وَصْما(4)
3 ـ أحنّ إلى الكأس التي شَرِبتْ بهـا
وأهْوى مثواها التراب وما ضَمّـا(5)
4 ـ بكيتُ عليها خيفةً في حياتها وذاقَ كلانا ثُكْلَ صَاحبهِ قدْما(6)
5 ـ عرَفْتُ الليالَي قبلَ ما صَنَعَتْ بنـا
فلمـا دَهَتْني بما تَزِدْني بها عِلْمَـا
6 ـ أتاها كتابي بعد يَأسٍ وتَرْحَـة
فماتَتْ سروراً بي ، فمتّ بها غَمّا(7)

(1) محض الحلم : خالص الحلم . المهند : السيف . (2) ـ اليدا : النعمة (3) الأحداث: مصائب الدهر . كفّها : امتناعها عن الأذى . ـ (4) لك الله : دعاء لجدته . بحبيبها : يريد نفسه وصما : عيبا ، لأنه شوق الأم إلي ولدها . ـ (5) الكأس التي شربت بها : كأس الموت. مثواها ، مقامها ، قبرها . ـ (6) ثكل صاحبه : فقد صاحبه . قدْماً : قديماً ، أي قبل موتها .
(7) ترحة : حزن وهم .

7 ـ حرامٌ على قلبي السرورُ فإنني أعدّ الذي ماتَتْ به بَعْدَها سُمّاً !
8 ـ رقا دَمْعُهَا الجاري ، وجَفَّتْ جنونُها
وفارقَ حُبِّي قلبَها بعدَما أدْمَى(1)
9 ـ وكنتُ قبيلَ الموتِ استعظمُ النّوى
فقد صارتِ الصغرى التي كانت العُظْمَى
10 ـ هَبيني أخذتُ الثأرَ فيك من العدى
فكيفَ بأخذ الثّأرِ فيك منَ الحُمَّى ؟
11 ـ وما انسدّت الدنيا علي لضيقها ولكنّ طَرْفاً لاَ أراكِ به أعْمى
12 ـ فوَا أسفَا ألاَّ أكبَّ مُقبِّلاً لرأسكِ ، والصَّدْرِ اللّذي مُلئا حزما
13 ـ ولو لم تَكوني بنتَ أكرمِ والدٍ
لكانَ أباكِ الضّخْمَ كونُكِ لي أمَّا(2)
14 ـ لئن لَذّ يومُ الشّامتينَ بيومهَا
لَقَدْ ولدت مني لأنا فهم رَغْمَا(3)
15 ـ تَغرّبَ لا مُسْتَعْظماً غيرَ نفسه
ولا قابلاً إلاّ لخالقه حُكْمَا
16 ـ وَلا سالكاً إلاّ فؤادَ عَجاجة ولا واجداً إلاّ لمكرمةِ طَعْما(4)
17 ـ يقولون لي : ما أنتَ في كل بلدة ؟
وما تبتغي ؟ ما أبتغي جَلّ أنْ يُسْمَى !
18 ـ كأنّ بنيهم عالمونَ بأنني جلوبٌ إليهم من معادنهِ اليُتْما(5)
19 ـ وما الجمعُ بين الماء والنار في يدي
بأصعبَ من أن أجمع الجَدّ والنهما !

---

(1) رقا دمعها : أصله رقأ بمعنى انقطع بسبب موتها . ـ (2) الضخم : العظيم . ـ (3) رغما : انساناً يذل أعداءه ويلصق أنوفهم بالرغام أي بالتراب . (4) عجاجة : غبار حرب .
(5) بنيهم : الضمير هنا يعود إلى حساد الشاعر الذين يسألون عن أسفاره .

20 ـ ولكنّني مستنصرٌ بذُبَابه
ومُرتكبٌ في كُلّ حال به الغَشْمَا(1)

21 ـ وجاعلُه يومَ اللِّقاء تحيّتي وإلا فلستُ السيدَّ البَطَلَ القَرْما(2)

22 ـ وإني لمن قوم كأنّ أنوفَهُمْ بها أنفٌ أن تسكنَ اللحمَ والعَظما

23 ـ كذا أنا يا دنيا ، إذا شئت فاذهبي
ويا نفسُ زيدي في كراهِهَا قُدْمَا(3)

24 ـ فلا عَبَرَتْ بي ساعةٌ لا تُعزّني
ولا صَحِبتْني مُهجةٌ تقبلُ الظلْمَا

د ـ الحكم

رأيه في الزمان

1 ـ صَحِبَ الناسُ قَبْلَنَا ذا الزّمانا وعناهُمْ من شأنه ما عنانا(4)

2 ـ وتَولّوْا بغُصّة كُلهُمْ منهُ وإن سَرّ بعضَهمْ أحيانَا(5)

3 ـ رُبّمَا تُحسن الصنيعَ لياليه ولكنْ تُكَدّرُ الإحسانَا(6)

4 ـ وكأنّا لم يَرْضَ فينا بريْب الدّهْر
حتّى أعانَهُ مَن أعانَا(7)

5 ـ كُلّمَا أنبتَ الزّمانُ قناةً رَكّبَ المرءُ في القَنَاة سنانَا(8)

6 ـ ومُرادُ النفوس أصغرُ من أنْ نَتَعادى فيه ، وأنْ نتفَانى(9)

7 ـ غيْرَ أنّ الفتى يُلاقي المنايا كالحات ، ولا يُلاقي الهَوانا(10)

8 ـ ولو أنّ الحياةَ تَبْقَى لِحيٍّ لعَدَدْنَا أضَلّنَا الشجْعَانَا

9 ـ وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ فمنَ العجز أن تموتَ جَبَانَا

10 ـ كُلّ ما لم يَكنْ من الصّعب في الأنفس سَهْلٌ فيها إذا هُوَ كانا(11)

---

(1) ذبابه : حده ، أي حد السيف ، الغشما : الظلم والمخاطر . ـ (2) القرْم : السيد الشجاع . (3) قدْما : تقدماً ، ومضيا إلى الأمام . ـ (4) عناهم : همهم وشغلَ بالهم . ـ (5) تولوا : ذهبوا ، ماتوا . ـ (6) الصنيع : العمل . تكدر الإحسان : تفسده بالإساءة . ـ (7) ريب الدهر : حوادثه ومصائبه . وفي البيت تعريض بكافور . ـ (8) القناة : عصا الرمح . سنانا : حديدة في رأس الرمح ، والمقصود أنه كلما أوجد الجيلُ السابق وسيلة للأذى والضر جاء الجيل اللاحق ليجعل تلك الوسيلة أشد أذى وضررا ! . ـ (9) مُراد النفوس : متطلباتها ومشتهياتها . أصغر : أحقر . ـ (10) الفتي : الإنسان الحر الكريم النفس . كالحات : عابسات . الهوانا : الذل . (11) إن المرء يجد الأمر صعبا عليه قبل وقوعه حتى إذا وقع وجدَه هينا وسهلاً .

هـ - العتــاب

وقال المتنبي يعاتب سيف الدولة ويفخر

وكان قد جرى لسيف الدولة خطاب مع قوم متشاعرين ، وظن المتنبي الحيف عليه والتحامل.

يا أعدلَ الناس إلا في معاملتي فيكَ الخصامُ وأنتَ الخصمُ والحكمُ (1)
أعيذُها نظراتٍ منكَ صادقةً أنْ تحسبَ الشحمَ فيمَنْ شحمهُ وَرَمُ
وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظره إذا استوَتْ عندهُ الأنوارُ والظلمُ ؟ (2)
سيعلمُ الجمعُ ممنْ ضمَّ مجلسُنا بأنني خيرُ منْ تسعى به قدمُ
أنا الذي نظرَ الأعمى إلى أدبي وأسمعتْ كلماتي منْ به صَممُ (3)
أنامُ مِلءُ جفوني عن شواردِها ويسهرُ الخلقُ جرَّاها ويختصمُ (4)
الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفُني والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ (5)
يا مَنْ يعزّ علينا أنْ نفارقَهم وجدانُنا كلَّ شيءٍ بعدكُمْ عدَمُ
إنْ كانَ سرّكُمُ ما قالَ حاسدُنا فما لجرحٍ إذا أرضاكُمُ ألمُ
وبينَنا ، لو رعيتُمْ ذاكَ ، معرفةٌ إن المعارفَ في أهلِ النهَى ذممُ (6)
بأيّ لفظٍ تقولُ الشعرَ زعنفةٌ تجوزُ عندكَ لاعُربٌ ولا عَجمُ (7)
هذا عتابُكَ إلاّ أنّهُ مِقةٌ قدْ ضُمّنَ الدرَّ إلا أنه كلِمُ (8)

---

(1) الحكم : الحاكم . – (2) الناظر : العين . – (3) الصمم : انسداد الأذن ، عدم السمع . والمقصود بالأعمى من لايميز الأدب ، وبمن به صمم من لايعير الشعر أذنا . – (4) شواردها : يقصد كلماته وأشعاره . جراها : من أجلها . – (5) البيداء : الصحراء . – (6) النهى : العقول . ذمم : عهود . – (7) زعنفة : جماعة من أسافل الناس . تجوز : تقبل . – (8) مقة : محبة .

أبو العلاء المعري

363 — 449 هـ.

في الرثـــاء ـ لأبي العلاء المعـــري

تعريف وتمهيـد :

الشاعر هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد ، من قبيلة تنوخ العربية التي ينتهي نسبها إلى قضاعة ثم إلى قحطان ، وقد عرف بالمعري نسبة إلى معرة النعمان (بلدة بسورية بين حلب وحماة) التي ولد بها سنة 363 هـ ، ونشأ بهذه البلدة في بيت علم وغنى ، ولم تمض على ولادته ثلاث سنوات حتى أصيب بمرض الجدري الذي شوه وجهه وأصابه بالعمى ، إلا أن ذلك لم يقعد به عن طلب العلم ، فقد تلقى مبادئه على أبيه وعلى غيره من علماء عصره في المعرة ، حيث اطلع على أسرار اللغة ، وعرف دقائقها وحقائقها ، ثم تنقل في مدن الشام يزور المكتبات ، ويختلف إلى دور العلم ، ويحضر مجالسه ، ويلقى العلماء والأدباء حتى صار علم الأعلام في عصره ، ثم ذهب إلى بغداد ، وولج بيوت علمها ، وحضر مجالس أدبها ، واشترك في ندوات فلاسفتها ، ولكنه لم يستقر مقامه فيها غير تسعة عشر شهرا عاد بعدها إلى المعرة بسبب مرض أمه التي بلغه نعيها وهو في طريق العودة إليها ، فاشتد حزنه عليها ، وزهد في الحياة ، وكان في أبي العلاء ميل إلى التشاؤم وحب للعزلة فما كاد يصل المعرة حتى حبس نفسه في منزله ، فسمي رهين المحبسين (العمى والمنزل) ، وعكف على التعليم والتأليف ، وحرم على نفسه الزواج وأكل كل ذي روح. وبسبب آرائه في المذاهب والأديان والشرائع ارتاب الناس في عقيدته ، وشكوا في دينه ، ورماه بعضهم بالزندقة. وتوفي المعري سنة 449 هـ بعد أن ملأت شهرته البلاد ، وقصد إليه طلاب العلم من كل الجهات ، وخلف تراثاً ضخماً في الأدب واللغة والفلسفة والاجتماع يخلد على الزمن هذا الشاعر العالم الفيلسوف ، ومن

آثاره الأدبية في الشعر : سقط الزند ، واللزوميات ، وفي النثر : الفصول والغايات ، ورسالة الغفران. وله غير ذلك تآليف كثيرة في الشعر والنثر.

وهذا النص أبيات أولى من قصيدة قالها أبو العلاء في رثاء صديقه أبي حمزة أحد علماء الفقه الحنفي ، والمشتغلين برواية الحديث النبوي ، وقد ضمنها الشاعر بعض آرائه في الموت والحياة ، والوجود والفناء.

نظرة في الحياة والموت

ـ أ ـ

غَيْرُ مجْدٍ في ملّتي واعتقَادي   نَوْحُ بَاكٍ وَلاَ تَرَنُّمُ شَادِ
وَشَبِيهٌ صوتُ النَّعيِّ إذَا قيـ   ـس بِصَوْتِ البَشيرِ في كل نَادِ
أبَكَتْ تلْكمُ الحمامة أم غَنَّـ   ـتْ على فرعِ غصْنها المَيَّادِ

ـ ب ـ

صَاحِ هَذي قبورنا تملأ الرّحْـ   ـبَ فأين القبور من عهد عاد ؟
خَفِّفِ الوَطْءَ ما أظن أديم الـ   أرْضِ إلا من هذه الأجساد
وقَبيحٌ بنَا وإنْ قَدُمَ العَهْـ   ـدُ هَوَانُ الآباء وَالأجْدَاد
سرْ إنِ اسْتَطَعْتَ في الهواء رُوَيْدًا   لا اخْتيَالاً على رُفَاتِ العبادِ
رُبَّ لَحْدٍ قد صَارَ لَحْدًا مِرَارًا   ضاحكٍ من تَزَاحمِ الأضْدَادِ
ودفينٍ علىً بقَايَا دَفيـ   ـنٍ في طويل الأزمانِ والآبادِ
فَاسْألِ الفرْقَدَيْنِ عَمَّنْ أحسَّا   من قبيلٍ وآنسَا مَن بلاد
كم أقَاما على زوالِ نهارٍ   وأنارا لِمُدْلجٍ في سواد
تَعَبٌ كلهَا الحياةُ فمَا أعجبُ   إلا من رَاغبٍ في ازدياد
إنّ حزناً في ساعةِ الموت أضعا   فُ سرورٍ في ساعة الميلاد

ـ ج ـ

خُلقَ الناسُ للبقاء فضلتْ   أمةٌ يحسَبونهم للنفاد
إنما يُنْقَلُونَ من دَار أعما   لٍ إلى دارِ شقوةٍ أو رشاد

ضَجْعَةُ المـوت رَقْدَةٌ يستريح الـ جسمُ فيها والعيشُ مثلُ السُّهَاد

شرح لغـوي :

غير مجد : غير نافع ولا مفيد. ملتي : مذهبي. نَوْح : بـكاء. الترنم : ترديد الصوت وترجيعـه بالغنـاء. الشادي : المغنـي. النعي : المخبر بالموت. البشير : المبشر بالخير. النادي : المجلس ، مـكان الاجتمـاع. المياد : المهتزّ ، كثير التمايل. صاح : يا صاحبي. الرحب : المـكان الواسع. عاد : اسم لقبيلة عربية قديمة بعث الله نبيه هودا. خفف الوطء : سر متمهـلا. أديم الأرض : ترابها ، ظهـرها. قبيح بنا : عار علينا رويدا : مهـلا. اختيالا : تيها وتـكبرا. الرفات : الحطام ، دقائق العظام البالية. لحد : قبر. الآباد : الأزمان الطويلة ، جمع أبد وهو الدهر. الفرقدين : مثنى فرقد ، المدلج : السائر ليلا. للبقاء : للحياة في الدار الأخرة. أمة : جماعة والمقصود الدهريون القائلون بفناء الأرواح. للنفاد : للفناء من غير بعث. دار أعمـال : المقصود الحياة الدنيا. دار شقوة أو رشاد : دار شقاء أو نعيم ، والمقصود الدار الآخرة. السها د: الأرق وعدم النوم .

منـاقشـة النص:

أولا: أجب عمـا ياتي :

1ـ ما الفـكرة الرئيسية التي عبرت عنها أبيات المجموعـة (أ) ؟

2ـ بم علل الشاعر لهذه الفـكرة ؟ وما القياس الذي أورده ليؤكدها به ؟ وما رأيك فيما ذهب إليه الشاعر ؟

3ـ بمن يذكر الشاعر في أبيات المجموعة (ب) ؟ وإلام يدعو ؟ ولماذا ؟

4ـ للشاعر رأي في تحلل الأجسام إلى عناصرها ـــ وضحه ، واذكر الأبيات التي تضمنته.

5ـ ما الفـكرة التي تضمنتها الأبيات من السابع إلى الحادي عشر ؟ وماذا يعني الشاعر من ذكرها ؟

6ـ ما رأي الشاعر في الحياة وقيمتها ، وفي الذين يتعلقون بها تعلقاً كبيرا ؟ وبم يستدل لرأيه ؟

7ـ وضح فكرة الشاعر في سخرية القبر من الناس ، ثم اذكر الغرض الذي يرمي إليه الشاعر من ورائها.

8ـ تضمنت أبيات المجموعة (ج) فكرة الشاعر في بقاء الناس ـ اشرح تلك الفكرة موضحاً على من يرد بها.

9ـ قال الله تعالى : (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم) في أي الأبيات اعتمد الشاعر على معنى تلك الآية الكريمة ؟

10ـ قال الله تعالى : (منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى) وضح كيف استفاد الشاعر من هذا النص القرآني.

ثانيا : أعد قراءة الأبيات ثم أجب عن الأسئلة الآتية :

1ـ (نوح باك ولا ترنم شاد) بم تسمي اللون البلاغي في هذا التعبير ؟ وما قيمته في المعنى ؟

2ـ في البيت الثاني لون بياني ـ وضحه وبين أثره في الكلام.

3ـ ما الغرض من الاستفهام في البيت الثالث ؟

4ـ (خفف الوطء) عم يكني الشاعر بهذا التعبير ؟ وضح الصورة وبين أثرها البلاغي.

5ـ ما الغرض من الاستفهام في البيت الرابع ؟ والأمر في البيت السابع ؟

6ـ في البيت الخامس أسلوب قصر ـ وضح طريقته ، وطرفيه ، وأثره البلاغي.

7ـ (تعب كلها الحياة) ماذا أفاد التقديم في هذا التعبير ؟

ـ 8 ـ كان المعري يعتمـد فيما يقول على الحجة والبرهان أكثر مما يعتمد على العاطفة والوجدان. مثّل لذلك ، واذكر ما يدل عليه من شخصيتـه.

ـ 9 ـ كان أسلوب أبي العلاء في هذا النص موافقاً للمعاني التي اختارها .ـ اشرح ذلك ومثّـل لما تقـول.

ـ 10 ـ النص بهذه الصورة دليل على ثقافة الشاعر من جهة ، وعلى مقدرته الفنية من جهة أخرى اشرح هذا القول.

ـ 11 ـ القصيدة من بحر الخفيف ، وأجزاؤه :

فاعلاتـن مستفعلـن فـاعـلاتـن فـاعـلاتـن مستفعلـن فـاعلاتـن

قطّع ـ في ضوء ذلك ـ البيت الأول من النص.

تدريـب تطبيـقي

المقالة الأدبيـة :

الشعر مرآة ينعـكس عليها ما يجري في المجتمـع ـ طبق هذه النظرية على عصر المعري مشيرا إلى ازدهار العلوم في ذلك العصر ، ومبيناً أثر ذلك على المجتمـع.

السؤال الكتابـي :

سبق أن درست للخنساء قصيدة في رثاء أخيها صخر ـ فما الفرق بين اتجاه كل من أبي العلاء والخنساء في رثائـه من حيث معاني الموضوع ، وعاطفـة القائـل ؟

نماذج من شعر أبي العلاء المعري

ـ أ ـ الفلسفة :

مذهبه في الحياة ورأيه في أخلاق الناس

1 ـ غدوتَ مريضَ العقلِ والدينِ فالقَني
لتسمَعَ أنباءَ الأمورِ الصّحَائحِ

2 ـ فلا تأكلنْ ما أخرجَ الماءُ ظالماً
ولا تَبْغِ قوتاً منِ غريضِ الذبائحِ (1)

3 ـ أبيضَ أماتٍ أرادتْ صريحَهُ
لأطفالها دونَ الغواني الصرائحِ (2)

4 ـ ولا تفجعَنَّ الطيرَ وهي غوافلٌ
بما وضَعَتْ، فالظُّلْمُ شرّ القبائحِ

5 ـ ودعْ ضَرَبَ النحلِ الذي بَكَرْتْ لَهُ
كواسبَ من أزهارِ نبتٍ فوائحِ (3)

6 ـ فما أحرزتْهُ كي يكونَ لغيرِها
ولا جمعتْهُ للنّدى والمنَائحِ (4)

7 ـ مَسَحتُ يدي من كلّ هذا، فليتني
أبِهتُ لشأني قَبْلَ شيبِ المسائحِ (5)

8 ـ بني زمني هل تعلمونَ سرائرا
علمتُ؟ ولكنّي بها غيرُ بائحِ

9 ـ سريتُمْ على غَيّ، فهَلاّ اهتديتم
بما خَبّرَتْكُمْ صافياتُ القرائحِ

10 – وصاحَ بكم داعي الضّلالِ ، فما لكم
أجبتم – على ما خَيَّلَتْ – كلَّ صائحِ ؟!(6)

11 – يغيبني في التُّرْبِ من هو كسارهٍ
إذا لم يغيِّبْني كريهُ الروائحِ

12 – ومن شرِّ أخلاقِ الأنيسِ وفعلهم
خوار النواعي ، والتدامُ النوائحُ(7)

13 – وأصفحُ عن ذنب الصديقِ وغيرِه
لسكناي بيتَ الحقّ بينَ الصفّائحِ(8)

14 – وأزهدُ في مدح الفتى عندَ صدقه
فكيف قبولي كاذباتِ المدائحِ ؟

---

(1) غريض الذبائح : لحمها الطري . ينهى في هذا البيت عن أكل السمك ، كما ينهى في الأبيات (3 و 4 و 5) عن أكل اللبن والبيض والعسل ، وهو في ذلك متأثر بالفلسفة الهندية التي تحرم أكل كل ما هو من أصل حيواني . – (2) أبيض أمات : لبن أمات . صريحه : خالصه أو صافيه ، الغواني الصرائح : النساء الخالصات الحسن . – (3) ضرب النحل : عسل النحل . فوائح : منتشرة الرائحة . – (4) الندى : العطاء والكرم . المنائح : الهدايا ، والمفرد منيحة .
(5) مسحت يدي من كل هذا : تركته . أبهت الشأني : انتبهت . المسائح : شعر جانبي الرأس ، والمفرد مسيحة . – (6) على ما خيلت : من غير تفكير . – (7) الأنيس : الناس . خوار النواعي : صياح الباكيات على الميت . التدام النوائح : ضرب الباكيات صدورهن . –
(8) بيت الحق : القبر .

ب ـ الحكمة والرثاء

1 ــ يا دهرُ يا منجزَ إيعَادِهِ ومخلفَ المأمولِ من وَعْدِهِ (1)
2 ــ أيّ جديد لك لم تبْلِه ؟ وأيّ أقرانكَ لم تُرْدِهِ (2)
3 ــ تسأسرُ العقبانَ في جوّها وتنزلُ الأعصمَ من فنْدِهِ (3)
4 ــ أرى ذَوي الفضل وأضدادهم يجمعهم سيلكَ في مدّهِ
5 ــ إن لم يكن رُشْدُ الفتى نافعاً فغيه أنفعُ من رُشْدِهِ
6 ــ تجربةُ الدنيا وأفعالها حثتْ أخا الزّهد على زُهدِهِ
7 ــ والقلبُ من أهوائه عابدٌ ما يعبدُ الكافرُ من بدّهِ (4)
8 ــ لو عرفَ الإنسانُ مقدارَهُ لم يفخرِ المولى على عبدِهِ
9 ــ أمسِ الذي على قُربِهِ يعجزُ أهلِ الأرضِ عن رَدّهِ
10 ــ ولا يبالي الميتُ في قبرِهِ بذَمِّهِ شيّعَ أم حَمْدِهِ ؟
11 ــ والواحد المفرَدُ في حَتْفِهِ كالحاشد المكثر في حَشْدِهِ (5)
12 ــ وَمجدُهُ أفعالُهُ ، لا الذي من قبله كانَ ولا بَعْدِهِ
13 ــ لولا سجاياهُ وأخلاقُهُ لكانَ كالمعدوم في وُجدِهِ (6)
14 ــ تشتاقُ أيارَ نفوسُ الورى وإنما الشوقُ إلى وردِهِ (7)
15 ــ تدعو بطول العمرِ أفواهنا لمن تناهي القلبُ في وُدّهِ
16 ــ يسرّ إنْ مدّ بقاءٌ له وكلَّ ما يكْرَهُ في مدّهِ
17 ــ كم صائنٍ عن قبْلة خَدّهُ سُلّطَت الأرضُ على خَدّهِ
18 ــ وحاملٍ ثقّلَ الثّرَى جيدُهُ وكانَ يشكو الضّعفَ من عقدِهِ (8)
19 ــ ورُبَّ ظمآنَ إلى مَوْرِدٍ والموتُ لو يعلمُ في وِرْدِهِ

---

(1) إيعاد : تهديده وهو مصدر أو عد ، يقال : وعده بالخير ، وأوعده بالشر . ــ (2) لم تُرْدِه : لم تُمته . ــ (3) الأعصم : وعول الجبال ، الظباء ، الفند : القطعة من الجبل . (4) البُد : الصنم . ــ (5) حتفه : موته. الحاشد المكثر : الرجل الكثير الأعوان . ــ (6) سجاياه طباعه الحسنة . وُجْد : وجوده ، حياته . ــ (7) أيار : هو الشهر الخامس من السنة الميلادية والمقصود أن الناس يحبون شهر أيار لا لأنه شهر أيار وإنما لما يكون فيه من ورد جميل ، وكذلك الإنسان يشرف بأفعاله الحسنة لابذاته وصورته الإنسانية وحدها . ــ (8) جيده . عنقه .

ج ـ الوصف

وصف الليل

1 ـ علّلاني ، فإن بيضَ الأماني   فَنِيَتْ ، والزمانُ ليس بفانِ
2 ـ إن تناسيما وداد أناس   فاجعلاني من بعض من تذكرانِ
3 ـ رُبَّ ليلٍ كأنّهُ الصبحُ في الحسنِ ، وإن كانَ أسودَ الطيلسانِ (1)
4 ـ قد ركضنا فيه إلى اللهو لمّا   وقفَ النجمُ وقفةَ الحَيْرانِ
5 ـ كم أردْنا ذاك الزمانِ بمدحٍ   فشُغِلْنا بذمِّ هذا الزّمانُ
6 ـ فكأني ما قلتُ والبدرُ طفلٌ   وشبابُ الظلماءِ في عنفوانِ
7 ـ ليلتي هذه عروس من الزّنْج ـ
عليها قلائدٌ من جمانِ (2)
8 ـ هرَبَ النومُ عن جفونيَ فيها   هرَبَ الأمنِ عن فؤاد الجبَانِ
9 ـ وكأنَّ الهلالَ يهوى الثريّا   فهما للوداعِ معتنقانِ
10 ـ وسهيلٌ كوجنة الحبِّ في اللّونِ ـ
وقلبُ المحبِّ في الخفقانِ (3)
11 ـ يسرعُ اللمحَ في احمرارٍ كما تسرِعُ في اللّمحِ مقلةُ الغضبانِ
12 ـ ضرّجتْهُ دماً سيوفُ الأعادي   فبكتْ رحمةً لهُ الشعريانِ (4)
13 ـ ثم شاب الدّجَى ، وخاف من البحر ـ
فغطّى المشيبَ بالزعفرانِ
14 ـ ونضا فجرُهُ على نسره الواقع   سيْفاً فهمّ بالطيرانِ (5)

---

(1) الطيلسان : الثوب . ـ (2) جمان : لؤلؤ ، والمفرد جمانة . ـ (3) سهيل : اسم النجم بهي يطلع على بلاد العرب في أواخر القيظ . الحب : الحبيب . ـ(4) ضرجته : لطخته . الشعريان : مثنى شعري وهي كوكب يطلع في برج الجوزاء عند اشتداد الحر . ـ (5) نضا : جوّد . النسر الواقع : كوكب في السماء ، ويقابله النسر الطائر .

د ـ نماذج أخرى من لزومياته

أولا: إيثار العزلة

1 ـ تَوَحَّدْ، فإن اللهَ رَبَّكَ واحــــدٌ
ولا تَرْغَبَــنْ عِشْــرَةِ الــرُّؤَسَــاءِ(1)

2 ـ يقــلُّ الأذى والعيبَ في ساحة الفتى
وإن هــو أكــدى قِلَّــةُ الجلَسَــاءِ(2)

3 ـ فأفٍّ لعَصْرَيْهِمْ : نَهَارٍ، وحنْدِسٍ
وجِنْسَيْ رجالٍ منْهُمُ ونســاءِ(3)

4 ـ وليتَ وليداً ماتَ ساعةَ وَضْعِهِ
ولم يرْتَضِعْ منْ أمِّهِ النُّفَسَاءَ(4)

5 ـ يقولُ لها من قبلِ نطقِ لسانِـه :
تُفيدينَ بي أنْ تُنْكَبي وتُسَائي

ثانيا ـ الواعظ المحتال

1 ـ رُوَيْدَكَ قدْ غُرِرْتَ وأنتَ حُرٌّ
بصاحبِ حيلةٍ يعِظُ النساءَ

2 ـ يحرّمُ فيكم الصهباءَ صُبْحاً ويشربُهَا على عَمْدٍ مساءَ(5)

3 ـ يقولُ لكمْ : غَدَوْتُ بلا كساء
وفي لذَّاتِهَا رَهَنَ الكسَاءَ

4 ـ إذا فَعَلَ الفتى ما عنه ينهى فمن جهتينِ لا جهةٍ أساءَ(6)

---

(1) توحدْ : عش وحدك واعتزل الناس . ـ (2) أكدى : أصبح فقيرا قليل الخير . ـ (3) حندس : ليل . ـ (4) النفساء : الام الحديثة العهد بالولادة . ـ (5) الصهباء : الخمر .
(6) فمن جهتين لاجهة أساء : لأنه خالف الشرع الذي حرّم الخمر، كما أنه خالف نفسه وناقض بشرب الخمر بعد نهيه عنها .

ثالثا ـ ما في البرية جيد

1 ـ قالوا : فلانٌ جيّدٌ لصديقه لا يَكْذِبوا ، ما في البرية جيّدُ
2 ـ فأميرُهم نالَ الإمارةَ بالخَنَا وتَقيهم بصلاته يتَصيَّدُ (1)

هـ ـ الفخر

ولأبي العلاء المعري في الفخر الذي قاله قبل اعتزاله الناس :

ألاَ في سَبيلِ المَجْدِ مَا أنا فاعلُ عَفَافٌ وَإقْدَامٌ وَحَزْمٌ وَنَائلُ (2)
أعنْدِي وَقَدْ مارَسْتُ كلَّ خَفيَّة يصَدّقُ وَاشٍ ، أوْ يخَيِّبُ سائل
عِنْدِي وَقَدْ مَارَسْتُ كُلَّ خَفِيَّة
يصَدّقُ وَاشٍ ، أوْ يخَيِّبُ سَائِلُ ؟ (3)
تُعَدّ ذُنوبي عِنْدَ قَوْمٍ كثيرَةً وَلاَ ذَنْبَ لي إلاّ العلاَ وَالفضَائلُ
وَقَدْ سَارَ ذِكْرِي في البلاد فَمَنْ لَهم
بإخْفَاء شَمْسٍ ضَوْؤُهَا متَكَامِلُ ؟
وَإنّي وَإنْ كنْتُ الأخيرَ زَمَانُهُ لآتٍ بِمَا لم تَسْتَطعْهُ الأوَائلُ
وَأغْدُو وَلَوْ أنّ الصّبَاحَ صَوَارِمٌ وَأسْرِي وَلَوْ أنّ الظّلاَمَ جَحَافلُ (4)
وَلي مَنْطقٌ لَمْ يَرْضَ لي كنْهَ مَنْزِلي
على أنَّني بَيْنَ السِّمَاكَيْنِ نَازِلُ (5)
لَدَى مَوْطنٍ يَشْتَاقهُ كلّ سَيّد وَيَقْصُرُ عَنْ إدْرَاكِهِ المتَنَاوِلُ
وَلَمّا رَأيْتُ الجَهْلَ في النّاسِ فَاشياً
تَجَاهَلْتُ حَتّى ظُنَّ أنّيَ جَاهِلُ

(1) الخنا : الفساد . (2) النائل : العطاء ، والمعروف . ـ (3) الواشي : الذي ينقل كلاما لاصحة له بقصد الإفساد . ـ (4) الصوارم : السيوف . ـ الجحافل : جمع جحفل ، وهو الجيش الكثير العدد . ـ (5) السماكان : نجمان في السماء هما : الرامح والأعزل .

ثانيا - من النثر العباسي

ابــــن المقفـــع

106 ـ 145 هـ

وصف الصديـق لابن المـقـفـع

تعـريف وتمهيـد :

الـكـاتب هو أبو محمـد عبد الله المعـروف بابن المقفـع ، فارسي الأصل ، وكان مجوسي الدين ، يدين بمذهب (زرادشت) لفترة طويلة من حياته ، ولد بقرية (جور) الفارسيـة (وتسمى اليوم فيروزأباد) عام 106 هـ/724 م ، ونشأ ابن المقفـع بالبصرة في ولاء (آل الأهتم) وهم قوم معروفون بالفصاحة ، وخالط الأعراب وأخذ عنهم ، وممن أخذ عنهم الفصاحة (أبو الجاموس) أحد البدو الذين كانوا في خدمة وإلى البصرة ، واهتـم أبوه بتعليمه اللغـة الفارسية وآدابها ، كمـا تلقى العلـم والأدب على يد علمـاء البصرة وأدبائها ، وقد اشتغـل ابن المقفع بالأدب ، وكان زعيم مدرسة في الـكتابة ، وساعده على نيل تلك المـكانة موهبة طبيعية فذة ، واطلاع واسع على الثقافتين العربية والفارسية ، وقدرة على التعمق والتأمل في تناول المشـكلات الاجتماعية.

وقد تقلـد ابن المقفع الـكتابة لعدد من الولاة ، فـكتب ليزيد بن عمر ابن هبيرة ، وكان يزيد والياً لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، ثم اتصل ابن المقفع بعيسى بن علي ابن عبد الله بن عباس عم السفاح والمنصور (من الخلفاء العباسيين) وكان إلى هذا العهـد لا يزال مجوسياً ، فأسلم على يده ، وكتب له.

ولقد استحوذ ابن المقفع على أساليب البلاغة والبيان بحيث استطاع أن يترجم كتباً عدة من الأدب الفارسي ترجمة مثالية ومنها كتاب (أنظمة الملك) وقصة (مزدك) وحياة (برزويه) ، وكذلك الترجمة التي عملها لقصص الحيوان بعنوان (كليلة ودمنـة) كذلك نجـد لابن المقفع مقالات جمعت في كتابي (الأدب الصغير ، والأدب الـكبير).

وقد اتهم ابن المقفع بالزندقة والخروج على تعاليم الإسلام، ومات مقتولا حوالي سنة 145 هـ/764 م في أرجح الأقوال عن تسعة وثلاثين عاماً.

ومن المقرر أن أهم وظائف الأدباء والمفكرين هو إرشاد الناس إلى خير السبل لإصلاح شئونهم الخاصة والعامة، وقد كان ابن المقفع واحدا من أولئك الموجهين الإجتماعيين في عصره، فقد درس الكثير من كتب الأخلاق والإجتماع في أدبي الفرس واليونان، وشارك بفكره وقلمه في توجيه جيله وكل جيل بأسلوب ميسر، وعبارة مشرقة واضحة.

والنص الذي بين يديك من كتابة (الأدب الصغير) (1) وفيه يتحدث عن صديق جدير بالصداقة لما وُهب من نفس أبية، وأخلاق رضية. واختيار الأصدقاء النافعين أمر حيوي، ويمكننا الإسترشاد في هذا الإختيار بوصف ابن المقفع لصديقه، كما نستطيع الإنتفاع بتلك الأخلاق المثالية في صِلاتنا بالآخرين وكسب ثقتهم ومودتهم.

كان لي صديقٌ، وكان من أعظمِ الناسِ في عيني. وكانَ رأس ما عَظَّمَهُ في عيني صِغَرُ الدنيا في عينِه. كان خارجاً من سلطانِ بطنه. فلا يَشْتهي ما لا يجدُ، ولا يكثرُ إذا وَجَدَ. وكانَ خارجاً من سلطان شهوته، فلا يدعو إليه ريبة، ولا يستخف له رأياً ولا بَدَناً. وكان خارجاً من سلطان لسانه، فلا يقول ما لا يعلم، ولا ينازع فيما علمَ. وكان خارجاً من سلطان الجهالة، فلا يقدم أبداً إلاّ على ثقةٍ بمنفعة.

كان أكثرَ دهره صامتاً، فإذا نَطَقَ بذّ النَّاطقين. وكان يُرى ضعيفاً مُسْتَضْعَفاً، فإذا جاء الجدّ فهو الليثُ عادياً.

كان لا يدخلُ في دعوى، ولا يشتركُ في مراءٍ، ولا يدْلي بحجّةٍ حتى يَرى قاضياً عَدْلاً، وشهوداً عدولاً.

---

(1) ورد نص مشابه لهذا النص ومنسوب للإمام علي في كتاب نهج البلاغة وعلى ذلك يمكن القول بأن ابن المقفع كان متأثرا إلى حد كبير بالإمام علي ومقتبسا منه

وكان لا يَلومُ أحدا على ما قد يكون العذرُ في مثله حتى يعلم ما اعتذاره.

وكان لا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عنده البُرءَ.

وكان لا يستشيرُ صاحباً إلا من يرجو عنده النصيحة.

وكان لا يتبرّمُ، ولا يتسخّطُ، ولا يتشهّى، ولا يتشكّى.

وكان لا ينقمُ على الولي، ولا يغفلُ عن العدو، ولا يخص نفسه دونَ إخوانهِ بشيءٍ من اهتمامه، وحيلته وقوتهِ.

فعليك بهذه الأخلاق، إن أطقتها، ولن تُطيقَ، ولكنّ أخذ القليل خير من تركِ الجميعِ.

شرح لغوي:

صغر الدنيا: تفاهة شأنها. سلطان بطنه: المقصود خضوعه لسيطرة مطالبها. لا يشتهي: لا يطلب. ريبة: شكّاً لا يستخف: لا يستهين، بذ: فاق وغلب. متضاعفاً: متظاهرا بالضعف. الليث: الأسد. مراء: جدال. البرء: الشفاء. لا يتبرم: لا يظهر ضيقاً. لا يغضب. لا ينقم على الولي: لا يكره الصديق. عليك بهذه الأخلاق: الزم هذه الأخلاق. أطقت: قدرت.

إيضاح وتحليل:

الإنسان بطبيعته اجتماعي، ولذا فهو محتاج إلى الأصدقاء، ولكن اختيار الأصدقاء ليس أمرا سهلا، لأن الصديق المنشود هو الذي تتوافر فيه كل الخصال الحميدة، والخلال الكريمة ليكون معواناً لصديقه على كل خير، ومبعدا عنه كل شر.

ويحدد لنا ابن المقفع في هذا النص – بعد تجربة – سمات هذا الصديق الذي نبحث عنه لنقترب منه، ونتصف بما اتصف به.

لقد احتل هذا الصديق من نفس ابن المقفع منزلة رفيعة بفضل أخلاقه الطيبة ومثله الفاضلة التي ألزم بها نفسه، والتزم بها في علاقاته مع غيره.

أ ـ أما الأخلاق والمبادىء التي ارتضاها لنفسه فهي قلة احتفائه بأمور الحياة المادية ومظاهرها الخداعة، ويبدو ذلك في سلوكه وتصرفاته، فهو قنوع، راض بما عنده، معتدل في استجابته لمطالبه الخاصة، وهو عفيف شريف، ينأى بنفسه عن مواطن الشبهات، وأفعال الغواية والفساد، وهو مسدد في قوله وعمله، فلا يقول إلا الحق، ولا يعمل إلا ما فيه الخير لنفسه ولغيره، وهو كثير الصمت، بادي الهدوء والاتزان، وليس ذلك عن عجز أو قصور فإنه إذا تكلم فاق غيره من الثرثارين، وإذا نادى داعي العمل والجهاد، كان لشجاعته، أول الملبين.

ب ـ وأما الأخلاق والمبادىء التي حدد بمقتضاها ذلك الصديق علاقاته بغيره فهي ألا يقحم نفسه في شئون الآخرين، وألا يدخل معهم في مجادلات عقيمة تزرع الكراهية والبغضاء في النفوس، وإذا أراد الإدلاء برأيه تثبت منه، واختار المواقف المناسبة له وهو لا يتسرع في الحكم على تصرفات الآخرين، فلا يلوم إنساناً على تصرف سيء حتى يعلم حقيقة الأمر، فربما كان لهذا الإنسان فيما حدث عذر مقبول.

أما الشدائد فإنه صبور في مواجهتها، ولا يعبر عن ألمه منها إلا لمن يأمل عنده المعونة والنجدة، وإذا صادفه أمر يحتاج فيه إلى مشورة استعان في ذلك بالصديق المخلص وهو، لا يظهر الضجر بغيره، ولا يسرع إليه الغضب، ولا يطلب ما في يد غيره، ولا يكثر من الشكوى إلى الناس.

إن أصدقائه يلقون منه كل حب وتقدير، على حين يواجه أعداءه باليقظة والحذر، وهو يؤثر إخوانه على نفسه بما يقدم لهم من مساعدات وخدمات.

ج ـ ولما كان لكل صفة من هذه الصفات أعظم الآثار فيمن يستمسك بها أفرادا وجماعات اختتم ابن المقفع هذا النص بالدعوة إلى

التمسك بتلك الأخلاق ، والحفاظ عليها ، وإذا كان بعض الناس لايستطيعون العمل بها كاملة فهؤلاء يمكنهم التحلي ببعضها ، وهذا - بلا شك - أفضل من التخلي عن جميعها.

دراسة أدبية :

هذا النص أنموذج لأسلوب النثر الاجتماعي الذي شاع في العصر العباسي ، وفيه يعرض ابن المقفع بعض التوجيهات الاجتماعية ، والنصائح الأخلاقية بأسلوب أدبي بعيد عن التكلف والغموض. وفكرة النص الأساسية (وصف الصديق المثالي) وتدور أفكاره حول عدة أغراض أهمها الإشادة بالمكانة العالية التي احتلها هذا الصديق من نفس الكاتب ، وإبراز ما امتاز به من صفات أهلته لتلك المنزلة ، ثم دعوة ابن المقفع غيره إلى الاقتداء بأخلاق صديقه والتمسك بها - ما أمكن - فإن أخذ القليل خير من ترك الجميع.

وهكذا قدم ابن المقفع أفكاره مسلسلة مرتبة ترتيباً منطقياً ، وليس ذلك بعجيب من كاتب أضاف إلى ثقافته العربية ثقافة الفرس واليونان ، وقد نتج عن هذا التسلسل وضوح تلك الأفكار ، وخلوها من الإبهام الذي يتنافى مع أساليب النصح والتوجيه.

وقد استقصى ابن المقفع في النص أكثر الصفات التي تناسب موضوعه ، كما أتبع كل صفة بذكر ما يؤيدها من سلوك صاحبه ، وعرض الرأي والتدليل عليه مما يعين على تثبيته والاقتناع به ، وقد يلح ابن المقفع على الفكرة بتكرار القول فيها نظرا لأهميتها ، وذلك كقوله : لا يتبرم ، ولا يتسخط ، لا يتشهى ، ولا يتشكى ، فقد سبق قوله في بعض هذه الصفات.

أما عاطفة الكاتب فقد كانت قوية صادقة متدفقة ، وكان من آثار تدفقها انسياب أفكاره وأساليبه إعجاباً بهذا الصديق ، وتقديرا لما اتصف به من خلال.

وقد اتسع في العصر العباسي نطاق القول في هذه الموضوعات الاجتماعية، وكان ذلك نتيجة طبيعية لما طرأ على المجتمع من تطور بفعل التغيرات الداخلية والخارجية، ومحاولة الأدباء مشاركة غيرهم في التوجيه الاجتماعي للأفراد والجماعات.

ومن النص نتبين لباقة ابن المقفع حين استهل النص بحقيقة أكدها وهي وجود مثل هذا الصديق، وصحبته له، وتقديره لمكانته، كما نتعرف أيضاً الاتجاه الاجتماعي الذي التزم به في كثير من كتاباته، وفي كتابي: الأدب الصغير، والأدب الكبير وغيرهما أمثلة عديدة عُني فيها ابن المقفع بمشكلات عصره، وحرص على نقدها وتحليلها، مشاركاً برأيه في توجيهها، في أسلوب سهل مرسل، غير مقيد بأساليب السجع والحسنات البديعية، وقد تأثر بطريقة ابن المقفع كثير ممن جاءوا بعده من كتاب الترسل كالجاحظ

ولا عجب بعد هذا أن يعتبر النقاد ابن المقفع ثاني اثنين أقاما دعائم الكتابة الفنية في الأدب العربي، أولهما عبد الحميد الكاتب، وثانيهما ابن المقفع

دراسة بلاغية:

يهتم الأدباء في نثرهم الاجتماعي بوضوح أفكارهم، وقوة أساليبهم، وقدرتها على نقل مشاعرهم في غير مبالغة أو إسراف، وابن المقفع في وصفه لصديقه قد حقق الكثير من تلك الخصائص الفنية بالإضافة إلى سهولة أساليبه وإشراقها، وقد اقتصر على أساليب الخبر التي جمعت بين الفخر والإعجاب، ولم يرد من أساليب الإنشاء غير قوله في الفقرة الأخيرة: فعليك بهذه الأخلاق، وهو أمر جاء في وقته المناسب بعد أن استعرض ما تحلى به هذا الصديق من فضائل، والغرض الأدبي لهذا الأمر هو النصح والحث.

وهذا النوع من النثر يقل فيه الإهتمام بالألوان البيانية من تشبيهات واستعارات وكنايات ، لأن غايته الإفادة بما تحمله الأفكار من مبادىء ومثل رفيعة ، أما الألوان البيانية المستعملة في التعبير فمما يقتضيه المقام ، ويعين على إبراز الفكرة ونقل الإحساس ومن ذلك الكناية عن قوة العزيمة في قوله : كان خارجاً من سلطان بطنه ، والتشبيه في قوله : فهو الليث عادياً ، ومع قلة الصور البيانية فإن أفكار الموضوع شديدة التأثير ، لأن الكاتب ذو إحساس صادق بما يقول ، وقد ظهر أثر هذه العاطفة واضحاً في حسن اختياره لألفاظ النص وأساليبه ؛ إذ جاء أغلبها ملائماً وموحياً ، ومن تلك الألفاظ الجزلة كلمة (خارجا) التي توحى بالتمرد والعصيان ، وكلمة (سلطان) التي توحى بالسيطرة والتحكم ، والفعل (بذ) الذي يوحى بالتفوق التام وغير ذلك.

ونلاحظ في النص شيوع أساليب التوكيد، والتزام الكاتب للجمل الاسمية التي دخلت عليها (كان) وقد تأتي أخبارها جملا فعلية منفية (بلا) ومن ذلك : كان لا يلوم ، وكان لا يشكو.. ، كذلك يلجأ الكاتب أحياناً إلى استخدام أسلوب القصر في مثل قوله : لا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عنده البرء ، ولا يستشير صاحباً إلا من يرجو عنده النصيحة ، كما يستخدم الشرط غير الجازم (إذا) في قوله : فإذا نطق بذ الناطقين ، وإذا جد الجد فهو الليث عادياً ، وتلك الأساليب من سمات النثر المرسل التي يستخدمها الكتاب للإلحاح على أفكارهم بالتكرار أو التزام نمط معين من التعبير.

لكن أهم ما يميز أساليب ابن المقفع هو تحررها من السجع الذي ساع على بعض الألسنة في عصره ، وكان هدف الكاتب هو وضوح الأفكار وتقويتها ، وفي سبيل ذلك استخدم بعض المحسنات كالطباق بين الولي والعدو ، وبين أخذ وترك.

مجمل القول في النص:

هذا النص نموذج للنثر الأدبي الاجتماعي الذي ازدهر في العصر

العباسي ، وقد اهتم ابن المقفع بأفكاره فجاءت واضحة سهلة التناول ، منطقية الترتيب ، وظهرت آثار عاطفة الكاتب في حسن اختياره لأساليبه ، واقتصر منها على الأساليب الخبرية لملاءمتها لعرض ما أعجب به من صفات صديقه ، وقد استخدم أساليب التأكيد لترشيح معانيه ، واعتمد على أسلوب الترسل ، وجاءت بعض المحسنات لتوضيح الأفكار ، كما كانت ألفاظه دقيقة موحية ، وشخصية الكاتب وثقافته واضحة ، فهو أحد أركان النهضة الأدبية (لفن الكتابة) في العصر العباسي.

مناقشة النص :

1 ـ لم بدأ ابن المقفع وصفه بالإشادة بصديقه ؟ وما النتيجة العملية لذلك ؟
2 ـ ماذا قال ابن المقفع عن سلوك صديقه تجاه رغباته وشهواته ؟.
3 ـ كيف عبر الكاتب عن حال صديقه في صمته ونطقه ، وهدوئه وجرأته؟
4 ـ حدد ثلاث صفات مما ذكر ابن المقفع لصديقه في معاملة الآخرين ، ووضحها مبيناً مدى أهميتها.
5 ـ ما الوصية التي أنهى بها الكاتب موضوعه ؟ وعلام يدل ذلك من خلقه ؟
6 ـ استخرج من النص محسناً بديعيا ، ولوناً بيانياً ، وبين أثر كل منهما في المعنى .
7 ـ اذكر الأفكار الرئيسية في النص ، ثم اختر فكرة منها وفصّل القول فيها.
8 ـ من أي أساليب النثر الأدبي هذا النص؟ ولماذا ؟
9 ـ استنبط خصائص النص الفنية مستشهدا لما تقول بعبارات منه.
10 ـ ما الفكرة العامة لهذا الموضوع ؟ ضع له عنواناً آخر تراه مناسباً.

تـــدريـــب تطبيـــقي

المقـــالة الأدبيـــة :

ابن المقفع صاحبُ مدرسة أدبية تجعل العبارة في خدمة الفكرة اجعل من هذه الجملة عنوان مقال تتناول فيه نثر ابن المقفع وأدبه.

الســؤال الكتـــابي :

كيف تستعين بهذا النص على فهم بيئة ابن المقفع ، ودراسة شخصيته ؟

نماذج من شعر ابن المقفع

أ ــ الخب والمغفل(1)

(من كليلــة ودمنــة)

زعموا أن خَبّاً ومُغَفَّلاً اشتركا في تجارة وسافرا. فبينما هما في في الطريق تخلف المُغَفَّلُ لبعض حاجته ، فوجدَ كيساً فيه ألفُ دينار ، فأخذه ، فأحس به الخَبّ ، فرجعا إلى بلدهما ، حتى إذا دَنَوَا من المدينة قَعَدَا لاقتسام المال. فقال المغفَّل : خُذْ نصفَه واعطني نصْفَه. وكان الخَبّ قد قرر في نفسه أن يذهب بالألف جميعها ، فقالَ : لانقتسمُ ، فإن الشركة والمفاوضةَ أقربُ إلى الصفاء والمخالطة ، ولكنّ آخُذُ نفقةً ، وتأخُذُ مثلها ، وندفن الباقي في أصل هذه الشجرة ، فهوَ مكانٌ حريزٌ ، وذلك أكتَمُ لأمرنا ، فإذا احتجنا جئنا أنا وأنت فنأخُذُ حاجتنا منه ، ولا يعلم بموضعنا أحدٌ ، فأخذا منها يسيرًا ، ودفنا الباقي في أصل الشجرة ، ودخلا البلدَ.

ثم إن الخبّ خالف المغفّل إلى الدنانير فأخذها ، وسوّى الأرض كما كانت وجاء المغفَّلُ بعدَ ذلك ، فقال للخبّ : قد احتجتُ إلى نفقة ، فانطلق بنا نأخُذ حاجتنا ، فقام الخبّ معه ، وذهبا إلى المكان ، فحفرا فلم يجدا شيئاً. فأقبل الخبّ على وجهه يلطمُهُ ويقول : لا تغتَرّ بصحبة صاحب ! خالفتني إلى الدنانير فأخذتها ؟ فجعل المغفَّل يحلفُ ويلعن آخذَها ، ولا يزدادُ الخَبّ إلا شدةً في اللطم ، وقال : ما أخَذَها غيرُك ! وهل شَعَرَ بها أحدٌ سواك ؟ ثم طال بينهما ذلك ، فترافعا إلى القاضي ، فاقتصّ قصتهما ، فادعى الخَبّ أن المغفّل أخذها ، وجَحَدَ المغَفَّلُ. فقال للخبّ : ألكَ على دعواكَ بيِّنةٌ ؟ قال : نعم ، الشجرةُ التي كانت الدنانيرُ عندَها تشهدُ لي أن المغَفَّلَ قد أخَذَهَا !

وكان الخَبّ(1) قد أتى أباه فقصّ عليه القصة، وطلب إليه أن يذهب فيتوارى(2) بحيث إذا سُئل أجاب... ولم يزل به حتى طاوعه؛ وانطلق معه فدخل جوفَ الشجرة!

ثم إن القاضي لما سمع من الخَبّ حديث شهادة الشجرة أكْبَرَهُ (3)، وانطلق هو وأصحابه، والخبّ والمغفل معه. حتى وافى الشجرةَ، فسألها عن الخبر. فقال الشيخُ من جوفها: نعم، المغَفَّلُ أخذها! فلما سمع القاضي ذلك اشتدّ تعجبُه، وجعل يطوف بالشجرة؛ حتى بان له خَرْقٌ فيها، فتأمّلَهُ، فلم يَرَ فيه شيئاً، فدعا بحطب، وأمرَ أن تُحرقَ الشَّجَرَة! فأضْرِمَتْ حولَها النيرانُ، فاستغاث أبو الخَبّ عند ذلك، فأخرجَ وقد أشرفَ على الهلاك. فسأله القاضي عن القصة، فأخبره بالخبر. فأوقع بالخبّ ضَرْباً، وبأبيه صَفْعاً، وأركبه مشهورا، وغرّم الخبَّ الدنانير، فأخذَها وأعطاها المُغَفَّلَ.

ب ـ الجاهل

(من الأدب الصغير)

لا يُؤْمِنَنَّكَ شَرَّ الجاهلِ قرابةٌ، ولا جوارٌ، ولا إلفٌ (4)، فإن أخْوَفَ ما يكونُ لحريق النار أقربُ ما يكونُ منها. وكذلك الجاهلُ: إن جاوَرَكَ أنْصَبَكَ (5)، وإن نَاسَبَكَ جَنَى عليك، وإنْ ألفَكَ حَمَّلَ عليكَ ما لا تُطيقُ، وإن عاشَرَكَ آذاكَ وأخافَكَ، مَعَ أنه عندَ الجوعِ سَبُعٌ ضارٍ، وعندَ الشِّبَعِ مَلِكٌ فَظٌّ، وعند الموافقة في الدّين قائدٌ إلى جهنّمَ، فأنت بالهرَبِ منه أحقُّ بالهرب من سُمّ الأساوِدِ(6) والحريقِ المخُوفِ، والدّيْنِ الفادِحِ (7)، والدّاء العَيَاءِ (8).

---

(1) الخبّ: الخدّاع الخبيث الذي يستعمل ذكاءه في الشر، وعكسه المغفل. ـ (2) يتوارى: يختبىء. ـ (3) أكبره: وجده كبيرا، أي شيئاً لايصدقه العقل. ـ (4) إلف: صداقة أو صحبة. ـ (5) أنصبك: أتعبك. ـ (6) الأساود: جمع مفرده أسود وهو نوع من الحيات خبيث جدا. ـ (7) الفادح: الثقيل. ـ (8) العياء: الذي لايرجى شفاؤه.

ج ـ الحسد

(من الأدب الكبير)

ليكنْ مما تَصْرفُ به الأذى والعذابَ عن نفسكَ ألاّ تَكُونَ حسودًا ، فإن الحسدَ خُلُقٌ لئيمٌ ، ومن لُؤْمه أنه يُوَكَّلُ بالأدْنَى فالأدنى من الأقارب والأكفاء والخُلطاء.

فليكُنْ ما تقابلُ به الحسدَ أن تعلَمَ أن خيرَ ما تكونُ حينَ تكونُ مَعَ مَنْ هو خَيْرٌ منكَ : وأن غُنْماً لكَ أن يكونَ عشيرُك وخليطُك أفضلَ منك في العلم فتقتبسَ من علمه ؛ وأفضلَ منك في القوة فيدفَعَ عنك بقوته ، وأفضلَ منك في المال فتُفيدَ من ماله ، وأفضلَ منكَ في الجاه فتُصيبَ حاجتَكَ بجاهه ، وأفضلَ منك في الدّينِ فتزدادَ صَلاَحاً بصلاحه .

الجــــاحظ

160 ـ 255 هـ

مــن أعــاجيــب الحيـــات

تعـريف وتمهيـد :

الكاتب هو أبو عثمـان عمرو بن محبوب الكناني ، وقد لقب بالجاحظ لبروز عينيه ، ولد بالبصرة حوالي سنة 160 هـ ونشأ بهـا في وقت كانت فيه مهد العلـم والأدب ، فأقبل الجاحظ بذكائه النادر ، وحافظته الواعية القوية على مجالس العلـم ، وندوات الأدب ، يغترف منها، ثم رحل إلى بغداد ، واتصل فيها بكبار رجال الدين وعلمـاء اللغـة والأدب ، حتى إذا نمت ثقافتـه ، وغزر علمـه شرع في الكتابة والتأليف ، ويقال إنه ترك نحو مائتي كتاب ورسالة ، تعد ذخيرة فكريـة ، وثروة أدبية ولغوية وعلمية ، وكان أول عالم عربي جمع في كتابتـه بين الجد والهزل ، وتوسع في البحث ، وأكثر من التصنيف ، وكتب في الحيوان والنبات ، وفي الأخلاق والاجتمـاع ، ومات سنـة 255 هـ. (وستأتي ترجمة مفصلـة لحياته).

وهذا النص له من كتاب الحيوان (الجزء الرابع) وفي هذا النص يحكى الجاحظ نادرة رويت له عن بعض الحيات ، ويذكر رأيه فيهـا.

« حدثنا أبو جعفر المكفوفُ النحويّ ، وأخوه رَوحٌ الكاتب ، ورجالٌ من بني العنبر : أن عندهم في رمال بَلْعَنْبَرِ حيـةً تصيدُ العصافيرَ وصغارَ الطير بأعجبِ صَيْدٍ. زعمـوا أنها إذا انتصف النهارُ ، واشتـدّ الحرّ في رمال بَلْعَنْبَرِ ، وامتنعت الأرضُ على الحافي والمنتعل ، ورَمِضَ الجُنْدُب غَمَسَتْ هذه الحيـةُ ذنبهـا في الرملِ ، ثم انتصبت كأنهـا رُمْحٌ مركوز ، أو عُوذٌ ثابت ، فيجيء الطائر الصغير أو الجرادةُ ،

فإذا رأى عودا قائماً ، وكَرِهَ الوقوعَ على الرمل لشدةِ حَرِّهِ وقعَ على رأسِ الحيَّـةِ على أنها عودٌ ، فإذا وقع على رأسها قبضتْ عليه ، فإذا كان جرادة ، أو جُعَلا ، أو بعضَ ما لا يُشْبِعُهَـا مثلهُ ، ابتلعته وبقيت على انتصابهـا ، وإن كان الواقع على رأسهـا طائرا يُشْبعهَـا مثلــهُ ، أكلته وانصرفت وأن ذلك دأبها ، ما منع الرملُ جانبَـه في الصيف والقيظ ، في انتصاف النهارِ والهاجرة ، وذلك أن الطائر لا يشك أن الحيةَ عُودٌ ، وأنه سيقوم له مقام الجذْلِ للحرباء، إلى أن يسكن الحَرّ ووهَجُ الرملِ.

« وفي هذا الحديث من العَجَبِ أن تكون الحيـةُ تهتـدي لمثلِ هذه الحيلـة ، وفيه جهـلُ الطائر بِفَرْقِ ما بين الحيوانِ والعُودِ ، وفيه قلَّةُ اكتراث الحيةِ للرمـل ، الذي عاد كالجمـر ، وصَلَـحَ أن يكون ملَّة ، وموضعاً للخُبْزَةِ ، ثم أن يشتمـل ذلك الرملُ على ثُلُثِ الحية ساعاتِ من النهار : والرمـل على هذه الصفـة.

فهــذه أعجوبة من أعاجيب ما في الحيـاة.

شرح لغوي :

بلعنبر : بني العنبر ، وصيغت على هذا النحو تخفيفاً . امتنعت الأرض : امتنع السير فيها. لشـدة الحرارة. رمض : الرمض شدة الحرارة على الرمال. الجندب الجراد. مركوز : مثبت في الأرض. جُعْلا : الجعل حشرة صغيرة سوداء. دأبها : عادتها. ما منع الرمل جانبه : كلمة(ما) حرف للمصدرية الظرفية ، والمعنى مدة دوام منع الرمل جانبه. الهاجرة : وقت اشتداد الحر عند الظهيرة. الجذل : بقية جذع الشجرة التي يبست وذهبت فروعها. الحرباء : حيوان صغير زاحف مشهور بتلونه حسب طبيعة المكان الذي يعيش فيه. قلـة اكتراث : قلة اهتمام. الملـة : الرماد الحار الذي تخلفه النار بعد انطفائهـا.

دراسة أدبية :

كان الجاحظ نادرة زمانه بما وهبه الله من عقل راجح ، وذكاء متوقد ، وبما جمع من ثقافة واسعة وعلم غزير ، استوعب مادتهما ممن لقي من العلماء ومن جادل من الفحول ومما قرأ من الكتب التي كان يستأجر حوانيتها ، ويقيم فيها ليلَ نهارَ حتى اكتملت له أداة العالم ، ودقة الباحث ، وحجة المستدل المقنع ، ولغة الأديب المعبر ، وانعكس ذلك كله على صفحات كتبه ومؤلفاته التي تعد صورة أمينة لعلم الجاحظ وعقله ، والتي أحلته مكاناً علياً بين أعلام الكتاب الذين طوروا النثر العربي ، وارتقوا بالثقافة العربية.

وكتاب الحيوان يتناول فيه الجاحظ كثيرا مما خلق الله في عالم الحيوان الواسع ، فيذكر أعاجيب الحيوان وغرائزه وطباعه ، وما يرتبط به من حكايات ونوادر ، وأخبار وأشعار ، وقد يعرض نقدا أو يبدي تشككاً فيما يدعو فيه الأمر إلى ذلك ، شأنه في هذا شأن العلماء والمحققين ، ومن أوضح مزايا هذا الكتاب مزجه العلم بالأدب . ترى ذلك واضحاً في النص.

وهذا النص من كتاب الحيوان سرد فيه الجاحظ حكاية سمعها من رجال بني العنبر عن حية كانت تحتال لصيد بعض العصافير وصغار الطير والحشرات. ثم عقّب الجاحظ بتعليق على ذلك الخبر المروي عن بني العنبر. وهاتان هما الفكرتان الأساسيتان في النص. وإننا لنرى في هذا النص طريقة الجاحظ العلمية في إسناد الخبر إلى رواته بأسمائهم ونسبهم ، ثم في عرض الموضوع كما روى ، وتأخير التعليق عليه إلى بعد ، ثم في تحكيم العقل وتقليب الأمر على أوجهه للتسليم به وقبوله ، أو رده وإنكاره.

كما نرى طريقته الفكرية في إظهار الشك حول صحة الخبر المروي بذكر كلمة المكفوف إلى جانب اسم الراوي ، وبالتعبير بكلمة زعموا ،

ثم بإظهار تعجبه ودهشته من بعض ما يحدث من الحية والطائر مما لا يقبله العقل ولا يصدقه.

ونرى أخيرا مع ابن العميد أن كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانيا والجاحظ بتوافر علمه، وسعة اطلاعه دليل على ما كان يسود عصره من نهضة ثقافية وأدبية تُعدّ العلماء، ونكوّن الأدباء.

دراسة بلاغية :

كان أسلوب الجاحظ في هذا النص دقيقاً ومحددا، يعتمد على تحكيم العقل، وترتيب المنطق، مع وضوح الفكرة، وجلاء المَعنى، والتعبير عن المقصود بأقرب الألفاظ دلالة عليه — ونلمح كذلك في أسلوب النص جمال التعبير، وقوة التأثير، وبعض التصوير الذي قصد منه الكاتب تقوية جانب المعنى عن طريق التمثيل، وكان من ذلك الكناية عن اشتداد الحر في قوله : امتنعت الأرض على الحافي والمنتعل، ورمض الجندب، والتشبيه في قوله : ثم انتصبت كأنها رمح مركوز. كما جاء الطباق في قوله : الحافي والمنتعل.

وهكذا يمكن القول : إن أسلوب الجاحظ في هذا النص لم يكن أسلوباً علمياً جافاً، ولم يكن أسلوباً أدبياً صِرْفاً، وإنما كان أسلوباً اجتمعت فيه بعض خصائص الأسلوب العلمي مع بعض خصائص الأسلوب الأدبي، وكان نتاج ذلك الأسلوب الذي يسميه البلاغيون الأسلوب العلمي المتأدب

وأما كتابة الجاحظ الأدبية البحتة فله فيها طريقة أخرى وخصائص معينة تميزها، وسترى ذلك في مكان آخر غير هذا النص.

مجمل القول في النص :

عاش الجاحظ في عهد نهضت فيه الثقافة، وكثر فيه العلماء، فأقبل الجاحظ بعقله الواعي وذكائه اللماح، وشغفه بالعلم على كل مصادر الثقافة ومناهل المعرفة حتى أثرى عقله، وتأهل للكتابة والتأليف

والتصنيف فإذا هو كالنحلة التي تجمع من الأزاهير غذاءها ثم تقدمه شهداً حلوا وغذاء شهياً ، فأغنى المكتبة العربية بالعديد من مؤلفاته التي كان من بينها كتاب الحيوان الذي اختير منه هذا النص ، وهو يطلعنا على كتابة الجاحظ العلمية وخصائصها ، ويقفنا على طريقته الفكرية ، حيث يبدو فيه الجاحظ عالماً باحثاً محققاً ذا طريقة مبتكرة تعتمد على العقل والمنطق والتعبير عن المعنى بأدق عبارة ، وأوضح لفظ ، مع حسن السبك ، وجودة التركيب ، و جمال التعبير ، الأمر الذي يجعل أسلوب النص من نوع الأسلوب (العلمي المتأدب).

مناقشة النص :

1 ـ تضمن هذا النص فكرتين أساسيتين ـ اذكر لكل منهما عنواناً مناسباً ، ثم اشرح ما اشتملت عليه.

2 ـ للجاحظ في هذا النص حديث رواه ، وحديث أتى به من عند نفسه يعبر فيه عن رأيه ـ حدد كلا منهما في النص.

3 ـ ماذا يعني الكاتب من قوله عن الحية : انتصبت كأنها رمح مركوز ، أو عود ثابت؟ وما قيمة التشبيه هنا ؟

4 ـ وضح ما أورده الكاتب من تقسيم في موقف الحية مما يقع عليها من صيد.

5 ـ بم عجب الجاحظ في هذه الحكاية ؟ اذكر من الأسباب ما أورده في ذلك.

6 ـ ما قيمة قول الجاحظ في أول النص : حدثنا أبو جعفر المكفوف النحوي و... و... من بني العنبر ؟

7 — (امتنعت الأرض على الحافي والمنتعل) — في هذه العبارة لون بياني، ولون بديعي وضح كلا منهما، واذكر أثره البلاغي.

8 — استنتج من النص السمات العامة لطريقة الجاحظ في رواية القصص والنوادر.

9 — هذا النص دليل على مدى ما وصلت إليه الثقافة العربية في عصره، وشاهد على اتساع معارف قائله — وضح ذلك.

تدريب تطبيقي

المقالة الأدبية :

اشرح معنى قول ابن العميد : إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانياً.

السؤال الكتابي :

أسلوب الجاحظ في هذا النص علمي من جهة، وأدبي من جهة أخرى اشرح مستشهدا.

البيـان للجـاحظ

تعريف وتمهيد :

شاءت إرادة الله أن تكون معجزة كل نبي موافقة لعصره ؛ فكانت معجزة موسى (ع) إبطال السحر لما كان السحر أكبر علوم عصره ، وكانت معجزة عيسى (ع) إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله لما كان الطب أرقى علوم عصره. أما معجزة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فكانت هذا البيان السماوي المعجز ، أعني القرآن الكريم ، لأن البيان كان أظهر خصائص العبقرية العربية إبان ظهور نبينا الكريم. وقد جند المسلمون أنفسهم لخدمة هذه المعجزة البيانية ، فأخذوا يبحثون في سر الإعجاز القرآني ، وحقيقته ووجوهه عن طريق الكشف عن معنى البيان..

وقد كان الجاحظ رائدا من رواد البيان العربي الذين أسهموا في الكشف عن معناه في مؤلفاته المختلفة ، ولا سيما في كتابه المشهور بالبيان والتبيين. وفيما يلي نص من النصوص الكثيرة التي أوردها الجاحظ لشرح معنى البيان ، وإظهار أهميته وفوائده أخذناه من كتابه المذكور ، ومن فصل عنوانه البيان.

قال الجاحظ :

« قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني : المعاني القائمةُ في صدور الناس ، المصورةُ في أذهانهم ، والمتخلجةُ في نفوسهم ، والمتصلةُ بخواطرهم ، والحادثةُ عن فكَرِهم ، مستورةٌ خفية ، وبعيدةٌ وحشية ، ومحجوبة مكنونة ، وموجودة في معنى معدومة ، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ، ولا حاجةَ أخيه وخليطه ، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره ، ولا على ما لا يبلُغُه من حاجات نفسه إلا بغيره. وإنما يحيي تلك المعاني ذكرُهم لها ، وإخبارُهم عنها ، واستعمالهم إياها.

وهذه الخصالُ هي التي تقرّبُها من الفهم ، وتجلّيها للعقل ، وتجعل الخفيّ منها ظاهرا ، والغائب شاهدا ، والبعيدَ قريباً. وهي التي تُلَخّص الملتبس ، وتَحُلّ المنعقد ، وتجعلُ المهمَلَ مُقَيَّداً ، والمقيدَ مطلقاً ، والمجهولَ معروفاً ، والوحشيّ مألوفاً ، والغُفْلَ موسوماً ، والموسومَ معلوماً ، وعلى قَدْرِ وضوحِ الدّلالَةِ ، وصواب الإشارةِ ، وحسن الاختصار ، ودقة المدْخل ، يكون إظهارُ المعنى . وكلما كانت الدلالةُ أوضحَ وأفصحَ ، وكانت الإشارةُ أبينَ وأنورَ ، كان أنفعَ وأنجعَ. والدلالةُ الظاهرةُ على المعنى الخفيّ هو البيانُ الذي سمعتَ اللهَ عزّ وجلّ يمدحُه ، ويدعو إليه ، ويحثّ عليه. بذلك نَطَقَ القرآنُ ، وبذلك تفاخرتِ العربُ، وتفاضلت أصنافُ العَجَم.

والبيان اسمٌ جامع لكلّ شيء كَشَفَ لك قناع المعنى ، وهتكَ الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليلُ ، لأن مَدار الأمر والغايةَ التي إليها يجري القائل والسامع ، إنما هو الفهم والإفهام ، فبأي شيء بلغت الإفهام ، وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع » .

«البيان والتبيين : ج 1 ، ص 75 و 76 ،»

تحقيق عبد السلام هرون .

شرح لغوي

جهابذة : جمع جهبذ ، وهو العالم الناقد الخبير ، المتخلجة في نفوسهم : المضطربة المترددة . مكنونة : مستورة ، غير ظاهرة . خليطه : صديقه الذي يخالطه ويعاشره . تجلّيها : تكشفها وتوضحها. تلّخص : تفسر وتبين ، الملتبس : الأمر الغامض . الغفل : الذي ليس له علامة يعرف بها . موسوماً : الموسوم الذي له سمة أو علامة

يعرف بها . أنور : أظهر . أنجع : أكثر فائدةً ، هتك الحجاب أزاله. يفضي : يوصل، والماضي أفضي.

المناقشة :

1 ـ كيف تكون المعاني في نفس الإنسان قبل أن يعبر عنها بالكلمات والعبارات ؟

2 ـ ما الذي يخرج تلك المعاني من حيز العدم إلى حيز الوجود ؟

3 ـ ما الصفات التي ينبغي أن تتوافر في الكلام حتى تصبح معانيه واضحة ؟

4 ـ ما المقصود بالبيان الذى مدحه الله عز وجل عند الجاحظ

5 ـ ما مفهوم البيان عند الجاحظ ؟ وضح هذا المفهوم بعبارات من عندك .

6 ـ ما رأيك في مفهوم البيان الذي أورده الجاحظ :
- هل ترى أن الجاحظ وسّع مفهوم البيان أكثر مما ينبغي ؟ وضح إجابتك .
- هل توافق الجاحظ على أن كل من عبر عن أفكاره بأية وسيلة من وسائل التعبير كان جديرا بأن يوصف بالبيان ؟ وضح إجابتك .
- وهل يبقى ، حسب مفهوم البيان عند الجاحظ ، فرق بين صاحب البيان وبين أي واحد من سائر الناس ولو كان عييا عاجزا عن الكلام ؟ وضح إجابتك .

7 ـ قسم النص السابق إلى أفكاره الأساسية ، وضع عنوانا مناسباً لكل قسم .

8 ـ لخص النص السابق ، وناقش أفكاره .

9 ـ هل تستطيع أن تختصر عبارات الجاحظ بمقدار يقل عن مثلها ؟ جرّب ذلك .

10 ـ ماذا تسمي الأسلوب الذي تزيد فيه الألفاظ عن المعاني ؟ وهل يعجبك هذا الأسلوب ؟ ولماذا ؟

11 ـ عرف الجاحظ ، في أسلوبه الأدبي ، بالاعتماد على خاصتين أسلوبيتين هما الترادف والتوازن . وضح هاتين الخاصتين من خلال النص ، وبين رأيك فيهما .

12 ـ في بداية النص عبارة تفيد أن الجاحظ كان ينقل بعض الأفكار عن غيره ، أترى أن الجاحظ وقف في تعريف البيان عند حد النقل عن الآخرين أم أنه تعداه إلى الشرح والتوضيح وبيان رأيه الخاص في هذا الموضوع ؟ وضح إجابتك .

13 ـ هل يعطيك هذا النص صورة صادقة عن أدب الجاحظ وثقافته ؟ وضح إجابتك .

14 ـ هل تجد في ألفاظ النص وعباراته أثرا لثقافات العصر العباسي ومصطلحاته الفلسفية ؟ وضح إجابتك .

15 ـ اجمع شتات أجوبتك ، واجعل منها دراسة أدبية لهذا النص .

تدريب تطبيقي

وازن بين أسلوب الجاحظ في هذا النص وبين أسلوبه في موضوع أعاجيب الحيات .

مراجع :

1) البيان والتبيين للجاحظ . 4 أجزاء . تحقيق عبد السلام محمد هرون.
2) من حديث الشعر والنثر لطه حسين .
3) الفن ومذاهبه في النثر العربي لشوقي ضيف .
4) الجاحظ معلم العقل والأدب لشفيق جبري .
5) الجاحظ عدد خاص من سلسلة الروائع ومن نوابغ الفكر العربي .

نمــادج من أَدب الجاحظ

أ ـ تأديــب الحيوان (من كتاب الحيوان)

«... فالخنزير يكون أهلياً ووحشياً، كالحمير والسنانير (1) مما يُعايش النَّاس ، وكلّهما لا تقبلُ الآداب . وإن الفهود (2) ، وهي وحشيّةٌ ، تقبل كلُّها ، كما تقبل البوازي ، (3) والشواهين (4)، والصقورةُ (5)، والزُّرّقُ (6) ، واليؤيؤ (7) ، والعُقّابُ (8) ، وعناقُ الأرض (9) وجميع الجوارح الوحشيات ، ثم يفضُلها بخصلة غريبة : وذلك أن كبارها ومسانّها أقبل للآداب وإن تقامت في الوحش من أولادها الصغار وإن كانت تقبل الآداب ، لأنّ الصغير إذا أدّب فبلغ خَرَجَ جبيناً (10) مُواكِلاً (11)، والمُسنّ الوحشيّ يخلص كله لك حتى يصير أصيدَ وأنفع . وصغار سباع الطير وكبارها على خلاف ذلك ، وإن كان الجميعُ يقبلُ الآداب . والخنزير ، وإن كان أهلياً ، فإنه لا يقبل الأدب على حال ، حتى كأنه ، وإن كان بهجة ، في طباع ذئب .

وذلك أن أعرابيّاً أخذ جرو ذئب ، وكان التقطه التقاطاً ، فقال : أخذته وهو لا يعرف أبويه ولا عملهما ، وهو غِرّ (12) لم يصد شيئاً ، فهو ، إذا ربّيناه وألّفناه (13) ، أنفع لنا من الكلب . فلما شبّ عدا على شاة له فقتلها ، وأكل لحمها ، فقال الأعرابي :

أكلتَ شُويهتي ، وربَيْتَ فينا فَمَنْ أنْباك أنْ أباكَ ذيب ؟

فالذئب وجرو الذئب ، إذْ كانا سبّعين وحشيين ، كانا من أشد الوحش توحّشاً ، وألزمها للقفار ، وأبعدها من العمران ، والذئب أغدر من الخنزير والخِنَّوْص ، (14) ، وهما بهيمتان .

---

(1) السنانير : القطط . والمفرد سنور . — (2) الفهود : جمع فهد ، نوع من السباع بين الكلب والنمر ، منقط بنقط سود لايتكون منها حلق كالنمر ، يوصف بكثرة النوم . — (3) البوازي : جمع مفرده بازي وهو طائر من الجوارح طويل الجناحين ، يصيد الأرانب ، لونه أبيض في الغالب . — (4) الشواهين : المفرد شاهين طائر من الجوارح أصغر من الصقر وأكبر من الباشق صدره أبيض منقط ، ولون رأسه وذنبه أسود ضارب إلى الزرقة . — (5) الصقورة : المفرد صقر ، نوع من جوارح الطير طويل الجناحين والذنب قصير المنسر ، أعقفه ، له سن في كل من شدقيه . — (6) الزرق : طائر من الجوارح يصادبه ، أسود الظهر ، أبيض البطن ، أحمر العينين ، أصفر الرجلين . — (7) اليؤير : من جوارح الطير ، شبيه بالباسق ، خفيف الجناحين ، سريع الطيران . — (8) العقاب : طائر من الجوارح قوي المخالب . وله منقار أعقف . — (9) عناق الأرضي : حيوان يأكل اللحم ، أكبر من الهر قليلا ، لونه أحمر ، — (10) جبنا : جبانا . — (11) مواكلا : عاجزاً . — (12) غر : ليس له تجربة ، صغير السن . — (12) ألفناه : صيرناه أليناً . — (14) الخنوص : ولد الخنزير.

ب ـ أحسن الكلام

(من البيان والتبيين)

وأحسنُ الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ، وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة ، وغشّاه من نُور الحكمة على حَسَب نيّة صاحبه ، وتقوى قائله . فإذا كان المعني شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكانَ صحيح الطبع ، بعيداً من الاستكراه ، ومنزّهاً عن الاختلال ، مصوناً عن التكلف ، صَنَعَ في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة . ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ، ونفذت من قائلها على هذه الصفة أصحبها الله من التوفيق ، ومَنحها من التأييد ما لا يمتنع معه من تعظيمها صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة . .

. . ثم اعلموا أن المعنى الحقير الفاسد ، والدنيّ الساقط يُعشّش في القلب ثم يبيض ثم يُفرّخُ ، فإذا ضرب بجرانه (1) ، ومكّن لعروقه ، استفحل الفساد وبزل (2) ، وتمكّنَ الجهلُ وقَرّحَ (3) ، فعند ذلك يقوى داؤه ، ويمتنعُ دواؤُهُ ، لأن اللفظ الهجين الرّدي ، والمستكره الغبيّ ، أعلق بالسان ، وآلف للسّمع ، وأشدّ التحاماً بالقلب من اللّفظ النبيه الشّريف ، والمعنى الرفيع الكريم ، ولو جالست الجُهّالَ والنَّوْكَى (4) ، والسخفاءَ والحَمْقى شهرا فقط لم تَنْقَ من أوضار (5) كلامهم ، وخَبال (6) معانيهم ، بمجالسة أهل البيان والعقل دهرا ، لأن الفسادَ أسرعُ إلى الناس ، وأشدّ التحاماً بالطّبائع . والإنسانُ بالتعلم والتكلّف ، وبطول الاختلاف إلى العلماء ، ومدارسة كتب الحكماء ، يجودُ لفظه ، ويحسن أدبه ، وهو لا يحتاج في الجهل الى أكثرَ من ترك التعلم ، وفي فساد البيان الى أكثر من ترك التّخيّر . .

ج ـ قصة الشيخ الأهوازي في السفينة

وقال رمضانُ : كنتُ مَعَ شيخ الأهوازيّ في جعفرية (7)، وكُنْتُ في الذّنبِ ، وكان في الصدر ، فلمّا جاء وقت الغداء أخرج من سلّة له دجاجة وفرخاً واحداً مبرّدا ، وأقبل يأكل ويتحدّث ولا يعرض عليّ ، وليس في السّفينة غيري وغيره . فرآني أنظر إليه مرة ، وإلى ما بينَ يديه مرةً ، فتَوهّم إنني أشتهيه وأستبطئه ، فقال لي : لِمَ تُحدّق النظر ؟ من كان عنده أكلَ مثلي ، ومن لم يكن عنده نَظَرَ مثلك ! » .

قال : ثم نظر إلي وأنا أنظر إليه ، فقال : يا هنّاه (8) ! أنا رجلٌ حسَنُ الأكل لا آكُلُ إلا طيب الطّعام ، وأنا أخاف أن تكون عينك مالحة ، وعينُ مثلك سريعةٌ ، فاصرف عني وجهك !

قال : فوثبتُ عليه ، فقبضتُ على لحيته بيدي اليسرى ، ثمّ تناولتُ الدجاجة بيدي اليمنى ، فمازلتُ أضربُ بها رأسه حتى تقطّعتْ في يدي !

ثمّ تحول إلى مكاني ، فتمسّحَ وجهه ولحيته ، ثم أقبل عليّ فقال : قد أخبرتك أنّ عينك مالحة ، وأنك ستصيبني بعين ! قلتُ : وما شبّه هذا من العينِ ؟ قال : إنما العينُ مكروهٌ يحدثُ ، فقد أنزلتْ بنا عينك أعظم المكروه .

فضحكتُ ضحكاً ما ضحكتُ مثله ، وتكالمنا حتى كأنّه لم يقل قبيحاً ، وحتىَ كأنّي لم أفرط عليه .

---

(1) ضرب بجرانه : ثبت واستقر ، والعبارة من المجاز ، وهي مأخوذة من قولهم ألقى البعير جرانه إذا برك ، ووضع صدره على الأرض . — (2) بزل يقال : بزل البعير بلغ سن التاسعة ، ومعنى ذلك أنه بلغ تمام قوته . — (3) قرح : أصبح قارحاً ، أي بلغ سن القروح ، والقارح من ذي الحافر بمنزلة البازل من الإبل . — (4) النوكي : العاجزون على الكلام ، والمفرد أنوك ، وهو العيي (5) أوضار : أوساخ . — (6) خبال : فساد . — (7) جعفرية : سفينة .

(8) ياهناه : أيّها الخسيس !

ابن رشيق

390 - 456 هـ

القدماء والمحدثون

تعريف وتمهيد :

أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني واحد من أولئك الأفذاذ الذين أنجبتهم بلاد الجزائر فكان له شأن أي شأن في عالم النقد والشعر .

ولد ابن رشيق عام 390 هـ في المحمّدية التي غلب عليها اسم المسيلة، وهي إحدى مدن ولاية سطيف حالياً . وكان والده مولى من موالي الأزد اليمانيين الذين نزحوا من الجزيرة العربية إلى ربوع الجزائر منذ زمن بعيد ، وكان هذا الوالد صائغاً ، فظهرت آثار صنعته في بعض مؤلفات ابنه الحسن إذ سمى أحد كتبه « قراضة الذهب » ، ولا غرو في ذلك ، فقد مارس ابن رشيق صنعة أبيه زمناً ، بيد أنه كان راضياً عن هذا الأب العادي ، بل كان يفاخر به خصومه قائلا : « ما أبغي به أباً ، ولا أرضى بغير مذهبه مذهباً » .

عرف ابن رشيق بنبوغه المبكر ، فقال الشعر وهو صبي لم يبلغ الحلم ، ثم ، رحل إلى القيروان عام 406 هـ . وكانت القيروان بغداد الغرب حينذاك ، وعلى الأخص في عصر المعز بن باديس وابنه تميم اللذين شهدت المدنية على يديهما نهضة أدبية وعلمية عظيمة ، فأصبحت زاخرة برجال العلم والأدب واللغة ، أمثال محمد بن جعفر القزاز ، وأبي محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي ، وأبي اسحق الحصري القيرواني ، وغيرهم . وقد أفاد ابن رشيق من هؤلاء الأعلام أدباً جما ، وعلماً واسعاً ، كما تشهد بذلك آثاره .

أقام ابن رشيق في القيروان مدة طويلة تجاوزت الأربعين عاماً ، وفي أثناء مقامه بها اتصل بأميرها المعز بن باديس الصنهاجي ، وبرئيس ديوان إنشائه أبي الحسن علي بن أبي الرجال الكاتب ، فمدحهما بشعره،

وأهداهما بعض كتبه ، وظل يعيش في كنفهما حتى نكبة القيروان عام 449 هـ وبعد هذه النكبة غادر ابن رشيق القيروان إلى المهدية وعاش في ظل أميرها تميم بن المعز عدة سنين ، ثم رحل عنها إلى جزيرة صقلية التي كان العرب المسلمون يحكمونها في ذلك الوقت ، ونزل بمازر إحدى مدنها ، ومات فيها عام 456 هـ في أرجح الأقوال .

ترك ابن رشيق آثاراً كثيرة زادت على الثلاثين ، بينها ديوان شعر ، إلاّ أن أجل آثاره قيمة هو كتابه المعروف (بالعمدة) الذي أهداه إلى صديقه وولي نعمته أبي الحسن علي بن أبي الرجال . وفي هذا الكتاب تتجلى ثقافة المؤلف الأدبية والنقدية الواسعة، وقد عالج فيه كثيرا من القضايا الخاصة بالشعر معالجة وافية ، ومن أهم المسائل التي عالجها مسألة (القدماء والمحدثين) التي تجدها في الصفحة 73 — 75 من الجزء الأول من كتاب العمدة ، وإليك فيما يلي معظم ما كتبه حول هذه المسألة النقدية الهامة .

القدماء والمحدثون
لابن رشيق

كلّ قديمٍ من الشعر فهو مُحدثٌ في زمانه بالإضافة إلى ما كان قبله . وكان أبوّ عمرو ابن العلاء يقول : « لقد أحسن هذا المولّد حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته » . يعني بذلك شعر جرير والفرزدق ، فجعله مولّداً بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمينَ ، وكان لا يعدّ الشعرَ إلا ما كان للمتقدّمينَ .

قال الأصمعي : « جلستُ إليه ثماني حجج فما سمعتُه يحتجّ ببيت إسلامي » :

وسئل عن المولّدين فقال : « ما كان من حسن فقد سبقو إليه فهو من عندهم إذ ليس النمط واحداً : ترى قطعة ديباج ، وقطعة مِسح ، وقطعة نطع » :

هذا مذهب أبي عمروٍ وأصحابه كالأصمعي ، وابن الأعرابي أعني أن كل واحد منهم يذهب في أهل عصره هذا المذهب ، ويقدّم مَن قبلهم ، وليس ذلك الشيء إلا لحاجة في الشعر إلى الشاهد ، وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون ، ثم صارت لجاجة .

فأمّا ابنُ قتيبة فقال : « لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خصّ به قوماً دون قومٍ ، بل جعل الله ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كلّ قديم حديثاً في عصره » . ومما يؤيد كلام ابن قتيبة :

كلامُ علي رضي الله عنه : « لولا أن الكلامَ يعادُ لَنَفِدَ » ، فليس أحدنا أحقّ بالكلام من أحد ، وإنما السبق والشرف معاً في المعنى على شرائط :

وقول عنترة : « هل غادر الشعراءُ من متردَّم ؟ » يدلّ على أنّه يَعُدّ نفسه محدثاً ، فقد أدرك الشعر بعد أن فَرَغَ الناس منه ، ولم يغادروا له شيئاً ، وقد أتى في هذه القصيدة بما لم يسبقه إليه متقدم ، ولا نازعه إياه متأخّر .

وعلى هذا القياس يُحملُ قولُ أبي تمام ، وكان إماماً في هذه الصناعة غير مدافع :

تقولُ مَنْ تَقْرَعُ أسْمَاعَهُ : كَمْ تركَ الأوّلُ للآخر !

فنقض قولهم : « ما ترك الأول للآخر شيئاً » . وقال في مكان آخر ، فزاده بياناً وكشفاً للمراد :

فلو كان يفنى الشعر أفناه ما قَرَتْ حياضُكَ منه في العصور الذواهب
ولكنه صوبُ العقول إذا انْجلتْ سحائبُ منه أعقبتْ بسحائب

وإنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين : ابتدأ هذا بناءً فأحكمه وأتقنه ، ثم أتى الآخر فنقشه وزيّنه ، فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حَسُن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خَشُنَ .

وسمعتُ القاضي أبا الفضل جعفر بن أحمد النحوي ، وقد سئل عن ذي الرمة وأبي تمام ، فأجاب بجواب يقرب معناه من هذا ، لم أحفظه .

وقال أبو محمد الحسن بن علي بن وكيع وقد ذكر أشعار المولدين : « انما تُروى لعذوبة ألفاظه ، ورقتها ، وحلاوة معانيقها ، وقرب مأخذها . ولو سلك المتأخرون مسالك المتقدمين في غلبة الغريب على أشعارهم ، ووصف المهامه والقفار ، وذكر الوحوش والحشرات ، ما رويت ، لأن المتقدمين أولى بهذه المعاني ، ولا سيما مع زهد الناس في الأدب في هذا العصر وما قاربه . وإنما تكتب أشعارهم لقربها من الأفهام ، وأن الخواص في معرفتها كالعوام ، فقد صار صاحبها بمنزلة صاحب الصوت المطرب ، يستميل أمة من الناس إلى استماعه، وإن جهل الألحان ، وكسر الأوزان ، وقائل الشعر الحوشي بمنزلة المغني الحاذق بالنغم غير المطرب الصوت ، يعرض عنه إلا من عرف فضل صنعته ، لم يصلح لمجالس اللذات ، وإنما يجعل معلما للمطربات من القينات ، يقومهن بحذقه ، ويستمتعُ بحلو ِقهنّ دون حلقة ، ليسلمن من الخطإ في صناعتهن، ويطربن بحسن أصواتهنّ » . .

ولم أر في هذا النّوع أفضل من فصل أتى به عبد الكريم بن إبراهيم ، فإنه قال : « قد تختلف المقاماتُ والأزمنة والبلاد ، فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر ، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يُستحسن عند أهل غيره ، ونجد الشعراء الحذّاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه ، وكثر استعماله عند أهله ، بعد ألا تخرج من حسن الاستواء ، وحد الاعتدال ، وجودة الصنعة ، وربما استعملت عند بلد ألفاظ لا تستعمل كثيرا في غيره ، كاستعمال أهل البصرة بعض كلّام أهل فارس في أشعارهم ، ونوادر حكاياتهم » قال : « والذي أختارُه أنا التجويد والتحسين الذي يختاره علماء الناس بالشعر ، ويبقى

غابره على الدهر ، ويبعد عن الحوشيّ المستكره ، ويرتفع عن المولّد المنتحل ، ويتضمّن المثل السائر ، والتشبيه المصيب ، والاستعارة الحسنة ».

قال صاحب الكتاب : وأنا أرجو أن أكون باختيار هذا الفصل ، وإثباته هاهنا ، داخلاً في جملة المميزين ، إن شاء الله . فليس من أتى بلفظ محصور يعرفه طائفة من النّاس دون طائفة ، لا يخرج من بلده ، ولا ينصرف من مكانه ، كالذي لفظه سائر في كل أرض ، معروف بكل مكان . وليس التوليد والرقة أن يكون الكلام رقيقاً سفسافاً ، ولا باردا غثّاً ، كما ليست الجزالة والفصاحة أن يكون الكلام حوشيّاً خشناً ، ولا أعرابيّاً جافياً ، ولكن حالٌ بين حالين .

ولم يتقدم امرؤ القيس والنابغة والأعشى إلا بحلاوة الكلام وطلاوته ، مع البعد عن السخف والركاكة ؛ على أنهم لو أغربوا لكان ذلك محمولا عنهم ، إذ هو طبع من طباعهم . فالمولّد المحدث ، على هذا إذا صحّ ، كان لصاحبه الفضل البيّن بحسن الاتباع ، ومعرفة الصواب ، مع أنه أرق حوكاً ، وأحسن ديباجةً .

شرح لغوي:

المحدث : عكس القديم ، الحديث ، الجديد ، أبو عمرو بن العلاء : أحد القراء السبعة ، اشتهر بالرواية واللغة والأخبار ، توفي عام 154 هـ . المولّد والمحدث : اصطلاح أطلقه الرواة والنقاد على الأدباء الذين عاشوا بعد منتصف القرن الثاني للهجرة ، وقد قسّم أولئك الرواة والنقاد شعراء الجاهلية والإسلام إلى طبقات حسب أزمانهم ، فقالوا : طبقات الشعر أربع ، جاهليّ قديم ، ومُخضرمٌ أدرك الجاهليّة والإسلام وإسلامي لم يدرك الجاهلية، ومحدث أو مولد عاش بعد 150 هـ ، ثم قسّموا المحدثين إلى طبقات أولى وثانية . . الخ .

الأصمعي : هو عبد الملك بن قريب ، أحد الرواة المشهورين ، توفي عام 214 هـ . حججٍ : سنون ، والمفرد حِجّة بكسر الحاء .

مسْح : منديل خشن . ديباج : ثوب سَداه ولُحمته حرير ، والسدى مَا مُدّ من الخيوط طولاً ، واللحمة ما مدّ من الخيوط عرضاً .
نَطْع : بساط من جلد يوضع تحت رأس المحكوم عليه بالإعدام ، والمقصود هنا الجلد . ابن الأعرابي : هو أبو عبد الله محمّد بن زياد ، أحد علماء اللغة ورواتها من الكوفيين ، توفي عام 231 هـ .
جرير والفرزدق : شاعران أمويّان عرفتهما في السنة الماضية .
لجاجة : خصومة شديدة

ابن قتيبة : هو أبو محمد عبد الله بن مسلم . أحد علماء اللغة والنقد ، التّاريخ ، توفي عام 276 هـ .

علي : هو أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وابن عمّ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .
عنترة : هو الشّاعر الجاهلي الذي عرفته في السنة الماضية .
مُتردّم : المتردّم هو الموضع الذي يرقع من الثوب ، ومعنى عبارة عنترة (هل غادر الشعراء من متردم ؟) هو أن الشعراء لم يتركوا كلاماً يلصق بعضه ببعض ويلفقه ، أي أنهم سبقوا إلى القول فلم يدعوا مقالاً لقائل . قَرتْ : جمعتْ . حياضك : جمع حوض وهو مجتمع الماء ، والمقصود هنا أسلافك أو أجدادك . العصور الذواهب : العصور الماضية .

أبو الفضل جعفر بن أحمد النحوي : أحد شيوخ ابن رشيق .
ذو الرمة : هو لقب عرف به الشاعر الأموي غيلان بن عقبة الذي اشتهر بالغزل .

ابن وكيع : هو أبو محمد الحسن بن علي بن وكيع المصري ، أحد الشّعراء النقاد ، توفي في عام 382 هـ .

المهامه : جمع مهمه ، وهو البلد المقفر . الشعر الحوشي والوحشي : هو الشعر الغريب الذي لا يفهم . القينات : الجواري المغنيات ، والمفرد قينة .

عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي الذي سبق ذكره في التعريف بابن رشيق ، وهو أحد أعلام الأدب والنقد الذين تتلمذ عليهم ابن رشيق ونقل عنه كثيرا في كتاب العمدة .

غابره : ماضيه . المنتحل : المنسوب إلى غير صاحبه ، وهنا المتكلّف . سفسافاً : سخيفاً . غثا : تافها . جافيا : غليظاً خشناً. طلاوة الكلام : جماله وبهجته الركاكة : ضعف التأليف . ديباجة : أسلوباً . الجزالة ضخامة الألفاظ ، ومتانة التراكيب ، وأصل الجزالة العظمة والضخامة من كل شيء .

امرؤ القيس والنابغة والأعشى : شعراء جاهليون سبقت دراستهم في العام الماضي .

إيضاح وتحليل

الخلاف بين أنصار الشعر القديم والشعر المحدث قديم ومشهور، خاض فيه الكثيرون ، وألف بعضهم فيه كتباً . وقد ألم ابن رشيق في هذا الفصل الذي خصصه لمعالجة قضية القدماء والمحدثين من الشعراء إلماماً حسناً . ونجد المؤلف يوضح مسألة القديم والجديد بطريقة منطقية مركزة فيقول : إن القدم والحدوث صفتان نسبيتان ، فالقديم لا يبقى قديماً ، وكذلك الجديد لا يظل جديداً ، فكل قديم كان في أول أمره جديدا ، وكل جديدا سيصبح في يوم من الأيام قديماً . .

ثم يعرض ابن رشيق مذهب أنصار الشعر القديم ، والمتعصبين له ، فيذكر بعض أعلامه مثل أبي عمرو بن العلاء ، والأصمعي وابن الأعرابي ، وينقل عنهم بعض أقوالهم : فأبو عمرو ابن العلاء — مع اعترافه بجودة شعر جرير — لا يرى أن شعر هذا الشاعر جديرا بالرواية والحفظ حتى من قبل الصبيان ! وكذلك كان موقف أبي عمرو من بقية الشعراء الإسلاميين كالفرزدق والأخطل ممن لم يحتج أبو عمرو ببيت واحد لهم كما يقول الأصمعي تلميذه الذي لزمه

ثماني سنين : والسبب الذي دفع أبا عمرو وأصحابه إلى هذا الموقف هو اعتقاده مع أولئك الأصحاب أن أشعار الإسلاميين والمولدين خالية من الابتكار والتجديد ، وأن تلك الأشعار شديدة التفاوت والاختلاف : فأنت ترى فيها الشعر الجيد ، إلى جانب المتوسط والرديء ، ويضيف ابن رشيق سببين آخرين لذلك التعصب للقدماء على غيرهم وهما حاجة العلماء والرواة إلى الشاهد من شعر القدماء أولاً ، وقلة ثقة هؤلاء العلماء والرواة بالشعر الإسلامي والمحدث بسبب ما تعرض له من خطإ ولحن وفساد ثانياً . .

ثم يورد بعض آراء مذهب المعتدلين مثل ابن قتيبة الذي يقرر خطأ من يتعصب للقديم أو للجديد لأن الله ، عز وجل ، جعل المواهب والملكات حظاً مشتركاً بين النّاس في كل زمان ومكان ، فلم يجعل الشعر والعلم والبلاغة حظ القدماء دون المحدثين ، ولا حظ المحدثين دون القدما ، لأن ذلك مناف لطبيعة العدالة الإلهية لو حصل . . ثم ما معنى القديم والحديث ؟ وهل هناك قديم يبقى قديماً أبدا وحديث يبقى حديثاً أبداً ؟ كلا ! ذلك أن كل قديم كان حديثاً في عصره سيصبح قديماً بالنسبة إلى العصور التي تأتي بعده ، إذن فما معنى التعصب للقديم أو للحديث ؟

ويستحسن ابن رشيق رأي ابن قتيبة السّابق في مسألة القدماء والمحدثين من الشعراء ، فيؤيد ذلك الرأي بقول للإمام علي مضمونه أن الأديب مجبر على الإفادة من آثار غيره ، وأنه مضطر إلى ترديد أقوالهم ، لأنه ليس في مقدور أحد أن يجعل كل كلامه جديدا ، فالأديب مثلا ، مهما سمت مواهبه ، لا غنى له عن الأخذ من كلام الآخرين ومعانيهم ، ولولا ذلك الأخذ أو الاقتباس ، بل الإعادة والتكرار أحياناً ، لنفدتْ معاني الأديب ، ونفدت كلماته وجمله ، وذلك لأن مفردات اللغة ، أية لغة ، معدودة محدودة ، وكل ما كان معدودا محدودا كان له نهاية ونفاد . واللغة العربية . كأية لغة في الدنيا ،

إرث مشترك بين أبنائها ، ولكل واحد منهم أن يأخذ حظه من مفرداتها ومعانيها ، وأن يجرب حظه فيها ، فإذا استطاع الأديب أو الباحث أن يسبق غيره إلى بعض المعاني الجزئية الخاصة فله في ذلك فضل السبق وشرف التقدم ، وإذا ساوى غيره فيها فله مزية المجاراة والمساواة ، وإذا جاء متخلّفاً عمن تقدمه عدّ مقصرا أو سارقاً . وما أبدع ما قيل في هذا الموضوع : « من سرق واسترقّ فقد استحقّ ».

ثمّ يذكر قولا لعنترة ينطوي على التعصب للقدماء وعلى الاعتقاد بحصر الابتكار والتجديد فيهم ، لكن ابن رشيق يجعل من قول عنترة دليلاً على خطإ أولئك المتعصبين للقدماء ، لأن أولئك المتعصبين يعدون عنترة قديماً ، بينما عنترة يعد نفسه محدثاً ، ويقرر أن القدماء سبقوه إلى كل جديد ، وسدوا أمامه أبواب القول ! بيد أن ابن رشيق لا يقبل من رأي عنترة إلا جانباً واحداً دون الجانب الآخر : فهو يوافقه في أن عنترة محدث بالنسبة إلى من تقدمه ، وهو يخالفه في احتكار القدماء للفضل والسبق إلى كل جديد حين يقرر أن عنترة قد أتى في قصيدته المعلقة بما لم يسبقه إليه متقدم ، ولا نازعه إياه متأخر .

ويتوسّع ابن رشيق في هذه الفكرة ، فكرة عدم اقتصار الفضل على القديم ، فيذكر قولاً لأبي تمام الشاعر العظيم المبدع ، ويتخذ منه حجة تهدم قول المتعصبين للقدماء : (ما ترك الأول للآخر شيئاً) ، وذلك أن أبا تمّام لا يرى أن السابق في الزمان سابق في الفضل دائماً ، فما أكثر المعاني التي لم يهتد إليها المتقدمون فاهتدى إليها المتأخرون ويحتج أبو تمام لصحة رأيه في الإيمان بخصب العقل البشري ، وقدرته المستمرة على الابتكار والتجديد في كل عصر وزمان ، فيقول في بيته مخاطباً الأمير أبا دلف العجلي أحد ممدوحيه المشهورين : أيها الأمير لقد مدحتك بشعر فيه كل جديد مبتكر ، ولا غرو في أن تكون معاني جديدة مبتكرة ، لأن معاني الشعر معين لا ينضب ، ومدد لا ينفد ، ولو أن معاني الشعر كانت مما يستنفد بالمديح إذن

لا يستنفدها الشعراء الكثيرون ممن مدحوك ومدحوا أسلافك من قبل أن أمدحك ، ولكن معاني الشعر لا تستنفد أبدًا ، لأنها صوب العقل ، وفيض الذهن ، وكلما اكتشف العقل منها معنى جديدا انكشفت بعده معان ومعان ، مثل العقل في ذلك مثَلُ البحر يقذف بسحائبه فوجاً بعد فوج ، بلا انقطاع ، ولا نهاية ، وبلا نفاد .

ثم يشبه ابن رشيق القدماء والمحدثين برجلين: ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه ، ثم أتى الآخر فنقشه وزينه ، فالكلفة ظاهرة على الثاني وإن حسن ، والقدرة ظاهرة على الأول وإن خشن ، وفي هذا القول اعتراف بمزايا القدماء والمحدثين مع تقديم واضح لاولئك على هؤلاء . .

ثم يورد رأياً لشيخه القاضي أبي الفضل جعفر النحوي شبيهاً بالرأي السابق — وهو الرأي الذي يعترف بالفضل للقدماء والمحدثين مع تقديم القدماء على المحدثين — في معرض سؤال وجّه إليه عن الشاعرين ذي الرمة وأبي تمام . .

ثم يعرض المؤلف في هذه المسألة رأياً لابن وكيع شبيها بالرأي السابق الذي نسبه إلى شيخه أبي الفضل النحوي ، فيبين المزايا الخاصة بأشعار المولدين ، كعذوبة الألفاظ ، وحلاوة المعاني ، وملاءمتهما لروح العصر وطبيعة البيئة التي يعيشون فيها ، وصدقها في التعبير عما تقع عليه عينا الشاعر ، وبعدها عن التكلف وتقليد القدماء تقليدا أعمى ، ويضيف ابن وكيع قائلا : إنه لولا هذه المزايا التي ذكرها لأشعار المولدين ، ولولا خروج أصحابها على طرق الأقدمين وأساليبهم الشعرية المعهودة لما رويت أشعار المولدين ولما راجت . ويمثل ابن وكيع لمسألة القدماء والمحدثين تمثيلا دقيقاً ، فيشبه المحدثين من الشعراء بصاحب الصوت الجميل ، الذي يستميل بجمال صوته العدد الكثير من النَّاس وإن كان جاهلا بأصول الموسيقى وعلم العروض ؛ ويشبه القدماء من الشعراء وأصحاب الغريب خاصة بالمغني الحاذق في

في فنه ، العارف بأصول صناعة الغناء وقواعده ، غير ذي الصوت الجميل ، فالناس يعرضون عنه إلا فئة خاصة تريد الانتفاع بعلمه دون الاستمتاع بصوته ؛

ثم يورد ابن رشيق في مسألة القدماء والمحدثين رأيا لأستاذه النهشلي ، فيذكر أن أستاذه المذكور عرض عوامل ثلاثة تؤثر في قيمة الشعر وهي : المقامات أو المناسبة ، والأزمنة أو العصر ، والبلاد أو البيئة المكانية ؛ ويقرر النهشلي أن هذه العوامل الثلاثة تجعل الذين يقبلون على الشعر أو يعرضون عنه تبعا لمراعاة الشاعر للعوامل السابقة أو عدم مراعاته لها. والشعراء الحاذقون هم الذين يراعون تلك العوامل الثلاثة ، ويحرصون على جودة الصنعة الشعرية من غير إفراط ولا تفريط ، ومثال هؤلاء الشعراء الحاذقين شعراء البصرة الذين تأثروا بجيرانهم الفرس فأدخلوا في شعرهم بعض كلامهم ونوادرهم فراجت أشعارهم في بلادهم ، وفي بلاد جيرانهم ، غير أن النهشلي لا يرى هذا المقياس كافيا لكي يصبح الشعر به جيدا خالدا ، ولذلك يجعل المقياس الصحيح للشعر الجيد الخالد قائما على الإجادة الفنية التي يطلبها علماء الشعر والنقد من الشعراء وتتمثل هذه الإجادة في بعد الشعر عن اللفظ الغريب الغامض الذي ينبو عنه الذوق ، وتنفر منه الأذن ؛ وعن اللفظ المبتذل الذي لاكته الألسن كألفاظ بعض المولدين ، والمتكلفين منهم ، كما تتمثل الإجادة في حرص الشاعر على أن يتضمن شعره المثل السائر ، والتشبيه المصيب الجيد ، والاستعارة الحسنة الجميلة .

ويعقب ابن رشيق على الفصل الذي نقله عن أستاذه النهشلي قائلاً : إن الشاعر الذي يستخدم ألفاظا يعرفها أهل بلد معين فتروج أشعاره فيه دون غيره من البلدان، يتخلف عن الشاعر الفذ الذي لا ينحصر شعره في بلده بل يصل إلى كل أرض، ويسير على كل شفة ولسان... ويحدد ابن رشيق صفات الشعر الجيد فيجعلها تلك التي تجمع بين التوليد والرقة والجزالة ، ويفسر الرقة بأنها لاتعني الكلام التافه الساقط المبتذل ، وإنما تعني الكلام الواضح ، السهل ، العذب ، كما يفسر الجزالة فيقول إنها ليست في أن يكون الكلام غريبا

وحشيا ، ولا في أن يكون بدويا خشنا، بل الجزالة في أن يكون الكلام متينا ، أوحالة وسطا بين الغرابة والخشونة.

ويختم ابن رشيق هذا الفصل بإثبات وجهة نظره في صفات الشعر الجيد ، فيضرب مثلاً بشعر بعض فحول الجاهلية كامرئ القيس ، والنابغة والأعشى، الذين تقدموا غيرهم بحلاوة كلامهم ، وعذوبة تراكيبهم ، وبعد شعرهم عن الوحشية والغرابة ، وعن السخف والركاكة مع أن هؤلاء الفحول لو استخدموا الغريب لكان ذلك مقبولاً منهم ، لأنهم جاهليون ، وحب الغريب من طباعهم ، وما دام الأمر كذلك فإن الشاعر المحدث مطالب بأن يكون أكثر بعداً عن الغريب والحوشي من القدماء ، وبأن يقتدي بهؤلاء القدماء في مذهبهم الذي اتبعوه ، وهو المذهب الذي يجمع بين الرقة والجزالة ، مع العلم بأن الشاعر القديم أحسن تأليفا ، وأجمل أسلوبا من الشاعر المحدث.

دراسة أدبية :

الخلاف بين القديم والحديث أصل من أصول الحياة في كل شيء ، وفي كل زمان ومكان... ذلك أن كل واحد من النّاس يتنازعه عاملان متناقضان : عامل البقاء الذي يشده إلى الوراء وإلى التمسك بالقديم ، وعامل التطور الذي يدفعه إلى الأمام وإلى التشبث بالجديد والناس بين هذين العاملين مترددون متفاوتون : بعضهم يؤيد القديم ، وبعضهم ينتصر للجديد ، وآخرون يقفون موقفاً وسطاً بين هؤلاء وهؤلاء.

وقد ظهر الخلاف بين أنصار القديم والجديد في أدبنا العربي منذ أواخر القرن الأول الهجرى، فاشتدت الخصومات بين أنصار الشعراء الجاهليين كامرىء القيس وزهير والنابغة والأعشى ، وبين أنصار الشعراء الإسلاميين كجرير والفرزدق والأخطل ، وهكذا كان أبو عمرو بن العلاء ، مثلا ، لا يروي شعر جرير إلا على كره منه.

ثم ظهر هذا الخلاف في منتصف القرن الثاني للهجرة بين أنصار الجاهليين والإسلاميين من جهة ، وبين أنصار المحدثين من جهة أخرى ، أي بين أنصار بشار بن برد وتلامذته وبين أنصار امرىء القيس وغيره من الجاهليين..

ثم ظهر هذا الخلاف في القرن الثالث الهجري بين أنصار أبي تمام وبين أنصار البحتري ، كما ظهر في القرن الرابع الهجري بين أنصار المتنبي وخصومه ، وقد ألفت في هذا الخلاف كتب كثيرة أشهرها الموازنة بين الطائيين للآمدي ، والوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني ...

ومحور هذا الخلاف بين أنصار القديم والجديد يدور حول اللفظ والمعنى : أما أنصار القديم ، وهم علماء اللغة ورواة الأدب فكانوا « يتخذون اللفظ مقياساً لجودة الشعر ، فكلما قرُبَ هذا اللفظ من البداوة ، وكلما كان رصينا يملأ الفم ، ويهز السمع كان الشعر جيدا ، أي أن جزالة اللفظ وشدة القرب بينه وبين ألفاظ البادية في العصر الجاهلي كانت هي المزية الأولى للشاعر ، ثم تأتي بعد ذلك جودة المعنى والتعمق فيه » (1). وأما أنصار الجديد ، وهم الشعراء والأدباء وبعض العلماء والنقاد ، فقد جعلوا من جودة المعنى والتعمق فيه ، ومن ملاءمته لبيئة الشاعر وعصره وروحه وثقافته وفنونه... جعلوا من ذلك كله المزية الأولى للشاعر ، ثم جعلوا بعد ذلك ألفاظ الشاعر وعباراته...

ومن هذا العرض التاريخي السريع لمسألة القديم والجديد ، أو القدماء والمحدثين كما يسميها ابن رشيق ، ويتبين لنا أن ابن رشيق كان واحدا من كثيرين ممن تعرضوا لهذه المسألة الشائكة التي لا ينتهي الجدل حولها لأنها متصلة بطبيعة الحياة الإنسانية وأذواقها ومشاربها... وقد أراد المؤلف أن يشرح جانبا من اختلاف الرواة والعلماء حول القدماء والمحدثين من الشعراء ، وأن ينتهي بعد ذلك إلى رأي معين في هذه القضية النقدية المهمة ، فاتبع ، لبلوغ هذا الغرض ، مايلي :

---

(1) راجع الفصول المتعلقة بالقديم والجديد في الجزء الثاني من حديث الأربعاء لطه حسين .

أولا – قرر ابن رشيق منذ البداية أن القدم والحدوث مسألتان نسبيتان لا مطلقتان...

ثانياً – عرض مذهب أنصار القديم كأبي عمرو بن العلاء والأصمعي وابن الأعرابي، فشرح هذا المذهب، وعلله ونقده.

ثالثاً – شرح مذهب المعتدلين من خلال فقرات قصيرة نقلها عن ابن قتيبة، وأيد هذا المذهب بأقوال للإمام علي وعنترة ولأبي تمام.
رابعاً – ضرب المؤلف مثلا للقدماء والمحدثين فضّل فيه أولئك على هؤلاء إذ الفضل للمبتدي وإن أحسن المقتدي كما يقولون..
خامساً – نقل عن أستاذه القاضي أبي الفضل جعفر النحوي رأياً شبيهاً بالمثل السابق الذي ضربه للقدماء والمحدثين.
سادساً – أورد رأياً لابن وكيع شرح فيه مزايا القدماء والمحدثين شرحاً يفيد أن الفضل للمتقدم.

سابعاً – أورد رأياً للأستاذ النهشلي ذكر فيه العوامل المؤثرة في قيمة الشعر والمقومات الأساسية للشعر الجيد الخالد، وهو الشعر الذي يجمع في رأي النهشلي بين الرقة والجزالة، ويكون حافلا بالصور البيانية الموفقة، وبالحكم والأمثال السائرة.

ثامناً – علق على رأي أستاذه النهشلي فزاده إيضاحاً وتبييناً، وشرح معنى الرقة والجزالة، واستشهد على صحة رأيه بأشعار فحول الجاهليين.

وهكذا عرض ابن رشيق قضية القدماء والمحدثين عرضاً شاملا، يتسم بالوضوح، والدقة، والموضوعية، وكانت شخصيته واضحة في النص، فلم يكتف بعرض المذاهب المتباينة حول القدماء والمحدثين، بل كان يعقب على كل مذهب أو رأي معارضاً أو مؤيدا كما رأينا، وكذلك لا ننسى أن المؤلف كان ينسب الآراء المختلفة إلى أصحابها، وهو صنيع حسن يدل على ثقافة نقدية واسعة، وأمانة علمية جديرة، بالتنويه، ومن جهة أخرى فإن النص يعطينا فكرة جلية عن حركة النقد الأدبي في القرن

الخامس البحري ؛ ويدلنا على عمق الاتصال والتفاعل بين العرب المسلمين في مشرق العالم الإسلامي ومغربه ، ويبين لنا الإيجابي الذي قامت به بلادك المغربية من قبل في بناء صرح الثقافة العربية الإسلامية ، وفي خدمة اللغة العربية ، لغة آبائك وأجدادك ، بل لغة الوحي الإلهي ، القرآن الكريم؛

وإذا كان لا بد لنا أن نذكر عاطفة ابن رشيق في هذا النص فإنه لا يسعنا إلاّ أن نقول : إن العاطفة التي أملت على ابن رشيق هذا النص وغيره من نصوص العمدة هي عاطفة الإخلاص للحقيقة العلمية وتوضيحها بروح موضوعية هادئة بعيدة عن الجموح والتحيز للقديم أو الجديد بغير سبب معقول

دراسة بلاغية :

ابن رشيق أديب بارع استقام له فن الشعر فكان شاعرا مجيدًا ، واستقام له فن الكتابة فكان كاتبا بليغا ، فأشعاره الكثيرة تدل على أن صاحبها أوتي موهبة جيدة تسمح لمن يتحلى بها أن يعتمد عليها في تحصيل عيشه يوم كان الناس يرتزقون بالشعر. ومؤلفاته العديدة المتنوعة تدل على طبع أصيل ، وباع طويل ، وذوْق سليم ، وثقافة واسعة.

وكان ابن رشيق في كتاباته الأدبية حريصاً على انتقاء العبارة ، وجمال الصياغة فكان يعتمد على السجع ، والتوازن ، والترادف ، وعلى الطباق والمقابلة والجناس والاقتباس وغير ذلك مما يجده المتأمل في مقدمة كتابه العمدة.

أما في هذا النص الذي هو موضوع دراستنا فيلاحظ أن معظم عبارات المؤلف مأخوذ من كلام غيره وليس من كلامه هو ، ولكننا مع ذلك نستطيع أن نرى كيف يختلف أسلوبه من مكان إلى آخر : فهو حيناً يصوغ عباراته صياغة فنية يبدو فيها السجع ، والتوازن والترادف والازدواج كقوله : « وإنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه ، ثم أتى الآخر فنقشه وزيّنه ؛ فالكلفة ظاهرة على هذا وإن

حَسُنَ ، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خَشُنَ ». وهو في أكثر الأحيان ذو أسلوب مرسل لا يحفل فيه بأي شيء من زخارف الصنعة ، وهنا تطول عبارته ، وتمتدّ جمله تبعاً لامتداد الفكرة التي يشرحها ، كقوله في آخر النص : « ولم يقدم امرؤ القيس والنابغة والأعشى إلاّ بحلاوة الكلام وطلاوته ، مع البعد عن السخف والركاكة... » والصور البيانية اختفت أو كادت ، وإذا عثرنا على بعض التشابيه كالتشبيه الذي مر بنا من قبل فلنعلم أن غايته منه تعليمية وليست بلاغية ، فالموضوع يفرض على الكاتب أن يشرح ويعلل ، ويناقش ، ولا يسمح له بأن يظهر براعته الإنشائية. وألفاظ النص واضحة ، يقل فيها الغريب ، وهذا الغريب القليل الذي ورد فيه كالمسح والنطع مرده إلى أن المؤلف ينقل كلام غيره المتضمن لهذا الغريب ، وعباراته خبرية هادئة ملائمة للبحث العلمي القائم على التحليل والشرح والتعليل ، ولذلك كان الأسلوب هنا أقرب إلى العلم منه إلى الأدب.

مجمل القول :

هذا النص الذي سبقت دراسته هو الباب الثالث والعشرون من كتاب العمدة. لابن رشيق القيرواني المسيلي ، وقد بلغت أبواب هذا الكتاب مائة و ستة أبواب كلها تقريباً في الشعر وما يتصل به ، جمع فيه المؤلف أحسن أقوال النقّاد في الشعر ليكون العمدة في محاسن الشعر وآدابه وقد عوّل فيه صاحبه على قريحته وخاطره كما يقول ، وجاء في جزءين كبيرين ألم فيهما بكثير من المسائل المتعلّقة بالشعر كمسألة القدماء والمحدثين التي هي موضوع دراستنا . وفي النص الذي مرّ بك نموذج لعمل ابن رشيق في كتابه العمدة ، وقد كان في مختلف فصول الكتاب يذكر آراء النقاد في المسألة الأدبية راوياً ، أو شارحاً ، أو ناقدا ، وفي النص السابق معالجة جيدة لمسألة القدماء والمحدثين : فأسلوبه علمي هادىء بعيد عن التكلف والصنعة ، وطريقته في العرض تتسم

بحسن الترتيب والتنظيم ، كما تتسم بالموضوعية والأمانة وظهور شخصية المؤلف في كل ما ينقل أو ينقد . ومن هنا حق لابن خلدون أن يقول في كتاب العمدة : أنه « الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة — يريد صناعة الشعر ونقده — وأعطاها حقها ، ولم يكتب أحد فيها قبله ولا بعده مثله » .

مناقشة النص :

1 — ما الفكرة التي أرادها ابن رشيق بقوله : « كل قديم من الشعر فهو محدث في زمانه ، بالإضافة إلى ما كان قبله » .

2 — لخص مذهب أبي عمرو بن العلاء في الشعر القديم والمحدث ، وناقشه .

3 — اذكر مذهب ابن قتيبة في القدماء والمحدثين وناقشه .

4 — ما المراد بكلمة الإمام علي كرم الله وجهه : « لولا أنّ الكلام يُعاد لنَفَدَ »

5 — ما المراد بقول عنترة : « هل غادر الشعراء من متردّم ؟ » وهل توافقه على هذا الرأي ؟ ولماذا ؟

6 — ما المراد بقول أبي تمام : « كم ترك الأول للآخر ! » ؟ وما الفرق بين هذا القول وبين قول عنترة ؟

7 — ما رأيك في المثل الذي ضربه ابن رشيق للقدماء والمحدثين في قوله : « وإنما مثل القدماء والمحدثين . . الخ » ؟ هل توافقه على هذا المثل ؟ ولماذا ؟

8 — لخص رأي ابن وكيع في القدماء والمحدثين وناقشه .

9 — اذكر المؤثرات التي يخضع لها الشعر في رأي النهشلي ، واشرح هذه المؤثرات .

10 – اذكر مقومات الشعر الجيد في رأي النهشلي ورأي تلميذه ابن رشيق . وناقش رأيهما .

11 – ما معنى الرقة والجزالة في رأي ابن رشيق ؟

12 – حدد موقف ابن رشيق من مسألة القدماء والمحدثين .

13 – قسم النص إلى أفكاره الأساسية ، وضع عنواناً مناسباً لكل فكرة .

14 – هل تعرف من القدامى نقادا آخرين تناولوا مسألة القدماء والمحدثين غير أولئك الذين ذكرهم ابن رشيق ؟

15 – هل تعرف من المعاصرين أديباً تناول قضية القدماء والمحدثين؟ اذكر من تعرفه منهم ، ولخص رأيه في هذه القضية .

16 – على أي شيء يدل استشهاد ابن رشيق بأقوال السابقين ؟ وعلى أي شيء يدل ذكره لأصحاب تلك الأقوال ؟ هل تعجبك طريقة المؤلف هنا ؟ ولماذا ؟

17 – وما رأيك في أسلوب ابن رشيق : هل هو علمي أم أدبي أم بين بين ؟

18 – هل تستطيع أن تتصور طبيعة العلاقات الاجتماعية والفكرية التي كانت تربط بين المشرق العربي والمغرب العربى أيام ابن رشيق ؟

19 – هل تستطيع أن تكون من هذا النص فكرة صحيحة عن الحياة الأدبية والنقدية في العصر الذي عاش فيه ابن رشيق ، وهو القرن الخامس الهجري .

20 – ما الأثر الذي تركه هذا النص في نفسك ؟

تدريـــب

قال الجاحظ : «وكلام كثير قد جرى على ألسنة الناس وله مضرة شديدة ، وثمرة مرة . فمن أضر ذلك قولهم : لم يدع الأول للآخر شيئاً . فلو أن علماء كل عصر منذ جرت هذه الكلمة في أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته عمّن قبلهم لرأيت العلم مختلاً» .

أكتب في هذا القول موضوعاً إنشائياً ، واستشهد بأمثلة مختلفة من التاريخ القديم والحديث .

مراجع :

1) كتاب العمدة لابن رشيق .

2 – الموازنة بين الطائيين للآمدي .

3) الوساطة بين المتنبّي وخصومه للجرجاني .

4) حديث الأربعاء لطه حسين ج 2 .

5) ابن رشيق . عدد من سلسلة نوابغ الفكر العربي .

6) تاريخ النقد الأدبي لمحمد زغلول سلام جزء 1 وج 2

نماذج من أدب ابن رشيق

أ ـــ باب الشعـــر والشعـــراء

مــن كتـاب العمدة

طبقات الشعر أربع : جاهلي ، قـديم ومخضرم، وهو الذي أدرك الجاهلية والإسـلام ، وإسـلامـي ، ومحدَثٌ ، ثم صار المحدثـون طبقات : أولى وثانيـة على التاريخ ، وهكذا في الهبـوط إلى وقتنا هـذا . فليعلـم المتـأخـر مقـدار مـا بقي لـه من الشعـر ، فيتصفـح مقـدار من قبلـه لينظـر كـم بين المخضـرم والجاهلي ، وبيـن الإسـلامي والمخضـرم ، وأن المحدث الأول ، فضـلا عـن دونـه ، دونهـم في المنـزلـة ، على أنـه أغمض مسلكـا وأرق حاشيـة . فإذا رأى أنـه ساقـة الساقـة تحفـّظ على نفســه ، وعلـم، من أين يؤْتى ، ولم تغـرره حلاوة لفظـه ولا رشاقة معناه ، ففي الجاهلية والإسـلام من ذهـب بكـل حـلاوة ورشاقـة ، وسبق إلى كـل طـلاوة ولبـاقـة . .

وأنشد بعض العلمـاء ولم يذكـر قائلـه :

الشّعـراء فاعْلَمَـــنّ أرْبَعَـهْ   فشاعـر لا يُـرتَجـى لمنْفَعَهْ
وشاعـرٌ يُنْشِـدُ وَسْطَ المَجْمَعَة   وشاعـرٌ آخـرُ لا يـرتَجى مَعَـهْ
وشاعرٌ يقــالُ : خمـْرٌ في دَعَـــهْ !

هكذا رويتها عن أبي محمد بن أبـي سهل ، رحمه الله ، وبعض النـاس يـرويهـا على خـلاف ذلك . . وقالـوا : الشعـراء أربعـة : شاعـر خنْذيذٌ ، وهو الذي يجمع إلى جودة شعـره رواية الجيد من شعـر غيره ، وسئل رؤبه عن الفحـولة قال : هم الـرواة ، وشاعـر مُفْلِقٌ وهو الذي لا روايـة له إلاّ أنـه مُجـوِّدٌ كالخنذيذ في شعـره ، وشاعـر فَقَـطْ ، وهـو فـوق الرديء بدرجـة ، وشعـرور وهـو لا شيء ! .

وإنما سُمّي الشّاعر شاعرا لأنه يشعر بما لا يشعر له غيره ، فإذا لم يكن عند الشاعر توليدُ معنى ولا اختراعهُ ، أو استظرافُ لفظ وابتداعُه ، أو زيادة فيما أجحفَ به غيره من المعاني ، أو نقّص مما أطاله سواه من الألفاظ ، أو صرَفَ معنى إلى وجه عن وجه آخَرَ ، كان اسمُ الشاعرِ عليه مجازًا لا حقيقةً ، ولم يكن له إلا فضلُ الوزن ، وليس بفضل عندي معَ التقصير...

ب - باب حدّ الشعر وبنيته

البنية من أربعة أشياء ، وهي : اللفظ ، والوزن ، والمعنى والقافية ، فهذا هو حدّ الشعر ، لأن من الكلام موزوناً مقفّى وليس بشعر ، لعدم الصنعة والبنيةِ ، كأشياءَ اتّزنتْ من القرآن ، ومن كلام النبيِ صلى الله عليه وسلمَ ، وغيرِ ذلك مما لم يطلق عليه أنه شعر ، والمتّزنُ ما عرض على الوزن فقبلهُ .

وقال بعض العلماء بهذا الشأن : بني الشعر على أربعة أركان وهي : المدح ، والهجاء ، والنسيب ، والرثاء .

وقالوا قواعد الشعر أربع : الرغبة ، والرهبة ، والطرب ، والغضب . فمع الرغبة يكون المدح والشكر ، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف ، ومع الطرب يكونُ الشوق ورقة النسيب ، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعُّدُ والعتاب .

وقال الرماني علي بن عيسى : أكثر ما يجري عليه أغراض الشعر خمسة : النسيب ، والمدح ، والهجاء ، والفخر ، والوصف . ويدخل التشبيه والاستعارة في باب الوصف .

وقال عبد الكريم : يجمع أصناف الشعر أربعة : المديح ، والهجاء ، والحكمة ، واللهو ، ثم يتفرغ من كل صنف من ذلك فنون : فيكون في المديح المراثي والافتخار والشكر ، ثم يكون من

الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء ، ومن الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ ، ويكون من اللهو الغزل والطرب وصفة الخمر والمخمور.

وقال قوم : الشعر كلّه مدحٌ وهجاءٌ : فإلى المدح يرجع الرثاء والافتخار والتشبيب وما تعلق بذلك من محمود الوصف كصفات الحمول(1) والآثار والتشبيهات الحسان ، وكذلك تحسين الأخلاق كالأمثال والحكم والمواعظ والزهد في الدنيا والقناعة . والهجاء ضد ذلك كله ، غير أن العتاب حالٌ بين حالين ، فهو طرف لكل واحد منها ، وكذلك الإغراء ليس بمدح ولا هجاء ، لأنك لا تغري بإنسان فتقول : إنه حقير ولا ذليل الا كان عليك وعلى المُغرى الدّرَكُ (2) ، ولا تقصد أيضاً بمدحه الثناء عليه فيكون ذلك على وجهه . .

ج ـ باب اللفظ والمعنى

اللفظ جسمٌ روحهُ المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعُفُ يضعفه ، ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختلّ بعضُ اللفظ كانَ نقصاً للشعر وهُجنة عليه ، كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشّلل والعَوَر وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح . وكذلك إن ضعُف المعنى واختلّ بعضه كان للّفظ من ذلك أوفر حظّ ، كالذي يعرضُ للأجسام من المرض بمرض الأرواح ، ولا تجد معنى يختلّ إلامن جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب قياساً على ما قدّمتُ من أدواء الجسم والأرواح ، فإن اختلّ المعنى كلّه وفَسَدَ بقي اللّفظ مَوَاتاً لا فائدة فيه ، وإن كان حسن الطلاوة في السمع ، كما أنّ الميتَ لم ينقص من شخصه شيء في رأي العين إلا أنه لا يُنتفعُ به ، ولا يُفيدُ فائدة . وكذلك إن اختلّ اللفظ جملة وتلاشي لم يصح له معنى ، لأنّا لا نجد روحاً في غير جسم البتّة . ثمّ للنّاس فيما بعد آراءٌ

(1) الحمول : التحمل والارتحال ، وهو موضوع شائع جدا في مطالع القصائد الجاهلية خاصة . — (2) الدّرَكْ : التّبعة والمسؤولية .

ومذاهبُ ، منهم من يؤثـر اللفظَ على المعنى ويجعلـه غايتـه ووكـده وهم فـرقٌ : قـومٌ يذهبـون إلى فخـامـة الكـلام وجـزالـته على مذهب العرب من غير تصنّع كقـول بشّـار :

اذا ما غضبنا غَضْبَةً مُضـريّـةً هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
إذا مـا أعـرنـا سيّـداً من قبيلـةٍ ذرى مِنبـر صلّى علينـا وسلّما

وهذا النـوع أدلّ على القـوة ؛ وأشبـه بمـا وقـع فيـه من مـوقـع الافتخـار ، وكذلك ما مُدح بـه الملـوك يجب أن يكون من هذا النّحت .

وفـرقـة أصحـاب جبلـةٍ وقعقـعـةٍ بـلا طـائلٍ معنى إلا القليـلَ النادر ، كأبـي القـاسم بن هانيء ومن جـرّى مجـراه ، فإنـه يقـول أولَ مُذهّبتـه :

أصاختْ فقالتْ : وَقْعُ أجردَ شيظَـمِ
وشامتْ فقالت : لمع أبيض مِخـذَمِ (1)
ومـا ذُعـرتْ إلا لجـرس حُلِيّهـا
ولاَ رَمَقَتْ إلا بُـرَى فـي مُخَـدّمِ (2)

وليس تحت هذا كلّـه إلاّ الفسادُ وخـلاف المـراد . والذي يفيدنا أن تكـون هذه المنسـوب بهـا حليهـا فتـوهمتـه بعد الإصاخـة والـرمق وقـع فـرس أو لمع سيف ، غير أنهـا معـزوّة في دارهـا ، أو جاهلـة بمـا حملته من زينتهـا ، ولم يخف عنا مـرادهـا أنهـا كانت ترقبـه فمـا هذا كلّه ؟!..
ومنهنّ من ذهبَ إلى سهـولـة اللفظ فعُنِيَ بهـا ، واغتُفر لـه فيهـا الـركاكة واللين المفرطُ كأبي العتاهيـة ، وعباس بن الأحنف ، ومن تابعهمـا ؛ وهم يرون الغايـة قـول أبـي العتاهيـة :

---

(1) أصاخت : استمعت . أجرد : فرس قصير الشعر . شيظم : طويل الجسم . شامت : نظرت أبيض : سيف . مخذم : قاطع . — (2) لجرس حليها : لصوت حليها الخفي . رمقت : نظرت . برى : جمع مفرده برة وهي حلقة الخلخال الذي تلبسه النساء في أرجلهن . مُخدّم : موضع الخلخال من الرجل .

يا إخوتي إن الهوى قاتلـــي فسيّروا الأكفان من عاجـــل
ولا تكونوا في اتّباع الهوى فإنّني في شُغْلٍ شاغــلِ
عيني على عُتْبَةَ مُنْهَلَّةٌ بدمعها المنسكب السائــل
يا من رأى قبلي قتيلاً بكى من شدّة الوَجْدِ على القاتلِ !
بَسَطْتُ كفي نحوكم سائلاً ماذا تردّون على السّائلِ ؟
إن لم تنيلوه فقولوا لــه قولاً جميلاً بدلَ النائلِ
أو كنتم العام على عُسْرَةٍ منه فمنُّوه إلى قابلِ

: . ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحّته ، ولا يبالي حيث وقع من هُجنة اللفظ وقبحه وخشونته كابن الرومي وأبي الطّيب ومن شاكلهما .

وأكثرُ النّاس على تفضيل اللفظ على المعنى ، سمعتُ بعض الحذّاق يقولُ : قال العلماء : اللفظ أغلى من المعنى ثمناً ، وأعظم قيمة ، وأعزّ مطلباً ، فإن المعاني موجودة في طباع الناس ، يستوي فيها الجاهل والحاذق ، ولكن العمل على جودة الألفاظ ، وحُسْن السبك ، وصحة التأليف . ألا ترى لو أن رجلا أراد في المدح تشبيه رجل لما أخطأ أن يشبهه في الجود بالغيث والبحر ، وفي الإقدام بالأسد ، وفي المضاء بالسيف ، وفي العزم بالسيل ، وفي الحسن بالشمس ، فإن لم يحسن تركيب هذه المعاني في أحسن حلاها من اللفظ الجيد الجامع للرقة والجزالة والعذوبة والطلاوة والسهولة والحلاوة لم يكن للعنى قدرٌ . .

وبعضهم ، وأظنه ابن وكيع ، مثّل المعنى بالصورة ، واللفظ بالكسوة ، فإن لم تُقابلِ الصورة الحسناء بما يشاكلها ويليق بها من اللباس فقد بُخستْ حقّها ، وتضاءلتْ في عين مُبْصِرها . .

بديع الزمان الهمذاني

358 — 399 هـ

المقـامـة البغدادية

تعريف وتمهيد :

الكاتب هو أبو الفضل أحمد بن الحسين المعروف ببديع الزمان ، ولد في همذان (مدينة في إيران) حوالي سنة 358 هـ ، ونشأ فيها ، وكان نابغة في الحفظ والذكاء ، معروفا بحضور البديهة ، وسرعة الخاطر ، وقد أخذ اللغة عن العالم اللغوي الشهير ابن فارس ، وصار ضليعاً فيها ، ثم رحل متنقلا يضرب في الأرض حتى لقي في نيسابور (مدينة في شمال شرقي إيران) أبا بكر الخوارزمي فناظره وتفوق عليه ، ثم استقر به المقام في مدينة هراة (احدى مدن أفغانستان) وقد خلد اسمه في تاريخ الأدب بالمقامات التي اشتهرت في الأدب العربي ، ومات حوالي سنة 399 هـ .

والمقامات (1) فن من فنون الأدب العربي يتصل بحياة الناس ، ويصور ما يجري فيها شأنه في ذلك شأن بقية الفنون الأدبية الأخرى، غير أن المقامة تميزت بأنها قصة خيالية قصيرة تدور حول الكدية (الشحاذة) وأساليب الاحتيال التي يلجأ إليها أفراد بائسون لكسب الرزق والحصول على لقمة العيش ، والأسلوب الذي تحكى به المقامة تغلب عليه الصناعة اللفظية والتزام السجع خاصة ، وتزدحم فيه الصور البلاغية ، وتجمع فيه المفردات الغريبة ، إلى جانب ما يحليه من الأمثال والأشعار . ولكل قصة أو مقامة بطل خيالي يضطلع بأحداثها ، وراوية خيالي يحكي عنه مواقفه .

وهذا اللون الأدبي ظهر في العصر العباسي خلال القرن

(1) المقامة اسم للمجلس أو الجماعة من الناس ، وسميت الأحدوثة من الكلام مقامة كأنها تذكر في مجلس واحد تجتمع فيه الجماعة .

الرابع الهجري لما شاع في ذلك العصر من تفاوت اجتماعي إذ كان بعض الناس في ترف ونعمة ، وبعضهم في فقر وعسر ، الأمر الذي اضطر معه من لم يؤتوا حظا من الرزق – ومن بينهم عدد من الأدباء – إلى أن يسلكوا ذلك المسلك الشائن ، ويتخذوا تلك الوسائل التي تجافي الخلق العربي ، والدين الإسلامي . وقد فرضت تلك الظاهرة الاجتماعية على أدباء العصر أن يسجلوها ، فنشأ من ذلك فن المقامات .

وإذ كان أبو بكر ابن دريد المتوفي سنة 320 ه أول من كتب المقامات فإن بديع الزمان الهمذاني هو صاحب الفضل الظعيم في تنظيم هذا الضرب الأدبي ، ووضعه في شكله الفني الخاص حتى إن بعض مؤرخي الأدب يعتبرون بديع الزمان واضع فن المقامات .

وهذا النص الذي بين يديك إحدى مقامات بديع الزمان التي تعتبر نموذجاً لفن الكتابة الأدبية المعروفة باسم المقامات . وبطل مقامات البديع هو أبو الفتح الإسكندري . وراويته هو عيسى بن هشام ، ولكن في هذه المقامة البغدادية جعل بديع الزمان الراوية عيسى بن هشام بطل المقامة .

حدّثنا عيسى بنُ هشام ، قال : اشتهيتُ الأزاذَ ، وأنا ببغدادَ ، وليس معي عَقْدٌ على نقْد ، فخرجت أنتهزُ محالَّة حتى أحلّني الكَرْخَ ، فإذ أنا بسواديّ يَسوقُ بالجهد حمارهُ ، ويُطَرِّف بالعُقَد إزراه ، فقلت : ظَفرْنَا والله بصيد ، وحَيَّاكَ الله أبا زيد ، من أين أقبلتَ ؟ وأين نَزَلْتَ ؟ ومتى وافيتَ ؟ وهلمّ إلى البيتِ . فقالَ السَّواديُّ : لَسْتُ بأبي زيد ، ولكني أبو عبيد . فقلت : نعمْ ، لَعَنَ اللهُ الشيطانَ ، وأبْعَدَ النِّسْيانَ ، أنسانيكَ طولُ العهد واتِّصَالُ البُعْد ، فكيف حَالُ أبيك؟ أشابّ كعهدي أم شابَ بعدي؟ فقال : قد نَبَتَ الربيعُ على دِمْنَتِه ، وأرجو أن يُصَيِّرَهُ الله إلى جَنَّتـه ، فقلْتَ : وإنا لله ، وإنا إليْهِ رَاجعون ، ولا حول

ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم. ومددْتُ يدَ البدار إلى الصدار أريد تمزيقهُ، فقبضَ السّواديُّ على خصْري بجمْعه، وقال: نشدْتكَ الله لا مزّقتهُ، فقلت: هلمّ إلى البيت نُصبْ غداءً، أو إلى السّوق نشتر شواءً، والسوقُ أقربُ، وطعامه أطيبُ؛ فاستفزّته حمة القَرم، وعطفتْهُ عاطفة اللقم، وطمع، ولم يعْلمْ أنه وقع. ثم أتينا شوّاءً يتقاطر شواؤُهُ عرَقاً، وتتسايل جوْذاباته مرقاً، فقلت: أفرز لأبي زيد من هذا الشّواء، ثمّ زن له من تلك الحلواء، واختر له من تلك الأطباق، وانضد عليها أوراق الرّقاق، ورشّ عليها شيئاً من ماء السّماق، ليأكله أبو زيدٍ هنياً، فانحنى الشّوّاءُ على زبدة تنّوره، فجعلها كالكحْل سحقاً، وكالطّحن دقّاً، ثم جلس وجلست، ولا نبس ولا نبسْتُ، حتى استوفينا، وقلت لصاحب الحلوى: زن لأبي زيد من اللّوزينج رطلين، فهو أجرى في الحلوق، وأمضى في العروق، وليكن ليليّ العمْر، يوميّ النّشر، رقيق القشر، كثيف الحشْو، لؤلؤي الدّهن، كوكبيّ اللّون، يذوب كالصّمغ، قبل المَضْغ، ليأكله أبو زيدٍ هنيئاً. قال فوزنه، ثمّ قعَد وقعدتُ، وجرّد وجرّدت، حتى استوفيناه، ثم قلت: يا أبا زيد، ما أحوَجنا إلى ماءٍ يشعْشعُ بالثلج ليقمع هذه الصارة، ويفثأ هذه اللقم الحارة؛ اجلس أبا زيد حتى نأتيك بسقّاء يأتيك بشربة ماء. ثمّ خرجت وجلستُ بحيث أراه ولا يرني، أنظر ما يصنعُ، فلمّا أبطأتُ عليهِ قام السوادي إلى حمَاره، فاعتلق الشّوّاءُ بإزاره، وقال: أين ثمَن ما أكلتَ؟ فقال أبو زيد: أكلته ضيفاً، فلكمه لكمةً، وثنّى عليه بلطمةٍ، ثمّ قال الشّوّاءُ: هاكَ! ومتَى دعَوناك؟ زنْ يا أخا القحة عشرين! فجعل السّوادي يبكي ويحلّ عقد أسنانه ويقول: كم قلت لذاك القريد: أنا أبو عبيد، وهو يقول أنت أبو زيد،

فأنشدت :

أعمـــلْ لـــرزقـــك كـلّ آلـــهْ   لا تقعدنّ بذلّ حـــــالـــهْ
وانهض بكـــلّ عظيمـــة   فالمرءُ يعجز لا محـــالـــهْ

شرح لغوي:

الأزاذ : نوع من التمر الجيّد ، والمقصود منه هنا الطعام . بغداذ : لغة في كلمة بغداد . نقد : نقود ودراهم . محالّة : الأماكن التي ينتظر أن أجد فيها مطلبي . الكرخ : في الجانب الغربي من بغداد . سوادي : ريفيّ . يطرف بالعقد إزاره : تكثر في طرف ثوبه عقد ربطها على نقوده . وافيت : جئت . الربيع : المقصود هنا النبات والزرع . الدمنة : آثار الدار المهجورة والمقصود قبره . البدار : المبادرة أي السرعة . الصدار : قميص قصير بلا كمّين ، بجمعه : بقبضة يده. نشدتك لله : أستحلفك بالله . استفزته : استهوته ، ودعته للاستجابة ، حمة القرم : الحمة إبرة العقرب ، والمقصود هنا الشدة . والقرم : الميل الشديد إلى اللحم . اللقم : السرعة في الأكل . جوذّباته : جمع جوذابة ، وهي كلمة غير عربية معناها رغيف يخبز ثم يوضع تحت اللحم يتلقى الدهن السائل . انضد : رص ، السماق : ماء السماق قيل إنه نقيع تمر ، وقيل إنه نقيع حب أحمر حامض . زبدة تنوره : أفضل ما يشوى على موقده . ما نبس : ما تكلم ، ما نطق . استوفيناه : أتينا على آخره ، اللوزينج : نوع من الحلوى يحشى بالجوز ويسقى بدهن اللوز . ليليّ العمر : صنع الليلة . يومي النشر : ظهر هذا النهار وشرب ما فيه من دهن وعسل . جرّد : تفرغ للطّعام . يشعشع بالثلج : يخلط به . الصارة : العطش . يفثأ : يخفف حدة الحرارة . هاك : اسم فعل أمر بمعنى خذ . القحة : سوء الأدب . زن عشرين : أعط وزن عشرين درهما . القريد : تصغير لكلمة قرد . المحالة : الحيلة .

إيضاح وتحليل :

حكى عيسى ابن هشام في هذه المقامة قصة قصيرة رواها في ثلاثة مشاهد ، وكان هو بطلها أيضا :

قال في المشهد الأول : كنت أمشي في شوارع بغداد ، وقد اشتد بي الجوع ، وخلت يدي وخلا جيبي من النقود ، فصرت أبحث عن وسيلة أدفع بها جوعي ، وأسد منها رمقي ، وانتهى بي المسير إلى الكرخ غربي بغداد ، وهناك وجدت أحد القرويين قادماً إلى المدينة يسوق حماره ، وقد كثرت في أطراف إزاره عقد ربطها على نقوده ، فهرعت إليه وكأنني أندفع إلى صديق أعرفه ، وأخذت أسائله وأحاوره ، وألاحقه بالسؤال وبالجواب حتى عرفت اسمه ، وعرفت أن أباه قد توفّي منذ أمد بعيد ، فتظاهرت بالحزن ، وتصنعت الأسى لهاذا الخبر المؤلم ، ثم عدت إلى قصدي من اصطياد هذا القروي الساذج فدعوته إلى الغداء معي ، ولما وجدت منه استجابة وتلبية للدعوة خيرته بين الذهاب إلى الدار أو إلى أحد مطاعم السوق ، ثم بادرته بتفضيل الذهاب إلى السوق لأنه أقرب ، وطعامه أطيب ، واصطحبته وذهبنا إلى أحد المطاعم .

وقال في المشهد الثاني : دخلت وإياه مطعماً يقدم الشواء والحلوى ، وطلبت من الشوّاء قدرا يكفينا ويزيد ، وطالبت الشوّاء بالاهتمام والإتقان ، حتى إذا حضر الطّعام أقبلنا عليه في صمت ، والتهمناه في سرعة ، ثم طلبت رطلين من الحلوى الطازجة ، وبعد أن تناولناهما استأذنت القروي لأحضر سقاء يأتينا بماء مثلج يخفف من حرارة هذا الطّعام ، وانصرفت وتركت القروي في المطعم .

وقال في المشهد الثالث : ظل القروي ينتظرني ، وينتظرني ، وطال انتظاره ، ولم أعد إليه ولما ملّ الانتظار قام لينصرف ، فتقدم إليه الشوّاء يطالب ثمن الطّعام والحلوى ، فذكر له القروي أنه كان ضيفاً ، ولكن الشوّاء ظنه يحتال بهذا القول فلكمه ثم لطمه وشتمه ، وطلب منه دفع الثمن ، فجعل القروي يبكي ، ويحل عقده بأسنانه ،

وأخـرج النقـود ، ودفـع الثمـن ، وأدرك أنهـا كانت حيلـة ، وأنـه كان صيدا لمحتال – أما أنـا فبعـد أن نلت بغيتي ، ومـلأت معدتـي هربت من القـروي ، واختبأت غير بعيد لأرقب ما يحدث بين القـروي والشـوّاء ، وكنت مسـرورا بنجاح حيلتي ، وأخذت أردد بيتين من الشعـر يدعـوان المـرء إلى أن يعمـل كـل حيلـة للحصـول على الـرزق .

دراسة أدبية :

هذه المقامـة قصـة خياليـة قصيرة ، دارت أحداثهـا حـول الاحتيال للتكسب ، والمخادعـة من أجـل الحصـول على لقمـة العيش . وهذ االلـون الأدبـي قد شاع في القـرن الـرابـع الهجـري انعكاساً للظـروف الاجتمـاعيـة في ذلك العصـر حيث كان التفاوت الاجتمـاعي والطبقي يبدو واضحـاً ، كمـا كان للعناصر غير العـربيـة في الدولـة أثـر في فساد القيـم الأخـلاقية العـربيـة :

وهـذا النص من مقامات بديـع الـزمان قد مثـل لك هذا الفن الأدبي إذ صور جانباً اجتماعياً من حياة عصره هـو اللجـوء إلى الاحتيال كـوسيلـة لكسب الـرزق ، وجاء أسلـوب النص أسلـوبـاً مصنـوعـاً يعتمـد عل حشد لكثير من المفـردات اللغـويـة الغـريبـة ، وإكثار من المحسنات البديعـة والألـوان البيانيـة ، وإيـراد لبعض الأشعـار ، وتلك كلهـا من خصائص أسلـوب هذا الفن الكتابي (المقامات) .

وقد تضمن النص ثـلاثـة مشاهد جاءت متماسكـة متـرابطـة ، مشتملـة على عناصر القصـة من عـرض لأحداث تـوصـل إلى عقيدة يأتي بعدهـا الحـل ، وإن كان النقـاد لا يعدون المقامـة قصـة فنيـة لمـا فيهـا من قصـر ، وقصد إلى إظهـار البـراعـة اللفظيـة ، إلا أنهـم يعتـرفـون بأنهـا كانت محاولـة طيبـة في سبيـل القصـة الفنيـة .

وقد وفق بديـع الـزمان في تحديد سمـات كـل شخصيـة من شخصيات المقامـة ، وجعـل أسلـوب كـل منهـا مـلائمـا يتمشى مع الدور الذي تـؤديـه في المـوضوع .

وهذا اللون الأدبي عند بديع الزمان قد سلك طريقه ، ونسج على منواله عدد من الكتاب بعده كالحريري ونصيف اليازجي ، وغيرهما.

دراسة بلاغية :

بالرغم من أن أسلوب المقامة يكون في العادة مصنوعاً إلا أن أسلوب هذه المقامة جاء غير ضعيف ، وغير مسرف في التكلف والصنعة ، وذلك راجع إلى أن المقامات كانت لا تزال في بداية أمرها والأدب كان لا يزال ناهضاً راقياً ، هذا إلى جانب بلاغة بديع الزمان وتمكنه من ناصية القول .

وإننا لنرى أسلوب هذه المقامة قد تنوع بين الخبر الذي هو أليق وأنسب ما يكون في مواقف السرد وحكاية الأحداث ، وبين الإنشاء الذي يأتي في مواقف الحوار والسؤال مثل قوله : من أين أقبلت ؟ أين نزلت ؟ كيف حال أبيك ؟ أين ثمن ما أكلت ؟ وقوله في الطلب : هلم إلى البيت ، أفرز لأبي زيد من هذا الشواء ، زن له من تلك الحلواء ، أعمل لرزقك كل حيلة ، لا تقعدن إلى غير ذلك .

كما نرى الخيال قد أدى دورا فعالا في إثارة الشوق ، وتوضيح الأفكار ، وكان من ذلك التشبيه في مثل : جعلها كالكحل سحقاً ، لؤ لؤى الدهن ، يذوب كالصمغ . والاستعارة في مثل : ظفرنا بصيد ، استفزته حمة القرم ، عطفته عاطفة اللقم ، يقمع هذه الصارة . والكناية في : نبت الربيع عل دمنته ، فهذا التعبير كناية عن الموت منذ زمن بعيد .

أما جانب اللفظ فقد نال من الكاتب اهتماما بالغاً ، وحظى من عنايته بقدر كبير ، نرى ذلك في اشتمال النص على السجع الذي يكاد يكون ملتزماً في المقامة كلها ، أو يغاب على أسلوبها ، وقد جاء في بعض التعبيرات مقصودا متكلفا كقوله : اشتهيت الأزاذ ، وأنا ببغداذ — ليس معي عقد ، على نقد — طمع ، ولم يعلم أنه وقع . كما جاء في بعضها الآخر سهلا مقبولا كقوله : متى وافيت ، هلم إلى

البيت ـ السوق أقرب ، وطعامه أطيب ، إلى غير ذلك مما هو غالب على النص . كذلك نـ ـى اشتمال النص على الجناس في ألفاظ غير قليلة مثل : عقد ، نقد ـ حماره ، إزاره ـ البدار ، الصدار . وجاء أيضا الطباق في : أراه ، لا يراني . والمقابلة في : أشاب كعهدى أم شاب بعدي ـ رقيق القشر ، كثيف الحشو . وهذه الأنواع من المحسنات ساعدت على وضوح المعنى وطلاوة الأسلوب ، وحسن الوقع في السمع .

وقد أتى الكاتب في المقامة بعدد من الكلمات التي لا تتناولها الألسنة ، ولا تتداولها التعبيرات كثيرا من مثل : الأزاذ ، القرم ، السماق ، الصارة .

وأخيرا فإن الشّعر الذي أنهى به بديع الزمان مقامته على لسان عيسى بن هشام يدعو إلى الكد والسعي والجد في طلب الرزق من أبوابه المشروعة ، وطرقه الشريفة ، وليس كما استدل به الكاتب على عموم العمل والكسب من أي وجه مهما كان حتى ولو لم يتناسب مع الدين الكريم ، والطبع السليم .

مجمل القول في النص:

بديع الزمان الهمذاني عالم لغوي ، وأديب كَتَبَ وشَعَرَ ، إلا أن شهرته في تاريخ الأدب صنعتها له مقاماته التي جعلها فنا أدبياً . والمقامات ظهرت في القرن الرابع الهجري ، وهي حكايات خيالية لها بطل خيالي واسع الحيلة يقوم بأحداثها ، وراوية خيالي يحكي أخبار هذا البطل .. وتصاغ المقامات بأسلوب مصنوع يبدو فيه تكلف الزخرف اللفظي ، وكثرة الصور البيانية ، والقصد إلى استعمال غريب اللغة ، إلى جانب تضمين النص بعض الأمثال والأشعار ، وموضوعها عادة يدور حول استعمال الحيلة ، واللجوء إلى المخادعة في سبيل الحصول على العيش .

وهذا النص الذي درسناه نموذج واضح لفن المقامات ، تتجلى فيه كل الخصائص الفنية لأسلوب المقامة وأهمها حشد الألفاظ اللغوية والإكثار من المحسنات البديعية ، كما يعطى صورة واضحة عن ثقافة الكاتب ، ومقدرته الأدبية ، ويطلعنا على جانب من الحياة اليومية والظروف الاجتماعية للعصر الذي قيل فيه ، ومدى تأثير العناصر غير العربية على القيم والمثل العليا للعرب في ذلك العصر .

مناقشة النص :

1 — كم مشهدا تضمنتها هذه المقامة ؟

2 — لمن رمز الكاتب بشخصية عيسى بن هشام في هذا النص ؟ لخص الحوار الذي دار بين عيسى وبين القروي ، واذكر ما انتهى إليه أمرهما في هذا المشهد .

3 — قص بعبارتك ما حدث في مطعم الشوّاء ، واذكر كيف هرب عيسى بن هشام من القروي .

4 — ما الذي حدث بين الشوّاء وبين القروي ؟ وبم انتهى الأمر بينهما ؟

5 — ما مدى الترابط بين أفكار النص ؟ وما الذي تلحظه في الأسلوب الفني الذي كتبت به ؟

6 — ختمت المقامة ببيتين من الشعر — ما غرض الكاتب من إيرادهما في هذا المجال ؟
وما رأيك فيما اتجه إليه بهما ؟ وضح

7 — هل يمكن اعتبار المقامة فنية ؟ ولماذا ؟ وضح ما ترى .

8 — أدى الخيال دوره في هذه المقامة — استخرج من النص مثالا لكل من التشبيه والاستعارة والكناية ، واشرحه.

9 — ما أبرز الخصائص الفنية في كتابة المقامة ؟

10 ـ اشـرح فقرة من النص ، ثم وضح الفرق بين أسلـوب المقامـة ، وأسلـوبك الذي شرحتـها بـه .

11 ـ المقامـة بصـورتهـا المعروضـة دليل على ثقـافـة الكاتب ومقدرته الأدبيـة ـ اشـرح ذلك .

12 ـ عـلام تدل هذه المقامـة من حياة المجتمـع في العصـر الذي قيلت فيـه ؟

تدريب تطبيقي

المقالة الأدبية :

اكتب مقـالا عن فن المقامـات تضمنـه أهـم ما تميز بـه هذا الفن بين فنـون الأدب ، وتـوضح رأيـك في هذا اللـون الأدبـي .

السؤال الكتـابـي :

من مقامـة بديـع الزمان : « فقلت : هلم إلى البيت نُصبْ غداء ، أو إلى السـوق نشتر شـواء ، والسـوق أقـرب ، وطعامـه أطيب ، (فاستفزته حمة القرم) ، وعطفتـه عاطفـة اللقـم ، وطمع ، ولم يعلم أنـه وقـع ، ثم أتينا شـوّاء يتقاطـر شـواؤه عـرقاً ، (وتتسايـل جـوذاباتـه مرقـاً) . . » .

أ ـ اشـرح ما جـاء بين قوسين في العبارات السـابقـة .

ب ـ « فقلت . . » من القائـل ؟ ومع من يتكلم ؟

جـ ـ استخرج من العبارات السابقـة استعـارة ، ووضحهـا .

د ـ مـا رأيـك في الأسلـوب الذي كتبت بـه العبارة ؟

نموذج آخر من مقامات بديع الزمان

المقامة العلمية :

حدّثنا عيسى بن هشام ، قال : كنتُ في بعض مطارحِ الغربة مجتازًا فإذا أنا برجل يقول لآخر : بِمَ أدركتَ العلمَ ، وهو يجيبه قال :

طَلبْته فوَجَدته بعيدَ المرامِ ، لا يصطاد بالسّهام، ولا يقسمُ بالأزلامِ ، ولا يرى في المنَام ، ولا يضْبَطُ باللجام ، ولا يورّث عَن الأعمام ، ولا يستعارُ من الكرَام ، فتوَسّلْت إليهِ بافتراشِ المدرِ ، واستنادِ الحَجَرِ ، وردّ الضجر ، ورُكوبِ الخطر ، وإدمان السّهر ، واصطحاب السَّفر ، وكثرة النَّظر ، وإعمالِ الفكَر ، ، فوَجدتَهُ شيئاً الا يَصْلح إلا للغَرْس ، ولا يغرَسُ إلا في النَّفس، وصَيدًا لا يَقَعُ إلا في النَّدرِ ، ولا ينشَبُ إلا في الصدر، وطائرًا لا يخدعه إلا قَنَص اللّفظ ، ولا يعلقه إلا شركُ الحِفظ ، فحملته على الرّوح ، وحَبسته على العَيْنِ ، وأنْفَقتُ من العَيش ، وخَزنتُ في القلب ، وحررت بالدّرس ، واسترحت من النظر إلى التحقيق ، ومن التحقيق إلى التعليقِ ، واستعنت في ذلك بالتوفيق.

فسمعت من الكلام ما فتَق السمع ، ووصل إلى القلب ، وتغلغل في الصّدر ، فقلتُ : يا فتى ! ومن أين مطلع هذهِ الشَّمس ؟ فجعل يقول :

إسكندريــــةُ داري   لو قرّ فيها قراري
لكنّ بالشّــام ليلـــي   وبالعـراقِ نهـــاري

ابن العميد

من الرسائل الإخوانية

تعريف وتمهيد :

الكاتب هو الأستاذ الرئيس أبو الفضل محمّد بن الحسين المعروف بابن العميد ، (وكلمة العميد لقب لأبيه)، وهو فارسي الأصل ، ولد في مطلع القرن الرابع الهجري ، ونشأ في بيت أدب وثقافة ، وعلم وكتابة ، فألم بألوان الثقافة التي كانت في عصره إلمام الحافظ لها ، الواعي لضروبها ، المدرك لفنونها حتى استحق أن يسمى بالأستاذ ، ويلقب بالجاحظ الثاني .

وقد عمل كاتباً عظيماً ، ووزيرا أيام الدولة البويهية ، فقد تقلد الوزارة سنة 328 هـ في عهد ركن الدولة بن بويه ، وأوسع مجلسه للعلماء والأدباء والشّعراء ، ومنحهم وأغدق عليهم وظل في وزارة آل بويه حتى اعتلت صحته ، ومات سنة 360 هـ بعد أن خلف طريقة خاصة في الكتابة استحق بها ذلك القول المشهور : بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد .

وكان لابن العميد صديق اسمه أبو عبد الله الطبري ، وكانا يتبادلان الرسائل الدالة على الصداقة والمحبّة والود (وهي من النوع الذي يعرف في الأدب بالرسائل الإخوانية). وهذا النص الذي بين يديك رسالة بعث بها ابن العميد إلى صديقه أبي عبد الله الطبري ردا على رسالة كان قد تلقاها منه

(أ)

كتابي وَأنَا بحالٍ او لم يُنَغِّصها الشَّوقُ إليكَ ، ولم يُرَنِّق صَفْوَهَا النّزُوعُ نحوك ، لَعَدَدْتُهَا من الأحوال الجميلة ، وأعْدَدْتُ حَظِّي منها في النّعمِ الجليلة ، فقد جمعْتُ فيها بين سلامة عامّة ، ونعمة

تـامّة ، وحَظيتُ منهمَا في جسمي بصلاح ، وفي سَعْيي بنجاح ، ولكن ما بَقَى أن يَصْفُوَ لي عيش مع بُعدي عَنْكَ ، ويَخلوَ ذِرْعي مع خُلُوّي منكَ ، ويسوغ لي مطعَمٌ ومشربٌ مع انفرادي دُونَكَ ؛ وكيف أطْمَعُ في ذلك وأنْتَ جُزْءٌ من نَفْسي وَناظمٌ لِشَمْل أنُسي ، وقد حُرِمْتُ رُؤْيتَك ، وعَدِمْتُ مُشاهَدَتَكَ ، وهَلْ تسكن نَفْسٌ مُتَشَعِّبَة ذات انْقسامٍ ، وينفعُ أنسُ بَيْتٍ بلاَ نظَام ،

(ب)

وقدَ قَرأتُ كتَابَك ـ جَعَلني اللهُ تعالى فداءك ـ فَامتلأتُ سُروراً ، بمُلاَحَظَة خَطّكَ ، وتأمّل تَصرُّفكَ في لَفْظكَ ، ومَا أقرظُهُما ، فكُلّ خصَالك مُقَرّظٌ عنْدي ، وما أمْدحُهما فكلّ أمركَ مَمْدوحٌ في ضميري وعَقْدي ، وارجو أن تكونَ حَقيقَةُ أمركَ مُوافقةً لتقديري فيك ، فإن كانَ كذلك وإلاّ فقد غطّى هواك وما ألْقى على بَصَري :

« ابن العميد »

شرح لغوي :

ينغص ، يرنق : يكدر ويعكر . النزوع : الميل . حظيت : فزت وظفرت . يخلو ذرعي : المقصود يفرغ قلبي من الهمّ . يسوغ : يهنأ ويطيب . شمل أنسي : اكتمال سعادتي . بلا نظام : النظام خيط ينظم فيه اللؤلؤ ونحوه ، والمراد هنا تفرق الشّمل . أقرظهما : أمتدحهما . عقدي : عقيدتي . غطى هواك على بصري : حجبت محبتك عني معرفة حقيقة أمرك .

دراسة أدبية :

هذا النص رسالة إخوانية من ذلك النوع الذي يتبادله الأصدقاء وقد ضمنها ابن العميد فكرتين أساسيتين تكونهما معان جزئية أما

الفكـرة الأولى فهي وصف حالـه وأنـه في نعمـة كاملـة وصحـة وافـرة ، إلا أن إحساسـه بالميـل إلى ذلك الصديـق ، وشـوقـه إلى لقائـه ، ورغبتـه في رؤيتـه يكـدر عليـه عيشـه ، ويغض من قيمـة ما هـو فيـه من نعمـة وصلاح ، وأنـه بسبب هذا البعد لا يهنـأ له طعـام ولا شـراب ، وأنى لـه أن يهنـأ ونفسـه مـوزعـة في جسمين متباعدين .

أماالفقـرة الثانية فيعبر فيها لصديقه عن سروره بما لاحظ في الرسالة من خط جميل ، وتعبير أنيق ، وأخيرا يقـول لـه : كـل أمرك في نظـري جميل وممـدوح ، وأرجـو أن تكـون حقيقـة أمـرك مـوافقـة لـرأيـي فيك ، وإلا يكـون حبي لك قد صرفني عن إدراك حقيقـة ما أنت عليـه .

والـرسـالـة على هذا النحـو متسلسلـة الأفكار ، مترابطـة المعاني ، تعبـر في وضوح عن غـرضهـا الذي هـو بث الشّـوق وإظهـار المودة . وعاطفـة الكاتب تبدو صادقـة كل الصدق في التعبير عن الحب الأخـوي ، والشّـوق الـزائـد ، والألـم من البعـاد والفـراق .

ثم إن طـريقـة ابن العميد في الكتـابـة كانت انعكاسا طبيعياً لحياتـه المترفـة التي عاشهـا في ظـلال الإمـارة ، وزخارف الـريـاسـة ، ولذا جاءت كتابته صورة للأسلـوب المنمق المسجوع الحافل بالمحسنات البديعية ، والصور البيانيـة ، مع الميـل إلى الترادف والإطناب ، والعنايـة الفائقـة بتخير الألفاظ ، وهذا الاتجاه كان من نتائج التأثـر الشديد بالطابـع الفـارسي في فن القـول ؛

ومن الـرسـالـة نتبيّن اخـلاص كاتبهـا ، ووفائـه لصديقـه ، وحرصه على أن يكـون في كـل أمـوره مثـلا أعلى للصديق المثالي . وتحمـل الجملة الاعتراضيـة الدعائيـة (جعلني الله فداءك) معنى كـريمـاً يتضمن الحب والـوداد ؛

أما قـول ابن العميد في ختـام الـرسالـة : وإلا فقد غطى هـواك .

وما ألقى على بصري ، فإنه مأخوذ من قول عروة بن أذينة الذي يتغزل فيقول :

قالت وأبثثتها شجوي وبحت به : قد كنت عندي تحب الستر فاستتر
ألست تبصر من حولي ؟ فقلت لها : غطى هواك وما ألقى على بصري

وقد أصبح ابن العميد بتلك الخصائص في كتابته إمام طريقة وأستاذ مدرسة جرى على نهجها ، ونسج على منوالها عدد من الكتاب بعده من أمثال أبي بكر الخوارزمي ، والصاحب بن عباد ، وبديع الزمان ، وقد أطلق على كتابتها (أسلوب السجع والمحسنات) ويقابلها (أسلوب الترسل) الذي عرفته عند ابن المقفع والجاحظ .

وتجدر الإشارة إلى أن اهتمام ابن العميد بالجانب اللفظي لم يصرفه عن الاهتمام بجانب المعنى لكن الأمر تغير بعد ابن العميد فعنى بعض الكتاب بالجانب اللفظي وحده ولو على حساب المعنى ، وهذا الاتجاه كان ذا أثر سيء على أفكار الكتاب وأدبهم . فلا عجب بعد هذا أن يقال : بُدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد .

دراسة بلاغية :

أسلوب هذه الرسالة خبري في معظمه لأن الكاتب كان يصف حاله لصديقه ، ويبين أثر البعاد فيه ، وجاء الأسلوب الإنشائي قليلا كما في مثل : وكيف أطمع . . ؟ وهل تسكن نفس متشعبة . . ؟ والقصد من الاستفهام الأول الإنكار والاستبعاد ، ومن الثاني النفي.

وقد جاءت الرسالة صورة واضحة لطريقة ابن العميد في الكتابة التي يحفل فيها بالتصوير كالتشبيه في مثل : أنت جزء من نفسي ، والاستعارة في مثل : ينغصها الشوق – يصفو لي عيش . والكناية في مثل : يخلو ذرعي مع خلوى منك – غطى هواك على بصري .

وتقوم طريقة الكاتب أيضاً على الاهتمام بالسجع وتوافق أواخر الجمل مثل : الأحوال الجميلة ، والنعم الجليلة — سلامة عامة ، نعمة تامة — بصلاح ، بنجاح — نفسي ، أنسي وعني الكاتب أيضاً بالجناس مثل : الجميلة، الجليلة — عامة ، تامة .

وهذه الألوان البديعية أعانت الكاتب على نقل إحساسه في تعبير أنيق ، حسن الوقع والموسيقى .

وكذلك مال ابن العميد إلى الترادف والإطناب في مثل: لم يُنَغَّص لم يرنق يصفو لي عيش ، يخلو ذرعي ، يسوغ لي مطعم ومشرب — ما أقرظهما و ما أمدحهما .

وهكذا يمكننا القول بأن طريقة ابن العميد التي لاحظناها في هذا النص كانت تقوم على أساس الاهتمام الكبير ، والعناية الفائقة بجانب الألفاظ التي يتأنق في اختيارها ، ويتأنى في نظمها وتنسيقها ، ويجعلها دالة على معناها ، مؤثرة بموسيقاها .

مجمل القول في النص :

الأستاذ الرئيس ابن العميد زعيم كتاب العصر العباسي الثاني ، كان لسعة ثقافته ، وترف معيشته أثر في توجيه كتابته ، وإخراجها على طريقة أعجبت الكتاب فقلدوه فيها ، وإن ملامح هذه الطّريقة وخصائصها لتتضح لنا في رسالته هذه التي تعتمد على وضوح الفكرة ، وصدق الشّعور ، وحسن التصوير ، والإكثار من السجع ، والاهتمام بالمحسنات البديعية ، والميل إلى الترادف ، والتأنق في اختيار الألفاظ وجودة السبك والتركيب .

ولكن بعض الكتاب الذين قلدوا طريقة ابن العميد في عصور تلت لم يكونوا في مثل ثقافته ومهارته ، فانحطت لذلك أساليبهم ، وأصبحت كتابتهم مجرد سبك للألفاظ دون اهتمام بالمعنى القوي ، والفكرة المبتكرة .

مناقشة النص :

1 — من أي أنواع الرسائل هذا النص ؟ ولماذا ؟

2 — عم يتحدث الكاتب في الفقرة (أ) من الرسالة ؟

3 — كيف وضح ابن العميد منزلة صديقه عنده ، وما عبارات النص التي تتضمن ذلك ؟

4 — ماذا تضمنت الفقرة (ب) من النص ؟

5 — كانت هذه الرسالة ردا من الكاتب على رسالة وردت إليه من صديقه — فمن أين تفهم ذلك ؟

6 — ما الذي أعجب الكاتب من رسالة ذلك الصديق ؟

7 — (كيف أطمع في ذلك ؟ هل تسكن نفس متشعبة . . ؟) ما الغرض البلاغي من الاستفهام في كل من العبارتين ؟

8 — وضح الصورة البيانية في قوله : (لم يرنق صفوها النزوع نحوك) وبين قيمتها الفنية .

9 — تبدو في الرسالة عناية الكاتب بالجانب اللفظي — اشرح ذلك مستشهدا من النص .

10 — عبرت ألفاظ الكاتب عن إحساسه ، وأبانت عن عواطفه ، وضح ذلك ، واستدل لما تقول .

11 — ما أهم الخصائص الفنية التي تقوم عليها طريقة ابن العميد في كتابته؟

12 — كانت كتابة ابن العميد انعكاساً لحياته ، وصورة للبيئة التي يعيش فيها — وضح ذلك .

13 — اشتملت رسالة ابن العميد على فكرتين أساسيتين — حددهما ، وضع لكل منهما عنوانا مناسباً .

تدريب تطبيقي

المقالة الأدبية :

اكتب رسالة إلى صديق لك طال غيابه عنك ، واشتد بك الشّوق إليه ؛

السؤال الكتابي:

وازن بين أسلوب ابن المقفّع ، وأسلوب ابن العميد في الكتابة.

نموذج آخر من أدب ابن العميد

كتابه إلى بعض إخوانه جواباً عن كتاب ورد إليه

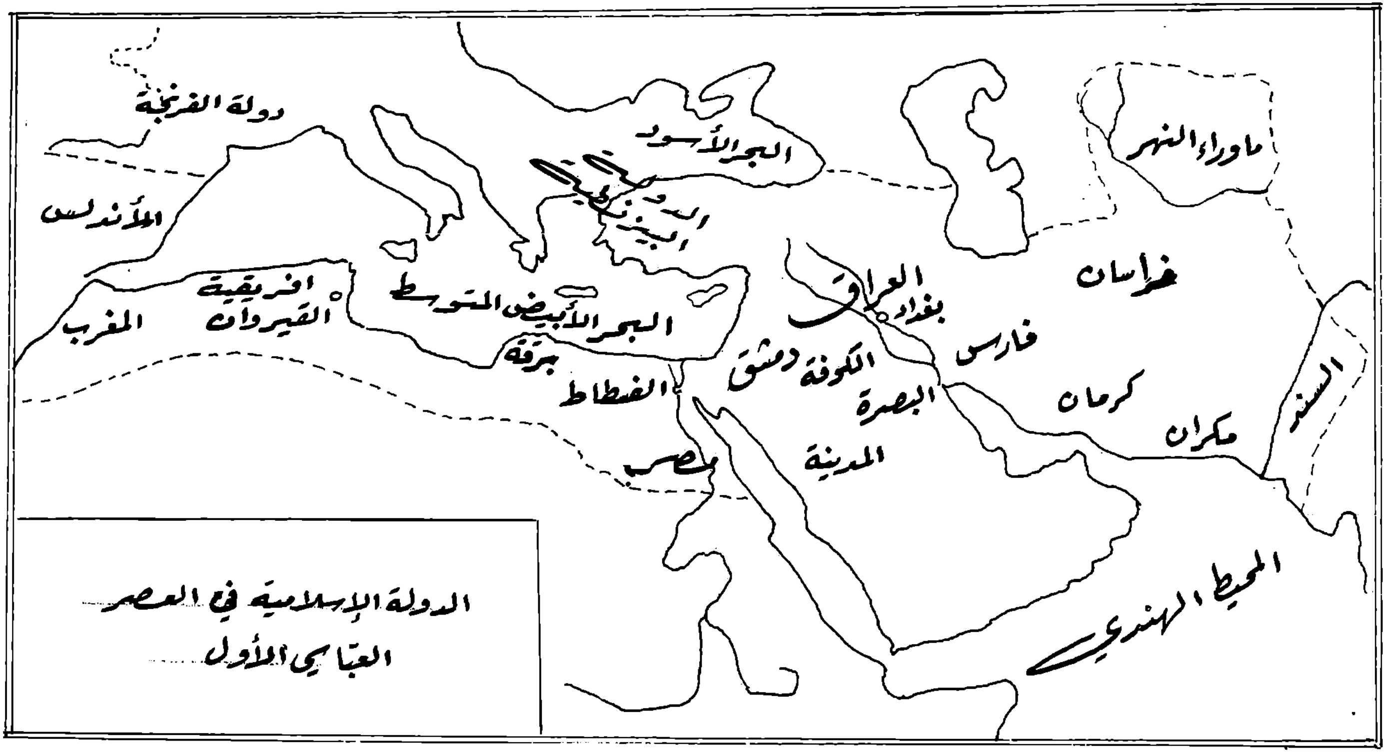
وصلَ ما وصلْتني به جعلني الله فداك من كتابك ، بل نعمَتك التّامَة ، ومنّتك العامة ، فقرّت عيني بورُوده ، وشُغفَتْ نَفْسي بوفوده ، ونَشَرْته فَحكى نَسيم الرِّياض غِبَّ المطر ، وتنفّس الأنوارِ في السَّحر ، وتأمّلتُ مُفتتَحَهُ وما اشتمل عليه من لَطائِف كَلِمِكَ ، وبدائع حكَمك ، فوجدْته قد تحمّل من فُنُون البرّ عنْك ، وضروب الفَضْلِ منك ، جدّا وهزلاً ، ملأَ عيني ، وعمّرَ قلبي ، وغلبَ فكْري ، وبهرَ لُبِّي ، فبقيتُ لا أدْري : أسمُوطُ دُرّ خصصْتني بها ، أم عُقودُ جَوْهرٍ منحْتنيها ؟ كما لا أدْري : أبكرًا زففْتها فيه ، أم روضةً جهزتها منه ؟ ولا أدري : أخُدُودٌ ضُرّجتْ حياءً ضُمّنته ، أم نجوماً طَلعتْ عشاءً أوْدعتَهُ ؟ ولا أدري : أجِدّكَ أبْلغُ وألطفُ ، أم هزْلُكَ أرْفَعُ وأظرَفُ ، وأنا أوكّلُ بتتبع ما انطوى عليه نفساً لا ترى الحظّ إلا ما اقتنته منه ، ولا تَعُدّ الفضلَ إلا فيما أخذته عنه ، وأمتّع بتأمّله عيناً لا تقرّ إلا بمثله ، مما يصدر عن يدك ، ويَردُ منْ عندك ، وأعطيه نظرًا لا يملُّهُ ، وطَرْفاً لا يطرف دونه ، وأجعله مثالاً أرتسمهُ وأجتذبه ، وأمتّع خُلقي برونقه ، وأغذّي نفسي ببهجته ، وأمزِجُ قريحتي برقّته ، وأشرحُ صدري بقراءته ، ولئن كنتُ عن تحصيل ما قلته عاجزًا ، وفي تعديد ما ذكرته متخلّفاً ، لَقد عرفْتُ أنه ما سمعتُ به من السِّحْر الحلال .

الشعر والنثر

في

العصر العباسي

132 – 656 هـ



الدولة الإسلامية في العصر العباسي الأول


دويلات الدولة العباسية
البحر الأسود
الصين
بخارى
جرجان
الدولة السامانية
الدولة السلجوقية
الدولة الحمدانية
حلب
الموصل
البحر المتوسط
دمشق
الشام
الدولة الفاطمية
القاهرة
مصر
الدولة البويهية
بغداد
العراق
الكوفة
البصرة
بلاد فارس
كابل
الدولة الغزنوية
السند
الهند
الخليج العربي
نجد
المدينة
مكة
جزيرة العرب
البحر الأحمر

أولا - الشعر

أ ـ الشعر في العصر العباسي الأول

(132 هـ ـ 334 هـ)

1 ـ تمهيد :

نهض الشعر العربي في العصر العباسي نهضة لم يعرف مثلها في جميع العصور ، وقد كانت تلك النهضة العظيمة حصيلة لعوامل شتى أهمها :

1) تطور الحياة الاجتماعية للعرب والمسلمين وانتقالها من البداوة إلى الحضارة بسبب ما أفاءه الله عليهم من خير وفير في البلدان التي أظلتها راية الإسلام ، وكذلك بسبب اختلاطهم بالأمم الأخرى التي سبقتهم في ميادين الحضارة كالفرس والهنود وغيرهم . وقد شمل هذا التطوّر مظاهر الحياة المادية المتمثّلة في أنواع اللباس والرياش ، وفي صنوف الأطعمة ، وفي إنشاء الدور والقصور ، وفي إقامة الحدائق والبرك ، وغير ذلك ، وكان لهذا كله آثار واضحة في شعر العصر .

2) رعاية الخلفاء والأمراء ورجال الدولة للشعر والشعراء ، وإغداق الجوائز الكبيرة عليهم ، فكانت هذه الرعاية مثارا للقرائح والأذهان ، وحافزا لها على الإجادة والإتقان .

3) إزدهار حركة الترجمة والتأليف بفضل تشجيع الخلفاء ، وبذلهم الأموال الطّائلة من أجلها ، وبفضل غنى اللغة العربية ، وقدرتها على احتواء تلك الثقافات العديدة التي ترجمت إليها ، والتعبير عنها بمرونة وكفاءة تلائمان روح العصر ، وطبيعة الثقافات التي استبحرت فيه .

4) جهود الأدباء والرواة والعلماء والفقهاء ، ممن تركوا إنتاجاً غزيرا متنوّعاً أفاد منه الشعراء أعظم الفائدة ، ولذا وجدنا عددا كبيرا من شعراء العصر يقبل على التأليف ، ويترك آثارا قيمة فيه ، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر أبا تمام ، والبحتري ، وابن المعتز ، والشّريف الرضي ، وأبا العلاء المعرّي(1) .

2 — فنون الشعر في هذا الطور :

تطورت فنون الشعر وأغراضه في العصر العبّاسي الأول تطوّرا ملحوظاً ، وذلك لتطوّر الحياة العامة في جوانبها الاجتماعية والسياسية والثقافية كما رأينا . وقد اتخذ ذلك التطور شكلين بارزين : أولهما تناول الفنون القديمة من غزل ، ومدح ، وهجاء ، وفخر ، ووصف ، ورثاء ، وحكمة . وثانيهما تطور تمخضت عنه فنون جديدة هي الزهد والشعر التعليمي :

أ ـ الفنون القديمة التي تطورت :

سنذكر فيما يلي كلمة موجزة عن الفنون والأغرض القديمة التي مسها التطوّر في هذا العصر :

ـ **الغزل** : ظل الغزل يحتل مطالع القصائد لدى شعراء العصر العباسي الأول ، وكان منه العفيف الذي يعنى بالصفات النفسية كما في غزل ابن العباس الأحنف ، وكان منه المادي الذي يهتم بالصفات الجسدية على تفاوت بين الشعراء في ذكرها ، وقد عرف غزل هذا العصر

(1) ألف أبو تمام كتبا أشهرها كتاب الحماسة . وألف البحتري كتابا سماه الحماسة أيضا . وألف ابن المعتز كتباً أشهرها البديع وطبقات الشعراء . وألف الشريف الرضي كتبا عديدة أشهرها مجازات القرآن ، ومجازات الحديث النبوي ، كما جمع خطب نهج البلاغة . وألف المعري كتبا منها رسالة الغفران ، ورسالة الملائكة ، والفصول والغايات .

ـ **الفخرُ** : يَعْمَدُ الشَّاعر إلى الفخر لإثبات مكانته ، وفرض احترامه بين الناس ، ولكن الفخر لم يعد قبلياً كما كان من قبل ، بل أصبح فردياً يمجّد فيه الشَّاعر نفسه ، وينسب إليها صفات الشجاعة والكرم وعلو النسب وعظمة الشَّاعرية . . واشتهر بالفخر شعراء كبشَّار وأبي تمام ، بيد أن أعظم شعراء الفخر في هذا العصر ، وفي جميع العصور هو أبو الطَّيب المتنبّي ، الذي فخر كثيرا بنفسه، وقدم مدح نفسه على مدح الآخرين ، ومن أمثلة ذلك قوله :

ما بقومي شَرُفْتُ بل شرفُوا بي ... وبنفسي فخرتُ لا بجدودِي
وبهم فخرُ كلّ من نطق الضَّادَ ... وعوذُ الجاني، وغوثُ الطَّريدِ(1)
إن أكن معجباً فعجبُ عجيبٍ ... لم يجد فوقَ نفسه من مزيدِ

وكانت الروح الشّعوبية واضحة في فخر بعض الشّعراء كبشَّار وأبي نواس، وهي روح جاهلية منافية للإسلام ، لأنها قائمة على الغض من شأن العرب ، وهم الذين حملوا مشاعل الهداية والنور إلى العالم .

ـ **الوصف** : كان الوصف من قبل يكاد لا يتجاوز مظاهر الطّبيعة الطبيعية وحدها ، فأصبح في هذا الطور يتعداها إلى مظاهر الحضارة والعمران ، وإلى تصوير مجالس اللهو والغناء ، وقد مر بك شيء من هذا الوصف في أثناء دراستك لأبيات أبي نواس وأشعار البحتري . . وقد برع في الوصف شعراء كثيرون كبشَّار وأبي نواس وأبي تمام والبحتري والمتنبّي ، وكان لكل واحد من هؤلاء ميدانه الذي بذّ فيه أقرانه ، لأسباب من ميوله النفسية ، وظروفه الاجتماعية : فبشَّار أجاد في وصف الحرب وفي وصف الروائح والطّعوم ،

---

(1) الضاد : اللسان العربي : عوذ الجاني : ملجأ من يرتكب جناية أو ذنبا . غوث : إعانة ونجدة . الطريد : من يطارده الآخرون .

وأبو نواس أجاد في وصف الخمرة ووصف مجالس اللهو والشّراب ، وأبو تمّام برّز في وصف الحروب ، وجمال الطّبيعة ، والبحتري أصبح شاعر الطيف والقصور ، وابن الرومي أجاد في تصوير الحياة الاجتماعية ، ولا سيما حياة الفئات الشعبية الكادحة . وأما أبو الطيب المتنبّي فهو شاعر الملاحم والبطولة الذي لا يبارى . . وقد مرت بك نماذج لهؤلاء جميعاً ، وهاك نموذجاً آخر من هذا الوصف الجديد لابن الرومي في وصف حمّال أعمى :

رأيتُ حمّالا مبينَ العَمَى ... يعثرُ في الأكم وفي الوهدِ (1)
مُحتَمِلاً ثقْلاً على رأسِه ... تَضعُفُ عنهُ قُوةُ الجَلْدِ (2)
بينَ جِمالاتٍ وأشْبَاهِها ... من بَشَرٍ نَامُوا عَنِ المَجْدِ (3)
وكلّهم يَصْدمُهُ عامداً ... أوتائه اللبّ بلا عَمْدِ (4)
والبائس المسكينُ مُسْتَسْلِمُ ... أذلّ للمكروهِ مِنْ عَبْدِ
وما اشتهى ذاك ، ولكنّهُ ... فرّ من اللّؤْمِ إلى الْجَهْدِ (5)
فرّ إلى الحَمْل ، على ضَعْفِه ... من كَلَحاتِ المكثر الوغْدِ (6)

— **الرثاء** : كان بعضه عاطفياً مؤثرا يندفع إليه الشّاعر بعامل الحزن على المرثي ، والوفاء لذكراه ، ومن هذا النوع رثاء أبي تمام لوالديه ، ورثاء ابن الرومي لأولاده الثلاثة ، ويتميز هذا الرثاء بعمق العاطفة وصدقها ، وعفوية الأسلوب وابتعاده عن تكلف زخارف البديع والبيان . .

---

(1) مبين العمى : ظاهر العمى . الأكم : جمع أكة وهي المكان المرتفع. الوهد : جمع وهدة وهي المكان المنخفض . — (2) الجلد : الرجل القوي . — (3) جمالات : جمع جمل . (4) اللبّ : العقل . — (5) اللؤم : البخل الشديد والحرمان . الجهد : التعب والمشقة. — (6) كلحات جمع كلحة وهي عبوس الوجه المكثر : الغني ذو المال الكثير . الوغد : اللئيم .

وكان بعضه الآخر رثاء مناسبات ، أو رثاء مجاملة ، ينظمه الشاعر إكراماً للأحياء من أقارب ، وطمعاً في رضاهم ، ولذا غلب العقل على العاطفة في هذا النوع من الرثاء ، فاندفع الشاعر إلى الإكثار من الحكم ، والمبالغة في تعداد مناقب الفقيد ، وفي استخدام أساليب البيان والبديع لستر الضعف العاطفي ، ومن أمثلة هذا النوع رثاء المتنبّي لولد سيف الدولة الذي مر بك من قبل ، ويعتبر أبو تمام وابن الرومي من أشهر شعراء هذا الفنّ .

– **الحكمة** : كانت الحكمة فيما مضى خطرات فكر يهتدي إليها الشّاعر بتأملاته وتجاربه ، فأصبحت في العصر العبّاسي ثمرة لتلك التأمّلات والتجارب ، ولعامل آخر جديد هو عامل الثقافة الواسعة التي تشمل الدين والفلسفة والمنطق وحقائق العلوم الأخرى . وقد تجلت هذه الثقافة في حكم شعراء العصر ولا سيما عند حكيميه المشهورين أبي تمام والمتنبّي . وكانت الحكمة ترد في ثنايا الأغراض الشعرية ، وخاصة في الرثاء والمدح ، والزهد ، وكانت أحياناً ترد على شكل قصائد مستقلة كأرجوزة أبي العتاهية التي بلغت أربعة آلاف بيت ، وتعرف بذات الأمثال ، وقد بقي منها أربعمائة بيت وضاع الباقي ، ومنها قوله :

حسبكَ مما تبتغيه القُوتُ ما أكثر القوتَ لمن يموتُ ! (1)
ما انتفع المرءُ بمثل عقلهِ وخيرُ ذخر المرء حُسْنُ فعلهِ

ب – الفنون الجديدة التي ظهرت في هذا العصر

– **شعر الزهد** : وهو الشعر الذي يدعو أصحابه الناس إلى الزهد في الدنيا لأنها دار فناء ، والعمل للآخرة وحدها لأنها دار بقاء ، وكان ظهور هذا النوع من الشعر بمثابة رد فعل لتيار من

---

(1) حسبك : كافيك . القوت : الطعام .

اللهـو والمجـون جـرف الكثير من أبناء ذلك العصـر ، فقـام نفـر من أصحـاب الـورع ، أو ممن تـابـوا إلى الله يذكّـرون القـوم بالآخـرة ويدعـونهـم إلى الإعـراض عن متع الدنيـا الـزائلـة ، وشتهـر في ذلك جمـاعـة على رأسهـا أبـو العتـاهيـة ، وأبـو نـواس بعد تـوبتـه إلى الله . وقـد سبق أن أشـرنـا إلى ذات الأمثال لأبـي العتاهيـة ، وهـي من أشهـر قصائـده في الـزهـد ، ولـه كذلك في الـزهد أشعار كثيرة كقـولـه :

أرى الدنيـا لمن هي في يديـــــه   عذاباً كُلَّمَـا كثرت لـديــــه
تُهينُ المكـرميـنَ لَهَـا بِصُغْـرٍ   وتُكْـرِمُ كُلّ من هَانَتْ عليه(1)
إذا استْغنيْتَ عن شيءٍ فَـدعْــهُ   وخُذْ ما أنْتَ محتـاجٌ إليــهِ(2)

ومن أجمـل أشعـار الـزهد قـول أبـي نـواس بعـد تـوبتــه :

دَبَّ فِيَّ السَّقَامُ سُفْـلاً وعُلْـوا   وأراني أموتُ عُضْوًا فعُضْـوا(3)
ليس تـمضي من لحظـةٍ بـي إلاَّ   نقصتني بمـرّهـا فِيَّ جُـزْوَا(4)
ذهبتْ جِدّتـي بحـاجـة نفسـي   وتذكّـرتُ طـاعـةَ الله نِضْـوَا(5)
قد أسأنـا كُلَّ الإسَـاءة ، فاللهُـمَّ   صَفْحاً عنَّا ، وغَفْرًا ، وعَفْوَا

ونذكـرك بأن جذور الـزهـد ممتدة في الثقـافة الإسـلاميـة من قبل ، وفي مصـدريهـا الأساسيين ، وهـمـا القـرآن الكـريـم ، والحديث الشريف ، وكذلك في الأقـوال المأثـورة عن الصحـابـة الكـرام ، ولا سيمـا أقـوال الإمـام علي بن أبـي طالب كـرم الله وجهـه ، لكـنّ شعـراء العصـر كأبـي العتاهيـة مثـلاً بالغـوا كثيرا في فكـرة الـزهـد ، فانحرفـوا عن النهج السـوي الـذي رسمتـه الآيــة الـكريمـة « وابتغ فيمـا آتـاك الله الـدار الآخـرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيـا » ، كمـا انحرفـوا عن الدستـور

---

(1) صُغر : ذُلّ : هانت : سقطت قيمتها . (2) دعه : اتركه . — (3) السقام : المرض . — (4) جزوا : أصلها جزءا . — (5) جدتي : قـوتي وشبابي . حاجة نفسي : الميل إلى الشهـوات . نضوا : مهـزولا ، ضعيفاً .

القويم الذي بيّنه الرسول الكريم بقوله صلى الله عليه وسلّم : « اعمَلْ لدنياك كأنّكَ تعيشُ أبدًا ، واعمَل لآخرتك كأنّكَ تموتُ غدًا » ؟

– **الشعر التعليمي** : وهو الشعر الذي يتضمن مسائل العلوم والفنون تسهيلاً لحفظها بعد أن اتسعت في هذا العصر اتساعاً عظيماً. وهكذا نظمت مسائل الفقه والنحو ، والقصص والحكايات ، وغيرها. ومن أمثلة هذا الشّعر قول أبان اللاحقي المتوفى سنة 205 هـ في مستهل نظمه لكتاب كليلة ودمنة الذي كان ابن المقفع قد ترجمه من قبل :

هذا كتابُ أدبٍ ومِحْنَهْ … وهو الذي يُدعى كليله دمْنَهْ
فيه احتيالاتٌ ، وفيه رُشْدُ … وهو كتابٌ وضَعَتْهُ الهِنْدُ
فوصفوا أخبار كلّ عالم … حكايةً عن ألسن البهائمِ

3 – خصائص الشعر في العصر العبّاسي الأول :

ذكرنا جانباً من التطوّر الذي أصاب فنون الشعر وأغراضه في العصر العباسي الأول ، وهانحن نذكر تطوره من حيث المعاني والأفكار ، والأخيلة والأساليب ، والقوافي والأوزان ، وكذلك من حيث خطّة القصيدة أو منهجها العام .

أ – **معاني الشعر** : عرفت فيما مضى أنّ العصر العبّاسي الأول كان عصر ازدهار ثقافي انتشرت فيه العلوم والآداب أعظم انتشار ، فأقبل الشعراء على ألوان المعرفة يعبون منها ، ويؤلفون فيها . وقد انعكست آثار هذه الثقافة الواسعة في معاني الشعر وأفكاره ، فامتازت بالعمق ، والاعتماد على مصطلحات العلوم والفنون ، والاستعانة بالإشارات التاريخيّة والأدبية ، كما رأيت في بائية أبي تمام وسينية البحتري . هذا وقد تفاوتت عناية الشعراء بمعانيهم ، فبعضهم أولاها المحل الأول كأبي تمام وابن الرومي ، وبعضهم أولاها المحل الثاني كالبحتري .

ب ـ **الألفاظ والأساليب** : في العصر العبّاسي مال الشعراء إلى الكلام السّهل الذي يفهمه الناس في غير مشقة ، ذلك أن هؤلاء الناس اعتادوا على خفض العيش فكان لا بد للشعراء من أن يسايروا ذوق العصر ، وطبيعة الحياة التي هبت عليها رياح الحضارة من كل جانب ، ولا سيما فيما يتصل بالغزل والنسيب ووصف الحضارة والعمران . وباختصار فقد تحضرت الحياة في العصر العباسي فتحضر الشعر ، وقلّ استعمال الكلمات الغريبة والمهجورة ، ودخل فيه كثير من الألفاظ الأعجمية والفارسية ، وقد مرّ بك منها في سينية البحتري كلمات منها مثل : الإيوان ، الديباج ، الدمقس وغيرها .

جـ ـ **الأخيلة والصور** : حين يتجاوز الشاعر أسلوب الحقيقة في التعبير عن أفكاره ومعانيه إلى أسلوب المجاز نراه يعتمد في إبراز تلك الأفكار والمعاني على طائفة من الاستعارات والكنايات والتشابيه ، وهو حيناً يستمد هذه الصور من بيئته المادية التي تقع عليها عيناه ، أو ممّا وعته ذاكرته من صور السابقين وأخيلتهم . وفي العصر العباسي تغيرت بيئة الشعر العربي فلم تظلّ ساذجة بسيطة كما كانت في العصر الجاهلي والأموي ، بل أصبحت معقدة تزخر بألوان الحضارة والترف في كل مكان، ولا سيما في قصور الخلفاء والوزراء ، والقادة والوجهاء والأغنياء ، فاستمدّ الشعراء صورهم وأخيلتهم من هذه البيئة الغنية بمشاهدها وألوانها ، ومن هذه الصور المستمدة من الحياة العبّاسية المتحضرة قول البحتري في وصف بركة المتوكّل :

كأنما الفضّة البيضاءُ سائلةً   من السّبائك تجري في مجاريها

فصورة السّبائك الفضية المذابة أخذها الشاعر من بيئة بغداد التي عاش فيها نصف قرن .

وكان الشعراء يخرجون في صورهم ، أحياناً ، عن أسلوب الأقدمين ،

ومن ذلك قول أبي تمام في أحد ممدوحيه :

رقيقُ حواشي الحلم ، لو أنّ حلمَه
يكفيك ما ماريتُ في أنه بُرْدُ(1)

فتشبيه الحلم بالثوب الرقيق الحاشية صورة جديدة أفادها الشاعر من بيئته الحضرية التي عرفت ألواناً مختلفة من الثياب الرقيقة الحواشي ، وهو في هذه الصورة يخالف الشعراء القدامى الذين اعتادوا أن يشبهوا الحلم بالجبال لا بحواشي الثياب ، كقول الفرزدق في بعض أشعاره : أحلامنا تزن الجبال رزانةً . .

ثم إن فشو الترف ، واعتماد الناس على المبالغة في كلّ شيء جعل الشعراء لا يهتمون بصور البيان وحدها ، بل دفعهم إلى العناية بصنوف البديع ولا سيما الطباق ، والجناس ، والترصيع ، . . وكان بعض الشعراء يبالغ في أخذه بأساليب الصنعة كأبي تمام ، وكان بعضهم الآخر يقتصد في تلك الأساليب كالبحتري وابن الرومي .

د - **منهج القصيدة أو خطّة الشّاعر في بنائها :** للقصيدة العربية خطّة معيّنة قلما يحيد عنها الشعراء ، فهي تبدأ بالغزل ، ثم تصف الطّريق الذي سلكه الشاعر في رحلته إلى الممدوح ، ثم تلخص بعد ذلك إلى الغرض الأساسي ، وهو إما مدح أو هجاء ، أو فخر . . ولم تكد تخرج القصيدة العباسية عن الخطّة السّابقة ، إلا إذا بدأها الشاعر بحكمة مناسبة كما رأينا عند أبي تمام والمتنبّي ، ويلاحظ أن الشّاعر العبّاسي أصبح يهتم في قصيدته بالانتقال من غرض إلى آخر ، فنراه يمهد لهذا الانتقال ، وقلما يثب إليه وثباً كما كان يفعل الشّاعر الجاهلي مستخدماً عبارته التقليدية : دَعْ ذا . . ولكنّ القصيدة العباسية

---

(1) ماريت : شككت .

ظلت مع ذلك تفتقر إلى وحدة الموضوع لأنها كانت تعتمد على وحدة البيت دون وحدة القصيدة .

هـ - **الأوزان والقوافي :** في العصر العبّاسي حدثت ثورة على أوزان الشعر العربي وقوافيه ، وخاف أصحاب الغيرة على هذا الشعر من الضياع ، فوضع الخليل بن أحمد علم العروض لصيانه الشعر من العبث والاختلال .

أما الأوزان فقد آثر الشعراء فيها اختيار الأنواع القصيرة والمجزءة ، وخاصة عندما ينظمون في موضوعات الغناء واللهو الذي انتشر في هذا العصر ، وكثرت مجالسه ، ولكن هذا لا يعني أن الأوزان التقليدية قد اختفت وزالت .

وأما القافية فقد عرفت التنوع والتعدد ، وأكثر ما ظهر ذلك في فن الرّجز ، وفي المزدوج الذي تتغير فيه القافية من بيت إلى آخر كقصيدة أبي العتاهية المعروفة بذات الأمثال ، والتي أوردنا بعض أبياتها من قبل .

ب ـ الشعر في العصر العباسي الثاني

(334 هـ — 656 هـ)

1 — تمهيد :

يطلق اسم العصر العبَّاسي الثاني على الحقبة التاريخية التي امتدت من استيلاء بني بويه على بغداد عام 334 هـ ، وانتهت بسقوط هذه المدينة بيد المغول عام 606 هـ . ويقسم هذا العصر إلى دورين هما : الدور البويهي (334 هـ / 447 هـ) والدور السلجوقي (447 هـ — 656 هـ) وهذا التقسيم أمر اصطلاحي هدفه تسهيل الدراسة ، ولذا لا يجوز أن ينظر إليه على أنه حاجز حقيقي يفصل بين العصور التاريخية فصلا تامّاً ، ويجعل كلاًّ منها مستقلاً عن الآخر كل الاستقلال، ذلك أن حوادث التاريخ والمجتمع كثيرة التشابك والتعقيد ، فهي لا تخلق طفرة ، بل تنشأ عن أسباب قريبة ، أو أو بعيدة ممتدة الجذور في القديم . فالمتنبّي مثلا (303 هـ — 354 هـ) أدرك العصرين الأول والثاني ، ولذلك تجد الدارسين يذكرونه في أثناء حديثهم عن خصائص الشعر في كل من العصرين المذكورين .

وإذا كان العصر العبَّاسي الأول هو عصر الترجمة والتأليف وتمازج الثقافات الأجنبية بالثقافة العربية فإن العصر العباسي الثاني هو العصر الذي بلغت فيه تلك الثقافات غاية ما يمكن أن تصل إليه من نضج واكتمال ، ولا سيما القرن الرابع الهجري الذي يعتبره المؤرخون أزهى عصور الأدب العربي قاطبة ، وحسبك أن تعلم أن سماء هذا القرن قد أظلت أعظم شعراء العربية كالمتنبّي والشريف الرضى ، ومهيار الديلمي ، وأبي العلاء المعري ، حسبك أن تعلم ، ذلك لتوقن بصدق ما يقوله أولئك المؤرخون . ويعود ذلك الرقي الذي أصابه الشعر العربي إلى عوامل منها :

أ) النضج الذي بلغته الثقافة العربية الإسلاميةفي هذا العصر ، ولذلك تجد معظم المؤلفات العلمية والأدبية القيمة ألفت فيه :

2) تعدد الحواضر الأدبية ، فلم تعد بغداد وحدها عاصمة للأدب والفكر ، بل أصبح هنالك مراكز أدبية وثقافية أخرى تنافسها مثل حلب في أيام الحمدانيين ، والفسطاط في ظل الإخشيديين ، وشيراز في عهد البويهيين .

3) تشجيع أمراء الدويلات المستقلة لرجال الفكر والفن ، وإغداقهم الجوائز الكبيرة على الشعراء ، لأن هؤلاء الأمراء كانوا يفهمون الشعر ، ويشاركون فيه غالباً .

هذ وقد كان لكل بيئة أدبية طابعها المميز لها : فبيئة الشام غلب عليها شعر الحماسة لأنها كانت مسرحاً للحروب الطاحنة التي جرت بين المسلمين وبين الروم أولا ، بين ثم المسلمين وبين الصليبيين ثانياً ، وبيئة العراق وفارس شاع فيها اللهو والمجون ، وتأثرت بالشعر الفارسي تأثرا واضحاً ظهر في الألفاظ والمعاني ، بل حتى في الأوزان والقوافي . وأما البيئة المصرية فقد غلب عليها وصف الطّبيعة ، كما ظهرت فيها آثار التصرف . وفيما يلي كلمة موجزة عن أغراض الشعر وخصائصه في هذا العصر .

2) فنون الشعر في العصر العبّاسي الثاني .

طرأت على فنون الشعر في هذا العصر تطورات نجملها فيما يلي :

أولاً — بقي الشعراء ينظمون الشعر في الأغراض التقليدية من مدح وهجاء وفخر ورثاء وغير ذلك ، إلاّ أن بعض الفنون الأخرى كالفلسفة والحكمة والشكوى والمجون أصبحت أكثر انتشارا ورواجاً .

ثانياً — أصبحت الحكمة فنّاً يراد لذاته فأخذ يبدو في قصائد مستقلّة بعد أن كان متناثرا في ثنايا الاغراض الأخرى ، وأشهر حكماء العصر المتنبّي وأبو العلاء المعري ، ومن حكم المتنبّي التي جاءت في قصيدة مستقلة قوله :

صَحِبَ الناسُ قبلنا ذا الزمانا وعناهم من أمره ما عنانا (1)
وتولّوا بغُصَّة كلُّهُم منه وإن سَرّ بعضهم أحيانا(2)
رُبَّمَا تُحسنُ الصنيعَ لياليه ولكنْ تكدّرُ الإحْسانا(3)

وكانت معاني الحكمة تتناول أخلاق النَّاس وعلاقاتهم الاجتماعية وتعتمد على الإيجاز وقوة السبك .

أخذ الشعراء يتناولون في أشعارهم كثيرا من القضايا الفلسفية الكبرى ، كقضية وجود الله عز وجل ، وصفاته ، وقضايا الغيب الأخرى كالروح، والبعث ، وعلاقة الإنسان بالقضاء والقدر ، ومصير الإنسان بعد الموت ، وغير ذلك ، وكان بعض الشعراء يمس هذه القضايا مسارقيقاً ، كالمتنبي الذي لخص اختلاف الفلاسفة في مصير النفس الإنسانية بعد موت صاحبها ، فقال :

تخالَفَ الناسُ حتى لا اتفاق لهم
إلا على شَجَبٍ، والخلف في الشَّجَبِ(4)
فقيل : تخلصُ نَفْسُ المرء سالمةً
وقيلَ: تَشْرَكُ جِسْمَ المرءِ في العَطَبِ(5)
ومن تفكّر في الدنيا ومُهجته أقامه الفكرُ بين العجزِ والتَّعبِ

وكان بعضهم الآخر يتوسّعُ في القضايا الفلسفية توسّعاً شديدا حتى ينظم في ذلك ديواناً من الشعر ، كالمعري في ديوانه اللزوميات، ولذا دعي شاعر الفلاسفة ، وفيلسوف الشعراء . ومن أمثلة شعره الفلسفي حديثه عن الذات الإلهية وإيمانه بوجودها ، :

---

(1) عناهم : همهم وشغل بالهم . — (2) غصة : ألم وحسرة . — (3) : الصنيع : الصنع العمل .
(4) شجب : هلاك ، موت . الخلف : الاختلاف . — (5) العطف : الهلاك ، الفناء . —

أثبت لي خالقاً حكيماً ولستُ من مَعشَرٍ نُفَاةِ

وحديثه عن صفات هذه الذات بطريقة الفلاسفة لا الفقهاء المسلمين :

قُلْتُمْ : لنا خالقٌ حكيمٌ قلنا : صدقتم ، كذا نقولُ
زعمتموهُ بلا زمانٍ ولا مكان ، ألا فقولوا :
هذا كلامٌ له خبيءٌ معناهُ : ليستْ لنا عُقُولُ (1)

رابعاً — كثرت الشكوى لدى شعراء العصر كثرة ملحوظة ، والشكوى حديث النفس البشرية عندما تضعف قدرتها عن احتمال الآلام والنوائب ، وعن الصبر على فساد الناس واضطراب الأحوال . وقد طفحت أشعار المتنبّي وأبي فراس والشريف الرضي والمعري شكوى مريرة مؤثرة، وإليك هذه الزفرة التي أطلقها الأمير الأسير أبو فراس الحمداني ، وهو في بلاد الروم يقاسي آلام الأسر ، وجراح الحرب ، وغدر الأصحاب :

مُصابي جليلٌ ، والعزاءُ جميلُ وظنّي بأنّ الله سوف يُديلُ (2)
جراحٌ تحاماها الأساة مخافةً وسُقمان : بادٍ منهما وذخيلُ (3)
وأسرٌ أقاسيه ، وليْلٌ نُجومُهُ أرى كُلّ شيءٍ غَيّرَهُنّ يزولُ
تَطُولُ بيَ السّاعاتُ، وهي قصيرةٌ وفي كلّ دهرٍ لا يسرك طُولُ

---

(1) خبيء : سرّ . يريد المعري بهذه الأبيات الثلاثة أنه يؤمن بوجود الله تعالى وقدمه وحكمته ، ولكنه لايفهم وجوده تعالى مستقلا عن الزمان والمكان إلا إذا ألغى عقله ، لأن الشيء الذي ليس له زمان ومكان معدوم في زعم أبي العلاء ، والحقيقة أنه سبحانه وتعالى غير محدود بزمان ومكان ، وهو قبل الزمان والمكان وبعد هما . لأنه خالقهما ، وهذا رأي عامة فقهاء المسلمين .

(2) جليل : شديد ، ثقيل . العزاء : الصبر . ظني : يقيني . يديل : يفرّج عني وينصرني . —

(3) تحاماها : ابتعد عنها . الأساة : الأطباء .

تناساني الأصحابُ إلا عصابــــةً ستلحَقُ بالأخرى غداً، وتحول(1)
وإنّ الذي يبقَى على العهدِ منهُمُ وإن كثرت دعـواهـُـم لقليــلُ

خامساً ــ تحـوّل شعـر الـزهد إلى تصوف لـه معانيه وأساليبـه ، ولـه مصطلحاتـه وإشاراتـه ، واشتهـر بالتصوف جماعة ، على رأسهـم عُمرو ابن الفارض (تـوفي بمصر عـام 632 هـ) الذي يقـول في احدى قصائده :

زِدْني بفرطِ الحب فيك تَحيّرا وَارْحَمْ حشاً بلظى هواك تَسعّرا(2)
وإذا سألتــكَ أنْ أرَاكَ حَـقيقَــــــةً
فاسمح، ولا تَجْعَلْ جوَابيَ: لَنْ تَرى!..
ولقد خلوتُ مَعَ الحبيبِ، وبيننــا سِـرٌ أرقّ من النَّسيم إذا سَـرى(3)
وأباحَ طرفي نظـرةً أمَّلْتُهـــــا فغـدوتُ معـروفـاً ، وكنتُ منكَّـرا
فدُهشتُ بين جمالـه وجلالــــه وغـدا لسانُ الحال عنّي مُخْبِـرَا

سادسـاً ــ أزدهـر شعـر الحرب في هذا العصر ، لأنه كان عصر صراع بين المسلمين والـروم أولا ، ثمّ بين المسلمين والصليبيين ثانيـاً ، أمـا القصائد التي تصور الحـروب بين العـرب المسلمين والـروم فأشهرهـا قصائد المتنبّي التي قالهـا في مدح سيف الدولـة الحمدانـي وتصويـر بطـولاتـه النادرة ، وقد مـر بـك شيء منهـا :

وأمـا تلك التي تصـور الحـروب التي جـرت إبـان اعتداء الصليبيين ، ووجـودهـم في الشـرق العـربـي (490 هـ ــ 690 هـ) فأشهـرهـا القصائـد التي تصور شجاعـة أبطال المسلمين مثـل عمـاد الدين زنكـي ، وابنـه نـور الدين ، وصلاح الدين الأيـوبـي ، ومن أجـود تلك القصائـد ما قاله ابن القيسـراني في الإشادة بانتصار نـور الدين زنكـي على الصليبيين في حصن آنب قرب مدينـة حلب عام 544 هـ :

---

(1) عصابة : جماعة قليلة . تحـول : تتغير . ــ (2) فرط الحب : شدته . حشا : جوفاً . لظى هواك : نار حبك . تسعـرا : توقد واشتعـل . ــ (3) سرى : سار ليلا ، وهنا هبّ .

هذى العزائم لا ماتدّعي القُضُبُ وذي المكارِمَ لا ماقالتِ الكُتُبُ(1)
وهذه الهممُ اللاّتي متى خُطبت تعثّرت خلفها الأشعار والخُطبُ
صافحتَ يابن عماد الدين ذروتها براحة للمعالي دونها تَعَبُ
ما يومُ آنب والأيامُ دائلةٌ من يوم يَغْرًا بعيدٌ، لا ولا كَثَبُ(2)

ومن القصائد الشّهيرة في الحرب بين المسلمين والروم تلك التي نظمها الشّاعر المعروف بالشّريف الجواني حين استرد صلاح الدين الأيوبي مدينة القدس من أيدي الصليبيين عام 583 هـ قال الشّاعر المذكور :

أترى مناماً ما بعيني أبْصِرُ ؟ القدسُ يُفْتَحُ والفرنْجَةُ تكسَرُ؟
وقُمامة قُمّت من الرجس الذي بزواله ، وزوالها يتطهّرُ (3)
ومليكُهُم في القيد مصفود ولم يُرَ قبلَ ذاكَ لهم مليكٌ يُؤْسَرُ(4)
من كان هذا فتْحُهُ لمحمّدٍ ماذا يُقَالُ لهُ ؟ وماذا يذكَرُ ؟ !

سابعاً – إتجه الشعراء إلى ما يُسَمّى بالإخوانيات ، وهي الأشعار التي يتبادلها الأصدقاء في المدح والشكر والعتاب والتهنئة والتعزية وغير ذلك، ومن أمثلتها قول الصابي مخاطباً الصاحب بن عباد :

لما وضعتُ صحيفتي في ضمن كفّ رَسُولها
قَبّلتُها لتَمَسّها يُمناكَ عند وصولها
وتودّ عيني لو أنّها اقترنت ببعض فصولها
حتّى ترى من وجهك الميمون غايَةَ سُولِهَا

ثامناً – شاعت الفكاهة في هذا العصر ، وشاع معها المجون ،

---

(1) القضب : السيوف ، والمفرد قضيب ، والمقصود أصحاب السيوف أي المحاربون – .
(2) آنب : حصن منيع انتصر فيه نور الدين بن عماد الدين زنكي على الصليبيين ، يوم يفرا : يوم آخر للمسلمين على الصليبيين . كثب : قريب . الأيام دائلة : الأيام : متغيرة ، كثيرة التقلب – (3) قمامة : زبل ، وسخ – (4) مصفود : مقيّد .

أو ما يسمونه بالأدب المكشوف الذي لا يتقيد فيه أصحابه بالاعتبارات الخلقية والاجتماعية ، وجلّى في هذا الميدان جماعة من الشعراء أشهرهم في العراق ابن سكرة ، وابن الحجّاج الذي كان يرى السخف مذهباً لا بد منه للشاعر ، وفي ذلك يقول :

وشعري سخفةٌ لا بدّ منها فقد طبنا وزال الاحتشامُ
وهل دارٌ تكونُ بلا كنيفٍ فيمكنَ عاقلاً فيها المُقَامُ ؟!(1)

وفي الشّام اشتهر الوأواء الدمشقي ، وأبو الرقعمق الذي دعاه أصحابه الماجنون إلى حفلة شراب فاقترح عليهم أن يخيطوا له ثياباً ليتمكن من حضور تلك الحفلة :

أصحابُنا قصدوا الصَّبُوحَ بسحرة فأتى رسُولُهُمُ إليّ خصيصاً (2)
قالوا: اقترحْ شيئاً نُجدْ لكَ طبْخُه قلتُ : اطبخُوا لي جُبَّةً وقميصاً

تاسعاً ــ ومنذ أواخر القرن الرّابع الهجري انصرف الشعراء إلى وصف كلّ شيء ، ولو كان تافهاً ، استجابة لذوق العصر ، فكان بعضهم كالشاعر المأموني يصف جميع أنواع الأطعمة ، وكان آخرون يصفون ما في البيت من أثاث . وأولع نفر منهم بوصف السبحة، والنارجيلة ، والشّمعة، وغير ذلك ، ومن أمثلة هذا الشعر قول السَّريْ الرّفاء :

وباكيةٍ ليلَها كلَّهُ تُحاكي الصَّباحَ بمصبَاحهَا(3)
بصيرة ليّل ، ولكنَّهَا ضَريرتُه عند اصباحها(4)
تَجزُّ لإصلاحها رأسها فإفسادها عند اصلاحها

عاشراً ــ ومنذ مطلع القرن السَّادس الهجري أخذت شمس الشعر العربي تدنو نحو المغيب رويداً رُويداً، فأسرف الشعراء في نظم الأحاجي والألغاز

---

(1) كنيف : مرحاض ، بيت الخلاء . ــ (2) الصبوح : الشرب عند الصباح ، شرب الخمر ــ (3) تحاكي : تشبه. ــ (4) ضريرته: فاقدة البصر يريد أنها مطفأة .

حتى استحال كثير من الشعر إلى عبث فارغ ليس وراءه طائل ، ومن أمثلة هذا الشعر قول ابن الفارض ملغزا في كلمة (ليف) :

ما اسمُ شيء من النبات إذا ما قلبوه وجدتَهُ حيوانا؟

3) – خصائص الشعر في العصر العباسي الثاني :

لم تكن خصائص الشعر الفنية واحدة في هذا العصر ، إذ وجدت فيه فترتان متمايزتان كلّ التمايز :

أ – **الفترة الأولى** ، وتشمل القرنين الرابع والخامس الهجريين ، وفي هذه الفترة بلغ الشعر العربي غاية نضجة واكتماله للأسباب التي ذكرت من قبل، وأشهر شعراء هذه الفترة المتنبّي ، وأبو فراس ، والشّريف الرضى ، وأبو العلاء المعري ومهيار الديلمي . وقد مرت بك من قبل نماذج لبعض هؤلاء الشعراء عرفت منها أن شعرهم يتسم بخصائص فنية جيدة منها عمق المعنى ، وصدق العاطفة ، ومتانة الأسلوب، وسعة الخيال ، وعذوبة الموسيقى .

هذا وقد درست فيما مضى شيئاً من شعر هذه الفترة ، وفيما يلي نماذج أخرى يسيرة تكشف لك عن الخصائص الفنية التي عرضنالها بإيجاز ، وقد آثرنا أن تكون من شعر الحكمة

قال المتنبّي يتحدّث عن حكمة الموت ، ويصور الصراع الدائم بين الأجيال الماضية والآتية ، ويعلل قيمة الفضائل الإنسانية :

سُبِقْنَا إلى الدنيا، ولو عاش غيرُنا مُنعنا بهامن جَيْئةٍ وذُهوبِ (1)
تملّكها الآتي تملّك سالبٍ وفارقها الماضي فِراقَ سليبِ
ولا فضلَ فيها للشجاعة والنّدى وبذل الفتى لولا لقاءُ شعوبِ(2)

---

(1) جيئة : مجيء ، ذهوب : ذهاب . أي منعنا من الحركة لكثرة ما على وجه الأرض من البشر – (2) شعوب : المنية ، الموت (3) لحا الله : قبّح الله. أحشمني : أخجلني . احتشمت : أغضبت . الأدانيا: الأقارب – (4) مكاشفا : مجاهرا بنداوته . مداجيا: مخادعا.

وقال أبو فراس الحمداني يصف الشيب والزمان وما يلاقيه الإنسان منهما :

وقلتُ : الشيبُ أهونُ ما ألاقي   من الدنيا، وأهونُ ما أداري
وكم من زائر بالكره مني   كرهت فراقه بعد المزار

وقال الشَّريف الرضى يشكو خيانة الزمان ، وتنكر الإخوان :

لحا الله دهْراً خانني فيه أهله   وأحشمني حتى احتشمت الأدانيا(1)
فلست أرى إلاّ عدوّاً مُكاشِفاً   ولست أرى إلاّ صديقاً مداجياً(2)

وقال المعري يتناول أصل الإنسان ، ويبين الموقف الذي ينبغي على العاقل أن يقفه من هذا الكون الذي سينتهي إلى الفساد والفناء :

والذي حارت البريةُ فيه   حيوانٌ مستحدثٌ من جمادِ(3)
اللبيبُ اللّبيبُ من ليس يغترّ   بكون مصيرهُ للفسادِ

وقال مهيار الديلمي يذكر تجاربه في الحياة ، ويوضح آثار تلك التجارب في عقله وتفكيره :

بلوتُ هذا الدهرَ أطْوُرَهُ   عليّ طوْراً ، ومعي تارَهْ
وبصَّرتْني كيف أخلاقُهُ   تجاربٌ كَشَّفْنَ أخْبارَه
فصرتُ لا أنكر إحلاءهُ   يوماً، ولا أنْكرُ إمْرارَه

ب ـ الفترة الثانية ، وتشمل القرن السادس ومنتصف القرن السابعْ الهجريين ، ذلك أن الشعر العربي أخذ يضعف شيئاً فشيئاً منذ بداية الحروب الصليبية (عام 490) لأسباب كثيرة منها قلة الحكام الذين يفهمون

---

(1) لحا الله : قبّح الله. أحشمني : أخجلني . احتشمت : أغضبت . الأدانيا : الأقارب ـ
(2) مكاشفا : مجاهرا بعداوته . مداجيا: مخادعا. (3) الحيوان المستحدث من جماد هو الإنسان الذي خلق من ترابه ، والتراب جماد .

الشعر ويكرمون أصحابه ، ومنها غلبة اليأس على النفوس من جراء الاحتلال الصليبي ، وما رافقه من فساد في الأحوال الاجتماعية والثقافية ، فأصبح الشعر سطحي المعاني ، ضيق الخيال ، ضعيف الأسلوب ، غارقاً في قشور الصنعة الثقيلة التي أخمدت أنفاسه أو كادت ، ولهذا لم يستطع شعراء هذه الفترة أن يخلدوا الانتصارات الرائعة التي أحرزها القادة المسلمون على جيوش الصليبيين ، بل إنهم لم يستطيعوا أن يقولوا شيئاً يذكر في مدينة بغداد عندما خربها المغول عام 656 هـ ، كما استطاع ابن الرومي أن يخلد مأساة البصرة عندما نكبها الزّنج عام 257 هـ. وقد مرت بك من قبل أمثلة من شعر الحروب الصليبية ، تحمل في ثناياها مظاهر الضعف التي ذكرناها آنفاً . وإليك فيما يلي هذه الأبيات التي قالها الشاعر شمس الدين محمود الكوفي في رثاء مدينة بغداد التي دمرها المغول عندما سقطت بأيديهم عام 656 هـ

إن لم تُقرِّحْ أدمُعي أجْفَاني ... من بَعْدِ بُعْدِكُمُ فما أجفاني ! (1)
إنسانُ عيني مذ تناءتْ دارُكُمْ ... ماراقه نظر إلى انسان ! (2)
يا ليتني قد مِتّ يومَ فِراقِكُمْ ... ولساعةِ التوديعِ لا أحياني

ولا شك في أنك لمست التكلف الشديد في هذه الأبيات ، وأن حشد ألوان الجناس بين (أجفاني) الأولى و(أجفاني) الثانية ، والجناس بين كلمة (بَعد) و(بُعْد) ، و(إنسان) العين ، والإنسان الذي هو واحد الناس ، والطّباق بين (مِتّ) وبين (أحياني).

والخلاصة أن الشعر العربي قد مُني بالضعف منذ أواخر القرن الخامس الهجري للأسباب التي قد مناها ، وكان هذا الضعف يزداد قرنا بعد

(1) تقرح : تجرح من البكاء ، أجفاني الأول جمع جفن وهو غطاء العين ، وأجفاني الثانية فعل ماض الإنشاء وهو من الجفاء بمعنى قسوة القلب ، وبين الكلمتين جناس .
(2) إنسان العين : هو منطقة الرؤية منها ، راقه : أعجبه . إنسان : واحد الناس . وبين الكلمتين جناس .

قرن ، وقد بلغت كارثة هذا الشعر أقصاها فيما يسمونه بعصور الانحطاط ، وهي العصور التي امتدت من سقوط بغداد عام 656 هـ ، وانتهت عام 932 هـ ، فأصبح الشعر فيها أشبه شيء بالآنية الفارغة : ظهرا زاهيا ، وبطناً خاوياً ، ولم تدبّ فيه الحياةُ من جديد إلا فيما يُسمّى بعصر النهضة الحديثة .

ثانيــــا - النثـــــر

أ ــ النثر العباسي في الطــور الأول
(132 ــ 334 هـ)

س/ ما أهــم فنــون النثر في العصر العباسي (الطور الأول) ؟ وما عوامل ازدهــارهــا ؟

ج/ اشتهــر من نثر العصر العباسي (الطور الاول) نوعان: الكتابة ، والخطابة

أ ــ الكتــابــة :

عـوامـل ازدهـارهـا : أهم الأسباب التي تعاونت على النهوض بالكتابة هي :

1) الاستعانـة بحفظ القرآن الكـريـم ، والحديث الشّـريف ، وخطب النَّبي صلى الله عليه وسلّـم والخلفـاء الـراشديـن ، وبخاصـَّة خطب الإمـام علي كـرم الله وجهـه .

2) تشجيع الخلفاء العباسيين ، وعلـوّ مكانـة الكتّاب عندهـم ، ووصول بعضهم إلى مـرتبـة الـوزارة وقد أفسح ذلك المجال لمن أراد الارتقـاء في هذا الميدان .

3) كان للثقـافـة الأجنبيـة أثـرهـا ، فقد انتشرت العلـوم والمعـارف مترجمـة وغير مترجمـة ، وقد تـرجـم ابن المقفّع وغيره في أول هذا العصـر عددا من كتب الأدب الفارسي واليونـاني، وكان لـذلك أثره في اختيار الكتاب لمعانيهم وأساليبهم .

فنـونهـا الأدبيـة

تعددت فنون الكتابة الأدبية، وتنوعت، وانقسمت إلى خمسة أنـواع :

1) **النثر القصصي** : ازدهـر الفن في العصر الإسـلامي في ظل القصص القـرآني الذي أفاد منـه الكتّاب ، وفي العصـر العباسي (الطور الاول) تأثـر الأدب العربـي بما نقل إليـه من قصص (كليلـة ودمنـة) ، وبمـا

كتب الجاحظ من حكايات ونوادر عن البخلاء . وفي ترجمة الجاحظ نموذج لذلك اللون من النثر .

2) **النثر الاجتماعي** : شاع هذا اللون من النثر في العصر العباسي على يد أمثال ابن المقفع ، ومن أغراض هذا النثر توجيه المجتمعات ، وعلاج مشكلاتها ، وإسداء النصح لها بالحث على الفضائل والتمسك بالمبادىء العالية . وقد مر بك نموذج لذلك في (وصف الصديق) لابن المقفع .

3) **الرسائل الإخوانية** : تكتب في غرض شخصي ، ويتبادلها الأصدقاء فيما بينهم ، ومن موضوعاتها الشوق والعتاب والتهنئة والتعزية وغير ذلك .

4) **الرسائل الديوانية** : تكتب في غرض رسمي لتسيير شئون الدولة ، وتصدر عن الحكّام والولاة لتوطيد دعائم الحكم ، ومعالجة المشكلات ، وتصور الرسائل الديوانية الحياة الاجتماعية في ذلك العصر ، وما كان يعتريها من ثورات . ومن أمثلتها رسالة (عمر بن مسعدة) التي كتبها على لسان الخليفة العباسي (المأمون) إلى (نصر بن شبث) الثائر على المأمون ، وفي ختامها يقول مهددا إياه : « فوعالم السر والجهر لئن لم تكن للطّاعة مراجعاً ، وبها خانعاً ، لتستوبلن وخم العاقبة ، ثم لأبدأن بك قبل كل عمل ، فإن قرون الشيطان إذا لم تقطع كانت فتنة في الأرض وفسادا كبيرا ، وقد أعذر من أنذر ، والسلام ».

5) **التوقيعات** : شاعت في العصر العباسي الأول ، وقد دعت إليها السرعة في انجاز الأمور ، وتصريف شئون الناس ، كما أن العصر كان عصر ازدهار لغوي وأدبي . وتمتاز التوقيعات بالإيجاز القائم على قُوة التعبير ، ولطف الإشارة ، وجمال التصوير . ومن أمثلتها :

أ ـ وقع الرشيد إلى والي خراسان ، وقد تذمر منه الناس : « داو جرحــك لا يتســع » .

ب ـ ووقــع أيضا في ظـروف القضاء على البـرامكـة الذين كانـوا وزراءه : « أنبتتهم الطّاعـة ، وحصدتهـم المعصيـة » .

جـ ـ ووقـع المأمـون في شأن أحد ولاتـه الذين كثرت الشكـوى منهـم : « قد كثر شاكـوك ، وقـلّ شـاكـروك ، فـإمّـا اعتدلت ، وامـا اعتـزلـت » .

س / ما مذاهب النثر فـي الطـور الأل العباسي ؟

ج) تعددت مذاهب النثر الأدبـي في هذا العصـر ، وبلغت الكتابـة الأدبيـة غايـة رفيعـة ، وإليـك مـوجـزا لأهـم الطـرق الكتـابيـة التي شاعت في هذا الطّـور :

طــريقـة ابــن المقفـع : كان اهتمـام ابن المقفّـع منصبـا على المعنى فأفكاره واضحـة سهلـة ، ومعـانيـه دقيقـة ، يستخـدم العـلـم والفلسفـة والمنطـق للـوصول إلى النّتائـج والأحكام في سبيـل الاقناع ، وهـو يختار اللفظ ، وينوع العبارة ، ويقلل من السجع ، كمـا يهمـل الألفـاظ الغريبـة والمبتذلــة . وقد سبق أن درستَ لـه نمـوذج ذلك في (وصف الصديق) .

طـريقـة الجاحظ : وينصب اهتمـام الجـاحظ على تحليل المعنى ، واستقصـاء الفكـرة في أسلـوب جـزل واضـح ، ذي جمـل صغيرة متعادلة غالباً ، يحليه السجع غير المتكلف ، كما يميل الجاحظ في كتابته إلى الاستطراد فيكـرر ويطنب ، ويكثر من التـرادف ، ويذكـر كل ما لـه صلـة بموضوعه من أخبار طـريفـة ، وملـح ونـوادر ممتعـة ، كمـا يقتبـس من القرآن الكـريـم ، والحديث الشريف ، وأقـوال أئمـة البيان من شعـراء وأدباء . وتعد طـريقـة الجـاحظ إمتدادا وتطـويـرا لـطريقـة ابن المقفـع .

ب – الخطابـــة .

ازدهـرت الخطابـة في هذا الطـور لاهتمـام الخلفـاء العباسيين بهـا ، واعتمـادهـم عليهـا في تكـوين الدولـة ، وتـوطيـد أركانهـا ، وقـد استخدمـوهـا في الدعـوة إلى الجهـاد ، ومحاربـة الخارجين والثائـرين ، كمـا كـانت عمـادهـم في الترحيب بمقـدم الـوفـود ، وتـوجيـه النـاس وارشادهـم .

ومن أبـرز خطباء هذا العصر أبـو جعفـر المنصـور ، والمهدي ، والـرشيـد ، والمأمـون ، وقائـد جيشـه عبد الله بن طاهـر ، وغيرهـم . وكان من هـؤلاء خطباء بلغاء ، ملكـوا أزِمَّـة الفصاحـة وأساليب البيان ،.

ومن أمثلـة الخطـابـة في هذا العهـد قـول عبد الله بن طاهـر ينصح جنـوده ، ويحرضهـم على قتال نصـر بن شبت وأتباعـه الخارجين على الخليفـة المأمـون :

« . . . فليكـن الصبـر معقلكـم الذي إليـه تلجئـون ، وعـدتكـم التي بهـا تستظهـرون ، فإنـه الـوَزَر المنيع الذي دلكـم الله عليـه ، والجُنَّة الحصينـة التـي أمـركـم الله بلبـاسهـا . غضـوا أبصاركـم ، وأخفتـوا أصواتكـم في مصافكـم ، وامضـوا قُدُمـاً على بصائـركـم ، فارغين إلى ذكـر الله والاستعانـة بـه كمـا أمـركـم الله ، فإنـه يقـول : (إذا لقيتم فئة فاثبتـوا ، وذكـروا الله كثيرا لعلـكم تفلحـون) ، أيدكـم الله بعـز الصبـر ، ووليكـم بالحياطـة والنصـر » (1)

ويـلاحظ في ضوء هذه الفقـرة أن الخطابـة كانت تعتمـد على الترتيب المنطقي في أفكارهـا ، كمـا يستشهد فيهـا بآيـات من القـرآن الكـريـم ، ويستعـان على تقـويـة المعنى بألـوان البيان كالتشبيـه في قـولـه : الصبـر معقلـكم – إنه الـوزر المنيع ، والجُنَّـة الحصينـة . .

---

(1) تستظهـرون : تستعينـون . الـوزر : الحصن القـوي . الجنـة : الـوقـايـة . غضـوا أبصاركم : كفّـوهـا . امضـوا قـدمـا : سيروا إلى الأمام . الحياطـة : الحفظ .

ب ـ النثر العباسي في الطور الثاني (334 ـ 656 هـ)

أ ـ الكتـــابـــــة

س / كيف كانت حال النثر في الطور الثاني من العصر العبّاسي ؟ وما مذاهب النثر التي شاعت في هذا الطور ؟

ج/ حـال النثـر :

تطورت طرق الكتابة الفنية في هذه الفترة ، واهتم الكتّاب بالألفاظ والأساليب فأكثروا من الزينة اللفظية ، والمحسنات البديعية من سجع ، وجناس ، وطباق ، ولم يهتموا بالأفكار والمعاني ، وقد شاع في هذا الطور بعض الاتجاهات الفنية التي برزت في ثلاثة مذاهب :

طريقة ابن العميد : كان ابن العميد زعيم كتاب العصر الثاني العبّاسي ، وكان واسع الثقافة ، يعتمد في كتابته على وضوح أفكاره وصدق شعوره ، والاهتمام بالألوان البيانية ، والإكثار من السجع والمحسنات البديعية ، والميل إلى الترادف ، والتأنق في اختيار الألفاظ ، وجودة السبك والتركيب ، وتضمين كتابته بعض النوادر التاريخية والاستشهاد بالنظم في ثنايا النثر . وقد مر بك دراسة رسالته الإخوانية.

أسلوب المقامات : شاعت المقامات في هذا الطور ، وتعتبر في أسلوبها امتدادا لطريقة ابن العميد الفنية في الكتابة ، ومن خصائصها ، : التزام السجع ، والإسراف في استخدام المحسنات البديعية ، وحشد الغريب من ألفاظ اللغة ، كما تجمع بين الشعر والنثر ، ويبدو فيها التصنع والتكلف ، وإظهار المقدرة اللغوية ، وتعتبر المقامات باعتمادها على الحكاية والحوار من صور القصة العربية التي تطورت على مر

السنين . وقد درست من نثر المقامات المقامة البغدادية لبديع الزمان الهمذاني :

طريقة القاضي الفاضل :

التزم القاضي الفاضل نهج ابن العميد ، ولكنه بالغ في استخدام السجع مهما كان متكلفاً ، وكذلك تطرف في استخدام المحسنات البديعية من طباق وجناس وتورية ، وأهمل في سبيلها المعنى ، ولم تزد الكتابة بعد القاضي الفاضل عن مجرد ألفاظ منمقة ، لا أهمية فيها لفكرة أو إحساس . ومن نثر القاضي الفاضل قوله في رسالة تهنئة باستعادة المسلمين (بيت المقدس) من الصليبيين على يد صلاح الدين الأيوبي :

« نصرنا الله بملائكته المسوّمين ، وأوليائه المؤمنين ، وهذه موهبة مذهبة ، ومنقبة لا تبلغ إلى وصفها بلاغة موجزة ولا مسهبة ، ونوبة ما بعدها للإسلام نبوة ، وحظوة في مذاق أهل التقوى والمغفرة حلوة ، وبشرى تجلو الوجوه ببشرها ، وتطوع مهاب المحاب بنشرها ، ويعرف أهل الشّرق والغرب سجال غربها . . » (1).

ب ـ الخطابة

انحدرت الخطابة في هذا الطور لعدم الحاجة إليها بعد استقرار الدولة ، وكذلك نتيجة لجمود القرائح ، وكانت كثرة المسئولين في الدولة من الترك مما أضعف شأن الخطابة ، وجعلها مقصورة على المناسبات الدينية كالجمعة والعيدين ، وقد سد مسد الخطابة كتابة الرسائل والمنشورات ، ولم يسجل التاريخ إلا العدد القليل من خطباء هذا الطور كالخطيب التبريزي ، والخطيب البغدادي ، وبعض الخلفاء كالمعتصم العبّاسي .

(1) المسومين : المعلمين بعلامات تميزهم . مذهبة : غالية كالذهب . منقبة : مفخرة . النبوة : من نبا ينبو السيف إذا لم يقطع ، والمراد أن المسلمين لن يخذلوا بعدها . تضوع : تفوح . المهاب : مواضع الهبوب . المحاب : الأماكن المحبوبة . النشر : الرائحة الزكية . سجال غربها : السجال هنا المساجلة ، والغرب : الدلو العظيمة ، والمراد أنهم يعرفون قوتها ، وفيض عطائها .

لمحة تاريخية

عن

بلاد الأندلس

92 - 898 هـ



خريطة الأندلس

بلاد الأندلس

موضوعات البحث

بلاد الأندلس وحياتها السياسية — الطبيعة الأندلسية

الحياة الاجتماعية — الحياة العقلية والفكرية

بلاد الأندلس وحياتها السياسية

كان يطلق اسم بلاد الأندلس على مساحة كبيرة مما يعرف في تاريخنا المعاصر باسبانيا والبرتغال ، وهي عبارة عن شبه جزيرة يقع في الجنوب المغربي من أربا ، وكانت قديما تسمى جزيرة (الوندال) ، والوندال هم قبائل غزت بلاد إسبانيا في القرن الخامس للميلاد ، وأطلق اسمهم على المنطقة التي احتلوها ، فلما جاء الفتح العربي سنة 92 هـ / 711 م على يد (طارق بن زياد) أخذ العرب من كلمة وندال كلمة (أندلس) وأطلقوا اسم الأندلس على جميع البلاد التي فتحوها.

وقد حكم العرب بلاد الأندلس أكثر من ثمانية قرون ، وتولى الحكم فيها سلالات متعددة ، وكانت مراحل الحكم خلال الفترة كما يلي :

1) **عهد الولاة (92 / 138 هـ)** وقد بدأ هذا العهد بولاية طارق بن زياد ، وانتهى بيوسف بن عبد الرحمان الفهري . وفي هذا العهد كان الولاة يحكمون البلاد باسم الخلفاء الأمويين في دمشق .

2) **العهد الأموى (138 / 422 هـ)** وقد بدأ هذا العهد بمؤسس دولة بني أمية في الأندلس عبد الرحمان ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الذي استطاع أن ينجو من بطش العباسيين في الشرق ، وفر إلى الأندلس ، وساعدته الخلافات بين اليمنية والمضرية على ارتقاء عرش قرطبة بمساعدة اليمنية ، ومنذ ذلك الحين نشر عبد الرحمن علم بني أمية ولقب بالداخل ، كما لقبه أيضاً أبو جعفر المنصور بصقر قريش ، وتعاقب

من بعده على عرش الأندلس أبناؤه وحفدته ، وكانت فترة الحكم الأموي أزهى فترة للحكم الإسلامي في الأندلس ، وأرقى مرحلة بلغت فيها النهضة العلمية والأدبية مبلغا عظيماً ، إلا أن الحكام في أواخر هذا العهد دب بينهم الخلاف الذي فرق كلمتهم ، وأضعف قوتهم ، فانقسمت الدولة إلى دويلات صغيرة .

3) **عهد ملوك الطوائف** (403 / 484 هـ) وفي هذا العهد كانت بلاد الأندلس مقسّمة إلى إمارات يحكم كلا منها ملك ، حيث كانت الدولة الزيرية في غرناطة ، والدولة الحمودية في مالقة ، والدولة الهودية في سرقسطة ، والدولة العامرية في بلنسة ، والدولة العبادية في اشبيلية ، دولة بني الأفطس في بطليوس ، ودولة بني جهور في قرطبة . وكانت هذه الإمارات في خصام دائم ، ونزاع مستمر ، واستعانة بالأجانب ضد بعضهم بعضاً ، فأوهن ذلك قوتهم ، وأزال هيبتهم حتى هددهم المرابطون الذين وفدوا من شمال إفريقية وهاجموا البلاد ، وستولوا على تلك الإمارات ، غير أن التنافس الكبير الذي كان بين ملوك الطوائف عاد بالخير في استمرار النهضة الأدبية والعلمية ، وتشجيع الأدباء والعلماء .

4) **عهد المرابطين والموحدين** (484 / 620 هـ) المرابطون هم قبائل صنهاجة التي فتحت المغرب واجتازته إلى بلاد الأندلس فاستولت عليها . والموحدون هم سلالة ملوك من البربر في المغرب غلبوا المرابطين على أمرهم في كل من المغرب والأندلس ، واستولوا على الملك . وفي عهد المرابطين والموحدين تم القضاء على ما كان يسود الأندلس من فوضى واضطراب ، كما أبعد مؤقتاً خطر الأسبان الذي كان لا يفتأ يهدد البلاد . أما اللغة العربية فقد عاشت في هذا العهد غريبة حيرى لا تجد لها نصيرا ولا تعرف لها سبيلاً .

5) **عهد بني الأحمر** (629 / 898 هـ) وبنو الأحمر سلالة إسلامية ملكت غرناطة وجنوبي إسبانيا وفي عهدهم انتعشت اللغة العربية، واستعادت بعض مكانتها ، ولكن بفرار آخر ملوكهم (أبي عبد الله محمد

بن علي) من غرناطة انتهى عهد العرب والعربية بالأندلس التي سقطت في يد (فردينان الخامس) و(إيزابلا) الكاثوليكيين ، وأصبحت البلاد أسبانية.

الطبيعة الأندلسية :

بلاد الأندلس بلاد تربتها خصبة ، وأرضها مزهرة ، وأشجارها مثمرة ، وبها أنهار جارية ، وسفوح جبالها تغص بالزرع والثمار ، وسهولها خضراء ، وقصورها بيضاء ، وحدائقها غناء ، الجو فيها جميل ، والخير فيها وفير . فلا عجب أن تكون بعد الفتح العربي ملهمة الشعراء ، وأيكة البلابل الصداحة من المغنين والمغنيات ، وأن ينعم أهلها برفاهية العيش ، وطيب الحياة .

الحياة الاجتماعية :

لما وجد العرب بعد الفتح ما في بلاد الأندلس من جمال ، وما تفيض به من خيرات هرعوا إلى تلك البلاد ، وامتزجوا بالأسبان ، وتأثروا ببعض عاداتهم وطرق معيشتهم ، ونظام حياتهم ، كما تأثر أهل البلاد بالعرب الوافدين حيث وجدوا فيهم عدلا ورحمة ، ولمسوا منهم كل الشّمائل النبيلة والفضائل الإسلامية الجميلة ، وكان من خير ما أعجب الأسبان أن العرب الفاتحين لم يترفعوا عنهم ، ولم يتعصبوا لجنسهم ، وإنما مدوا للقوط أسباب الاتصال ، ومهدوا الاندماج ، وحرروا أقنان الأرض من العبيد الذين دخلوا في الإسلام ، من العبودية فكان من نتيجة ذلك كله أن تلاقى الطرفان على صداقة ثم على زواج ومصاهرة ، ونشأ جيل عربي جديد يجمع بين صفات العرب وصفات الأروبيين ، وإن كان يتميّز بنوع خاص في التفكير والخيال . وهكذا تكون الشعب الأندلسي الجديد من العرب الفاتحين ومن القبائل المختلفة من سكان البلاد الأصليين . غير أن حقائق التاريخ تشير إلى ان العرب الأندلس ظلوا يتطلعون إلى الشّرق يسيرون على نوره ، ويقلدون حكامه العبّاسيين ، وينافسونهم في كثير من المجالات حتى لقد سموا خلفاءهم وشعراءهم ومدنهم بأسماء خلفاء الشرق وشعرائه ومدنه

وفي هذا المجتمع العربي الأندلسي الجديد شاع الترف واللهو ، وانتشرت مجالس الغناء التي أقبل عليها النّاس إقبالاً عظيماً . وبحكم الموقع الجغرافي لبلاد الأندلس الذي جعل منها صلة بين الشّرق والغرب نهضت فيها التجارات ، وانتشرت في أرجاء البلاد معامل الزجاج والورق والحياكة والصياغة كما شيدت في أنحائها المدن العامرة . والقصور الفخمة ، والمساجد الرائعة ، والحمّامات والبرك والجسور ، وغير ذلك ممّا لا تزال آثاره حتى اليوم شاهدا على ما بلغه أولئك القوم في مضمار الفن وما وصلوا إليه من رقي وحضارة مما كان إلهاما للشّعراء ينطقهم بمحاسنه ، ويوحي إليهم التغنّي بآيات فنه ، وروعة الإبداع فيه.

الحياة العقلية والفكرية

حظيت الأندلس خلال الحكم العربي بحركة فكرية وثقافية راقية بعيدة الأثر ، فقد اقتبس الأندلسيون كثيرا من الثقافة والنواحي الفكرية من العرب في المشرق واهتم الأمراء بإرسال البعثات إلى الشّرق لجلب النفيس من الكتب ، حتى لقد اجتمع في الخزانة الملكية بقرطبة وحدها نحو أربعمائة ألف مجلّد ، كما كانت البلاد تزخر بمعاهد العلم ومجالس العلماء ، ومراكز الإشعاع العقلي في قرطبة واشبيلية وغرناطة وطليطلة وغيرها ، وأقبل النّاس ينهلون العلم والأدب ، فانتشرت الثقافة والمعرفة ، كما وفد الطلاب من أواسط أوروبا على قرطبة يتلقون فيها الحكمة والعلم حتى غدت بلاد الأندلس جسرا يعبر عليه الفكر العربي والثقافة الإسلامية إلى بلاد أوربا . وقد أنجبت الأندلس كثيرا من عظماء المفكرين ، وأجلّة العلماء من أمثال ابن رشد ، وابن حزم ، ومحي الدين بن عربي ، وغيرهم .

على أن هذه النهضة الثقافية العلمية كانت تواكبها نهضة أدبية تقوم على الفطرة العربية الصافية ، والخيال الخصيب ، وعلى المشاهد الجميلة

والمرثيات الرائعة الموحية ، وعلى تشجيع الملوك والأمراء وعنايتهم بالشعر، وإجزال العطايا لرجاله ، وبخاصة زمن خلفاء بني أمية.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أنه إلى جانب قصور الأندلس التي كانت تكتظ بالشعراء والعلماء كانت تقوم قصور الغناء ومجالس اللهو ، وكان لذلك أثره الفعال في تطوّر شكل القصيدة العربيّة ، وظهروها في صورة جديدة عرفت في تاريخ الأدب باسم الموشح .

وإذا كان الأدب الأندلسي يدين في نشأته وتكوينه لأدب المشرق نزحا وتقليدا ومعنى ومضمونا فإن من الحق والإنصاف أن نقول إن الأدب الأندلسي فيما بعد امتزج إلى حد كبير بطبيعة البلاد وحياة أهلها ، وأصبح ذا ميزات خاصة جعلته أدبا مستقلا يعبر عن بيئته ، ويبرر خصائص زمانه ومكانه . وستتضح لك ملامح هذا الأدب وميزاته فيما سنعرضه عليك من نماذج شعره ونثره .

النصـــــــوص الأدبيـة

أولا - من الشعر الأندلسى

ابن هـانـي الأنــدلسي

326 ـ 362 هـ

تعريف وتمهيد :

الشّاعر هو أبو القاسم محمّد بن هانيء الأزدي الأندلسي ، ولد في مدينة إشبيلية سنة 326 هـ ، ونشأ بها في عصر كانت تزخر فيه بالثقافة والحضارة ، فتثقف وتعلّم ، وحاكىٔ والده في نظم الشعر حتى نبغ فيه ، واتصل بحاكم إشبيلية ، ومدحه ، فنال عنده الحظوة إلا أنه اتهم بالزندقة والاستهتار بالعقائد الدينيّة ، والأخذ بمذاهب الفلاسفة ، ولما نقم عليه أهل اشبيلية أوعز إليه الحاكم بترك المدينة إلى حين ، فخرج إلى المغرب ، واتصل بجوهر الصقلّي ، ومدحه ، وساعده الحظ على الاتصال بالمعزّ لدين الله الفاطمي الذي اصطفاه وقربه ، وجعله شاعره ، ولما فتح جوهر مصر إنتقل إليها الخليفة المعزّ ، وبعد مدّة لحق به الشّاعر ، ولكنّه مات في الطّريق سنة 362 هـ . ولما بلغ المعزّ خبر وفاته أسف عليه وحزن ، وقال : « هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يُقدّر لنا ذلك » . ومن آثار ابن هانيء الأدبية ديوان شعر أكثر قصائده في المدح ، وفيه هجاء ووصف ورثاء .

والقصيدة الآتية قالها ابن هانيء يمدح فيها المعزّ لدين الله الفاطمي ، ويصف أسطوله الذي كان في ذلك العهد أقوى أسطول في البحر المتوسط ، والذي انتصر على الروم في معارك كثيرة .

أسطـول المعـز

ـ أ ـ

لك البر والبحر العظيم عبابه	فسيان أغمارٌ تُخاض وبيد
أَمَا والجَواري المنشآتِ التي سَرَتْ	لقد ظاهرتها عُدةٌ وعَديد
قباب كما تُزْجى القباب على المها	ولكنّ مَنْ ضُمَّتْ عليه أسُود

وللهِ مما لا يرون ، كتائبٌ   مسوَّمةٌ تحدو بها وجنود
أطاع لها أن الملائك خلفها   كما وقفت خلفك الصفوف ردود
وأن الرياح الذاريات كتائبٌ   وأن النجوم الطَّالعات سعود

— ب —

وما راع ملك الروم إلاَّ اطِّلاعُها   تُنَشَّرُ أعلامٌ لهَا وبُنُودُ
عليهَا غمام مكفهرّ صبيرُهُ   له بارقاتٌ جَمَّة ورعود
مواخرُ في طامي العُباب كأنّها   لعزمك بأس أو لكفك جُود
أنافَتْ بها أعلامها وسمالها   بناء على غير العَراء مَشيد

— ج —

من الراسيات الشُّمّ لولا انتقالها   فمنهَا قِنانٌ شُمَّخٌ وريود
من الطَّير إلا أنَّهنّ جوارح   فليس لهَا إلا النفوسَ مَصِيدُ
من القادحات النَّار تُضْرَمُ لِلصِّلى   فليس لها يوم اللّقاء خُمُود
إذا زفرتْ غيظاً تَرَامَتْ بمارج   كما شُبّ من نار الجحيم وقود
لها شُعلٌ فوق الغِمارِ كأنّهَا   دِماءٌ تَلَقّتها مَلاحفُ سود

— د —

ألا في سبيل الله تَبْذُلُ كُلّ ما   تَضنّ به الأنْوَاءُ وهي خُمود
فلا غروَ أنْ أعززتَ دينَ مُحمَّدٍ   فأنتَ له دونَ الأنَامِ عقيد

شرح لغوى :

العظيم عبابه : ذو الموج العظيم المتلاطم. سيان : مثلان ، والمفرد سِيٌّ. أغمار : جمع غمر أي كثير. تخاض : تشقّ . بيد : جمع بيدا وهي الصحراء . الجوارى : السفن جمع جارية

المنشآت : التي رفعت قلوعها . ظاهرتها : ساعدتها. عدة : ما أعد لجلب النصر . العديد : الكثير والمقصود كثرة الجند . قباب : جمع قبة وهي ما كان ينصب للنساء فوق الجمال عند نقلهن والمقصود هنا السفن . تزجي : تساق . المها : بقر الوحش ، مفرده مهاة ، والمقصود هنا النساء الجميلات . كتائب : جمع كتيبة وهي الفرقة من الجيش . مسومة : معلمة . تحدو بها : تغنّي لها ، تدفعها . أطاع لها : طوّع لها النصر وأتاحه لها. ردود : جمع ردّ وهو ما يردّ به الخطر . الذاريات : المثيرات الغبار ونحوه . سعود : فيها السّعادة ، أي أنها دلائل الخير والنصر . راع : أخاف وأفزع . اطلاعها : ظهورها. البنود : جمع بند وهو العلم الكبير . غمام مكفهر صبيره : المقصود من الغمام الدخان ، والمكفهرّ الأسود من السحب ، والصبير السحاب الأبيض المجتمع ، والمقصود دخان المقذوفات النارية . بارقات : لامعات . جمّة : كثيرة. مواخر : سفن تقطع البحر ، مفرده ماخرة . طامي العباب : البحر الكثير الماء والموج . بأس : شدة وقوة . أنافت : علت وارتفعت مشيد : مقام ، مبني بالشيد أي الجص . الراسيات الشم : الجبال العالية . قنان : جمع قُنَّة وهي أعلى الجبل . شُمَّخ : جمع شامخة أي عالية . ريود : جمع ريد وهو القطعة البارزة في عرض الجبل . جوارح : الجوارح من الطّير ما يعيش على الصيد وأكل اللحوم . القادحات : المشعلات. تضرم : توقد . الصّلى : مقاساة حرّ النّار ، الإحراق ، خمود : انطفاء. زفرت : أخرجت نفسا طويلا حارا . ترامت : رمت وطرحت . المارج : الشعلة من النّار ذات اللهب الشديد . شبّ : أشعل . الغمار : المياه الكثيرة. ملاحف : جمع ملحفة وهي ما تلتحف به المرأة من ملاءة ونحوها. تضنّ : تبخل . الأنوْء : جمع نوْء وهو المطر . لا غرو : لا عجب . أعززت دين محمّد : ناصرت الإسلام وجعلته عزيزًا مكرما . عقيد : معاهد نفسك على نصرته .

إيضاح وتحليل :

في أبيات المجموعة (أ) يخاطب الشّاعر الخليفة المعزّ ، ويمدحه بالقوّة والسيطرة على البرّ والبحر ، وأنه بهذه القوة قد أصبح في حصن الأمان لا يبالي قطع البحار أو طيّ القفار ، ثمّ يتجه الشّاعر إلى إظهار قوة المعزّ البحرية منبها إلى ذلك بكلمة (أمّا) ومقسماً بالسّفن العظيمة السّريعة على أن هذه السّفن قد أعدها المعزّ ، وأمدها بما يحتاج إليه النصر من أدوات وسلاح وجند ، ثمّ إن سفن هذا الأسطول مرتفعات كأنها القباب ، وحين تساق تبدو كهوادج النّساء الجميلات التي تساق إلى مقاصدهنّ ، غير أن هذه القباب تحتها رجال كالأسود الغضاب ، وقد أمد الله هذا الأسطول بالتأييد والقوة ، وأرسل لهذه السفن من ملائكته جندا مدربين بعضهم يرمون بيد الله فيحققون النصر المبين ، وبعضهم يقفون وراء جند المعزّ يحمون ظهورهم كالحصن المتين ، وجعل الريح كذلك تساعد الأسطول على النصر ، وتكون في خدمته كأنّها كتائب تمده بالعون ، والنجوم تطلع وتلمع بدلائل إسعاده ونصره .

وفي أبيات المجموعة (ب) يتحدث الشّاعر عن فزع الروم فيقول : إن ملك الروم قد استولى عليه الهلع حين رأى تلك السّفن الضخمة ترفرف عليها الأعلام ، ومن فوق تلك السّفن تنعقد سحب من دخان كثيف ، تكتنفها وتتخلّلها قذائف يأخذ برقها بالأبصار ، ويبدّدُ دويها أمن القلوب . إنها سفن تشق البحر العظيم في قوّة كأنّها عزم المعزو قوته ، وفي سرعة تدفق كأنّها كرمه وسخاء يده . لقد ارتفعت الأعلام مرفرفة فوق تلك السفن التي أحكم تشييدها ، وأتقن صنعها ، وعلا بناؤها فوق الماء الجاري لا فوق العراء اليابس .

وفي أبيات المجموعة (ج) يصف الشّاعر هذه السفن مشيرا إلى أنها تشبه الجبال الشّامخة إلا أنها تتحرك على سطح الماء ، وتتحوّل من مكان إلى آخر ، وأنها في سرعتها تشبه الطيور الجارحة غير أنها تتميّز

والنّصّ على هذه الصورة ينبيء عن مدى ارتباط الأدباء والشّعراء بحياة مجتمعهم ، ومدى تفاعلهم مع أحداث عصرهم ، وتسجيلهم لتاريخ أمتهم ، كما يطلعنا على ما امتاز به الأندلسيون من اهتمام كبير بالوصف ، وإجادة للتّصوير ، واستقصاء لكلّ جوانب الموصوف .

دراسة بلاغية :

لما كان موضوع النص وهدفه الواضح فيه هو وصف الأسطول غلب في الأبيات استعمال الأسلوب الخبري الذي يتلاءم وعرض الوصف ولقد استعان الشاعر على توضيح أفكاره وإبراز عواطفه بإيراد صور خيالية رائعة كالتشبيه في قوله : قباب كما تزجى القباب على المها - الرياح الذاريات كتائب - كأنها لعزمك باس أو لكفك جود - من الراسيات الشم . إلى غير ذلك . وهناك تشبيه يوقق فيه الشاعر لضعف وجه الشبه في المشبه به عنه في المشبه ، وذلك في تشبيهه شعل النار المتناثرة على الماء بدماء على ملاحف سود . ومن ألوان البيان أيضا الاستعارة التصريحية في قوله : تزجى القباب على المها ، والاستعارة المكنية في: زفرت غيظا التي تعبر عن مدى حقد السفن على العدو ، والقوة في توجيه الضربات إليه .

وفي الابيات من البديع : الطباق بين كثير من كلمات القصيدة مثل : البر ، البحر - أغماره بيد - المها ، اسود - بأس جود . والجناس الناقص بين : عدة ، عديد .

وقد اتفق الشاعر في اختيار الألفاظ المناسبة لأفكاره والمترجمة ، عن عواطفه ، والمعبرة في دقة عن قصده كاستعماله في المدح كلمات : لك البر والبحر ، بأس ، جود ، تبذل ، أعززت . واستعماله في وصف سفن الاسطول كلمات المنشآت ، قباب ، عليها غمام ، بارقات ، رعود ، الراسيات الشم ، الطير الجوارح ، القادحات النار ، زفرت غيظا ترامت بمارج .

وإذا كانت تبدو في النص بعض المبالغة فذلك أمر مقبول في هذا الغرض الذي يحتاج إلى التفخيم ، ويقوم على المبالغة والتعظيم :

وقد استخدم الشاعر أسلوب القصر في قوله : لك البر والبحر ، بتقديم ما حقه التأخير ، وقوله : ما راع ملك الروم إلا اطلاعها ، باستعمال النفي والاستثناء ، وكان قصد الشاعر من استخدام أساليب القصر الدلالة على الاختصاص ، وتقوية وتأكيد المعنى المراد .

مجمل القول في النص :

الشاعر ابن هانئ الأندلسي ممن أكثروا من وصف الجيوش والمعارك وجاء شعره فيها جزلا قوياً . وهو في قصيدته هذه يمدح الخليفة المعزّ لدين الله الفاطمي ، ويصف أسطوله البحري الهائل ، وقد عرض ذلك في أفكار جزئيّة جاءت على التّرتيب التالي :

- مدح الخليفة ،
- إشادة بالأسطول ،
- فزع الروم
- وصف السفن
- مدح وتمجيد .

وهو ترتيب محكم ودقيق تبدو من خلاله عاطفة الشّاعر ، وإعزازه للخليفة ، وإعجابه بقوة الأسطول الهائلة .

وقد عرض الشّاعر ذلك في أسلوب غلب عليه النوع الخبري مستعيناً بعديد من الصور الرائعة المتنوعة إلا أنه جانبه التوفيق في تلك الصورة التي عقدها بين شعل النار المتناثرة على الماء وبين الدماء المتناثرة على الملاحف السوداء. وقد استعمل الشّاعر أنسب الألفاظ والتعابير للمضمون دقة وفخامة ، ومتانة وجزالة ، كما استعان بأسلوب القصر في بعض تعبيراته ليؤكد مضمونها ويقوي معناها .

والقصيدة من بحر الطويل ، وتفعيلاته

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن   فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

مناقشة النص :

1 — في أي غرض قيلت هذه القصيدة ؟

2 — ماذا تضمّنت أبيات المجموعة (أ) ؟

3 — ما قيمة التعبير بكلمة (أمّا) في صدر البيت الثاني ؟ وعلام يدل القسم بسفن الأسطول ؟

4 — كيف صوّر الشّاعر سفن أسطول المعز ؟ ولم استدرك في الشطر الثاني من البيت الثالث ؟

5 —ذكر الشّاعر أن هذه السفن تهيأت لها كل عوامل النصر ، اشرح ذلك وحدد من النص الأبيات التي تضمنته .

6 — مم فزع ملك الروم ؟ وما أمارات قوة الأسطول التي تضمنتها أبيات المجموعة (ب) ؟

7 — اشرح بأسلوبك صورة السفن التي عبر عنها البيت الثامن ، ثم استغل مهارتك اليدوية وذوقك الفني في رسم لوحة لها .

8 — كانت السفن محكمة الصنع ، وفيرة العدد ، شديدة القوة . اذكر ما عبّر به الشّاعر عن كلّ من هذه المعاني .

9 — ما المضمون العام لأبيات المجموعة (ج) ؟

10 — بم وصف الشّاعر سفن الأسطول في كلّ بيت من أبيات هذه المجموعة

11 — بم مدح الشّاعر الخليفة المعزّ في المجموعة (د) ؟ وما رأيك في المبالغة التي تضمنها البيت السادس عشر ؟

12 — تبدو في أبيات النص روح دينية ، وتأثر بالقرآن الكريم ، أين تجد ذلك ؟ وما الألفاظ القرآنية التي استعملها الشّاعر ؟— وما المعاني الدينية التي تأثر بها ؟

13 — في البيت السادس تشبيه — اشرحه ، ووضح قيمته في المعنى .

14 — (ما راع ملك الروم إلا اطلاعها) ما القيمة التي تعود على المعنى من استعمال هذا التركيب بهذا الترتيب ؟

15 ـ (زفرت غيظاً) اشرح هذه الصورة البلاغية ، وبين أثر التصوير في المعنى .

16 ـ كيف ترى عاطفة الشّاعر من خلال هذا النّص ؟ وما مدى ملاءمته بين المعاني والألفاظ ؟

17 ـ ما الذي يوحي به هذا النص من حياة المسلمين في عصره ؟

18 ـ يكشف هذا النّص عن بعض الخصائص الفنية للشّاعر ـ وضح ذلك مستشهدا .

19 ـ ضع للنص عنواناً مناسباً ، وحدد في إيجاز فكرته العامة .

تدريب تطبيقي

المقالة الأدبية :

اللغة العربية قادرة على التعبير عن مستحدثات كل عصر إذا أدرك المنتسبون إليها أهمية الدور الحضاري الذي يمكنها القيام به ـ اكتب موضوعا حول ذلك .

السؤال الكتابي

قال الشاعر:

ألا في سبيل الله تبذل كل ما ... تضن به الأنواء وهي خمود
فلا غرو أن أعززت دين محمّد ... فأنت له دون الأنام عقيد

أ ـ انثر هذين البيتين بأسلوبك .

ب ـ استخرج منهما لوناً بيانياً ، وآخر بديعاً ، وبين أثرهما .

ج ـ علام يدل تعبير الشّاعر : أنت له دون الأنام عقيد ؟

د ـ ما الجانب الهام الذي عني الشاعر بإبرازه في البيتين ؟

نمـاذج من شعـر ابن هـاني

أ ــ المدح والوصف

وجّه المعز قائده جوهرا لفتح مصر ، فقال ابن هانيء يمدحه ، ويذكر توديعه عند خروجه من القيروان ويصف الجيش ، وخروجه للتشييع :

رأيتُ بعيني فوقَ ما كنتُ أسمعُ ... وقد راعني يوم من الحشر أروعُ (1)
غداةَ كأنّ الأفق سُدّ بمثله ... فعادَ غروبُ الشّمس من حيثُ تطلعُ
فلم أدْرِ إذ سلمّتُ كيفُ أشيّعُ ... ولم أدرِ إذ شيّعتُ كيفُ أودعُ؟ (2)
وكيفَ أخوضُ الجيشَ ، والجيشُ لجّـةٌ ... وإنّي بمن قادَ الجيُوشَ لمُولعُ (3)
فلا عسكرٌ من قبل عسكر جوْهَرٍ ... تَخُبّ المطايا فيه عَشْرًا وتوضَعُ (4)
تسيرُ الجبال الجامداتُ لسيره ... وتسجدُ من أدنى الحفيف وتركَعُ
لقد جَلّ مَنْ يقتادُ ذا الخلقَ كلهُ ... وكُلّ له من قائمِ السّيفِ أطوعُ
تَحُفّ به القُوّادُ ، والأمرُ أمرُهُ ... ويَقْدُمُهُ رأي الخلافة أجْمعُ
بُرُودُ أمير المُؤمنين بُرودهُ ... كَساهُ الرضا منهنّ ما ليس يُخْلعُ
وبين يديه خيلُهُ بسُروجه ... يُقَاد عليهنّ النّضارُ المرصّعُ (5)
وأعلامهُ منشورةٌ ، وقبابُهُ ... وحُجّابُهُ تُدْعي لأمرٍ فتُسرعُ
مليكٌ تَرى الأفلاك دون بساطه ... وأعناقُهم ميْل إلى الأرض خُضّعُ (6)
تَحل بيوتُ المال حيثُ مَحَلّهُ ... وجَمّ العطايا ، والرواقُ المرفّعُ
وتعنو له السّاداتُ من كلّ معشرٍ ... ولا سيّد منه أعزّ وأمْنَعُ

---

(1) راعني : أفزعني . أروع : أعظم ، وأشد هولاً — (2) أشيع : أودع — (3) لجة : بحر ، أي مثل البحر في عظمته ، وكثرة عدده وعدده — (4) تخب : تسير الخبب ، وهو نوع من السير السريع ، وكذلك توضع أي تسرع . المطايا : دواب السفر. عشرا : أي عشر ليال — (5) النضار : الذهب الخالص — (6) ميل : جمع أميل بمعنى مائل .

ب ـ الرثاء والحكمة

قال يرثي ولداً صغيراً لإبراهيم بن جعفر بن علي أحد ممدوحيه :

وَهَبَ الدَّهْرُ نفيساً فاسْتَرَدْ … رُبَّمَا جادَ بخيلٌ فَحَسَدْ
إنَّمَا أعطى فُواقَيْ نَاقةٍ … بيد شيءٍ تَلَقَّاهُ بِيَدْ(1)
خاب من يرجو زماناً دائماً … تُعْرَفُ البأساءُ منهُ والنَّكَدْ
فإذا ما كَدَّرَ العيشِ نَمَا … وإذا ما طيّب (العيش) الزادَ نَفِدْ
فَلَقَدْ أذكر من كان سَهَا … ولقد نَبَّه من كان رَقَدْ
قُلْ لمن قالَ يَقُلْ ما شَاءَهُ … إنَّ خصمي في حياتي لألَدّ
أو مَا يُعْجِبُ منَّا أنَّنَا … عَرَبٌ نُوتَرُ لا نُعطى قَوَدْ ؟ (2)
ماتَ من لو عاش في سرباله … غَلَبَ النورُ عليه فاتَّقَدْ
سَيِّدٌ قُوبِلَ فيهم مَعْشَرٌ … ليس في أبنائهم مَنْ لم يَسُدْ
نافس الدَّهْرُ عليهم يَعْرُباً … ورأى موضعَ حِقْدٍ فَحَقَدْ
هاب أن يُجرِي عليه حُكْمَهُ … فنوى الغَدْرَ لَهُ يومَ وُلِدْ .
يا أبا أحْمَدَ ، والحكمةُ في … قول من قال : إلى الله المَرَدْ (3)
لا ملوم أنت في بعض الأسى … غَيْرَ أنَّ الحرَّ أولى بالجَلَدْ (4)
والمنى أنْتَ إذا دمْتَ لهَا … دامتِ النَّعماءُ والعَيْشُ الرَّغَدْ
وهيَ الأيَّامُ لا يَأمنُهَا … حازِمٌ يأخُذُ من يومٍ لغَدْ

---

(1) فواقي ناقة : الفواق مقدار ما بين الحلبتين ، وذلك أن تحلب الناقة ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل التدر ثم تحلب . وأراد الشاعر قصر المدة — (2) نُوتَرُ : نظلم ، أو يقتل لنا قتيل ولا ندرك ثأره . القود : الدية ، أو قتل القاتل — (3) يا أبا أحمد : نداء لوالد الطفل الفقير — (4) الجلَد : الصبر .

ابن زيدون

394 — 463 هـ

تعريف وتمهيد :

الشّاعر هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون المخزومي ، ينتمي لأسرة شريفة ، وقد ولد بقرطبة سنة 394 هـ ، ونشأ بين أسرته التي كانت تشتغل بالعلم نشأة علمية أدبية ، فذاعت شهرته ، وأوصله نبوغه إلى مرتبة الوزارة حيث قربه إليه (أبو الحزم ابن جهور) أحد ملوك الطّوائف بالأندلس ، واستوزره ، فوزر له الشاعر ، ولكن الوزير (ابن عبدوس) أوغر عليه صدر الملك فسجنه ، وظل ابن زيدون يستعطف الملك ولكنّه لم يظفر بعفوه ، ففر من السجن ، واختفى بقرطبة وعاش في حماية (الوليد بن جهور) فترة ، غير أنه لم يأمن على نفسه ، فلجأ إلى (المعتضد بن عبّاد) صاحب إشبيلية الذي ألقى إليه مقاليد الوزارة ، ولمّا صار الملك إلى ابنه (المعتضد بن عبّاد) وزر له أيضاً ، وقضى في اشبيلية بقية عمره حتى مات بها سنة 463 هـ بعد حياة لقي فيها أمجادا ، كما لقي أيضاً حسادا وأحقادا . وله ديوان شعر شرحه وحقّقه الأستاذان : كامل كيلاني ، وعبد الرحمن خليفة. (وستأتي ترجمة مفصلة لحياة ابن زيدون).

الـغـزل

وقد وقع ابن زيدون في حب (ولادة بنت المستكفي) التي كانت على جانب كبير من الجمال والشهرة الأدبية ، والتي بادلت ابن زيدون الحبّ ، وقد جرّ عليه ذلك الحبّ متاعب وأهوالا إذ دبّر له منافسوه مكايد أوصلته إلى السّجن ، ولكنّه بعد فراره من سجنه والتحاقه بإشبيلية عاوده الحنين لمحبوبته ، واستبدّ به الوجد ، فبعث إليها بقصيدة غزلية رقيقة يعبّر فيها عن عواطفه ويتغنّى بذكرياته ، ويؤكّد لها بقاءه على العهد ، ويطلب منها دوام الودّ . وهذا النص أبيات من تلك القصيدة .

غزله بولادة

ـ أ ـ

أضحى التّنائي بديلا من تدانينـا ... وناب عن طيب لقيـانـا تجافينـا
بِنْتُمْ وبنّا فما ابتلت جوانحنـا ... شوقاً إليكُمْ ، ولا جفّتْ مآقينـا
يكـاد حين تناجيكم ضمـائرنـا ... يقضي علينا الأسى لولا تأسّينـا

ـ ب ـ

حالت لفقدكُمْ أيامنـا فغـدت ... سودا ، وكانت بكم بيضاً ليالينـا
إذ جانب العيش طلق من تـآلفنـا ... ومَوْرِدُ اللهو صـاف من تصافينا
وَإذْ هَصَرْنَا غصون الأنس دانيـة ... قُطوفُهـا فجنينا منـه ما شينـا
ليُسْقَ عهدُكُمْ عَهْدُ السُّرورِ فَما ... كنتم لأرْواحنـا إلا ريـاحينـا

ـ ج ـ

مَنْ مُبْلغُ المُلْبسينَا بانْتِزَاحِهِمُ ... حزْناً على الدهر لا يبلى ويبلينـا
إن الزمانَ الذي مازال يضحكنـا ... أنساً بقُربكُمُ قد عاد يبكينا ؟ !
ما حقّنا أن تُقِـرّوا عين ذي حَسَد ... بنا ولا أن تَسُرّوا كاشِحاً فينا
غيظَ العدَى من تساقينا الهوى فَـدَعَـوْا
بأنّ نَغَصّ ، فقـال الدهـر : آمينـا
فانحلّ ما كان معقـود بأنفسنـا ... وانبَتّ ما كان موصولا بأيـدينـا
وقد نكون وما يخْشَى تفـرقنـا ... فاليومَ نَحْنُ وما يرْجَى تلاقينَا

ـ د ـ

لم نعتقد بعدكم إلا الوفـاء لكـم ... رَأيـاً ولـم نتقلـد غيره دينـا
لا تحسبوا نأيكـم عنا يغيرنـا ... إن طالمـا غَيَّرَ النَّأيُ المحبّينـا
والله ما طلبت أهواؤنـا بـدلا ... منكم ، ولا انصرفت عنكم أمانينا
ولا استنفدنا خليلا عنك يشغلنـا ... ولا اتخذنا بديـلا منك يُسْلينـا

يا ساريَ البرقِ غادِ القَصْرَ فاسق به   مَنْ كان صِرْفَ الهوى والود يسقينا
ويا نسيم الصَّبا بَلِّغْ تحيتنــــا   مَنْ لو على البُعْدِ حيًا كان يحيينا

الشرح اللغوي :

التنائي : الابتعاد . تدانينا : تقاربنا . تجافينا : انقطاع الوصال بيننا . بنتم وبنًا : بعدتم وبَعُدْنا . جوانحنا : الجوانح جمع جانحة وهي الضلع ، والمقصود هنا ما تضمه الضلوع من القلب والحشا . المآقي : جمع : مُوق وهو زاوية العين المجاورة للأنف . تناجيكم ضمائرنا : تتذكركم قلوبنا . الأسى : الحزن . التأسي : التجلد والتصبر . حالت : تحولت . هصرنا : أملْنا إلينا . دانية قطوفها : قريبة ثمارها . ما شينا : ما شئنا . ليسق عهدكم دعاء بالخير للأيام السالفة . الملبسينا : اسم فاعل من ألبس أي الذين ألبسوا الانتزاح : الرحيل والافتراق . لا يبلي : لا يفنى . أن تقروا عين ذي حسد : أن تسروا الحاسد . الكاشح : الذي يضمر العداوة . نغصّ : يعترض في حلقنا شيء مما نتساقاه . انبتّ : انقطع . صِرْف الهوى : صافي الحب وخالصه . الصَّبا : ريح تهبّ من جهة الشَّرق رطبة تنعش النفوس .

دراسة أدبية :

هذه القصيدة من روائع الشعر الأندلسي ، وهي في غرضها الأساسي تصور حبّ ابن زيدون لولادة ، وحرقة أساه على بعادها . وقد عرض الشَّاعر ذلك في عدة أفكار جزئية جاءت على الترتيب التالي : الأسى لبعادها والحزن لفراقها ، ذكريات عهد الوصال ، مقارنة بين سعادة الماضي وتعاسة الحاضر ، بقاؤه على العهد وثباته على الحبّ ، الدعاء لها بالخير ، وارسال التحية إليها .

وقد جاء ترتيب الأفكار على هذا الوجه منطقيا متسلسلا حيث يعرض الشاعر ماضي أيامهما ، ثمّ ينتقل ليعرض تعاسة حاضره التي يتحمّلها في

صبر وفاء منه لمحبوبته . والمعاني سهلة واضحة ، لا غموض فيها ولا تعقيد ، ولكنّها ليس فيها مستحدث ولا جديد .

أما عاطفة الشّاعر فهي ذوب قلب ، وفيض مشاعر ، وحرقة آلام ، ومرارة حياة عاشها الشّاعر في نفسه ، وفاضت على لسانه في تلك الأبيات الرائعة .

ومن جو القصيدة ، ومعرفتنا بحياة كل من ولادة وابن زيدون نلمح دلالتين :

أولهما : أن المرأة الأندلسية كانت لها مشاركة في الحياة الفكرية ، فولادة كانت لها مجالس مع الأدباء ، ومجادلة مع العلماء ، ومساجلة مع الشّعراء ، وكانت دارها نادياً من أندية العلم والأدب في قرطبة .

ثانيهما : أن الخلفاء والملوك والأمراء في الأندلس قلدوا حكام المشارقة ثم نافسوهم في العناية بالعلم والاهتمام بالأدب والشعر ، وتقريب رجالهم ، وإغداق العطايا عليهم ، فالخليفة المستكفي جعل من داره نادياً للعلم والأدب ، وابن زيدون ما نال بعض الحظ ، وما وصل إلى رتبة الوزارة إلا لمكانته الأدبية التي قربته من الحكام .

وأخيرا فإنك تدرك من النص أن الشاعر لم يتبذل في غزله لأنه لم يتجه إلى وصف ظواهر الجمال الحسي ، والفتنة الجسمية ، وإنما كان في حديثه متصوناً مهذبا يعبر عن السعادة بلقاء المحبوبة ، وعما يتحمّله من بعادها ، ثم يستحثها للوصال ، ويحمّل النسيم تحياته إليها ، إلى غير ذلك.

دراسة بلاغية :

غلبت في النّص الأساليب الخبرية لأن الشّاعر في موقف يحدث فيه محبوبته عن ذكريات سالفة ، ويصف لها ما يعاني من فراقها ولذا كان كثير من هذه الأخبار دالا على الحسرة والأسى ، وكان من الأساليب الإنشائية القليلة في النص الأمر الذي قصد منه الدعاء في : ليسق

عهدكم ، والاستفهام الذي قصد منه التمني في : من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم حزنـا . . ؟ والنهي الذي قصد منه الالتمـاس في لا تحسبوا نأيكـم عنـا يغيرنـا ، والأمر الذي قصد منه التمني في كل من : غاد القصر ، بلغ تحيتنـا . وجاء أسلوب القصر الذي يدل على الحصر والتخصيص في : ما كنتم لأرواحنـا إلا رياحينـا ، لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكـم .

أما الخيال فقد أدى دوره كامـلا في إبراز المعنى وإيضاحـه كـما هو الحال دائماً في الشعر ، وبخاصـة في الشعر الأندلسي الذي يقوم فيـه التصوير بدور واسع وجلّي ، وكان من ذلك في النص التشبيـه في : ما كنتم لأرواحنا إلا رياحينـا ، والاستعارة في : مورد اللهو صاف : من مبلغ الملبسينـا بانتزاحهـم حزنـا ، قال الدهـر آمينـا ، من كان صرف الهوى والود يسقينا . والكنايـة في : ما ابتلت جوانحنا ، ولا جفت مآقينا ، وأن تقروا عين ذي حسد بنا . إلى غير ذلك من الصور البيانيـة .

وأما عبارة النص فقد جاءت صافيـة رقيقـة ، بعيدة عن الغرابـة ، حافلـة بالمطابقـات التي توضح المقارنـة بين حالي الشاعر في الماضي والحاضر من مثـل قولـه : التنائـي ، تدانينـا ، طيب لقيانا ، تجافينا ، الأسى ، تأسينـا ، سودا ، بيضا ، يضحكنا ، يبكينـا . والمقابلـة في : ما يخشى تفرقنا ، ما يرجى تلاقينـا .

وقد أوحت الألفاظ بمشاعر الابتهاج حين عبر الشّاعر عن عهد الوصال مستعملا كلمات : طلق ، تآلفنا ، اللهو ، صاف ، الأنس ، عهد السرور رياحينا . وأوضحت مشاعر اليأس والبؤس حين عبر الشاعر عن ألم البعاد ، وشماتة الحسّاد مستعملا كلمات ، حزنا ، يبكينا ، ذي حسد ، كاشحا غيظ العـدا ، نغصّ ، انحـلّ ، ما يرجى تـلاقينـا .

مجمل القول فـي النص :

هذه قصيدة غزليـة قالهـا ابن زيدون في ولادة بنت المستكفي ، وبعث بهـا مـن إشبيليـة إليهـا فـي قرطبـة حيث كـانت تقيـم ، يبثهـا

فيها لواعج الشوق ، ويذكرها بما ضي وصالهما السعيد ، ويتنفس الحرقة والوجد لبعادها ، ويؤكد وفاءه لها وإقامته على حبها ، ثم يدعو بالخير لها ، ويرسل التحية إليها . وقد وردت هذه الأفكار في النص مرتبة واضحة ، وإن كانت كلها مألوفة معروفة قلد فيها الشاعر من تقدموه . وكانت عاطفة الشاعر صادقة في التعبير عن أحاسيس الألم ، وحرارة الشوق للقاء ، وتمنى ساعة الوصال . وقد تمكن الشّاعر من إبراز معانيه ، والتعبير عن انفعالاته بإرادها في عدة صور جاءت محكمة التأليف ، وافية الدلالة على المقصود منها ، كما جاء أسلوب الشاعر صافيا رقيقاً ، وألفاظه عذبة سهلة تلائم الموضوع ، وتناسب الحالة النفسية لدى ابن زيدون ، وقد كثرت في النص عبارات المطابقة لحاجة الشاعر إليها في الموازنة بين ماضيه السعيد بالوصال وحاضره الأليم بالبعد والفراق .

والقصيدة من بحر البسيط ، وتفعيلاته

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن   مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

مناقشة النص :

1 — ما الفكرة التي عبر عنها الشاعر في الأبيات الثلاثة الأولى ؟

2 — كان لبعد المحبوبة أثر على الشّاعر ، وضح ذلك الأثر ، واذكر الأساليب التي عبرت عنه في الأبيات .

3 — ماذا عرض الشاعر من ذكريات ما ضيهما في أبيات المجموعة (ب)؟

4 — تبدو في أبيات هذه المجموعة روح النشوة وعلائم السرور ، فأي العبارات أفادت ذلك ؟

5 — بم دعا الشّاعر لعهد السرور ؟ وما رأيك في مثل هذا الدعاء ؟

6 — ماذا يتمنى الشاعر في صدر أبيات المجموعة (ج) ؟ وما الخبر الذي يريد أن يبلغه لمحبوبته ؟

7 — عبّر الشّاعر عن تبدل حالهما بالفراق فماذا قال ؟

8 ـ ماذا طلب الشّاعر من محبوبته فيما يخص موقفهما من العاذلين ؟ وبم برر ذلك ؟

9 ـ ذكر الشّاعر في المجموعة (د) أنه مع البعد مبق على الود ، مقيم على العهد ، وضح ذلك مبيناً الوسائل التي أكد بها قوله . وعلام يدل إلحاح الشّاعر على هذا المعنى في أكثر من بيت ؟

10 ـ ماذا طلب الشّاعر في المجموعة (هـ) من كل من السحاب والنسيم وعلام يدل ذلك من موقفه تجاه محبوبته ؟

11 ـ هات من الأبيات صورة بيانية ، ومحسنا بديعاً ، ثم بين قيمة كل منهما في التعبير .

12 ـ (ما كنتم لأرواحنا إلا رياحينا) ما أجزاء أسلوب القصر في هذا التعبير وما أثر استعمال هذا الأساوب على المعنى ؟

13 ـ (من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم حزنا) ما الغرض البلاغي من هذا الاستفهام وما الصورة التي تضمنتها العبارة ؟

14 ـ ما الفكرة العامّة لهذا النص ؟ ومامدى الترابط بين أفكارها الجزئية ؟

15 ـ أترى الشّاعر ، فيما تناوله من أفكار ، مقلدا أم مجددا ؟ وضح رأيك

16 ـ كان الشّاعر يعبر عن انفعال صادق ، وضح ذلك ، واستدل عليه من النص .

17 ـ بم تعلل غلبة الأسلوب الخبري على النص ؟

18 ـ حفلت القصيدة بأسلوب الطباق ، فهل ترى لذلك ما يبرره ؟ وضح مع الاستشهاد بمثالين .

تدريب تطبيقي

المقالة الأدبية :

يتميز شعر الغزل برقة اللفظ ، وعذوبة الكلمة ، اكتب مقالا تستدل فيه على صحّة هذه القضية مستعيناً بما درست من نصوص في هذا الغرض.

السؤال الكتابي :

برع ابن زيدون في تصوير أحاسيس المحبين ، وما يتحملون من أسى وتعذيب ، وضح ذلك في ضوء ما عرفت من هذا النص .

نماذج من شعر ابن زيدون

أ الغـزل

قال ابن زيدون مخاطباً ولادة ، واصفاً شوقه إلى لقائها ، معاتباً إياها :

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً ... والأفق طلق، ووجه الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله ... كأنه رقّ لي فاعتلّ إشفاقا
والرّوضُ عن مائه الفضيّ مبتسمٌ ... كما شققتَ عن اللبّات أطواقا(2)
يومٌ كأيّام لذّاتٍ لنا انصرمت ... بتنا لها حين نام الدّهرُ سرّاقا
نلهو بما يستميلُ العينَ من زهرٍ ... جال النّدى فيه حتى مال أعناقا
كأنّ أعينهُ إذ عاينت أرقي ... بكت لما بي فجال الدّمعُ رقراقا
وردٌ تألّق في ضاحي منابته ... فازداد منه الضّحى في العين إشراقا
سرى ينافحهُ نيلوفرٌ عبقٌ ... وسنانُ، نبّه منه الصّبحُ أحداقا(3)
كلٌّ يهيجُ لنا ذكرى تشوّقنا ... إليك لم يعدُ عنها الصدرُ أن ضاقا
لا سكّن اللهُ قلباً عنّ ذكركُمُ ... فلم يطر بجناح الشوقِ خفّاقا
لو شاء حملي نسيمُ الصبح حين سرى ... وأفاكُمُ بفتى أضناه ما لاقى
لو كان وفّى المنى في جمعنا بكُمُ ... لكان من أكرم الأيّام أخلاقا
كان التجاري بمحض الود مذ زمنٍ ... ميدانَ أنسٍ جرينا فيه أطلاقا(4)
فالآن أحمدَ ما كنّا لعهدِكمُ ... سلوتُمُ ، وبقينا نحنُ عشّاقا

---

(1) الزهراء : ضاحية جميلة من ضواحي قرطبة — (2) اللبات : جمع لبة وهي موضع القلادة من الصدر. والأطواق جمع طوق ما يحيط بالعنق من الثوب — (3) نياوفر : نبات مائي له ورق كبير ، وزهر جميل ، طيب الرائحة — (4) أطلاقا : أشواطا ، والمفرد طلق بفتح الطاء واللام.

ب ـ المدح والاستعطاف

قال ابن زيدون يمدح أبا الحزم بن جهور أمير قرطبة ويستعطفه ، وقد بعث إليه هذه القصيدة من السّجن :

مَنْ يسأَلِ الناس عن حالي فشاهدها ... مَحْضُ العيانِ الذي يغني عن الخبر
لم تَطْوِ بُرْدَ شبابي كَبْرَةٌ ، وأرَى ... برْقَ المشيبِ اعتلى في عارِضِ الشعر
قبل الثلاثينَ إذ عهدُ الصِّبا كثَبٌ ... وللشَّبيبة غُصنٌ غيرُ مُهْتصَرِ(1)
ها إنَّها لوعَةٌ في الصدر قادحةٌ ... نَارَ الأسَى ، ومشيبي طائرُ الشَّرَرِ
لايُهْنِىءِ الشامتَ المُرْتَاحَ خاطرُهُ ... أنِّي مُعنَّى الأماني، ضائعُ الخَطَرِ
هلِ الرِياحُ بنجم الأرض عاصفةٌ ... أم الكسوفُ لغير الشمسِ والقمَرِ؟
إن طالَ في السّجن إيداعي ، فلا عَجَبٌ ... قد يُودَعُ الجفنَ حَدُّ الصارمِ الذّكَرِ(4)
وإن يُثبِّط أبا الحزمِ الرضا قَدَرٌ ... عن كَشْفِ ضُرّي ، فلا عَتْبٌ على القَدرِ (5)
ما للذّنوب التي جاني كَبائرِهَا ... غيري يُحمِّلني أوزارها وزَرِي؟! (6)
ذو الشِّيمة الرّسْلِ إنْ هِيجتْ حفيظتُه ... والجانبِ السَّهلِ ، والمُسْتَعتَبِ اليَسَرِ (7)
وزيرُ سَلْم كفاهُ يُمْنُ طائره ... شُؤْمَ الحروبِ ، ورأيٌ مُحْصَدُ المِرِ (8)
يا بَهْجَةَ الدهر حَيّاً ، وهو إنْ فَنيتْ ... حياتُهُ زينةُ الآثارِ والسِّيَرِ

هَل مِنْ سبيلٍ ، خَمَاءُ العَتْبِ لي أَسِنٌ

إلى العذوبة من عُتْبَاكَ والخَصَرِ ؟ (9)

نَذَرْتُ شكركَ ، لا أنْسى الوفاء به

إن أسْفَرَتْ ليَ عنها أوجُهُ البُشَرِ (10)

لا تَلْهُ عنّي فلم أسألك مُعْتَسِفاً   رَدَّ الصِّبَا بعدما يفَاءِ على الكِبَرِ

---

(1) كثب : قريب . غير مهتصر : غير مكسور . (2) المعنّى : المعذب ، المتعب. الخطر : المكانة (3) النجم : ما نجم أي ما طلع من النبات على غير ساق وهو خلاف الشجر ، والاستفهام للنفي . — (4) الصارم الذكر : السيف القاطع . — (5) يثبط : يؤخر — (6) جاني كبائرها : مرتكب ذنوبها الكبيرة . أوزارها : ذنوبها والمفرد وزر ، وزرى : ملجئي (7) الشيمة : الخلق . الرسل : السهل ، الكريم . حفيظته : غضبه . اليسر : السهل ، الاين . (8) محصر المرر : محكم الفتل ، أي رأي قوي سديد . (9) العتب : العتاب ، الغضب . أسنٌ : متغير ، فاسد. عتباك: رضاك . الخصر ، برودة الماء . — (10) الأخبار المفرحة.

جـ – الشكوى والحكم

نظم ابن زيدون في سجنه قصيدة مؤثرة ، ضمنها شكواه وأرسلها إلى صديقه الوزير الأديب أبي حفص بن برد ليشفع له عند أمير قرطبة ابن جهور :

مـا على ظنّـي بَـاس ... يجرحُ الدّهْرَ ويا سو(1)
رُبّمـا أشـرف بـالمـر ... ءِ على الآمـال يـاسُ (2)
ولقد يُنْجيـك إغفـا ... لٌ ، ويُـؤْذيـكَ احتراسُ(3)
ولكم أجـدى قُعُـودٌ ... ولكم أكدى التمـاس ! (4)
وكـذا الحُكْمُ : إذا مـا ... عـزّ نـاسٌ ذَلّ نـاسُ (5)
وبنـوا الأيـامِ أخْيـا ... فٌ : سَـرَاةٌ ، وخسـاسُ(6)
نَلْبَسُ الدّنْيـا ، ولكـنْ ... مُتْعَـةٌ ذاكَ اللّبَـاسُ
يـا أبا حفص ، ومـا سـا ... واكَ في فَهْمٍ إيـاسُ(7)
من سنـا رأيكَ لـي في ... غَسَقِ الخَطْبِ اقْتبـاسُ(8)

(1) ما على ظني بأس : لا خوف علي . ياسو : يداوي . وأصلها يأسو . – (2) ياس . أصلها يأس – (3) اغفال : عدم اهتمام وحذر . احتراس : اهتمام ويقظة . (4) أجدى : نفع . أكدى : خاب ولم ينفع . – (5) الحكم : قضاء الله تعالى – (6) أخياف : مختلفون. سراة : أشراف . خاس : حقيرون – (7) إياس : هو إياس بن معاوية الذي تولى القضاء في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز وكان آية في الذكاء . – (8) سنارأيك : من نور رأيك . غسق الخطب : ظلمة الأمر الشديد . اقتباس : استفادة .

لا يكُـــنْ عهـدُكَ وَرْدًا إنّ عهــدي لك آسُ ! . .(9)
ما ترى في مَعْشَرٍ حـــا لوا عنِ العهـدِ وخاسوا ؟ (10)
أذْؤُبٌ هَامَتْ بلحْمـــي فانتهـــابٌ وانتهـــاسٌ (11)
كُلّهـُمْ يَســألُ عن حا لي ، وللـذئب اعتـــاسُ !
إن قسـا الدهـــرُ فللمـا ءِ من الصَّخْـــرِ انبجاسُ
ولئن أمْسَيْــتُ محبـــو سًا فللغيــثِ احتبـــاس

(9) لا يكـن عهـدك كالـورد في سـرعـة الذبـول ، فإنّ عهـدي لك دائـم كالآس الذي لا تذبـل أوراقـه أبـدا . — (10) حالـوا : تغيروا . خاسـوا : نقضـوا العهـد — (11) انتهاس : نهش وعض .

ابن خفاجة

450 - 533 هـ

تعريف وتمهيد :

الشّاعر هو أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة ، ولد سنة 450 هـ ببلدة (شقر) الأندلسية من أعمال (بلنسية) وهي أرض ذات طبيعة ساحرة ، ومناظر فاتنة ، ونشأ بين أحضان تلك الطبيعة يتنقل بين رباها وخمائلها ، ويجتلي روعتها وحسن مشاهدها فشب وفيه عشق للطبيعة ، يتأمّل جمالها ، ويحبّ مناجاتها ، وقد برع في الشعر ، وأجاد في النثر ، ولكن نثره لم يلحق بشعره في الجودة والإتقان ، وكانت حياته في عهد ملوك الطّوائف ، وفي أثناء دولة المرابطين ، ولكنّه لم يحرص كثيرا على الاتصال بهم ، والتعرض لنيل منحهم وعطاياهم وإنما قضى صباه لاهيا يعيش في ترف ونعمة ، حتى إذا أدركه الكبر أقلع عن لهوه ، وعاش مع الطّبيعة التي وجد فيها إلهاما لشاعريته إلى أن توفي سنة 533 هـ عن عمر يجاوز الثمانين عاماً . ومن آثاره الأدبية ديوان شعر يضم قصائد المدح والعتاب والرثاء والشكوى والوصف وغيرها إلا أن شعر الوصف هو الغالب على أدب الشاعر .

في وصف الجبل ومناجاته

وهذا النّص من أبيات مختارة من قصيدة للشاعر يصف فيها الجبل ، ويقف أمامه وقفة تأمل يستنطقه الشكوى ، وينتزع منه العبرة ، ولذا يعد هذا النص نموذجا لأدب الطبيعة الذي أولع به الأندلسيون ، وأجادوا القول فيه .

ـ أ ـ

وأرعنَ طمّاحِ الذوّابةِ باذخٍ ... يطاول أعناق السّماء بغارب
يسدّ مهبّ الريح من كل وجهة ... ويزحم ليلا شُهبَه بالمناكب
وَقُورٌ على ظهر الفلاة كأنّه ... طوال الليالي مُفْكِرٌ في العواقب
يَلُوثُ عليه الغيمُ سودَ عمائم ... لها من وميض البرق حُمْرُ ذوائب

ـ ب ـ

أصَخْت إليه وهو أخرس صامتٌ ... وحدثني ليل السُّرى بالعجائب
وقال : ألا كم كنتُ ملجأ قاتل ... وموطن أوّاهٍ تبتّلَ تائب
وكم مربي من مُدْلج ومؤوّب ... وقال بظلي من مطي وراكب
ولاطم من نُكْبِ الرياح معاطفي ... وزاحم من خضر البحار غواربي
فما كان إلا أن طوتهم يد الردى ... وطاحت بهم ريح النوى والنوائب
فما خفق أيكي غيرَ رجفة أضلع ... ولا نوح ورقي غير صرخة نادب
وما غيّض السلوانُ دمعي وإنما ... نَزَفْتُ دموعي في زفرات الصواحب
فحتى متى أبقى ويظعن صاحب ... أودع منه راحلا غير آيب ؟
فرحماك يا مولاي دعوةَ ضارع ... يمد إلى نعماك راحة راغب

ـ ج ـ

فقلت وقد نُكِّبْتُ عنه لِطيّةٍ ... سلامٌ فإنّا من مقيم وذاهب

شرح لغوى :

وأرعن : ورب جبلْ طويل القمم ، فيه بروز واضح . طماح : كثير الارتفاع . الذؤابة : متقدم الشيء ، والمقصود بطماح الذؤابة عالي القمة . باذخ : مرتفع . يطاول : يباري وينافس في الطول . أعنان السّماء : جهاتها ونواحيها . غارب : الغارب ما بين عنق البعير وسنامه ، والمقصود هنا الظهر أو الكاهل أي أعلى الجبل . شهب الليل : المقصود

كواكبه . المناكب : جمع منكب وهو ملتقى الكتف والعضد ، والمقصود بالمناكب الأعالي ، وقور : ثابت ورزين . الفلاة : الصحراء . يلوث : يلف ويعصب . وميض : لمعان . أصخت : استمعت . السرى : السير ليلا . أوّاه : عابد كثير الدعاء. تبتل : انقطع عن الدنيا وانصرف للعبادة . مدلج : سائر في الليل . مؤوب : سائر جميع النهار ، أو عائد. قال : فعل ماض مضارعه يقيل،ومعنى قال بظلي أقام في ظلي وقت القيلولة عند الظهرمطيّ : دواب ،مفرده مطية . لاطم:لطم . نكب الرياح:النكب جمع نكباء وهي الريح التي تقع بين ريحين تهبان من جهتين مختلفتين. معاطفي : أثوابي جمع معطف ، والمراد جوانبي . خضر البحار : يقصد أمواج البحار التي تضرب سفحه . غواربي : جمع غارب وهو أعلى الكتف والمقصود أظهرى أو جوانبي . الردى: الهلاك . النوى : البعد والفراق . النوائب : المصائب جمع نائبة . خفق : تحرك واهتزاز . أيكي : أشجاري الملتفة . رجفة: اهتزاز . نوح : بكاء . ورقي : حمائمي، جمع ورقاء وهي الحمامة التي فيها بياض وسواد. نادب : اسم فاعل من (ندب الميت) أي بكاه غيّض : نقّص وخفف . السلوان : النسيان . نزفت دموعي : سكبتها بكثرة حتى نفدت . يظعن : يرتحل . آيب : راجع . رحماك : رحمتك . ضارع : خاشع . الراحة : باطن الكف . نكبت عنه : ملت عنه وانصرفت . الطيّة : الحاجة والقصد ، ووجهة المسافر .

مناقشة النص :

1 — ما الفكرة العامة لأبيات المجموعة (أ) ؟

2 — بم وصف الشاعر الجبل في هذه الأبيات ؟ وبم صوره ؟

3 — ما الصورة التي عرضها الشّاعر للجبل في أبيات المجموعة (ب) ؟

4 — في هذه الأبيات أضفى الشاعر على الجبل صفات الإنسان ، اذكر ثلاثا منها ، والأبيات التي تضمنتها .

5 — ماذا في الأبيات من حديث الجبل عن نفسه ؟ وإلى أي مدى عبر الجبل عن الدور الذي يقوم به في الحياة ؟

6 ـ ضاق الجبل بحياته ، وسئم حاله ، وتضرع إلى الله أن يريحه مما يعانيه ، أي أبيات النص عبر عن ذلك ؟ وهل يمكن القول بأن الشّاعر استنطق الجبل بما كان يحسه هو من تلك الأحوال؟ وضح.

7 ـ بم أنهى الشاعر حديثه مع الجبل في المجموعة (ج) ؟ وما رأيك في هذا الختام ؟

8 ـ كان الشّاعر مقلدا فيما وصف به الجبل ، مجددا فيما صوره به ، اشرح هذا القول .

9 ـ بم تعلل إلحاح الشّاعر على فكرته فيما وصف به الجبل في الأبيات الأولى ؟

10 ـ تزدحم الصور البيانية في أبيات المجموعة (أ) وضح ذلك .

11 ـ في البيتين العاشر والحادي عشر حسن تعليل ، اشرح .

12 ـ أسرف الشاعر في استعمال أساليب الطباق في أبيات المجموعة (ب)، اشرح ومثّل

13 ـ أكثر الشاعر من أساليب القصر ، استخرج أسلوبين منها ، وبين أثر استعمالهما

14 ـ استخرج أسلوبا إنشائياً ، واذكر الغرض البلاغي له.

15 ـ إلى أي مدى عبرت أساليب الشّاعر عن أفكاره ؟

16 ـ تعد هذه القصيدة من الأدب الذي يصف الطبيعة ، اشرح ذلك .

17 ـ القصيدة نموذج صادق لاتجاه الشعر في العصر الأندلسي ، وضح ذلك معللا.

18 ـ اذكر ما عرفت في هذه القصيدة من خصائص ابن خفاجة في شعره.

19 ـ كانت هذه القصيدة من بحر الطّويل ، قطع البيت الأخير منها ، واكتبه كتابة عروضية .

تدريب تطبيقي

المقالـة الأدبيـة :

تغنى شعـراء الأندلس بوصف الطّبيعـة ، وافتنـوا في تشخيصهـا ، وبعث الحياة فيهـا . اكتب مقالا أدبيا في ذلك .

السؤال الكتابـي :

أكتب عن الجبـل فقرة بأسلـوب علمي مرة، وأسلـوب أدبي مرة أخرى، ثمّ بيّن الفرق بين الأسلـوبين .

نماذج من شعر ابن خفاجة

أ ــ الوصف : وصف الطبيعة

وكمامة حَدَرَ الصَّباحُ قناعَهـا عن صَفْحة تَنْدَى من الأزهار(1)
في أبطَحٍ رَضَعَت ثُغُورُ أقاحه أخلافَ كُلِّ غمامةٍ مِدْرار(2)
نَثَرَتْ بحجْرِ الأرضِ فيه يَدُ الصَّبَـا
دُرَرَ النـدَى ، ودراهـمَ النُّـوّار
وقد ارتدى غُصْنُ النَّقـا ، وتقلّدت حَلْيَ الحَباب سَوَالفُ الأنهار(3)
فحلَلْتُ حيثُ الماءُ صفحةُ ضاحك جَذِل ، وحيثُ الشَّطّ بدءُ عِذار(4)
والرّيحُ تَنْفُضُ بُكْرَةً لِممَ الرُّبى والطَّلُّ ينضَحُ أوجهَ الأشجار(5)
مُتَقَسَّمَ الألحاظِ بينَ مَحاسنٍ من رِدْفِ رابيةٍ ، وخَصْرِ قرار
وأَرَاكـة سَجَعَ الهَديلُ بفرعها والصُّبحُ يُسْفِرُ عن جبين نهار(6)
هزّتْ له أعْطافَهـا ، ولرُبّمـا خَلَعَتْ عليه مُلاءَةَ الأنوار(7)

---

(1) كمامة : غطاء الزّهر ــ (2) في أبطح : الأبطح هو المسيل الواسع ــ ــ (3)النقا : القطعة من الرمل المحدودبة ــ (4) ضاحك : شخص يضحك . جذل : فرح . عذار : العذار هو الشعر الذي يحاذي الأذن . ــ (5) لمم الربى : الأعشاب النابتة على التلال . واللمم جمع لمة وهي الشعر المجاور شحمة الأذن ــ (6) وأراكة : الأراكة نوع من الأشجار طويل الساق كثير الأوراق والأغصان ، تتخذ منه المساويك . الهديل : فرخ الحمام . ــ (7) أعطافها : جوانبها ، والمفرد عطف . مُلاءة : الملاءة هي الثوب . الأنوار . جمع مفرده نوْر وهو الزهر الأبيض خاصة .

يا مُنْيَةَ النَّفْسِ حَسْبي من تَشَكِّيكِ
أني أُصابُ وكفُّ الدهرِ تَرميكِ (1)

ولو تَسامحَ خَطْبٌ في فِدائكِ بي ... لكنتُ مهما عرا خَطْبٌ أفَدِّيكِ

وكيف أغفي بليلٍ تسهرين به ... أو أستسيغُ شراباً ليس يَرْويكِ ؟

هُنَيْدَ ! أوجعْتِ قلْباً مُذْ أقمْتِ به
مَا بَالُ طرفي - ومَا يُدريكِ - يُبْكيكِ (2)

فرُبَّ لؤلؤِ دَمْعٍ كنتُ أذخرُهُ ... علقا أغالي به أرْخَصْتُهُ فيكِ (3)

وإن نَأى بكِ رَبْعٌ غيرُ مُقْتَرِبٍ ... أو احتواكِ حجاب فيه يُقْصيكِ (4)

فإنَّ كُلَّ رسولٍ خاضهُ أرَجٌ ... رسولُ شَوْقٍ أتى عني يحيِّيكِ (5)

ورُبَّمَا شَفَعَتْ لي غفوةٌ نَسَخَتْ ... أخرى الظَّلامِ فباتَ الطيفُ يُدنيكِ

(1) عرا خطب : نزلت مصيبة شديدة – (2) طرفي : عيني – (3) أذخرة : أخبئه . علقا : شيئا ثمينا – (4) نأى : ابتعد . احتواك : ضمك – (5) أرج : الأرج هو الرائحة الطيبة – (6) نسخت أخرى الظلام : أزالتها

ابن حمديس الصقلي

447 - 527 هـ

تعريف وتمهيد :

الشّاعر هو محمد بن عبد الجبّار بن حمديس الأزدي الصقلي ، ولد بمدينة (سرقوسة) في جزيرة (صقلية) سنة 447 هـ ، وقال الشعر منذ حداثته ، ونبغ فيه ، وأجاد بصفة خاصة في وصف الطبيعة التي كانت جميلة ساحرة في صقلية منذ فتحها العرب زمن الخليفة المأمون ، وظهر فيها كثير من الرجال المشتغلين بالعلم والأدب ، حتى إذا انتهى حكم العرب في صقلية سنة 471 هـ واستولى عليها النرمانديون تركها بن حمديس إلى الأندلس ، وقصد إشبيلية ، وتصل بالمعتمد بن عباد الذي قربه إليه ، ولما نفى ابن عباد إلى المغرب تبعه الشّاعر إلى منفاه ، ولما مات ابن عبّاد أقام ابن حمديس في (المهدية) ثم انتقل إلى جزيرة (ميروقة) بشرق الاندلس ، وعاش بها إلى أن توفي سنة 527 ء بعد أن كف بصره . ومن آثار ابن حمديس الأدبية ديوان شعر يضم قصائد الوصف البارع ، وشكوى الإخوان ، وندب الزمان ، والزهد ، وأكثر ما فيه وصف لمحاسن الطبيعة . .

وصف بركة

ولقد أقام العرب في شمال إفريقية دولة ذات مجد وحضارة وقد عني أمراؤها بالتشييد والعمران فأنشؤوا القصور والحدائق والتماثيل والبرك الصناعية ، وغيرها مما جعل الطبيعة فاتنة أخاذة ، وهاهوذا (المنصور بن الناصر بن أعلى الناس) أمير (بجاية) قد أنشأ قصرا جعل فيه بركة جميلة ، وحين وفد عليه ابن حمديس ، ورأى هذه المبركة التي راعته أنشأ في وصفها قصيدته التي اخترنا لك منها هذه الأبيات.

جمع نُهية . سُرّجت : وضعت فيها السرج أي المصابيح . وُقّعٌ : جمع واقع أوا واقعة وهي الطيور التي تسقط على أغصانها . اللجين : الفضة ، وهو اسم مصغر لا مكبّر له . نميرا : ماء صافيا . الصهريج : حوض الماء. الزبرجد : اسم لنوع من الأحجار الثمينة يكون أخضر اللون ، والمقصود منه هنا الأرض المخضرة بالزرع . زهر النجوم : النجوم المتلألئة الزاهية . ثغور : جمع ثغر ، وهو مقدم الأسنان أو الفم .

إيضاح وتحليل:

يصف الشاعر في أبيات المجموعة (أ) تماثيل الأسود التي تحيط بالبركة ، والتي يندفع الماء من أفواهها لينصب في تلك البركة فيقول : ورب أسود اتخذت لها عرينا في قصر الأمير المنصور وربضت حول بركته ، ينساب من أفواهها الماء فتسع لتدفقه خريرا كأنه زئير تلك الأسود ،

وحين تتأمل جسوم تلك التماثيل تراها ذهبية اللون ، بينما ترى الماء المنصب من أفواهها كأنه البلور بياضا وصفاء . إنها أسد ساكنة جامدة ، ولكن يخيل لمن يراها أن لديها قدرة على الحركة لو وجدت من يستثيرها لذلك . وكأنها تذكرت طبيعتها الوحشية ، ونزعتها الافتراسية فقعدت على مؤخرتها تأهباً للوثوب ، واستعداد للهجوم . وإنك حين ترنو إليها تحت ضوء الشّمس تدهش وتعجب حيث يهيأ لعينيك أنها نار ، وأن ألسنتها من الماء نور . وذلك الماء الصافي المتدفق من أفواهها المندفع نحو البركة يشبه سيوفا سلت من الأغماد ذائبة من غير أن تمسها النار ، وقد تجمع ذوبها فصار غديرا ، ثم إن هبوب النسيم على تلك البركة يحدث تجاعيد في سطح مائها تشبه حلقات الدرع ، فكأن النسيم نسج لماء تلك البركة درعا أحكم نسجه ، وأتقن صنعه .

ثم ينتقل الشّاعر في أبيات المجموعة (ب) ليصف حديقة ذلك القصر وما تحويه من جميل الصور وعجيب المشاهد فيقول :

— أ —

وضراغم سكنت عرين رئاسة ... تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشّى النضارُ جسومَها ... وأذاب في أفواهها البلّورا
أسْدٌ كأن سكونها متحرّك ... في النّفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرتْ فتكاتها، فكأنما ... أقعَتْ على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها ... نارًا وألسنَها اللواحس نورا
فكأنّما سُلّتْ سيوف جداول ... ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه ... درعا فقَدَّرَ سردها تقديرا

— ب —

وبديعة الثمرات تعبر نحوها ... عيناي بحر عجائب مَسْجُورا
شجريةٌ ذهبية نزعت إلى ... سحر يؤثر في النُّهَى تأثيرا
قد سرجت أغصانها فكأنّما ... قبضت بهن من الفضاء طيورا
وكأنما تأبى لِوُقّع طيرها، ... أن تستقل بنهضها، وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها ... ماء كسلسال اللجين نميرا
خُرْسٌ تعد من الفصاح فإن شَدَتْ ... جعلت تُغرد بالمياه صفيرا
وكأنما في كل غصن فضة ... لانت فأرْسل خيطها مجرورا
وتريك في الصهريج موقع قَطْرها ... فوق الزبرجد لؤلؤا منثورا
ضحكت محاسنه إليك كأنّما ... جُعلت لها زُهُر النجوم ثغورا

شرح لغوي :

ضراغم : جمع ضرغام وهو الأسد . عرين : بيت الأسد ، والمقصود بعرين الرئاسة قصر المنصور . النضار : الذهب الصافي . فتكاتها : افتراسها. أقعت على أدبارها : قعدت على أذنابها. سلّ السيف : أخرجه من غمده، قدّر سردها : أحكم حلقاتها . مسجورا : مملوءا . النهى : العقول ،

ورب حديقة وقعت عليها عيناي حين تجاوزت البركة إلى ما حولها، شاهدت فيها عجبا حيث أبصرت أشجارا ذهبية اللون ، بديعة الثمر ، تبهر الأنظار ، وتسحر العقول ، ومما يزيد من روعة تلك الحديقة أن أشجارها قد علقت بها مصابيح على هيئة طيور تخيل لمن يراها أن الأغصان قد قبضت على تلك الطيور ومنعتها من الطيران لتنعم بتغريدها الحلو ، وشدوها الجميل . ومن أفواه تلك الطيور يندفع ماء صاف كأنه فضة مذابة ، ولهذا الماء صفير يشبه التغريد ، وهذا الأمر مما يجعل الانسان يظن التماثيل طيورا حقيقة ناطقة . وذلك الماء حين يسيل من بين غصون الشجر يشبه خيوطاً أو أسلاكا فضية تسقط على أحواض الزرع الأخضر فتبدوا قطرات الماء فوق الزرع كأنها لؤلؤ منثور . وتضفي على ذلك الزرع بهاء ورواء ، حيث تلمع فوقه القطرات وكأنها نجوم زاهية تصنع ثغور الزرع الباسم الجميل .

دراسة أدبية :

تضمن النص فكرتين أساسيتين ، صور الشّاعر في أولاهما لوحة رائعة لبركة القصر وما يحيط بها من تماثيل مرمرية المادة ، ذهبية اللون لأسود يخرج الماء من أفواهها صافيا لامعا كأنه الفضة الذائبة ، وينصبّ في البركة التي يلعب النسيم بسطحها ، ويصنع ما يشبه الحلقات بظهر مياهها .

وصور في ثانيتهما لوحة رسمت فيها عباراته ما يجاور تلك البركة من حديقة ذات أشجار وثمار ، وقد علقت بتلك الأشجار مصابيح على هيئة طيور يندفع الماء من أفواهها ، وكأن خريره تغريد يصدر عنها ثم إن ذلك الماء ينحدر نحو زرع أخضر يرويه ويبلله فإذا هو نام مزدهر .

وإنك لتلاحظ أن الأفكار عادية ، ولكن الشّاعر قد عرضها بشكل تصويري ألّف فيه بين أجزاء كل صورة في فن ومقدرة جعلا بعض النقاد يشبهونه بابن الرومي .

ويبدو من النص أن الشّاعر كان مأخوذا بعجيب ما رأى فعبر في صدق عن أحاسيس الدهشة من جمال القصر ، وروعة ما احتواه .

ويجدر بنا أن نقف هنا وقفة نؤكد فيها من جديد أن الطّبيعة في هذه البلاد بما حباها الله من جمال وما أحدثت بها يد الفن والحضارة من سحر وروعة كانت ملهمة الشعراء ، تبهر عيونهم ، وتأسر قلوبهم ، وتمتلك عليهم نفوسهم ، فتنطلق بآياتها ألسنتهم ، ويصف فتنتها بيانهم ، ولذا فقد ازدهر في ذلك العصر شعر الوصف ، وحظيت منه الطّبيعة بأوفى نصيب .

وثمت شيء آخر يلفت النص نظرنا إليه هو أن الأمراء والحكام في هذه المنطقة العربية كانوا يعنون بشؤون العمران ، وتشييد القصور ، وتجميل المنشئات والبنايات شأنهم في ذلك شأن الحكام في المشرق العربي.

دراسة بلاغية :

كان موقف الشاعر في هذه الأبيات موقف المدرك للمشاهد ، الحاكي للمناظر ، المخبر عن دقائقها وسحر جمالها ، ولذا نجده قد عبر بالأساليب الخبرية في وصفه لما أثار إعجابه ، ونال إعظامه مما رأى وأحس من تلك الصور الرائعة .

وقد اعتمد الشّاعر في إبراز أفكاره على عرض مشاهده ومرئياته دو أن يكتفي بالعظمة التي هي عليها ، وإنما جللها من تصويره بثوب من الجمال ، وأضفى عليها من نفسه روعة الخيال ، متقصيا أجزاء كل صورة ، يجمع دقائقها ، وينسق ألوانها ، ويبث الحركة في أوصالها كأنه فنان مبدع ، ترى ذلك جليا في اللوحات الفنية التي عرض بها صورة الأسود الرابضة حول البركة معبرا عن شكلها وصوتها وهيئتها وطبيعتها ، وصورة المياه المتدفقة مبرزا صفاءها وصوتها وتأثير النسيم على سطحها ، وصورة الحديقة ذات الشجر المثمر والأغصان المجملة بمصابيح

تمثل طيورا ينحدر من مناقيرها الماء على الزرع الأخضر فإذا هو ناظر وجميل إلى غير ذلك من الصور الجذبة والمناظر الخلابة .

وقد حفلت عبارة النّص بالصور البيانية التي منها التشبيهات في مثل قوله : تركت خرير الماء فيه زئيرا ، كأن سكونها متحرّك في النفس ، تخالها والشّمس تجلو لونها نارا ، وألسنها نورا ، ماء كسلسال اللجين ، وغيرها من صور التشبيه العديدة في النص . والاستعارات في مثل قوله : نسج النسيم لمائه درعاً ، تعبر نحوها عيناي بحر عجائب تريك فوق الزبرجد لؤلؤا ، ضحكت محاسنه وغير ذلك . والكناية عن الحديقة في قوله : وبديعة الثمرات ، وعن جمال منظرها في قوله : نزعت إلى سحر . .

وكانت عبارة النص رائقة مشرقة ، سهلة واضحة ، يحسّنها الطباق غير المتكلف في قوله : خرير ، وزئير ، النضار ، والبلور ، سكونها ، ومتحرك – نارا ، ونورا – خرس ، وفصاح – الزبرجد ، ولؤلؤا . ويجملها الجناس في مثل : خرير ، وزئير – نارا ، نورا.

وقد أجاد الشّاعر اختيار الألفاظ الملائمة لفكرته ، المعبرة عن إحساسه فجاءت فخمة قوية في حديثه عن الأسود ، رقيقة عذبة في حديثه عن المياه ، زاهية ناضرة في حديثه عن الحديقة وزروعها ، والأشجار وغصونها .

مجمل القول في النص :

ابن حمديس من مشاهير شعراء الأندلس ، الذين عرفوا بالوصف وأجادوا بنوع خاص وصف الطّبيعة التي صوروها لوحات فاتنة ، وأحالوها رسوما وأشكالا حية نابضة .

وهذا النص نموذج لشعر ابن حمديس في وصف الطّبيعة ، عرض فيه لوحتين رائعتين استمدّ صورهما من قصر أمير بجاية (المنصور بن

الناصر بن أعلى الناس) ، إحدى اللوحتين تصور بركة هذا القصر ، والأخرى تصور حديقته ، وإذا كانت الأفكار التي وردت في النّص أفكارا عادية فإن إعجاب الشّاعر وتأثره بما رأى من روعة الفن وجمال القصر جعله يبرز تلك الأفكار العادية في شكل طريف أخاذ ، وينسق صورها في دقة رسام فنان ، ويسرح خياله ليحمل الصورة المرئية بصور خيالية بليغة تتنوع بين تشبيه واستعارة وكناية ، ويعبر عن ذلك كله بتراكيب صافية مشرفة ، يجملها بعض الزخرف البديعي المناسب ، واستعمال اللفظ في مكانه الذي يصلح فيه . وهكذا يبدو لنا أن ابن حمديس في وصفه وتصويره يشبه – إلى حد كبير – ابن الرومي كما ذهب إلى ذلك بعض النقاد .

والقصيدة من بحر الكامل ، وتفعيلاته :

متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن

مناقشة النص :

1 – عم يتحدث الشّاعر في أبيات المجموعة (أ) ؟

2 – ما ذا قال عن صوت الماء الذي ينصب في البركة ؟ وماذا قال عن عن لونه ؟

3 – تحدث الشّاعر عن تماثيل الأسود حول البركة ، فعرض للونها ، وهيئتها ، وطباعها – اذكر من النص ما عبر به عن كل من هذه الأمور .

4 – ما الصورة التي رسمها الشّاعر للآساد تحت ضوء الشمس ؟ وما الصورة التي رسمها لمياه البركة حين يهب عليها النسيم ؟

5 – ماذا يعني الشاعر بقوله : أسد كأن سكونها متحرك في النفس ؟

6 – انثر أبيات هذه المجموعة بعبارة أدبية .

7 ـ ما الأبيات التي تضمنت وصف حديقة القصر ؟ ماذا قال الشّاعر عن أشجار تلك الحديقة ؟ وعن المصابيح المعلقة في أغصانها ؟ وعن تماثيل الطيور المثبتة بها ؟ وعن الماء المتدفق من أفواهها ؟ أمسك بقلمك ، وارسم صورة لتلك الحديقة كما تصورتها بعد فهم النص : .

8 ـ استخرج من الأبيات لوناً بيانيا ، وآخر بديعاً ، ووضح أثر كل منهما في التعبير .

9 ـ يرى بعض النقاد أن ابن حمديس كان من أعظم وصافي الطبيعة ، كما يرى بعضهم أنه يشبه ابن الرومي في استقصاء كل أجزاء الموصوف ـ اذكر رأيك في كل من هاتين القضيتين ، واستشهد لما تقول من النص .

تدريب تطبيقي

المقالة الأدبية :

خرجت أصيل يوم إلى شاطيء البحر ، ووقفت تتأمل في تدفقه ، والزرع الأخضر على شاطئه وتنظر الشمس عند الغروب ـ صف هذه المناظر الخلابة في عبارة أدبية .

السؤال الكتابي :

ماذا يصور هذا النص من ظروف عصره ، وبيئته العربية في شمال إفريقية ؟

نمـــاذج من شعـــر ابن حمديـــس

أ ـ الوصف :

وصف بركة المنصور صاحب بجاية.

وزرّافة في الجوف من أنبوبهـــا ماءٌ يريكَ الجري في الطّيران
مركوزة كالرّمـــح حيثُ ترَى لـهُ من طَعنه الحلقَ انعطافَ سنان (1)
وكأنّما ترمي السّماء ببُنــدُق مُستَنبطٍ من لؤلؤ وجُمــان(2)
لو عاد ذلك الماءُ نفطاً أحرَقَتْ في الجوّ منه قميصَ كلّ عنان (3)
في بركة قامتْ على حافاتهـــا أسدٌ تذِلّ لعزّة السلطان
نزَعَتْ إلى ظُلْم النفوس نُفوسُها فلذلك انتُزِعَتْ من الأبدان (4)
وكأنّما الحيّاتُ من أفواههـــا يطرحنَ أنفُسهنّ في غُدران
وكأنّما الحيتانُ إذ لم تخشَـها أخذتْ من المنصور عهدَ أمان

---

(1) الحلق : الدروع . سنان : رأس الرمح ـ (2) جمان : فضة ، والمفرد جمانة.
(3) عنان : العنان هو السحاب وكل ما ارتفع من السماء ـ (4) نزعت إلى ظلم النفوس : مالت إلى ظلمها :

ب ـ الرثـاء :

قال ابن حمديس يرثي صقلية بعد سقوطها بأيدى الروم ، وسرقوسة بعد سقوطها بأيدي النّورمان :

أعاذِلُ دَعْني أطلق العَبْرَةَ التي ... عدِمتُ لها من أجملِ الصبر حابسا
فإني امرُؤٌ آوي إلى الشّجَنِ الذي ... وجدتُ له من حبة القلب ناخسا
تَعَوّذْتُ أرضي أن تعودَ لقومها ... فساءتْ ظنوني، ثم أصبحتُ يائسا(1)
وعزيتُ فيها النّفس لما رأيتها ... تُكابدُ داءً، قاتلَ السُّمِّ ، ناحسا
وكيف وقد سيمتْ هواناً، وصيّرتْ ... مساجِدَها أيدي النّصارى كنائسا ؟!
إذا شاءتِ الرهبانُ بالضّرب انطقتْ ... مَعَ الصُّبحِ والإمساء فيها النّواقيسا
صِقلّيّةٌ كادَ الزمانُ بلادَها ... وكانتْ على أهل الزّمان محارسا(2)
فكم أعينٍ بالخوف أمست سواهراً ... وكانت بطيب الأمْن منْهم نواعسا
أرى بلدي قد سامَهُ الرومُ ذِلّةً ... وكان بقومي عزّه متقاعسا(3)
وكانت بلادُ الكفر تلبسُ خوفَهُ ... فأضحى لذاك الخوفِ منهن لابسا..
وأضحت لهم سَرَقُوسة دارَ منْعة ... يزورون بالدّابرين فيها النواوِسا(4)
مَشَوْا في بلادٍ أهلُهَا تَحْتَ أرضها ... وما مارسوا منها أبِيّاً مُمَارِسا
ولو شُقّقَتْ تلكَ القبورُ لأنهضتْ ... إليهم من الأجداث أُسْداً عوابسا
ولكنْ رأيتُ الغيلَ ! إن غاب لَيْثُهُ ... تَبَخْتَرَ في أرجائِهِ الذّئْبُ مَائِسا(5)

---

(1) تعوذتْ أرضي : دعوتُ الله أن يحفظها ، ورجوت أن تعود لقومها. ـ (2) كاد الزمان بلادها : رماها بمكيدة وشر ـ (3) متقاعساً : ثابتاً ، منيعاً ـ (4) النواوسا : مقابر النصارى خاصة ، وهي حجارة منقورة يجعلون فيها موتاهم : وسرقوسة هي بلدة الشاعر في جزيرة صقلية . ـ (5) الغيل : غابة الأسد .

ج ـ الشكوى

ولابن حمديس من قصيدة يندب فيها الزمان ويشكو الإخوان .

أَتَحْسَبُنِي أَنْسَى وَمَازِلْتُ ذَاكِرًا … خِيَانَةَ دَهْرِي أَوْ خِيَانَةَ صَاحِبِي

تَغَذَّى بِأَخْلَاقِي صَغِيرًا وَلَمْ تَكُن … ضَرَائِبُه إلاّ خلاف ضَرَائِبِي(1)

وَيَا رُبَّ نَبْتٍ تَعْتَرِيهِ مَرَارَةٌ … وقد كان يُسْقَى عذب ماءِ السحائب

عَلِمْتُ بِتَجْرِيبِي أُمُورًا جَهِلْتُهَا … وقَد تُجْهَلُ الأشياءُ قبل التجارب

وَمَنْ ظَنَّ أَمْوَاهَ الخَضَارِمِ عذبة … قضَى بخلاف الظن عند المشارب(2)

وَلما رَأَيْتُ النَّاسَ يُرْهَبُ شَرُّهُمْ … تَجَنَّبْتُهُم واخترتُ وِحدة رَاهِب

---

(1) ضرائب : جمع ضريبة وهي الطبيعة التي ينشأ عليها المرء ويتعودها

(2) الخضارم : البحار

ابن سهـــل الأنـــدلسي

605 — 649 هـ

تعريف وتمهيد :

الشّاعر هو إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الإشبيلي ، من شعراء الأندلس البارزين ، ولد سنة 605 هـ ، ونشأ في أحضان بيئة غنية بالعلم والثقافة ، مترفة بالمال والجاه ، وعاش زمن بني هود وزمن المرابطين الذين وفدوا من شمال إفريقية ، وحكموا الأندلس ، وقد تلقى ثقافة على يد علماء اللغة والأدب في عصره ، ثم اتصل (بابن خلاص) صاحب (سبتة) وكتب له ، وكان يدين باليهودية ، ويقال : إنه أسلم في أواخر حياته ، وقد مات غريقاً مع (ابن خلاص) سنة 649 هـ.

ولابن سهل ديوان شعر أكثره في الغزل ، ويضم مع ذلك الغرض أشعارا في الرثاء ، والمدح ، والوصف ، والزهد .

من الموشحات الأندلسية

من المعلوم أن الشعر العربي القديم التزم التمسك بوحدة الوزن والقافية في كل أبيات القصيدة ، فلما فتح العرب بلاد الأندلس ، وأقاموا بها سار شعراؤهم على هذا الدرب ، وسلكوا هذا النهج إلى أن تأثروا بالغناء الشعبي الأسباني المتحرر من قيود الوزن والقافية ، إلى جانب ما تولد في نفوسهم من رقة وميل إلى الدعابة والعبث بالشعر ، والترنم بالغناء ، فعند ذلك شاع في الأندلس فن جديد من النظم عرف (بالموشحات) .

وقد ظهر هذا الفن المبتكر أول ما ظهر على يد (مقدّم بن معافر الفريري) وأخذه عنه (أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه) صاحب العقد الفريد ، ولكن موشحاتهما لم تلق رواجا كثيرا حتى جاء (عبادة القزاز) شاعر (المعتصم بن صمادح) فأحيا هذا اللون من النظم ، وبرع فيه ، وشاع بعده على ألسنة

الكثيرين من الشعراء الذين استعملوه في أغراض الشعر المختلفة ، وبقيت الموشحات فترة غير قليلة في مستوى لغوي لائق ، فصيحة الأسلوب قويمة التركيب ، ثم أصابها اللحن وهبط مستواها إلى العامية ، وشاعت على ألسنة السوقة ، ونشأ بذلك ما يسمى (بالأزجال) .

فالموشّحات إذاً لون من ألوان الشعر العربي استحدثه الأندلسيون وبرعوا فيه ، والموشح عبارة عن منظومه شعرية تتألف من عدة وحدات كل وحدة منها لها قافية مستقلة مع وجود لازمة تسمى القفل يبتدىء بها الموشح غالبا ، وتتكرر بوزن وقافية وعدد أبيات ثابتة مع وحدات المنظومة كلها ، ثم تجعل اللازمة أو القفل ختاما للموشح.

وهذا النص منظومة لابن سهل صاغها في الغزل على شكل موشحة :

هل درى ظبي الحمى أن قد حَمى　　　قلب صب حله عن مَكْنِسِ
فَهْوَ في حَرٍّ وخَفْقٍ مثلما　　　لعبت ريحُ الصَّبا بالقَبَسِ

(أ)

يا بدورا أشرقتْ يومَ النَّوى　　　غُرَرًا سلكتْ بي نَهْجَ الغَرَرْ
ما لقلبي في الهوى ذنبٌ سوى　　　منكم الحسن ومن عيني النظرْ
أجتني اللذات مكلوم الجوى　　　والتذاذي من حبيبي بالفكَرْ

— — — —

كلما أشكوه وجدا بسما　　　كالرُّبا بالعارض المُنْبجِسِ
إذ يقيم القطر فيها مأتما　　　وهي من بهجتها في عُرُسِ

(ب)

أيها السَّائل عن جرمي لديه　　　بي جزاء الذنب وهو المذنبُ
أخذت شمس الضحى من وجنتيه　　　مَشرِقاً للشمس فيه مَغْرِبُ

ذَهَبَ الدمعُ بأشواقي إليـه ولـه خدٌ بلحظي مُذْهَبُ

يَنْبُتُ الوردُ بغرسي كلما لاحَظَتْهُ مقلتي في الخَلَس
ليت شعري أيُّ شيءٍ حَرَّمَا ذلك الوردَ على المُغْتَرِسِ ؟ !

(ج)

كلما أشكو إليه حُرَقِي غادرتني مقلتاه دَنِفا
تَرَكَتْ ألحاظُهُ من رمقي أثرَ النمل على صُمِّ الصفا
وأنا أشكرهُ فيما بَقي لستُ ألحَاهُ على ما أتلَفا

فهو عندي عادلٌ إن ظلما وعذولي نُطْقُهُ كالخَرَسِ
ليس لي في الأمر حكم بعدما حل من نَفْسي محلَّ النَّفَسَ

شرح لغوى :

ظبي الحمى : المقصود محبوبة الشاعر التي يشبهها بالظبي . صبٌ عاشق ولهان. حله : نزل به ، وسكن فيه. مكنس: بيت الظبي . الخفق: اضطراب القلب . القبس : الشعلة التي تؤخذ من نار عظيمة . النوى : الفراق . غُرَرًا : بيض الوجوه . الغَرَرَ : الخداع ، التعريض للخطر . مكلوم : مجروح . الجوى : حرقة الحب وشدة آلامه . بالفكَرِ : بالتفكر فيه والتذكر له . الوجد : شدة الحب . الربا : جمع ربوة وهي الأرض المرتفعة يجود فيها الزرع والزهر . العارض المنبجس : السحاب الذي يهطل منه الماء. القطر : المطر . جُرْمي : جريمتي وذنبي . اللحظ : باطن العين ، والمقصود هنا العين والنظر . مُذْهَب : في لون الذهب . مقلتي : عيني . الخلس : استراق النظرات في خفة وسرعة. ليت شعري : تعبير للتعجب يقصد به ليت شعري

يدلني على جواب لما يلي ، أو ليتني أشعر . حُرَقي : حرقة شوقي . دَنِفًا : مشرفا على الهلاك ، مريضا ضعيفا . رمقي : ما بقي في من حياة ضعيفة . صُمّ الصفا : الصخرة الملساء . ألحاه : أعيبه وألومه. عذولي : من يلومني في حبه .

دراسة أدبية :

هذه المنظومة موضوعها الأدبي هو الغزل ، وقد تضمنت عدة أفكار منها : تشبيه الشاعر محبوبته بالظبي ، وأن حبها سكن قلبه فجعله في حر وخفق ، وأنها تبدت مع أترابها يوم الفراق بدار تحيطه البدور ، وأن جمالها سباه وسحره فلا ذنب له في حبها ، وأنه إذا جاءها شاكيا وجْدهُ تبسمت وتدللت عليه ولم تعبأ بشكواه فمثلها معه كمثل وجه الرابية يشرق بانهمار المطر ، ثم يعود ليذكر أنه لا ذنب له في ذلك فإن طلعتها الرائعة ، ووجنتاها المتوردة قد أوقدت نار الحب في قلبه ، وأنه استشفع لديها بدمعه الذي أرسله إليها رسول شوق فلم يظفر منها بغير الإعراض، كما يذكر أنه كلما اختلس النظرات إليها احمر وجهه خجلا يوحي بالاستحياء من ذلك . ويعجب الشاعر من أن يحرم عليه التمتع بغرس تعهده ورعاه ، وبعد ذلك يكرر الشاعر أنه كلما أضناه الحب وشكا إليها ما يعانيه نظرت إليه بعينيها الساحرتين ولم تستجب لشكواه فيزداد لذلك عناؤه ، وأخيرا يقرر أنه مع كل هذا لا يستطيع لومها ، بل يقدم الشكر لها ، ويعتبر ظلمها عدلا ، ولا يسمع للعاذلين في أمر حبها قولا ، حيث سكنت قلبه ، وجرى حبها من نفسه مجرى النَّفَس من جسمه .

وأنت تلاحظ أن الشّاعر وصف من محبوبته جمالها الحسي مقتصرا في ذلك على نضرة الوجه وسحر العينين ، وتورد الخدين . كما عرض آثار الحب عليه ، شكوى وجد ، وسقام جسم ، وبكاء عين.

وهذه المعاني كلها مألوفة ، وهذا النمط في الغزل قديم طالما تناوله ورردده من قبل شعراء الغزل في قصائدهم .

أما عاطفة الشّاعر فلا نكاد نحس منها صدق الشعور ، أو نلمس فيها لهيب الانفعال ، وإنما الذي نحسه من قوله أن الألفاظ خالية من الروح ، وقد شغف فيها الشاعر بالأسلوب أكثر من شغفه بالمحبوب مما يحملنا على القول بأن هذه المنظومة كانت مداعبة غزلية لا تعبر عن تجربة شعورية .

على أن الجديد في هذه المنظومة هو صوغها في شكل الموشح بتقسيمها إلى عدة مقطوعات متنوعة القافية مع وجود اللازمة التي تكررت مع كل مقطوعة حيث سار الموشح كما يلي :

بيتان قافيتهما حرف السين ، مقطوعة من ثلاثة أبيات قافيتهما حرف الراء ، بيتان قافيتهما حرف السين ، مقطوعة من ثلاثة أبيات قافيتهما حرف الباء ، بيتان قافيتهما حرف السين ، وهكذا إلى نهاية الموشح . ويمكن بذلك اعتبار البيتين اللذين قافيتهما حرف السين هما اللازمة أو القفل لهذه المنظومة الموشحة .

وإننا لنلمح من هذا النص أن الشعراء في الأندلس كانوا إلى حد كبير مرتبطين بتراث المشرق وتقليده ، فهذا شاعرنا حاول التجديد ، ولكنه لم يصل إلى ما يريد ، ووقفت غاية التجديد عند الشكل ، ولم تستطع أن تتجاوزه إلى المعنى والمضمون .

ومما يجدر بنا أن نؤكده هنا أن الموشحات نشأت في هذا العهد استجابة لحياة الأندلسيين المنطلقة ، ونفوسهم الحرة ، وتلبية لحاجة الغناء والموسيقى اللذين أولع بهما الناس ولعا كبيرا .

دراسة بلاغية :

الشاعر في هذه المنظومة يروي قصته مع محبوبته التي هام بها (حسبما ادعاه) ومنحها قلبه حتى أضناه الحب ، ولكن لم يظفر منها بغير الصد والهجران ، ولذلك نجد الأسلوب الخبري المعبر عن الإعجاب أحيانا ، وعن الشكوى أحيانا أخرى هو الأسلوب الغالب على

النص ، وأن الأسلوب الإنشائي قليل ، ومنه : الاستفهام الذي يدل على التساؤل والحيرة والتمني في قوله : هل درى ظبي الحمى . . ؟ ، والنداء الذي قصد منه التمليح في قوله : يا بدورا أشرقت يوم النوى ، والاستفهام الدال على التعجب في قوله : أي شي حرم ذلك الورد على المغترس ؟

وقد تمثل الخيال كثيرا في النص بكل أدواته من تشبيه واستعارة وكناية ، فكان من التشبيه قوله : فهو في حر وخفق مثلما لعبت ريح الصبا بالقبس ، كلما أشكوه وجدا بسم كالربا بالعارض المنبجس — نطقه كالخرس — حل من نفسي محل النفس . وكان من الاستعارة قوله هل درى ظبي الحمى — يابدورا أشرقت يوم النوى — يقيم القطر فيه مأتما — أي شيء حرم ذلك الورد على المغترس ؟ وجاءت الكناية عن حمرة الخدين وتوردهما في البيت التاسع (أخذت شمس الضحى . . البيت) ، والكناية عن ضآلة الرمق الذي أبقاه المحبوب له في البيت الرابع عشر (تركت ألحاظه . . البيت)، والكناية عن الانصراف عن أقوال العاذلين وعدم المبالاة بهم في قوله : عذولي نطقه كالخرس . إلى غير ذلك من الصور العديدة ، والأخلية غير الجديدة التي وردت في تصوير الشعراء السابقين الذين كانوا في مثل ظروف الشاعر وموقفه .

أما التعابير والتراكيب فقد غلبت عليها الصنعة حيث أسرف الشاعر في الزخرف البديعي وأكثر من المحسنات اللفظية كالطباق في : أشكوه وجدا ، بسما — مأتما ، عرس — مشرقاً ، مغرب — ما بقي ما أتلف — عادل ، ظالم — نطقه ، خرس .

والجناس بين : حِمى حَمى ، غُرر ، غَرر — ذهب مُذهب — نَفْس ، نَفَس . وهذه العناية الشديدة بالمحسنات لم تضف على النص جمالا ، وانما أثقلته بقيود التكلف والصنعة والتقليد .

ولكن من الإنصاف أن نقول أن الشّاعر التزم الألفاظ العربية ، واختار الكلمات السهلة الموحية ، واستعملها في مدلولها المناسبة ، وصاغها صياغة جميلة ، ذات موسيقى ساحرة .

مجمل القول في النص :

الموشح منظومة شعرية ابتدعها الأندلسيون استجابة لبيئتهم الجديدة ، وظروفهم الطبيعية ، وحياتهم الاجتماعية . والموشح يقوم عادة على عدة مقطوعات مختلفة القافية، تتكرر مع كل مقطوعة منها لازمة تسمى القفل ، وهذه اللاّزمة ذات وزن وقافية وعدد أبيات ثابتة وغالبا ما يفتتح بها الموشح ، ولكنها دائما تكون ختاما له .

وموشحنا هذا لابن سهل نظمه في الغزل ، وضمنه وصف جمال محبوبته ، وأثر ذلك الحب عليه من معاناة حرقة الحب ، وآلام التدلل والصد والهجران ، وقد جاءت هذه المعاني ترديدا لما سبقه به شعراء الغزل من قبل دون أن يضيف إليها الشّاعر جديدا — وقد بدت عاطفة الشاعر في حالة من الفتور الشعوري الذي لا يدل على صدق الإحساسات عنده ، ولا يشف عن عمق الانفعالات في داخله .

أما الصور البيانة والأخيلة فقد كثرت في النص وتنوعت ، وازدحم بها الأسلوب ، ولكنها فقدت عنصر الجدّة والطرافة حيث جاءت موافقة لخيال وتصوير غيره من الشعراء السابقين .

كما أن الشّاعر أجهد نفسه في الزخرفة اللفظية التي أثقلت الأسلوب بقيود الصنعة والتكلف وإن كان قد أحسن كثيرا في اختيار الألفاظ ، وانتقاء الكلمات السهلة المعبرة ، واحتفظ للموشح بالمستوى الفصيح من الكلام .

والمنظومة من بحر الرمل ، وتفعيلاته :

فاعلاتن فاعلاتن فــــاعلن   فــاعلاتن فــاعلاتن فــاعلــن

مناقشة النص :

1 ـ ما موضوع هذه المنظومة ؟ وما النسق الذي سار عليه الشاعر في نظمها ؟

2 ـ في البيتين الأولين كيف صور الشاعر محبوبته ؟ وكيف صور قلبه في معاناة آلام الحب ؟

ـ في المقطوعة (أ) :

3 ـ من الذين يناديهم الشاعر ؟ وماذا يحكي لهم من أمره ؟ وما رأيك فيما يبرر به وقوعه في الحب ؟

4 ـ ذكر الشاعر موقف محبوبته منه حين يأتيها شاكا ـ فماذا ؟ قال ؟ وما الصورة التي عرضها لتوضيح ذلك الموقف ؟

ـ في المقطوعة (ب) :

5 ـ يعود الشاعر لتبرير وقوعه في شباك الحبّ ، فماذا يقو ل ؟ وما الذي يصوره من جمال محبوبته ؟ وماذا يشكو من أمرها معه ؟

6 ـ ما رأيك في كلّ من الصورتين : ذهب الدمع بأشواقي إليه ـ ينبت الورد بغرسي ـ وضح معللا لما تراه .

ـ في المقطوعة (ج) :

7 ـ علام يدل تعبير الشاعر بقوله : كلما أشكو . . ؟ وكيف صور موقف محبوبته من شكواه في هذه المرة ؟ وماذا ذكر من أثر ذلك عليه ؟

8 ـ كيف ينظر الشاعر إلى تصرف محبوبته معه ؟ وما هو موقفه من أقوال العاذلين ؟

ـ في النص كله :

9 ـ ما الأفكار الأساسية التي دار حولها النص ؟ وهل يتضح فيه بصورة أكمل جانب الغزل أم جانب الشكوى ؟ وضح مستدلا .

10 ـ أترى للشّاعر فيما أورده من المعاني تجديدا وابتكارا ؟ اذكر رأيك مع الاستشهاد له . في البيت الرابع أسلوب قصر ـ وضح أجزاءه والغرض البلاغي منه .

11 ـ عرض الشّاعر كثيرا من الصور البيانية ، فماذا كان حظ تلك الصور من الطّرافة ؟ ولماذا ؟ أيد قولك بالأمثلة .

12 ـ حفلت المنظومة بالمحسنات البديعة ـ اذكر نوعين مختلفين منها ، ومثل لهما .

13 ـ ما مدى صدق الشاعر في التعبير عن عاطفته ومشاعره ؟

14 ـ ما المقصود بالموشحة ؟ وما الظروف التي ساعدت على ظهور الموشحات في الأندلس ؟

تدريب تطبيقي

المقالة الأدبية :

الحب الشريف العفيف عامل كبير من عوامل تحقيق العز والعلا

السؤال الكتابي:

كان من عوامل انهيار الدولة الأندلسية انغماس الناس في الترف والمجون ، وميلهم إلى الانحلال الخلقي . وضح ذلك .

نماذج من شعر ابن سهل

أ ـ الغــزل

بأبي جفونٌ معذّبي وجفــونـــــي ... فهيَ التي جَلَبَتْ إليّ مَنُــوني(1)
ما كنتُ أحسبُ أن جَفْنــي قبلها ... يقتــادنـي من نظرَةٍ لفُتُـــونِ
يا قاتَلَ اللهُ العيونَ لأنهَـــــا ... حَكَمَتْ علينَا بالهوَى والهُونِ
ولقد كتمتُ الحبّ بين جوانحي ... حتى تكلم في دُموع شؤوني(2)
هيهات لا تخفى علامات الهوى ... كادَ المريبُ بأن يقولَ: خذوني(3)
وبمُهجتي ألحاظَ ظبيةَ وَجْرةٍ ... حرّاسُ مَسْكنهَا أسودُ عرينِ(4)
سَدّوا على الطُّرْقَ خوْفَ طريقهمْ ... فالطيفُ لا يسري على تأمينِ
أوَمَا كفاهُم مَنْعهم حتّى رَمَوْا ... منهم مبرّأةً برجم ظنـونِ ؟ ..
يا عاذلي ذرْنـي وقلبي والهوى ... أأعرتني قلباً لحمل شجُونـــي ؟
يا ظبيةً تلـوي ديـونـي في الهـوى ... كيف السبيلُ إلى اقتضاء ديوني (5)
ما كانَ ضَــرّكِ يا شقيقة مُهجتي ... أن لـو بَعَثْتِ تحيةً تُحيينـي ؟
زكّي جَمالاً أنت فيـه غنيــةٌ ... وتصدقـي منـه على المسكيـن
مُنّي عليه ولـو بطيف طارق ... ما قَلّ يكثُرُ من نَـوالِ ضنينِ
ما كنتُ أحسب قبل حُبّكِ أن أرى ... في غير دار الخُلْدِ حُورُ العينِ
قَسَماً بحُسْنك ما بصرتُ بمثلـهِ ... في العالمين شهـادةً بيميـنِ !

(1) منوني : موتي ـ (2) شؤوني : مجرى دموعي ، والمفرد شأن ـ (3) المريب: المذنب ـ (4) وجرة : اسم موضع في الجزيرة العربية بين مكة والبصرة .
(5) تلوي ديوني : لا توفيها .

ب – الزهد

أسْعَدِ الوجدَ بدمع وكَفا ... لا تَقُل للدمع حسبي وكَفى! (1)
لستُ في دمعي غريقاً إنما ... جَسَدي خفَّ ضَنىً حتّى طفَا(2)
جادَ غَيثُ الدَّمْع من بعدكَ في ... مُقلتي رسمَ الكرى حتى عفا(3)
ذكركَ الأعطرُ يُبكيني دماً ... رُبَّ مِسْك بشذاهُ رَعَفا
كنتُ أشكو في الهوى واليوم قدْ ... تُبْتُ ، يعفو الله عما سَلَفا

---

(1) بدمع وكفا : جرى وسال والمضارع يَكِفُ . والألف للإطلاق . حسبي : كفاني ، كفى : أغنى عن غيره ، والمضارع منه يكفي . – (2) ضنى : سقما وهزالاً – (3) الكرى : النوم .

ثانيا - من النثر الأندلسي

ابــــن الخطيــــب

713 ـــ 776 هـ.

وصية لسان الدين بن الخطيب لأبنائه

تعريف وتمهيد

حبّ الآباء للبنين غريزة أودعها الله نفوس الآباء ، فجعل قلب كل أب عامراً بالمحبة والعطف على أبنائه المقبلين على حياة لا يعرفون من أمرها كما يعرف أبوهم المدبر عنها . . وهكذا حفلت كتب الأدب والتّاريخ بكثير من الوصايا يوجهها الآباء إلى الأبناء ، لتكون لهم خطّة عمل ، ودستور حياة .

وقد كانت وصية لسان الدين بن الخطيب لأبنائه من أشهر الوصايا التي عرفها الأدب العربي . وإليك فيما يلي مقتطفات يسيرة من هذه الوصية القيمة التي اشتهر أمرها ، وذاع خبرها ، وتناقلتها الأجيال جيلاً بعد آخر .

ـ أ ـ

اعلموا ـ هداكم الله تعالى ـ أنّي مودّعكم وإن سالمني الرّدى ، ومُفارِقكُم وإن طال المدى . . ولا أقلّ للحَبيب المودِّع مِنْ وَصيَّة مُحْتَضَرٍ وعُجَالة مُقْتَصِرٍ ، ورَتيمةٌ تُعقَدُ في خنْصَرٍ ، ونصيحة تكونُ نَشيدَةَ واعٍ مُتبصِّرٍ ، تتَكفّلُ لَكُمْ بِحُسْنِ العَواقبِ مِن بَعْدِي ، وتوضّح لكم مِن الشّفقَةِ ولحنوّ قَصْدي

ـ ب ـ

وَاعْلَمُوا أنّي قَطَعتُ في البَحْثِ زَمَاني ، وَجَعَلْتُ النّظَرَ شاني ، منذ بَراني الله وأنشَاني ، مَعَ نُبْلٍ يَعْتَرَفُ بِه الشّاني ، وَإدْراكٍ يُسَلّمُهُ العَقْلُ الإنسَاني . .

(1) راجع التعريف بابن الخطيب في القسم الخاص بالتراجم الأدبية .

— ج —

وتمسَّكوا بكتاب الله تعالى حفظاً وتلاوة ، وتفكروا في آياته ومَعانيه . وامتَثلوا أوامِرَه ونواهيَهُ ، ولا تتأوَّلوه ، ولا تَغلُّوا فيه ، وأشربوا قلوبكم حبَّ من أنُزل على قلبه . وصونوا شعائرَ الله صون المحترم ، واحفظوا القواعد التي ينبني عليها الإسلامُ حتى لا يَنخَرِم .

— د —

وأمروا بالمعروف أمرا رفيقاً ، وانهوْا عن المُنكرِ نهياً حريّاً بالاعتدال حقيقا . وأطيعوا أمرَ من وَلاّهُ اللهُ من أموركم أمرًا ، ولا تَقرَبوا من الفتنة جَمْرا ، ولا تُداخلوا في الخلاف زيداً ولا عمراً . وعليكم بالصدق فهو شعارُ المؤمنين ، وأهم ما أضرى عليه الآباء ألسنةَ البنين . وإياكم والكذب فهو العورة التي لا تُوَارَى ، والسوأة التي لا يرتاب في عارها ولا يُتَمارى . وعليكم بالأمانة فما الخيانةُ لومٌ ، وفي وجه الديانة كُلُومٌ . . وحافظوا على على الحشمَة والصيانة ، ولا توجدوا للغدر قبولاً ، «وأوفوا بالعهد إن العهدَ كان مسؤولا». ولا تأكلوا مالَ اليتيم بغير حقّ يبيحُهُ ، وانزعوا الطمعَ ، والتَمسوا الحلالَ . . وإياكُم والظالم ، فالظالم مُمقُوت بكلّ لسان ، مجاهرٌ اللهَ تعالى بصريح العصْيان . و(الظلم ظلمات يومَ القيامة) كما ورد في الصحاح الحسان. وقابلوا نِعَم الله بالشكر ، ولا تَطغوا في النّعم فتقصّروا عن شكرها ، وتلفّكم الجهالة بسكرها ، وتتوهموا أن سعيكم جلبها وجدّكُم جلبها فالله خير الرازقين وَّ العاقبَةُ لِلْمُتقين .

— هـ —

واللهَ اللهَ لا تنسوا الفضل بَينكم ، ولا تُذْهِبوا بذهابه زَينَكُمْ .

ولْيَلْتَزِمْ كل واحد منكم لأخيه ما يشُد به تواخيه ، بما أمكنه من إخلاَص وَبرّ ، وَمُرَاعاة في عَلاَنيَّة وَسرٍّ ، ولا تنافسوا في الحظوظ السخيفة . . وإذا كان رزقُ العبد على المولى ، فالإجمال في الطلب أولى ، وليحذر معاداة الرجال ، ومَزَلاَتِ الإذلال ، وفسادَ الخبال . .

— و —

وإياكم وطلب الولايات رغبة واستجلاباً ، واستظهاراً على الخطوب وغلاباً ، فذلك ضرَرٌ بالمروءات والأقدار ، وداع إلى الفضيحة والعار ، ومن امتحن بها منكم اختياراً أو أجْبرَ عَلَيْهَا إكرَاهاً وإيثاراً ، فَلْيَتَلَقَّ وَظائِفَهَا بسعَة صَدْرِه ،ويبذل فيها ما يشهد أن قدرَها دون قدرِه فالولايات فتنة وَمحنة ، وأسرٌ وإحنةٌ ، وهي بين إخطاء سعادة ، وإخلاَل بعبادة وتوقع عَزْل وإدالة ، بإزاء بيع جد بهزل ، ومزلّة قدم ، واستتباع ندم . ومآل العمر كله موت وصعادٌ ، واقتراب من الله وابتعاد . جعلكم الله ممن نفعه بالتبصير والتنبيه ، وممن لا ينقطع بسببه عمل أبيه .

— ز —

هذه — أسْعَدَكُم الله — وصيتي التي أصدَرْتها ، فتَلَقَّوها بالقبول لنُصحها ، والاهتداء بضوء صبحها ، والسلام عليكم من حبيبكم المودِّعَ ، والدكم محمّد بن عبد الله بن الخطيب ،
ورحمة الله وبركاته

«من نفح الطيب باختصار»

شرح لغوي :

مُختَضَر : اسم مفعول من احتُضر بمعني حضرته الوفاة . عُجالة مقتصر : العُجالة ما تعجّلته من كل شيء . رتيمة : خيط يعقد في

في الإصبع للتذكير. النظر : البحث والتأمل . شاني : شأني أو حالي وعادتي . برائي : برأيي ، خلقني أنشأني : أنشأني : خلقني . الشاني : الشانيء وهو المبغض مع عداوة وسوء خلق . امتثلوا : أطيعوا واتبعوا . ولا تغلوا : ولا تتجاوزوا الحد الذي يقبله العقل والشرع . شعائر الله : معالم دينه ، والكلمة جمع مفرده شعيرة . ينخرم : يذهب أو يضيع . رفيقاً : فيه رفق وسهولة . حرياً : جديرا أو مناسباً . . أضرى عليه : أغرى به وحض عليه . تُواري : تُستَر وتخفى بالبناء للمجهول . اوم : لؤم وهو البخل وخسة الأصل . كلوم : جروح ، والمفرد كلمٌ . التمسوا: اطلبوا . الحشمة : الأدب والحياء . ممقوت : مُبغضٌ أشد البغض . الصحاح الحسان : الأحاديث النبوية الصحيحة . جدكم : حظكم . حلبها : أتى بها . الفضل : الإحسان إلى الأهل وغيرهم . المولى : الله عز وجل . الإجمال في الطلب : الاعتدال وعدم الإفراط والفعل أجمل استجلاباً : طلباً ، والماضي : استجلب . استظهاراً : استعانة ، والماضي منه استظهر . غلاّباً : مغالبة ، والماضي غالب . إيثارا : تفضيلاً له على غيره والفعل آثر بمعنى اختار وفضّل . سعة صدره ، حلمه ، دون قدره ، أقل من قيمته . إحنةٌ : حقد . إخلال بعبادة : تقصير فيها . إدالة : غلبةٌ ، وهو مصدر الفعل أدال بمعنى نزع منه الدولة والغلبة . مآل العمر : مرجعه ونهايته وهو مصدر ميمي من آل يؤول . التبصير : التعليم ، وهو مصدر الفعل بصّر .

إيضاح وتحليل :

هذه مقتطفات يسيرة من وصية لسان الدين بن الخطيب لأولاده الثلاثة عبد الله ومحمّد وعلي حين عزم على مغادرة الأندلس في أواخر حياته .

يخاطب الكاتب أولاده في القسم الأول من وصيته قائلاً لهم : اعلموا يا أبنائي هداكم الله تعالى إلى الخير أنني سأموت مهما طالت مدة حياتي . وأقل ما يفعله المحب من أجل أحباب يودعهم وصية يتركها لهم

من بعده ، تذكرهم بما يمكن أن ينوه من الأمور الهامة ، ونصيحة يحرص عليها العاقل لتضمن له سلامة العواقب في شؤونه كلها .

وفي القسم الثاني (ب) ينوه صاحب الوصية بقيمة النصائح التي جاءت في وصيته ، لأنها نصائح صدرت عن رجل ناضج العقل ، واسع الخبرة والتجربة ، قضى حياته كلها في البحث والدرس والتأمل حتى أحرز مكانة عالية اعترف له بها العدو والصديق . .

وفي الفقرة (ج) يتناول الكاتب أمرا جليلاً ، وهو القرآن الكريم فيدعو أبناءه إلى التمسك به ، ويطالبهم بحفظه وقراءته ، واتباع أوامره ونواهيه ، من غير مبالغة في تفسيره بما لا يقبله العقل والدين ، ويوصيهم بمحبة النبي (ص) والمحافظة على شعائر الله تعالى التي هي معالم دينه أو علاماته الدالة على وجوده ، كالصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج، والجهاد في سبيل الله ، فإنها قواعد الدين التي تحفظ بقاءه ، وتضمن استمراره وخلوده .

وفي الفقرة (د) يوصي ابن الخطيب أولاده بجملة صالحة من الأخلاق الحسنة ، والخلال الطيبة ، فيطلب منهم أن يأمروا بالمعروف من غير شدة ، وأن ينهوا عن المنكر من غير إسراف ، وأن يطيعوا أمر الحاكم الذي ولاه الله أمور المسلمين ، ويوصيهم بالابتعاد عن الفتن ، والخلافات الشخصية ، والسياسية ، ويحضهم على التزام الصدق رأس الفضائل ، وينهاهم عن الكذب رأس الرذائل ، ويأمرهم باتباع الأمانة وأداء الأمانات إلى أهلها ، ومجانبة الخيانة لأنها تدل على لؤم صاحبها وخسة أصله . وينصحهم بالمحافظة على الأدب والأخلاق ، والبعد عن الغدر وأكل مال اليتيم، والطمع . ويدعوهم إلى طلب الرزق عن طريق الحلال ، وإلى ترك الظلم ، وإلى مقابلة نعم الله بالشكر ، لأن الشكر خير وسيلة لزيادة النعمة . .

وفي الفقرة (هـ) يوصي ابن الخطيب أولاده بالإحسان إلى أهلهم وإخوانهم عن طريق المساعدات المادية كتقديم المال وغيره ، أو عن

طريق المساعدات المعنوية ، كالإخلاص للأهل والإخوان ، والمحافظة على مودتهم في الغيبة والحضور ، والسر والعلانية . وينهاهم عن التنافس في حطام الدنيا ، ومطالبها لأنها أشياء حقيرة زائلة ، لا تستحق منافسة ، فالرزق من عند الله لا من عند الناس ، وهو قسمة عادلة قسمها الله بين عباده ، ولذلك كان على المؤمن العاقل ألاّ يبالغ في إجهاد نفسه من أجل الحصول على المال والجاه ، فإن هذه المبالغة لا تزيد رزقه ، ولا تخفف من حزنه . . ثم يحذر الكاتب أبناءه من معاداة الرجال لأنها تجر عليهم المذلة والهوان .

وفي الفقرة (و) يحذر ابن الخطيب أبناءه من الجري وراء الوظائف العالية ، أو من السعي للوصول إلى الحكم طلباً للجاه والعز ، واستعانة به على خطوب الدهر ونوائبه ، فإن هذه المناصب العالية تضر بشرف أصحابها وأقدارهم ، وقد تسبب لهم الفضائح ، وتجلب عليهم العار ويطلب منهم إذا اختيروا لها ، أو أجبروا على قبولها ، أن يصرفوا الأمور بحلم وحكمة ، وأن تكون تصرفاتهم دليلاً على أن الوظيفة أدنى قيمة وأقل قدرا من قيمة صاحبها وقدره ، ويزهدهم في الولايات لأنها فتنة ومحنة وسجن ، ومجلبة للعدواة والحسد ، ولأن صاحبها إنسان شقي سيء الحظ ، يتعرض لصنوف البلاء ، وتشغله مهامه الكثيرة عن القيام بواجب العبادة ، ولأنه يظل في قلق شديد من أجل مصير يتهدده العزل في كل لحظة ، كما يتهدده الأعداء والخصوم العاملون على هدم مكانته ونفوذه ، ناهيك عن قلقه خشية الوقوع في أخطاء تزل فيها قدمه فيندم حين لا ينفعه الندم . . والعمر قصير ، نهايته الموت ، والعودة إلى الله ، ليلقى كل امرء ما قدمت يداه ؛ إن خيرًا فخيرٌ ، وإن شرًا فشرٌ ، ثمّ يدعوا الكاتب لأولاده أن يكونوا من العاقلين الذين ينتفعون بالوعظ والتعليم ، والصالحين الذين تكون أعمالهم الطيبة استمرارا لعمل أبيهم الطيب .

وفي الفقرة الأخيرة يختم الكاتب وصيته بدعوة أولاده إلى التزام ما جاء في وصيته من نصائح وإرشادات ، ويودعهم وداع محب يهمه أمر أحبابه الذين رحل عنهم .

دراسة أدبية :

هذه الفقرات التي مرت بك هي جزء يسير من فصل بليغ مؤثر كتبه لسان الدين ابن الخطيب على شكل وصية لأولاده حين بلغت حالته النفسية درجة بعيدة من السوء من جراء كيد الخصوم والأعداء ، ويأتي في مقدمة أولئك الخصوم والأعداء صديقاه اللذان تنكرا له ، وهما تلميذه ومعاونه في الوزارة الكاتب ابن زمرك ، وصديقه القاضي النباهي قاضي قضاة غرناطة. ويقول بعض الباحثين إن ابن الخطيب كتب وصيته هذه عام 772 ه قبيل مغادرته الأندلس بصفة نهائية ، أي قبل وفاته بأربعة أعوام .

وللوصية غرض أساسي أو فكرة عامة هي ضمان سعادة الأولاد الذين كتب الوصية من أجلهم عن طريق تقديم طائفة من النصائح والإرشادات الهامة . وقد سلك الكاتب لبلوغ غرضه ما يلي :

1 — في الفقر الأولى (أ) : نعى صاحب الوصية نفسه إلى أولاده في مستهل وصيته ليثير في نفوسهم كوامن الحزن على دنو أجل والدهم ، فيزداد إقبالهم على الوصية ، وانتفاعهم بها .

2 — وفي الفقرة الثانية (ب) : نوّه الكاتب بشأن الذي صدرت عنه الوصية ليزداد حرص الموصى إليهم على العمل بها كذلك مادامت هذه الوصية قد صدرت عن رجل عالم ، حكيم ، مجرب ، فاضل، كأبيهم .

3 — وفي الفقرة الثالثة (ج) يطلب من أولاده أن يتمسكوا بكتاب الله ، وأن يحبوا رسوله الكريم ، ويحافظوا على شعائر الدين .

4 ــ وفي الفقرة الرابعة (د) يسوق إليهم طائفة صالحة من الإرشادات على شكل أوامر ونواه : فيأمرهم بالمعروف ، والتزام الصدق ، وأداء الأمانات إلى أهلها ، والمحافظة على الأدب واللياقة ، وطلب الحلال ، ومقابلة نعم الله بالشكر عليها . وينهاهم عن المنكر والكذب ، والخيانة ، والغدر ، وأكل مال اليتيم ، والطمع ، والظلم . .

5 ــ وفي الفقرة الخامسة (هـ) يوصي ابن الخطيب أولاده بالإحسان إلى الأهل والأقارب ، إن كان ذلك الإحسان عن طريق القول أو عن طريق العمل .

6 ــ وفي الفقرة السادسة (و) يتناول ابن الخطيب أمور السياسة، والتطلع إلى المناصب الكبيرة ، فيوصي أولاده بالبعد عن السياسة تجنباً لمصائبها الكثيرة .

7 ــ وفي الفقرة السابعة (ز) يطلب صاحب الوصية من أولاده أن يعملوا بوصيته ، ثم يودعهم . .

هذه هي الأفكار التي جاءت في وصية ابن الخطيب لأولاده ، بل أفكار المقدار اليسير الذي اختير لك منها ، فهي كما ذكرنا وصية مطولة ملأت بضع عشرة صفحة . . وقد أراد ابن الخطيب أن تكون وصيته هذه دستورا عاما يلتزمه أولاده ليحظوا بالسعادة والنجاة في دنياهم وآخرتهم ، ولذا جاءت شاملة لكثير من الأمور المتصلة بالعقيدة والعبادة ، والأخلاق ، والمعاملات ، وغير ذلك :

ففي جانب العقيدة يوصي ابن الخطيب أولاده بالإيمان بكتاب الله ، والإيمان بهذا الكتاب الكريم يقتضي الإيمان بأركان العقيدة الإسلامية كالإيمان بالله عز وجل ، والإيمان بملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر . .

وفي جانب العبادة تحض الوصية على صيانة الشعائر الاسلامية لأن هذه الشعائر هي قواعد الدين الذي لا تقوم له قائمة بغير المحافظة عليها .

وفي جانب الأخلاق يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويذكر طائفة من الأخلاق الحسنة التي لا بد من التحلي بها ، كالصدق والأمانة ، والحياء ، والأدب وغير ذلك ، كما يذكر طائفة من الأخلاق السيئة التي لا بد من التخلي عنها كالكذب والخيانة وغيرهما من أضداد الفضائل السابقة .

وفي جانب المعاملات يوصي ابن الخطيب أولاده بالمحافظة على مال اليتيم ، والبعد عن الطمع ، وطلب الرزق الحلال من غير مبالغة في الطلب ، ويوصيهم كذلك باتباع العدل ، والإحسان إلى الأهل وغيرهم ، وتجنب معاداة الرجال ، والزهد في السياسة ومناصبها . .

وتمتاز أفكار ابن الخطيب بوضوحها ، وصحتها ، وشمولها لكثير من جوانب الحياة الروحية والمادية ، كما تمتاز باعتمادها على التعليل المنطقي في كثير من المواطن : فابن الخطيب مثلاً يوصي أولاده لأنه راحل عنهم ، ولا بد للراحل من توديع من يفارقهم . . وهو يوصيهم بالمحافظة على شعائر الدين حتى لا يذهب الإسلام بتركها ، ويطالبهم بملازمة الصدق لأنه شعار المؤمنين ، ومجانبة الكذب لأنه العورة التي لا توارى ، والسوأة التي لا يرتاب في عارها ولا يتمارى الخ . .

وأفكار صاحب الوصية هي حصيلة ثقافته الواسعة ، وتجاربه الكثيرة ، وخبراته العديدة التي اكتسبها في حياة وقفها على البحث والنظر ، وعلى الدرس والتأمل . . وهي أفكار مطروقة نجد ها في كثير من الوصايا السابقة ، ونستشف ملامحها في الثقافة الإسلامية ومصادرها ولا سيما القرآن الكريم ، والحديث الشريف . لكن

ابن الخطيب استطاع أن يضفي على هذه الأفكار المعروفة طابعه الخاص وأسلوبه الذي عرف به ، فغدت ملكه الذي لا ينازع فيه ، وهكذا بدت الوصية شديدة الصلة بشخصية ابن الخطيب وبالعصر الذي عاش فيه : فابن الخطيب ، في هذه الوصية ، هو رجل الثقافة الواسعة والروح الإسلامية الصادقة ، وهو رجل السياسة الأول ، الذي لعب أبرز الأدوار على مسرح سياسة العصر . . فكل ذلك يبدو بجلاء في الفقرات السابقة من الوصية ، ويحدثنا التاريخ أن ابن الخطيب لقي من السياسة ومكائدها ما لم يلقه أي شخص من معاصريه ، إذ تعرض للعزل من الوزارة ، وصودرت أملاكه ، ونفي من وطنه ، كما اضطر قبيل كتابة الوصية التي مرت بك إلى الهرب من الأندلس إلى المغرب والجزائر ، فلا عجب ، بعد ذلك ، أن يوصي ابن الخطيب أولاده بهجر السياسة طلباً للعافية ، وإيثارا للسلامة . . ولكنه ، ويا للأسف لم ينج في منفاه بالمغرب من كيد الأعداء ، فقتل في سجنه بعد كتابة هذه الوصية بأربعة أعوام . .

وعاطفة الكاتب في هذه الوصية هي عاطفة الأبوة الحانية ، والمحبة الصادقة ، والشفقة الشديدة ، والخلق القويم . . ولكنها عاطفة مشوبة بكثير من الحزن والشكوى والمرارة ، ولا سيما في الفقرة السادسة حيث أرخى الكاتب لقلمه العنان في الحديث عن السياسة وعما تجره على صاحبها من ويلات ونكبات . .

دراسة بلاغيـــــة :

ابن الخطيب كاتب من الطراز الأول ، وقد استطاع بقوة قلمه ، وسحر بيانه أن يصل إلى مرتبة الوزارة ؛ والفقرات التي مرت بك من قبل تنم عن بلاغة الكاتب وقدرته على الإنشاء والتصرف في فنون القول. فأسلوب النص يدل على محصول لغوي وفير يسمح لصاحبه أن يفتن في التعبير عن أفكاره افتناناً ، ويظهر شدة اعتماد ابن الخطيب على الترادف،

والتوازن ، والسجع وغير ذلك من خصائص الأسلوب الأدبي الذي ساد في عصر الكاتب وهو القرن الثامن للهجرة . . فالنص ، من أوله إلى آخره ، قائم على الخصائص المذكورة ، ولا سيما السجع ، ولذا غلب عليه الإسهاب . وإذا ألفيت بعض الجمل غير مسجوعة في بعض فقرات النص فمرد ذلك إلى تصرفنا بتلك الجمل ، ولو أنك عدت إلى الوصية الأصلية لوجدتها كلها مسجوعة ، إلا أننا لا نشعر غالباً بتكلف السجع بسبب قوة طبع الكاتب ، وسعة ثقافته وغزارة أفكاره ، ومقدرته الإنشائية الأصلية . وكثير من عبارات النص جاء بأسلوب إنشائي ، وبخاصة أسلوب الأمر والنهي ، وهذا شيء متوقع في وصية قائمة على جملة من الأوامر والنواهي . فالسجع كثير يطالعك مثلا العبارة الأولى ، ويطالعك معه الترادف والتوازن ، كقول الكاتب في مستهل الوصية : « إني مودعكم وإن سالمني الردىء ومفارقكم وإن طال المدى . . » الخ . والأوامر والنواهي كثيرة هي الأخرى كقوله « اعلموا ، تمسكوا ، امتثلوا ، أشربوا ، صونوا . . ولا تتأولوا ، ولا تغلوا . . » الخ . .

وفي النص اقتباس من القرآن الكريم كقول الكاتب : ولاتوجدوا للغدر قبولاً ، « وأوفوا بالعهد ، إن العهد كان مسؤولاً » . وفيه اقتباس من الحديث الشريف : « والظلم ظلمات يوم القيامة » . ويلاحظ استخدام الجمل الاعتراضية التي أريد بها الدعاء ، كقوله : اعلموا — هداكم الله — أني مودعكم . . وقوله : هذه — أسعدكم الله — وصيتي التي أصدرتها . .

والألفاظ سهلة ، واضحة ، قلما نقع فيها على غريب ، مثل « رتيمة ، كلوم ، إحنة ..» وهي دقيقة ، ذات صلة شديدة بموضوع الوصية وبأفكارها ، مثل كلمات : وصية ، نصيحة ، كتاب الله ، حفظ ، تلاوة ، شعائر الله ، الصدق ، الحياء . . الخ . وتمتاز التراكيب

برصانتها وجزالتها ، ومتانة تأليفها ، وقوة دلالتها على براعة الكاتب الأدبية .

أما المحسنات البديعية فكثيرة جدا ، أشرنا ، من قبل ، إلى عدد منها كالسجع ، والترادف ، والتوازن ، والاقتباس . ونلفت نظرك هنا إلى شيوع الجناس، كقول الكاتب : وجعلت النظر شانى ، منذ براني الله وأنشاني ، مع نبل يعترف به الشاني.. وقوله: لوم، وكلوم... وقوله: شكرها وسكرهاالخ... وقد دفعه حرصه على الجناس إلى تسهيل الهمزة في معظم الكلمات السابقة ، وهي شاني والأصل أنشأني وأنشاني والأصل أنشأني،والشاني والأصل الشانىء، ولوم، والأصل لؤم .. وهناك الطباق في قوله: أوامره ونواهيه، والمحترم، وينخرم.. والمقابلة بين قوله : وأمروا بالمعروف، وقوله: وانهوا عن المنكر، وقوله : عليكم بالأمانة ، وقوله : فالخيانة لو.. الخ

وأما المحسنات البيانية فتتمثل في طائفة من التشابيه والاستعارات والكنايات ، ومن تلك المحسنات قوله : سالمني الردى ، وهو من قبيل الاستعارة ، شبه فيها الردى بعدو يحارب ويسالم . . ومنها قوله : رتيمة تعقد في خنصر ، وهو كناية عن الوصية التي أراد أن يقدمها لأولاده ، كما صرح بذلك في العبارة الثانية . . ومنها التشبيه البليغ في قوله : وإياكم والكذب ، فهو العورة التي لا تورى ، والسوأة التي لا يرتاب فيها ولا يتمارى . .

وصوَرُ الكاتب السابقة تدل على خيال قريب . ولا ضير عليه في ذلك ، فالمقام في الوصية مقام نصح وإرشاد ، والكلمة الأولى فيه للعقل لا للخيال .

مجمـــل القــول :

النص الذي مر بك مقتطفات يسيرة من وصية شهيرة كتبها لسان الدين بن الخطيب لأولاده في آخر مُقامه بالأندلس ، وقد تضمنت نصائح قيمة وإرشادات ثمينة تكفل لمن يتبعها حسن العاقبة في الدنيا والآخرة .

فقد دعت الوصية إلى المحافظة على كتاب الله ، والقيام بشعائر الدين ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والتحلي بالمزايا الفاضلة ، والتخلي عن الصفات السافلة ، وكانت مرآة لثقافة الكاتب الواسعة ، وعصره الذي عصفت به أعاصير السياسة ، كما كانت دليلا على مواهبه الأدبية ، وعلو كعبه في الترسل والإنشاء ، وقد جمعت هذه الوصية من المزايا الفنية ما جعلها نموذجاً جيداً لأدب الوصايا الذي عرفه الأدب العربي منذ الجاهلية ، كما عرفه في سائر عصوره الأخرى .

المناقشـــة :

1 ــ بم بدأ ابن الخطيب وصيته لأولاده ؟ وما الأثر الذي يتركه ذلك البدء في نفوسهم ؟

2 ــ ما الفكرة التي تضمنتها الفقرة (ب) ؟ وما الغرض الذي أراده صاحب الوصية بها ؟

3 ــ أوصى الكاتب أولاده بالتمسك بكتاب الله ، كما أوصاهم بمحبة رسوله الكريم . اذكر الآثار الطيبة التي تترتب على هذا الجزء من الوصية .

4 ــ اختر طائفة من وصايا الكاتب ، وفصل القول فيها .

5 ــ لم خص الكاتب صفات الصدق والكذب ، والأمانة والخيانة والظلم بشيء من الشرح والبيان ؟

6 ــ ذكر الكاتب أسساً معينة لعلاقات الفرد بمجتمعه . وضح تلك الأسس ، وبين أثرها في حياة الفرد والجماعة .

7 ــ لماذا طلب الكاتب من أولاده الاعتدال في طلب الرزق ؟ ولم حذر من طلب الولايات ؟

8 ــ بماذا ختم ابن الخطيب وصيته ؟ وهل كانت الخاتمة موفقة؟ ولماذا ؟

9 — قسم النص إلى أفكاره الأساسية ، وضع عنوانا مناسباً لكل فقرة من فقراته .

10 — ما أهم الخصائص التي امتازت بها أفكار الوصية ؟

11 — ما العاطفة التي سادت هذه الوصية ؟ وضح تلك العاطفة وبين آثار ها في أسلوب الكاتب

12 — لم غلب على هذه الوصية أسلوب الإنشاء دون أسلوب الخبر ؟ اذكر لونين مختلفين من أساليب الإنشاء التي مرت بك ، وبين الغرض المقصود في كل منها .

13 — قال ابن الخطيب: عليكم بالأمانة ، فالخيانة لؤم . . في هاتين العبارتين خبر وإنشاء وضح ذلك . .

14 — في النص آثار واضحة من القرآن الكريم ، والحديث الشريف . حدد تلك الآثار ، وبين قيمتها في بلاغة أسلوب الكاتب .

15 — في النص أمثلة عديدة للسجع والجناس . استخرج بعضها،وبين ما هو عفوي منها وما هو متكلف .

16 — وهل في النص صور بيانية غير التي ذكرت في الدراسة الأدبية ؟ استخرج بعضها وبين أثرها في جمال أسلوب النص .

17 — هل تجد علاقة بين حياة الكاتب وبين الوصية؟ وضح تلك العلاقة من النواحي السياسية والأدبية والثقافية .

18 — هل تجد صلة بين النص وبين عصر الكاتب ؟ وضح هذه العلاقة

19 — ما الأثر الذي تركته هذه الوصية في نفسك بعد قراءتك لها ؟

تطبيقات :

قارن بين وصية لسان الدين بن الخطيب وبين وصية ذي الإصبع العدواني التي عرفتها في العام الماضي .

نماذج من أدب ابن الخطيب

أولا - النثر

أ - من ترجمته لابن خلدون في كتاب الإحاطة

« عبد الرحمان بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن محمد بن إبراهيم عبد الرحمان بن خلدون الحضرمي ، من ذرية عثمان أخي كريب المذكور في نبهاء ثُوار الأندلس . وينسب سلفهم إلى وائل بن حجر ؛ وحاله عند القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة . انتقل سلفه من مدينة إشبيلية عن نباهة وتعين وشهرة عند الحادثة بها أو قبل ذلك ، فاستقر بتونس منهم ثاني المحمد ين محمد بن الحسن، وتناسلوا على حشمة وسراوة (1) ورسوم حسنة ، وتصرف جد المترجم به في القيادة .

وأما المترجم به فهو رجل فاضل ، حسن الخلق ، جم الفضائل ، باهر الخصل ، رفيع القدر ، ظاهر الحياء ، أصيل المجد ، وقور المجلس ، خاصي الزّي ، عالي الهمة ، عزوف (2) عن الضيم ، صعب المقادة ، قوي الجأش ، طامح لقنن الرياسة ، خاطب للحظ ، متقدم في فنون عقلية ونقلية ، متعدد المزايا ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، صحيح التصور ، بارع الخط ، مغرى بالتجلة ، جواد حسن العشرة ، مبذول المشاركة ، مقيم لرسم التعين ، عاكف على رَعْي خلال الأصالة ، مفْخر من مفاخر التخوم المغربية ... »

---

(1) سراوة : شرف - (2) عزوف : بعيد . وعزوف عن الضيم : لا يقبل الذل .

ب ـ من رسـائلـه :

رسالته لشيخه أبي عبد الله ابن مرزوق الفقيه المغربي

« سيدي ، بل ما لكي بل شافعي ، ومنتشلي من الهفوة ورافعي ، وعاصمي عند تجويد حروف الصنائع ونافعي ، الذي بجاهه أجزلت المنازل قراي ، وفضلت أولاي ـ والمنة لله تعالى ـ أخراي ، وأصبحت وقول الحسن (1) هجيراي (2) :

علقت بحبلٍ من حبال محمدٍ أمنت به من طارق الحدثان
تغطيت من دهري بظل جناحه فعيني ترى دهري وليس يراني
فلو تسأل الأيام ما اسمي مادرت؟ وأين مكاني ؟ ما عرفن مكاني

وصلت مكناسة حرسها الله تعالى حداني حدو نداك ، سحائب لولا الخصال المبرة قلت : يداك ، وكان الوطن لاغتباطه بجواري ، أو ما رآه من انتياب (3) زواري ، أو غر إلى بهت يقطع الطريق ، وأطلع يده على التفريق ، وأشرق القوافل مع كثرة الماء بالريق ، فلم يسع إلا المقام أياماً قعوداً في البر وقياماً ، واختياراً لضروب الأنس واعتياماً ، (4) ورأيت بلدة معارفها أعلام ، وهواؤها برد وسلام ، ومحاسنها تعمل فيها ألسنة وأقلام ، فحيا الله تعالى سيدي فلكم من فضل أفاد ، وأنس أحياه وقد باد ، وحفظ منه على الأيام الذخر والعتاد ، كما ملكه زمام الكمال فاقتاد ، وأنا أتطارح عليه في صلات تنقده ، وموالاة يده ، مهما خاطب معتبراً بهذه الجهات ، ويصحبني من منا صحته بكؤوس سرة يعمل فيها هاك وهات ، فالعز بعزه معقود ، والسعد بوجوده موجود ، ومنهل السرور بسروره مورود ، والله عز وجل يبقيه بقاء الدهر ، ويجعل حبه وظيفة السر وحمده

---

(1) الحسن : هو الحسن بن هانيء المشهور بأبي نواس ـ (2) هجيراي : عادني.
(3) انتباب : : زيارة ـ (4) اعتياماً : اصطفاء واختيارا .

وظيفة الجهر ، ويحفظ على الأيام من زمنه زمن الزّهر ، ويصل لنا تحت إيالته (1) العام بالعام ، والشهر بالشهر ، آمين آمين » .

ج ـ رسالة إلى الشعب في البشارة بفتح إطريرة الأسبانية

كتب لسان الدين بن الخطيب على لسان سلطانه الغني بالله يبشر الشعب بفتح إطريرة قائلا :

« يا أيها الناس ! ضاعف الله تعالى بمزيد النّعم سروركم ، وتكفّل بلطفه الخفي في مثل هذا القطر الغريب أموركم ، أبشركم بما كتب به سلطانكم السعيد إليكم ، المترادفة بيمنه وسعادته نعم عليكم ؛ أمتع الله تعالى الإسلام ببقائه ، وأيّده على أعدائه ، ونصره في أرضه بملائكة سمائه ، وأن الله تعالى فتح له الفتح المبين ، وأعز بحركة جهاده الدين ، وبيض وجوه المؤمنين ، وأظفره بإطريرة البلد الذي فجع المسلمين بأسرهم فجيعة تثير الحمية ، وتحرك النفس الأبية ، فانتقم الله تعالى منهم على يده ، وبلغه استئصالهم غاية مقصده ، فصدق من الله تعالى لأوليائه وعلى أعدائه الوعد والوعيد ، وحكم بإبادتهم المبدىء المعيد ، « وكذلك أخذ ربّك إذا أخذَ القُرى وهي ظالمةٌ ، إنّ أخذه أليمٌ شديدٌ » وتحصّل من سبيه بعد مارويت السيوف من دمائهم آلاف عديدة ، لم يسمع بمثلها في المدد المديدة ، والعهود البعيدة ، ولم يُصبْ من إخوانكم المسلمين عددٌ يُذكر ، ولا رجلٌ يعتبر ، فتحٌ هنيٌ ، وصنعٌ سنيٌ ، ولطفٌ خفيٌ ، ووعد وفيٌ ؛ فاستبشروا بفضل الله تعالى ونعمته ، وقفوا عند الافتقار والانقطاع لرحمته ، وقابلوا نعمه بالشكر يزدكم ، واستبصروا في الدفاع عن دينكم ينصركم ويؤيدكم ، واغتبطوا بهذه الدولة المباركة التي لم تعدموا من الله تعالى معها عيشاً خصيباً ، ولا رأيا مصيباً ، ولانصراً

(1) إيالة : حكمه وسيادته .

عزيزاً ، ولا فتحاً قريباً ، وتضرعوا في بقائها ، ونَصْر لوائها إلى من لم يزل سميعاً للدعاء مجيباً ، والله عز وجل يجعل البشائر الفاشية فيكم عادة ، ولا يعدمكم ولا أولي الأمر منكم توفيقاً وسعادة ، والسلام الكريم يخصكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته من مبلغ ذاك فلان » .

د ـ فصل في ذم الكسل ، واغتنام الأيام

« ونحن نجلب بعض الأمثال في ذمه ، مما يسهل حفظه ، ويجب لحظة ، فمن ذلك : الكسل مزلقة الربح ، ومسخرة الصبح . إذا رقدت النفس في فراش الكسل استغرقها نوم الغفلة ، (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير) . الندامة في الكسل كالسم في العسل . الكسل آفة الصنائع ، وأرضة (1) في البضائع ، العجز والكسل يفتحان الخمول ولاتسل . الفلاح إذا ملّ الحركة عدمَ البركة :

ظَهْر ان لايُبلغان المرءَ إن رَكبا باب السعادة، ظهر العجز والكسلُ

وفي اغتنام الأيام : من أضاع الفرصة تجرّع الغُصة . إن كان لك من الزمان شيء فالحال ، وما سواه فمحال ، تارك أمره إلى غد ، لايُفلح للأبد . الإنسان ابن ساعته فليحطها من إضاعته . التسويف سُمّ الأعمال ، وعدو الكمال. لم يحرَم المبادر (2) إلاّ في النادر . ما درجت(3) أفراخ ذ لّ إلا من وكر طماعة ، ولابسقتْ (4) فروع ندم إلاّ من جرثومة إضاعة . العزم سوق ، والتاجر الجسور مرزوق . من وثق بعهد الزمان علقت يداه بحبل الحرمان . الربح في ضمن الجسارة ، والمضيع أولى بالخسارة .

---

(1) أرَضَة : الأرضة دودة حمراء صغيرة تأكل الثياب والكتب ـ (2) المبادر : الذي يسرع إلى قضاء أمورها ولا يؤخرها ـ (3) درجت : مشت ـ (4) بسقت : ارتفعت وطالت ، ويقال ذلك لأغصان الأشجار .

ومن أمثالهم في نظر الإنسان لنفسه قبل غروب شمسه قولهم ، أعلم أن كل حكم صانع إذا فكّر في أمره ، ونظر في العواقب علم أنه لابد يوماً أن يخرب دكانه الذي هو محل بضاعته ، وتنحل أنقاضه ، وتكلّ أدواته ، وتضعف قوته ، وتذهب أيام شبابه ، فمن بادر واجتهد قبل خراب الدكان ، واستغنى عن السعي ، فانه لايحتاج بعد ذلك إلى دكان آخر ، ولا إلى أدوات مجددة ، فليتّجر بما اقتناه ، ويشتغل بالانتفاع وإلا لتلذذ بما كسبت يداه ؛ وهذه حالة النفس بعد خراب الجسد . فبادر واجتهد واحرص واستعجل ، وتزود قبل خراب دكانك ، وهدم بنيّته ، فإن خير الزاد التقوى ، قال حسان (1) :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... وأبصرت بعد اليوم من قد تزوّدا
ندمت على ألاّ تكون كمثله ... ولم تترصد مثل ما كان أرصدا

قال أبو الفرج بن الطيب البغدادي (2) في اغتنام الوقت في كتابه - في السياسة والآراء الفاضلة - : يجب أن تعيد وتمثل ، فإن الفكر مضطرب متشوش بكثرة نوازع النفس واختلاف قواها ، والعمى في بعض الأوقات ، فإذا سنح للنفس وقت فاضل بصفاء جوهرها ، وأبرمت قانونا أو صورة متوسطة فاضلة ، يجب أن يقيد بذلك وقت سعد ربما لايعاوده أو يعاود » .

(1) المشهور أن هذين البيتين هما للأعشى وليسا لحسان بن ثابت — (2) أبو الفرج الطيب البغدادي فيلسوف عراقي اشتهر بشرح الكتب الفلسفية القديمة توفي عام 435 هـ

ثانيا ـ الشعر

أ ـ مدحه للنبيء (ص)

1 ـ إذا فاتني ظلّ الحمى ونعيمهُ
فحسب فؤادي أن يهب نسيمهُ

2 ـ وما شفّني بالفور قدّ مرنّح
ولا شاقني من وحّش وجرةَ ريمهُ (1)

3 ـ ولا سهرتْ عيني لبرق ثنية
من الثغر يبدو مُوهناً فأشيمهُ (2)

4 ـ براني شوق للنبيّ محمّد
يسوم فؤاديّ برحه ما يسومهُ (3)

5 ـ ألا يا رسول الله ناداك ضارعٌ
على النأي محفوظ الفؤاد سليمهُ

6 ـ إذا ما حديث عنك جاءت به الصبّا
شجاه من الشوق الحثيث قديمهُ (4)

7 ـ أيَجْهر بالنّجوى وأنت سميعها ؟
ويشرحَ ما يخفي وأنت علمهُ ؟ ! (5)

8 ـ وتُعوزُهُ السّقيا وأنت غياثهُ
وتتلفهُ الشكون وأنت رحيمُه ؟

9 ـ بنورِك ـ نورَ اللهِ ـ قد أشرق الهدى
فأقمارُهُ وضاّحةٌ ونجومُهُ

10 ـ لك الخلُقُ الأرضى الذي جلّ ذكرُهُ
ومجدُكَ في الذكر العظيم عظمُهُ

11 ـ يجلّ مدى علياكَ عن مدح مادحٍ
فمُوسِرُ دُرِّ القولِ فيكَ عديمُهُ (6)

12 ـ وعندي إلى أنصارِ دينك نسبةٌ
هي الفخرُ لا يَخشى انتقالاً مُقيمُهُ

13 ـ عَدَتْني بِأقصى الغَربِ عن تربك العِدى
جلالته الثغر الغريب وروميه (7)

14 ـ أُجاهد منهُم في سبيلكَ أمةً
هي البحرُ يُغني أمرُها من يَرُومُهُ

15 ـ فلولا اعتناء منك يا مَلْجأ الورى
لريع حماه ، واستبيح حريمُهُ

16 ـ فلا تقطع الحبلَ الذي قد وصلتَه
فمجدك موفور النوال عميمُهُ

17 ـ وأنت لنا الغيثُ الذي نستَدِرّهُ
وأنتَ لنا الظِّل الذي نستديمُهُ

18 ـ عليك صلاةُ الله ماذرّ شارقٌ
وما راق من وَجْه الصباح وسيمُهُ (8)

(1) شفّني : يقال شفه الهم أو المرض إذا أضعفه ، مرنح : متمايل . وجرة اسم مكان في الجزيرة العربية . ريمه : غزلانه — (2) موهنا : بعد منتصف الليل . أشيمه : أنظر اليه — (3) يسوم : يكلف . برجه : ألمه وعذابه — (4) الصبا : الريح الشرقية. شجاه : أحزنه ، الحثيث : السريع . (5) النجوى : الحديث الخفي . — (6) موسر : غني (7) عدتني : صرفتني ومنعتني — (8) ما ذر شارق : ما طلع نجم من جهة الشرق ، وما مصدرية ظرفية .

ب ـ مدحه للسلطان أبي حمو سلطان تلمسان

في آخر سنة أربع وسبعين وسبعمائة هجرية وجه لسان الدين بن الخطيب إلى السلطان أبي حمو سلطان تلمسان أبياتا لزومية في غرض التهنية وهي :

1 ـ وَقَفَ الغرام على ثناكَ لساني
رَعْيا لما أوْ ليتَ من إحسان (1)

2 ـ فكأنما شُكْري لِمَا أوليتهُ
شكر الرياض لعارض النّيسان (2)

3 ـ أنا شيعةٌ لكَ حيث كُنتَ ، قضيةٌ
لم يختلفْ في حُكمها نَفْسان (3)

4 ـ ولقد تَشَاجَرتِ الرِّماحُ فكنتَ في
ميدان نهركَ فارسَ الفرسان (4)

5 ـ وَرَويت غُرَّ مآثر أسندتُها
لعُلاكَ بين صحائحٍ وحسان

6 ـ ولأنتَ أولى بالتشيّع شيمةً
لم تتّفقْ لسواكَ من إنسان (5)

7 ـ الشمس أنتَ ، قدِ انفردتَ ، وهل يُرَى
بَيْنَ الورَى في مطلعٍ شَمْسَان ؟

8 ـ جُبرت بجبركَ كلّ نفسٍ حُرّةٍ
وشدا بشكرِ الله كُلُّ لسان

9 ـ وبدَت سُعودُكَ مُستقيما سيرها
وعلتْ فَفَرَّ أمامَها النحْسانِ (6)

10 ـ فاستقبل السَّعْدَ المعاودَ سافراً
عن أيِّ وجهٍ للرضى حُسْبانِ (7)

11 ـ وابغِ المزيدَ بشكر ربكَ ، ولتَثِقْ
بمضاعفِ الإنعام والإحسانِ

12 ـ فالشكر يقتاد المزيد ركائبا
تنتاب بابك منه في أرسانِ (8)

13 ـ ثم السَّلام عَلَيْكَ يُزري عَرفه
طَيباً بعرف العود والبلسانِ (9)

المراجع :

نفح الطيب للمقّري الجزء السابع
لسان الدين بن الخطيب لمحمد عبد الله عنان
مقدمة ابن خلدون

---

(1) رعيا : محافظة . أوليت : قدمت وصنعت ـ (2) لعارضي النيسان : للسحاب الممطر في شهر نيسان وهو المعروف أيضا باسم أبريل ـ (3) أنا شيعة لك : أنا من أنصارك وأتباعك ـ (4) تشاجرت الرماح : اشتبكت ـ (5) التشيع : المحبة والولاء ـ ـ (6) سعودك : نجوم سعدك وهي عند الأقدمين : المشترى والزهرة . والنحسان : هما زحل والمريخ في زعمهم. ـ والنحسان مثنى نحس وهو الجهد والضر ، وضده سعد . (7) وجه حسان : جميل جدا ـ (8) المزيد : أي المزيد من النعم ، والمعنى مأخوذ من قوله تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم » تنتاب : تزور . أرسان : جمع رسن وهو مقود الدابة ـ (9) يزري عرفه الخ : تحط رائحته الطيبة من قيمة رائحة العود والبلسان المشهورين برائحتهما الطيبة .

الخصائص الفنية
للأدب الأندلسي

أولاً: الشعر
ثانياً: النثر

أولا : الشعـــــر

س : كيف كانت حال الشعر في الأندلس ؟
ج : كانت حال الشعر في الأندلس على الوجه الذي سنتناوله فيما يلي :

حالته وعوامل نهضته :

من خلال دراستك للنصوص السابقة تدرك أن الشعر في الأندلس كان راقيا رائعا ، ورائقاً ممتعاً . وقد ساعده على ذلك أمور منها :

1 ــ أن العرب الذين وفدوا إلى الأندلس ، واستقر مقامهم فيها فتنوا بجمال الطبيعة الجديدة التي أوحت إليهم القول في كل فن ، فراحوا يوقعون شعرهم على ألحانها ، ويتغنون به بين رياضها .

2 ــ أن عرب الأندلس عاشوا في بيئتهم الجديدة أول الأمر يقلدون المشارقة ، ويصوغون أشعارهم على نمط ما تعلموه في الشرق، ثم أخذ الشعراء بعد ذلك يتخلصون تدريجياً من عادة التقليد ، ويمثلون بيئتهم الجديدة وحياتهم التي يعيشونها حتى غدت أشعارهم صورة لأندلسهم، ونافسوا شعراء المشرق في ميادين القول ، وفنون الشعر .

3 ــ أن المجتمع الأندلسي كان يعيش حياة ترف وثراء أشاعت بين أهله مجالس الغناء فاقتضى الأمر أن يكثر الشعراء من قول الشعر ليكون مادة هذا الغناء ، وقد دفعهم ذلك إلى التجويد والإتقان ، وساعدهم على بلوغ غايتهم انتشار الثقافة ، واتساع آفاق المعرفة .

4 ــ أن الخلفاء والأمراء والوزراء كانوا مولعين بالشعر ، فأخذوا يقربون الشعراء ، ويجزلون لهم العطاء الأمر الذي شجع الشعراء على زيادة إنتاجهم ، وإحسان قولهم .

ومع أن الشعر الأندلسي قد بدأ مقلدا شعر المشرق إلا أنه كان له من طبيعة أرضه ، وظروف بيئته ما أكسبه ملامح جديدة جعلته مرآة مجتمعه ، وميزته عن غيره . وسنجمل لك القول فيما يلي عن أهم تلك الملامح والمميزات .

أغراضه وفنونه :

س : ما أهم أغراض الشعر الأندلسي ؟ وما الأغراض التي هجر القول وما أهم ماحظي من الأغراض بالقول والابتكار فيه ؟

ج : لقد نظم شعراء الأندلس أشعارهم في كل الأغراض والفنون التي عرفت عند شعراء المشرق ، وأتوا فيها بالمعاني والأفكار التي لا تقل كثيرا عما كان عند المشارقة ، إلا أنه كانت هناك بعض الأغراض التي قصروا فيها كالهجاء ، والحكمة والفلسفة ، والزهد ، ومردّ ذلك إلى أنهم كانوا منصرفين إلى التمتع بحياة الترف والتقلب في النعمة ، وكانوا يعتبرون الشعر مظهرا من مظاهر التسلي لا شأن له بالتفكير ولا بقضايا المنطق والتأمل في الحياة – على أن الأندلسيين قد زادا اهتمامهم ، وفاقت عنايتهم ببعض الأغراض التي افتنّوا فيها وابتكروا حتى بذوا المشارقة ، وتفوقوا عليهم، وكان من تلك الأغراض :

أ – الوصف :

لقد كثر شعر الوصف كثرة جعلته يتناول الحياة الأندلسية في شتى مظاهرها ، ويرسم صورة حية لها ولقد زاد الاهتمام بوصف مظاهر الطبيعة ، والمشاهد الجميلة التي ملكت على الشعراء إحساسهم من وديان وجبال ، ورياض وثما ، وطيور وأزهار ، وعيون وأنهار ، كما وصفوا المعارك والجيوش ، ومجالس اللهو والرقص والغناء .

ولقد بلغ من ولعهم بالوصف أن بعض الشعراء استهلوا به قصائدهم وأحلوه محل النسيب في مطالعها وإنك لتحس وأنت تقرأ شعرهم

في الوصف أن كلماته وأبياته ترسم لك صورة الموصوف ، وتجسده لعينيك وتريك ملامح البيئة الأندلسية كحقيقتها في واقع الحياة . ومصداق ذلك ما رأيته فيما مر بك من وصف أسطول المعز لابن هانيء ووصف الجبل لابن خفاجة ، ووصف بركة لابن حمديس .

ب – رثاء الممالك الزائلة :

كانت دولة العرب في الأندلس ثابتة الأركان ، شامخة البنيان يوم أن كان أمرها مجتمعاً ، حتى إذا دب الخلاف بين أبنائها ، وداخلتهم المطامع حل بينهم النزاع ، وكثرت التقلبات السياسية ، وأدى ذلك إلى ضياع مدن ، والقضاء على ممالك سواء حدث ذلك عن طريق غلبة العرب بعضهم على بعض ، أم عن طريق تغلب أعدائهم الذين أخذوا يقتطعون البلاد ، وينتقصون أطرافها ، الأمر الذي جعل الشعراء يكثرون من رثاء المدن والممالك ، ويرسلون أشعارهم بكاء على أرضهم ، وندباً لديارهم وبلادهم ، ومن أمثلة ذلك قول ابن عبدون يرثي دولة بني الأفطس وهي إحدى دويلات ملوك الطوائف بالأندلس :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور؟(1)
فلا تغرنك من دنياك نومتها ... فما صناعة عينيها سوى السهر

وقول أبي البقاء الرندي إثر سقوط إشبيلية في يد الأسبان :

دهى الجزيرة أمر لا مرد له ... هوى له أُحُدٌ، وانهد ثهلان (2)
فاسأل بلنسةً ما شأن مُرْسِيَة ... وأين شاطبة أم أين جيّان؟! (3)
وأين قرطبةٌ دار العلوم ؟ فكم ... من عالم قد سما فيها له شان

---

(1) يفجع : يصيب ويحزن. بعد العين : بعد ذهاب الأصل، والمقصود الأحباب. الأثر : ما خلف، أولئك الأحباب. – (2) دهى الجزيرة : أصاب بلاد الأندلس . هوى : سقط. أحد وثهلان : جبلان عظيمان بالمملكة العربية السعودية – (3) بلنسية ، مرسية ، جيان ، قرطبة ، حمص : مدن كبيرة كانت من أكبر مدن الأندلس ،

وأين حمص وما تحويه من نُزَه ... ونهرها العذب فياض وملآن ؟!
قواعد كُنّ أركان البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبقَ أركان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة ... حتى المنابر ترثي وهي عيدان(1)

جـ – الاستنجاد والاستغاثة :

لقد كان هذا اللون من الشعر وليد ما شاع في البلاد من تناحر وضعف ، وتفرق وخوف ووقوع بعض البلاد تحت الحكم الأجنبي الأمر الذي جعل الشعراء يستنصرون الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويستشفعون الأولياء ، ويستنجدون بملوك المسلمين . ومن ذلك قول لسان الدين ابن الخطيب في مطلع قصيدة له وجهها إلى قبر النبي محمد عليه الصلاة والسلام :

إذا فاتني ظل الحمى ونعيمه ... فحسب فؤادي أن يهب نسيمه

وقول أبي عبد الله القصناعي يستغيث بأبي زكريا بن حفص للدفاع عن بلنسة :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها دَرَسا(2)

د – نظم العلوم والفنون :

كثر في الأندلس نظم العلوم والفنون ليسهل على المتعلمين حفظها ووعيها ، وإذا كان شعراء المشرق قد سبقوا في هذا الميدان فإن شعراء الأندلس قد أكثرو منه ، وكان من ذلك أرجوزة لابن عبد ربه في التاريخ ، وأخرى في العروض ، وألفية ابن مالك في النحو التي يقول فيها عند نظمه لباب المبتدأ والخبر :

مبتدأ زيد ، وعاذر خبر ... إن قلت زيد عاذر من اعتذر
وأول مبتدأ ، والثاني ... فاعل أغْنى في : أسَارٍ ذان ؟

ورائية الشّاطبي ، ولاميته في قراءات القرآن ورسم المصحف .

---

(1) المحاريب : جمع محراب وهو قبلة المسجد التي تكون عادة بجوار المنبر .
(2) درس : انمحى ، وذهب أثره

خصائص الشعر الأندلسي

س : ما أهم خصائص الشعر الأندلسي من حيث أفكاره وأخيلته ، وألفاظه وعباراته ، وأوزانه ؟

ج : خصائص الشعر الأندلسى نجملها فيما يلي :

أ - في المعاني والأخيلة :

إمتازت معاني الشعر الأندلسي وأفكاره بالسهولة والوضوح والبعد عن التكلف والتعقيد ، والخلوّ من المسائل الفلسفية والقضايا المنطقية .

أما خيالاته وصوره فكانت مستمدة من طبيعة غنية بالجمال تؤثر في إحساس الشاعر فإذا به يأتي في شعره بالخيال الرقيق اللطيف ، والصور البراقة الخلابة ، ويحشد من ذلك في قوله القدر الكبير :.

ب - في الألفاظ والأساليب :

لما كان العرب في الأندلس يعيشون بعيدا عن البادية ، وفي بيئة غير عربية الأصل ، ولما كانوا يعيشون حياة سهلة كثيرة الخيرات لذا سلكوا في أشعارهم مسلك السهولة في اللفظ ، والوضوح في العبارة مهما كان الغرض الذي يقولون فيه الشعر ، كما تجنبوا الألفاظ الأعجمية والكلمات الغريبة .

ج - في الأوزان ونسق النظم :

لقد درج الأندلسيون في نظم أشعارهم أول الأمر على نسق أهل الشرق ، ولكنّهم كانوا يختارون الأوزان التي تطربهم موسيقاها ، حتى إذا اقتضت حياتهم المترفة اللاهية ، واحتاجت مجالس غنائهم إلى الأشعار السّهلة والأوزان القصيرة ابتدع الشعراء أوزانا جديدة ، وقوالب مستحدثة استمدوها من الموسيقى الشّائعة في بلادهم ، وكان من صور ذلك الموشحات (وهي نظم لا يلتزم فيه بقافية واحدة)

التي انتشرت واستعملها الشعراء في كل الأغراض. وقد مر بك نموذج لها في موشحة ابن سهل التي قالها في الغزل .

خاتمة : الشعر بين الأندلسيين والعباسيين

يمكن القول في ختام هذه الخصائص بأن الشعر الأندلسى كان شبيها إلى حد كبير بالشعر العباسى في أغراضه ومقاصد قوله ، إلا أن البيئة الأندلسية وظروفها السياسية والاجتماعية اقتضت أن يبتكر الشعراء أغراضا لم يقل فيها المشارقة ، وأن يهجروا أغراضا أخرى لم تهيئهم لها حياتهم الجديدة .

كذلك كانت معاني الشعر الأندلسي واضحة سهلة ، وتكاد لوضوحها وسهولتها تعد سطحية بينما كانت المعاني في شعر المشارقة دقيقة عميقة ، ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى حياة كل مجتمع منهما وظروفه الثقافية والحضارية .

أما الألفاظ فقد أتت في شعر الأندلس عذبة رقيقة في جميع الأغراض ولكنها عند المشارقة كانت رقيقة عذبة حينا ، قوية جزلة حينا آخر ، بحسب أغراض الشعر وموضوعات القول .

وإذا كان الأندلسيون قد تجنبوا – ما أمكن – المحسنات البديعة اكتفاء بسعة الخيال وجمال التصوير ، وعذوبة اللفظ فإن المشارقة قد أكثروا من المحسنات – وبخاصة في العصر العباسي الثاني – قصد إظهار البراعة والمهارة ، والقدرة على التحكم في المعنى والتفنن في العبارة .

تدريب تطبيقي

1 – ما أهم ما تميز به الشعر الأندلسي في كل من المعاني والأساليب .

2 – وازن بين شعر الأندلس ، وشعر المشارقة من حيث الأغراض والأفكار والأخيلة ونسق القصيدة .

ثانيا - النثر

س : كيف كانت حال النثر في الأندلس ؟

ج : سلك النثر الأندلسي مسلك النثر في المشرق العربي ، واقتفى أثره ، فتطوّر كما تطوّر النثر العباسي وتناول من الأغراض والفنون ما كان عند المشارقة ، إلا أنه على عهد الولاة وصدر العهد الأموي لم يكن للنثر الفني الأندلسي أثر يذكر إذْ كان مقصورا على الخطب الوعظية الداعية للجهاد ، وعلى الرسائل المتبادلة بين الولاة والحكام ، وكان القائمون على هذا الأمر هم العرب الوافدون من المشرق . فلما زادت عناية الأمويين بنشر الثقافة ، ونهضوا بالعلوم والآداب ، وشجعوا أصحاب المواهب الأدبية ، وذوي المهارة في الخطابة والكتابة بإسناد مناصب الوزارة إليهم نهض النثر الأدبي ، وعني به الأندلسيون ، وحاكوا المشارقة ، ثم نافسوهم ، فكانت قرطبة تباري بغداد ، وبهذا نما النثر الفني وازدهر ، واستمر ذلك حتى نهاية عهد ملوك الطّوائف حتى إذا كان عهد المرابطين وما بعده شغل الحكام بمشكلات البلاد السياسية ، وفقدت اللغة عاملا كبيرا من عوامل نهضتها ، ومصدرا مهماً من مصادر قوتها ، فدب في النثر دبيب الضعف والانحطاط ، وفقد نظارته ، وذوى عوده ، وظل يرزح تحت وطأة التصنع والتكلف إلى أن سقطت البلاد في يد الأسبان

فنون النثر ، وخصائص كل منها

س : ما أهم فنون النثر الأندلسي ؟ وما خصائص كل منها ؟

ج : كان من أبرز ألوان النثر التي شاعت في الأندلس : الخطابة ، والرسائل ، والتصنيف . وسنتناول فيما يلي عرضا لبعض خصائص كل لون منها ، وإيضاحا للظروف التي تأثر بها في ظل الحكم العربي للأندلس .

أ – الخطابة :

عاشت الخطابة أعوامها الأولى بعد الفتح تدعو إلى الجهاد ، والصبر على القتال في سبيل الدفاع عن الأرض ، واستبقاء الحكم ، ونشر الأمن في ربوع البلاد ، وقد تعدّت ذلك في بعض الأحيان إلى تأييد العصبية القبلية في الخلاف الذي نشب بين اليمنية والمضرية .

وكانت خطابة هذه المرحلة واضحة المعاني ، جزلة الأسلوب قوية التأثير . ولما اتسعت آفاق المعارف ، وانتشرت العلوم ، تنوعت أغراض الخطابة واستعملت في المناقشات والمناظرات ، وظهر من المثقفين من يرتجل الخطبة في مقدرة وإجادة ، وبدت العناية بأسلوب الخطبة فتجلت فيه الرقة ، وظهر فيه السجع وتنسيق العبارة .

وحين جاء عهد المرابطين والموحدين قلت دواعي الخطابة واستعيض عنها بمرسومات تعلن للناس وتقرأ عليهم ، وانحصرت الخطابة في نطاق الوعظ المسجدي ، فهبط مستواها ، وغلبت عليها الصنعة المقيتة والسجع المتكلف .

وما وصل إلينا من آثار الأندلسيين قليل ، يمكنك الرجوع إلى شيء منه في كتاب نفح الطيب .

ب – الرسائل :

سار الأندلسيون في هذا الفن النثري الأدبي على درب المشارقة طوال القرن الأول من الفتح العربي وكانوا يستعملون الرسائل في أغراض محددة يعبرون فيها بأسلوب موجز عن معان واضحة جلية.

فلما أظلهم الحكم الأموي وملوك الطّوائف وعمتهم الثقافة أصبح الترسل فنا مستقلا ينهض به أدباء بارزون ، وكتاب بارعون ، عددوا أغراضه ، ونوعوا أساليبه . غير أن الرسائل الديوانية ظلت قاصرة على ما يجرى بين الأمراء والعمال من مكاتبات ، وما تدعو الحاجة إليه

من منشـورات ، وكان أبـرز خصائصهـا عدم الغلـو في تعظيم الملـوك والأمـراء على غير ما كان يفعـل المشارقـة ، والإطناب في عرض مضمون الرسـالـة . أما الـرسائـل الأدبيـة فقد حظيت بإقبال الكتـاب عليهـا ، وانصـرافهم إليهـا ، يتنـاولـون في موضوعاتها المناقشات والمناظـرات والمقامات والوصايا إلى جانب الأغـراض الأخـرى من شوق واعتـذار وعتاب ، وما إلى ذلك ، وقد تجلى في هذا النـوع من الـرسائـل كثرة الوصف وغلبـة الخيال الشعـري ، وتتابع الصور البـلاغيـة ، والمبالغـة في اقتباس الحكـم والأمثال والقرآن والشعـر ، والميل إلى سرد الحـوادث التـاريخيـة ، وبعض القصص والحـوار الذي يعرض على ألسنة الحيوان والبلـدان والنبات والجمـاد ، كل ذلك في عبارة طليّة تشيع فيها المحسنات البديعـة المقبـولـة .

وفي القرنين الأخيرين من عمر الدولـة الأندلسيـة أغرم الأدباء والكتاب بالإطناب والإسهاب والزخرف اللفظي المتهافت ، أظهـروا مهارتهم بعرض المعانـي في صور غريبـة ، وتلميح بعيد .

والنص الذي درستـه للسان الدين بن الخطيب يمثل لك ما أشـرنـا إليـه آنفاً من خصائص كتابـة الأندلسيين في عصـره .

جـ ـ التصنيف :

انقضى عهد الـولاة دون أن يكـون للتصنيف والتـأليف شأن يذكـر ، وعلى عهد الحكـم الأمـوي وما أعقبـه بدأ تدفـق الثقـافـة على الأندلس من المشـرق العـربـي فأخذ التصنيف يدرج خطاه في سـاحـة الحياة ، ثم اتسع مداه فاستـوعب الفنـون والعلـوم من لغـة وأدب ونقد وتاريخ وجغرافية وريـاضـة وعلـوم طبيعـة ودين وفلسفـة . وكان من تلك المؤلفات التي يفخر بهـا عرب الأندلس ويعتزون بأنهـا حفظت قيمتها على الـزمن :

كتاب العقد الفريد لابن عبد ربـه وهو كتاب أدبي أخلاقي اجتماعي ، وكتاب الأمالي لأبي على القالي وهوكتاب فى اللغة والنوادر والأمثال ، وكتاب قلائد

العقيـان للفتـح بن خاقان ، وكتـاب الذخيرة لابن بســام وهما كتابان في التـاريخ ، وكتـاب نزهـة المشتاق في اختـراق الآفاق للشريف الإدريسي ، وكتـاب رحلـة ابن جبير لابن جبير وهمـا كتابان في الجغـرافيـا ، وكتاب التصريف لمن عجز عن التـأليف لأبي القاسم الزهـراوي وهـو كتاب في الطب والجـراحـة ، وكتـاب فصـل المقال فيمـا بين الحكمـة والشّـريعـة من الاتصال لابن رشد وغير ذلك كثير من المؤلفات التي يتتلمذ عليهـا الكثيرون من الدارسين عبر الأزمان والقـرون .

وكان أسلـوب الكتـابـة الذي جـرى عليـه المؤلفـون في أول الأمـر جـزلا بليغـاً ، قليل المحسنات ولكنه ما لبث أن صار نسيجاً من الـزخرف البـديعـي المتكلـف الحافـل بالاستعـارات والتشابيـه وأنـواع المجـاز . وفي العهـد الأخير للدولـة ظهر في المؤلفـات طابـع التكلـف والصنعـة اللذيـن لا يرتضيهمـا ذوق أدبـي .

تدريب تطبيقي

أكتب مقالاً تضمنـه الحديث عن حال النثـر في الأندلس ، وأهـم فنـونـه ، والخصائص التـي تميز كـل فنّ منهـا .

التـــــــراجم الأدبيـة

الجـاحظ

المتنـــبي

ابن زيــدون

ابن الخطيب

الجاحظ

160 - 255 هـ

موضوعات البحث

نسبه ونشأته - مصادر ثقافته - شخصيته وصفاته
عوامل نبوغه - نماذج من أدبه - خصائص فنه - منزلته الأدبية

نسبه ونشأته :

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الفقيمي البصري ، الملقب بالجاحظ لجحوظ عينيه أي بروزهما ، وكان هذا اللقب لا يعجبه، وكان يقال له الحدقي أيضاً ، وينسب الجاحظ إلى كنانة ، وروى أن أحد أجداده (فزارة) كان جمالا لسيد من كنانة بالبصرة هو (عمرو بن قلع)

ولد الجاحظ سنة 160 هـ / 777 م بالبصرة ، ونشأ يتيماً فقيرا ، ميالا إلى العلم ، فكان يخالط طائفة من العلماء تجتمع في مسجد البصرة تارة ، كما كان يختلف إلى أحد الكتاتيب طورا ، وقد أكب الجاحظ على تحصيل علوم العربية ، فأخذ اللغة والأدب عن أبي عبيدة ، والأصمعي وأبي زيد الأنصاري ، وأخذ النحو عن الأخفش ، وأخذ علم الكلام عن شيخ المتكلمين إبراهيم بن سيّار المعروف بالنظام ، وهو من أئمة المعتزلة (1) ، ومن ثم أصبح الجاحظ بعد ذلك معتزلياً ، وله فرقة تسمى (الجاحظية) نسبة إليه ، كما رحل الجاحظ إلى بغداد ، واتصل بكبار رجال الدين وعلماء اللغة والأدب وأخذ عنهم .

وعمل الجاحظ في ديوان الرسائل للخليفة المأمون ، ولكن

(1) احدى الفرق الإسلامية التي ظهرت في أوائل القرن الثاني الهجري ، وكان للمعتزلة آراء في أمور الدين والعقيدة تعتمد على العقل .

معاملة الكتاب له ، وبخاصة سهل بن هارون لم تتح له البقاء أكثر من ثلاثة أيام ، واستقدمه الخليفة المتوكل (المتوفي سنة 247 هـ) لتأديب بعض ولده ، فلما رآه استبشع منظره ، فأمر له بعشرة آلاف درهم ، وصرفه . وممن اتصل بهم من الوزراء محمد بن عبد الملك الزيات الذي أقطعه أربعمائة جريب (والجريب مكيال ، ويطلق على الأرض التي تبلغ مساحتها مقدار ما يبذر فيه جريب المكيال) في الأعالي ، وتنقل الجاحظ في البلاد فعاش في بغداد زمنا ، ورحل إلى دمشق ومصر وأنطاكية وغيرها من الدولة الإسلامية المترامية الأطراف

وكان الجاحظ خفيف الروح ، حسن العشرة ، ظريف النكات ، محبوباً لدى المجتمع الذي يعيش فيه ، يقدم إلى الولاة والأعيان (من عرب وترك) ما يؤلف وينتج من كتب ورسائل ، ويجزلون له العطاء ، حتى ملأ صيته جميع مدن العراق .

وللجاحظ مؤلفات عدة بلغت عند بعض الرواة ستين وثلثمائة كتاب ، وأكد بعضهم أنها جاوزت ثمانين ومائة كتاب ورسالة منها في موضوعات علم الكلام : كتاب في الرد على النصارى ، وفي موضوعات السياسة والتاريخ : كتاب العرب والعجم ، وفي الأخلاق كتاب البخلاء ، وفي النبات : كتاب الزرع والنخل ، وفي الحيوان كتاب الحيوان ، وفي اللغة والأدب : البيان والتبيين . وقد قال أبو الفضل بن العميد عن تلك المؤلفات : « كتب الجاحظ تعلم العقل أولا ، والأدب ثانيا» .

واستمر الجاحظ في كتابة الديوان مع محمّد بن عبد الملك الزيات حتى قتل ، فعاد الجاحظ إلى البصرة وبقي فيها يرضي رغبته في القراءة والكتابة والتأليف حتى أصيب بالفالج ، وكان يقول : (اصطلحت على جسدي الأضداد ، إن أكلت باردا أخذ برجلي ، وإن أكلت حارا أخذ برأسي ، وأشد ما على ست وتسعون سنة) ، ومع ذلك لم يقعد به مرضه عن التأليف والكتابة ، وكثيرا ما كان يحمل إلى

بغداد ليحضر فيها مجالس العلم والأدب ، وبينما هو محمول في إحدى المرات توفى حوالي سنة 255 هـ / 869 م عن عمر يتجاوز التسعين .

مصادر ثقافته :

1 ـ نشأة الجاحظ بالبصرة مهد العلم والأدب ، وتتلمذ على يد أئمة القرن الثاني الهجري الأعلام ، وفي مقدمتهم : الأصمعي ، وأبو عبيدة، وأبو زيد الأنصاري، فتعلم منهم الكثير من الأدب والفكاهة وغريب اللغة .

2 ـ اتصاله بشيخ المتكلمين أبي إسحاق النظام وهو من فحول الكلام ، ومن أئمة المعتزلة ، فتخرج عليه الجاحظ في علم الكلام وأصبح من أئمته ، وأصحاب الرأي فيه .

3 ـ معرفة الجاحظ بالثقافة اليونانية عن طريق علماء اليونان ، ومشافهته لحنين بن إسحق وسلمويه ، وأمثالها ، وحذق الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع ، وأخذه عن أبي عبيدة وتوسعه في الثقافات كلها بما كان يقرأ من الكتب فيها .

4 ـ كان يضرب به المثل في شغفه بالقراءة ، فلم يكن يدع كتابا إلا بعد أن يقرأه ويستوعيه ، وكانت البصرة حافلة بدور الكتب ، مما أتاح له إشباع نهمه إلى الاطلاع والمعرفة ، ويروى أنه كان يكتري (يستأجر) دكاكين الوراقين ، ويبيت فيها للاستيعاب والنظر ، وكان الكتاب ـ كما قال ـ خير صاحب له ، وخير جليس ، ويستفيد منه ويتعلم ، ولا يمل صحبته .

5 ـ تعددت رحلات الجاحظ في سبيل المعرفة ، فعاش في بغداد زمنا ، ورحل إلى دمشق ومصر وأنطاكية، وكثر اختلاطه ببيئات اجتماعية مختلفة مما زادت معه معارفه وخبراته واتسعت آفاق تجاربه فلقد خالط الناس جميعاً ، وأفاد منهم معرفة بطبائعهم وأخلاقهم وطرق

معايشهم ، وفضائلهم ورذائلهم ، وصب كل هذه المعارف في كتبه ومؤلفاته حكمة وفلسفة ، وأدبا من شعر ونثر وفكاهة .

شخصيته وصفاته :

كانت عند الجاحظ ملاحظات قوية ، وملكة انتباه راسخة ، وقد حباه الله عقلا نيرا ، وحسا مرهفا ، فكان سريع الاقتباس ، حاد الذهن ، دقيق الملاحظة ، ينتبه لأقل شيء ، فيصوره تصويرا ناطقا ، وكان إلى جوار ذلك دؤوبا ، فما عزم على أمر إلا أتاه .

وكان الجاحظ عالما بالآدب ، فصيحاً ، بليغاً ، مصنفاً في فنون العلوم ، وكان من أئمة المعتزلة ، وتلميذ أبي إسحاق النظّام .

ومما عرف عن الجاحظ بالإضافة إلى منزلته في الكتابة أنه كان شاعرا ، وقد أثُر عنه شعر قليل كقوله في فضل العلم والعلماء :

يطيب العيش أن تلقى حكيما غذاه العلم والفهم المصيب
فيكشف عنك حيرة كل جهل وفضل العلم يعرفه اللبيب

وقد عاش الجاحظ عصامياً يتكسب بيديه ، وعرف بظرفه وفكاهته ، فقد روى أنه كان يأكل مع الوزير ابن الزيات ، فجاءوا بفالوذجة ، فتولع ابن الزيات بالجاحظ ، وأمر بأن يجعل من جهته مارق من الجام ، فأسرع في الأكل ، فتنظف ما بين يديه ، فقال له ابن الزيات : انقشعت سماؤك قبل سماء الناس ، فقال الجاحظ : لأن غيمها كان رقيقاً .

لقد اشتهر الجاحظ بذكائه ، وأنه صاحب ذاكرة واعية ، وصبر لا ينفد ، شديد الحرص على القراءة والاطلاع ، حتى برع في علوم اللغة والأدب ، وكان نادرة زمانه .

عوامل نبوغه :

1 — كان عند الجاحظ استعداد فطري . بما منح من ذكاء متوقد ،

وقـوة حافظة ، وبصيرة نافذة ، وصبر نـادر على استمرار الاطلاع والتهام ما يقرأ ، وتحمل المشقـة في سبيل العلـم ، ويروى أنـه لم يقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته كائنا ما كان ، وكان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظـر .

2 ـ يعد العصر الذي عاش فيه الجاحظ عصرا ذهبياً للأدب العربي كما كان من أزهى عصور العلم واللغـة ، فقـد نضجت فيه العلـوم العربية والإسلاميـة ، وترجمت كتب كثيرة في مختلف أنـواع المعرفـة ، وشجع الخلفاء والولاة العلمـاء والأدباء .

3 ـ كانت نشأة الجاحظ بالبصرة موطن الأعلام ومهبط الأدباء ، وعلى مقربـة منها (المربـد) ذلك السوق الأدبي الذي كان يجتمع فيه الشعـراء والأدباء وعلماء اللغـة لعرض إنتاجهم ، وقد شغف الجاحظ بالذهاب إلى مِرْبـد البصرة للأخذ عن العرب شفاها .

4 ـ تتلمذ الجاحظ على يد صفوة ممتازة من علماء عصره وأدبائه ، فأخذ اللغـة والأدب والروايـة عن أئمتها الكبار (الأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيـد) ، ودرس النحو على يد شيخ البصرة (أبي الحسن الأخفش سعيد بن مسعدة)، وتعلم الحديث على يد (حجاج بن محمـّد وأبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفـة) .

5 ـ اتصل الجاحظ بالثقافات الأجنبيـة اليونانيـة والفارسيـة عن طريق الترجمـة ، كمـا اتصل بالمعتزلـة ، وتتلمذ على يد أحد أئمتهم (النظام) ، وكان المعتزلـة على علم واسع بالإسلام والديانات ، ومعرفـة بالفلسفـة وطرق الكـلام والجدل وقوانين المنطق مما أثر في كتابته فامتازت بالتفكير المرتب ، والتسلسل المنطقي .

6 ـ تأثـر الجاحظ بالحياة الواقعيـة في عصره ، وأفاد منهـا ، فلم يقع بصره على شيء إلا جعله موضع الدراسـة والتحليل ، فنضجت لذلك قريحتـه ، وظهـر أثر ذلك فيمـا ألف عن الحيوانات والنباتات ، والصنـاع ، والفكاهات ، والرحلات ، والكرماء ، والبخـلاء ، والأغبياء ، والأذكياء.

نمــاذج من أدب الجــاحظ

كتب الجاحظ – كمـا أسلفنا القول – في كل ما وصل إليـه علمه ، ووقع عليـه بصره ، وقد مرت بك نماذج من كتابتـه في مؤلفيـه (الحيوان، والبيان والتبيين) وهذه نماذج أخرى يمكن الاستعانـة بها في رسم صورة متكاملـة لشخصيـة هذا الأديب الكبير، وتكـوين فكـرة واضحـة عن أسلـوبـه ، وطـريقـة كتابته .

1 – من كتاب البخلاء :

هذا الكتـاب من أشهر كتب الجاحظ ، جمع فيـه أخبار البخـلاء وأظهـر حركاتهم ، وحلل انفعالاتهم ، وكشف نفسياتهم ، فكأنهـا كتاب مفتـوح . يقـول الجاحظ في تصويـر البخـلاء على طريقـته الساخرة المرحة:

يقـول المـروزي (1) للـزائـر إذا أتاه ، وللجليس إذا طال جلـوسـه : تغديت اليوم ، فإن قال نعـم ، قال: لـولا أنك تغديت لغديتك بغداء طيب، وإن قال لا ، قال : لو كنت تغديت لسقيتك خمسة أقداح ، فلا يصير في يده على الوجهين قليل ولا كثير .

وقال ثمـامة (2) : لم أر الديك في بلدة قط إلا وهـو لافظ ، يأخذ الحبـة بمنقاره ، ثم يلفظها قدام الدجاجـة ، إلا ديكـة مـرو ، فإنـي رأيت ديكة مرو تسلب الدجاجـة ما في منقـارهـا من الحب ، قال : فعلمت أن بخلهم شيء في طبع البـلاد ، وفي جـواهـر الماء ، فمن ثم عم جميع حيوانهم .

فحدثت بهذا الحديث أحمد بن رشيد ، فقال : كنت عند شيخ من أهـل مرو ، وصبي لـه صغير يلعب بين يديـه ، فقلت لـه إما عابثاً وإما ممتحنا : أطعمني من خبزكـم . قال : لا تريده ، هو مرّ ، فقلت :

---

(1) نسبـة إلى مـرو وهي مدينـة كبيرة من خـراسان (فارس) . – (2) ثمـامـة بن الأشـرس أحـد زعمـاء المعتـزلـة .

فاسقني من مائكم ، قال : لا تريده ، هو مالح . قلت : هات لي من كذا وكذا ، قال : لا تريده ، هو كذا وكذا ، إلى أن أعددت أصنافاً كثيرة ، كل ذلك يمنعنيه ويبغضه إليّ ، فضحك أبوه ، وقال : ما ذنبنا ؟ هذا من علمه ما تسمع ؟ يعني أن البخل طبع فيهم وفي أعراقهم وطينتهم.

2 ــ ومن رسالة التربيع والتدوير :

هذه رسالة وضعها الجاحظ في هجاء أحمد بن عبد الوهاب ، وقال عنه إنه يعدّ أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب ، وليس في يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب . . إلى غير ذلك .

وهذا نموذج من تلك الرسالة :

قد علمتُ ــ حفظك الله ــ أنك لا تحسد على شيء حسدك على حسن القامة ، وضخم الهامة وعلى حور العين ، وجودة القد ، فمن غريب ما أعطيت ، وبديع ما أوتيت أنا لم نر مقدودا واسع الجفرة (ما يجمع الصدر والجنبين) غيرك ، ولا رشيقا مستفيض الخاصرة سواك ، فأنت المديد ، وأنت البسيط ، وأنتَ الطويل ، وأنت المتقارب ، فيا شعرا جمع الأعاريض ، ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول : لعمري إن العيون لتخطيء ، وإن الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع إلا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل .

3 ــ ومن كتاب الحيوان :

يقول في وصف الكتاب وبيان منافعه ومآثره :

« الكتاب وعاء ملىء علما ، وظرف حشي ظرفا ، وبستان يُحمل في رُدن ، وروضة تقلب في حجر ، ينطق عن الموتى ، ويترجم كلام الأحياء . . ولا أعلم جارا أبر ، ولا خليطا أنصف ، ولا رفيقا أطوع ، ولا معلما أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفاية ، وأقل جناية ، ولا أقل إملالا وإبراما ، ولا أزهد في جدال ، ولا أكف عن قتال ، من كتاب » .

خصائص فنّه :

1 — كان الجاحظ دقيقاً في اختيار موضوعاته ، كما كان يستقصي أطراف الموضوع الذي يكتب فيه ، وقد أولع بتصوير مستوى الحياة لكل الطّبقات ، وقدم أفكاره في أسلوب خصيب متعدد النواحي .

2 — ملك الجاحظ زمام البيان واللغة ، فكانت عبارته سهلة قوية ، يكثر من الجمل المترادفة أحيانا تثبيتاً للمعنى ، كما يختار الألفاظ الملائمة لأفكاره وعواطفه .

3 — كان أسلوب الجاحظ ذا جمل صغيرة متعادلة غالباً ، يحليه السجع غير المتكلف ، كما يميل إلى الاستطراد بذكر كل ما له صلة بموضوعه ، من أخبار طريفة ، وملح ونوادر ممتعة ، ترفيها للنفس، وتحريكاً للعقل ، كما كان يخلط أحيانا بين الجد والهزل ليبعد الملل عن القارىء .

4 — كان يقتبس من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، ومن الشعر ومأثور الأخبار والأقوال ، إقامته للحجة وإيضاحاً للبرهان ، ويلاحظ في أسلوبه اعتراض بعض الجمل الدعائية التي يقتضيها المقام .

5 — ينظم الجاحظ عبارته أحسن نظم ، ويكسوها أجزل لفظ ، ولم يقصر نفسه كغيره على الموضوع الذي يتكلم فيه ، وتغلب عليه النزعة الأدبية في كل ما كتب ، حتى في الحيوان ، فهو يتخير الألفاظ والتعبيرات ، ويحسن التأليف بينها في قوة وإحكام .

6 — وللجاحظ أسلوب يمتاز به ، ولا ينسب إلا إليه ، تظهر فيه شخصيته ، فهو في تأليفه قد تحرر من قيود كثيرة تقيد بها أدباء عصره ، تحرر من التزام الجد ، وثقل الغموض الذي كرهه من أستاذه الأخفش ، وهو دائماً يخلط جدا بهزل ، ويسيغك اللقمة الجافة بكثير من الحلوى ، ويجدّ حتى إذا أعدّك للبكاء رماك بنادرة تمعن منها في

الضحك ، ويأخذ بيدك حتى إذا كنت في أصعب موضوع ، وأعمق قرار قفز بك فجأة إلى السماء ، وحدثك حديثاً خفيفاً أنساك جهدك وعناءك .

منزلته الأدبية :

كان الجاحظ أعجوبة الزمان ، وعبقري كل عصر وآن ، وحجة من حجج هذا البيان ، وينبوعاً من ينابيع الأدب ، وإماماً في علم الكلام والفلسفة ، وراوية وأديباً ، ومؤرخاً وشاعرا ، وكاتباً وعالماً .

وحسبنا دليلا على نبوغه ورسوخ قدمه ما قاله ابن العميد في وصف كتبه : (كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانياً) ، وما قاله المسعودي على ما بينه وبين الجاحظ من اختلاف : (كتب الجاحظ — مع انحرافه — تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ).

إن تاريخ الجاحظ تاريخ قرن كامل ، وهو زهرة الدولة العباسية ، لأنه ارتقى بالكتابة ورفع مكانتها ، وجمع في كتابته محاسن من سبقه من أمثال عبد الحميد الكاتب ، وابن المقفع ، وامتاز عنهما بخفة الروح ، وجمال العرض ، وسهولة العبارة .

ولقد أثْرَتْ المكتبة العربية بكثير من مؤلفات الجاحظ التي بلغت عدتها أكثر من مائتي كتاب أشهرها البيان والتبيين ، والحيوان ، والبخلاء ، وفي أيام الجاحظ كان كل كاتب ناشيء يدرس كتبه تلك ، وقد نال الجاحظ حظوة عند عارفي فضله ، فتهافتوا على قراءة كتبه والاستفادة منها وطبقت شهرته الآفاق لكثرة ما ألف في كل فنون القول . وترجمت بعض آثاره إلى اللغات الأجنبية فترجم شارل بلا كتابه البخلاء إلى الفرنسية .

ويعتبر الجاحظ إماما في الدين على مذهب الاعتزال وراوية بصيرا واستاذا موجها في الأدب ، وحسبه أن له طريقة في الكتابة عُرفت به ، وعُرف بها ، واحتذاها من جاء وابعده من أئمة الأدب والكتابة.

لقد وجه الجاحظ ملاحظاته القوية ، وملكة انتباهه الراسخة في أسلوبه الخصيب الأفكار المتعدد النواحي إلى مختلف الظواهر الاجتماعية والأدبية واللغوية في عصره ، وكان أسلوبه وطريقته مثالا يحتذى إلى وقتنا الحاضر .

تدريب تطبيقي

المقالة الأدبية :

الجاحظ صاحب مدرسة في الكتابة تميزت بخصائص معينة — اكتب في ذلك مع الاستشهاد بما درست له من نماذج أدبية .

السؤال الكتابي :

ما أهم العوامل التي كونت شخصية الجاحظ : العالم الأديب ؟

المراجع :

1 — نزهة الألباء — ابن الأنباري
2 — العربية — يوهان فك
3 — الجاحظ — شفيق جبري

أبو الطيب المتنبي

موضوعـــات البحث

نسبـه ـ نشأتـه وحيـاته ـ ثقـافته ـ عوامل نبـوغه ـ أغراض شعره خصائص شعره ـــ منـــزلته الأدبيـة

نسبـــه :

هـو أبـو الطيب أحمـد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمـد الجُعْفي ، نسبـة الى قبيلـة جعفـى اليمنيـة ، وجعفـي هـو جد المتنبي ، وهـو جعفي ابن سعـد العشيرة بن مَذْحِجْ بن كهـلان بن قحطـان .

ولد المتنبي بالكوفة سنة (303 هـ ـــ 915 م) في حي كندة ، ولذلك نسب إلى هذا الحي أو إلى الكوفـة ، فقيل : له الكـوفي الكندي ، وليست نسبتـه الأخيرة إلى قبيلـة كندة كمـا قد يتبادر إلى الذهن ولكنهـا إلى ذلك الحي الذي ولد فيـه ، وأطلق على أبي الطيب لقب (المتنبي) لتعاظمـه في بعض أشعـاره ، ومحاولتـه الخـروج على بعض الـولاة في عصـره .

ولـم تصل إلينـا معلـومـات وافيـة عن أسرة المتنبـي ، ويبدو أنهـا أسـرة فقيرة مغمـورة ، فأبـوه كان سقـاء للمـاء بالكـوفـة ، وكان يعـرف بعيدان السقـا ، ولـم يعـرف شيء عن أمـه ، ويبد وأنهـا ماتت وهـو صغير ، أما جدتـه لأمـه فهي همدانيـة صحيحـة النسب ، وقد خُصَّت من بين أسـرتـه بـرثائـه وتقـديره ، ولم يكـن المتنبـي نفسـه يعنى بأن يعرف عنـه إلا أنـه الشاعـر الذي لا يفخـر بقبيلـة ، إنمـا تفخـر به القبيلـة التي هـو منهـا ، قال في احدى قصائد الصبـا :

ما بقـومـي شَـرُفْتُ ، بل شَرُفُوا بـــي
وبنفســـي فخُـــرتُ لا بجـــدودي

وقال في رثاء جدته لأمه :

ولو لم تكوني بنت أكرم والد
لكان أباك الضخم كونُك لي أمّا

نشأته وحياته :

نشأ المتنبي في أسرة فقيرة بالكوفة ، وعرف منذ طفولته بالذكاء وقوة الحفظ ، وقد أدخل مدارس الشيعة التي انتشرت بالكوفة حينذاك، فتعلم دروس العربية وشيئاً عن المذهب الشّيعي وما كاد يبلغ العاشرة حتى ارتحل مع أبيه الذي ترك الكوفة إلى بادية السماوة بين العراق والشام وظل يتابع تعلمه ، وينهل من ينابيع اللغة الفصحى بين قبائل البادية مدة سنتين ، ثم عاد مع أبيه إلى الكوفة وهو في الثانية عشرة من عمره ، ولكنه سرعان ما غادرها مرة أخرى عندما عاود القرامطة الغارة عليها ، وشارك بنفسه في مواجهة المغيرين ، وكانت رحلة المتنبّي هذه المرة إلى بغداد ولم يمنعه موت أبيه – في هذا الوقت – من الاستمرار في تكوين نفسه علمياً وأدبيا ، فقد اتصل بالعلماء والأدباء ، وصاحبهم، ودرس عليهم، ويبدو أن موهبته الأدبية قد تفتحت في هذه الفترة المبكرة من حياته ، فبدأ في نظم الشعر ، ومحاولة تحقيق آماله عن طريقه ، ويؤكد الرواة أن المتنبي (طلب الأدب وعلم العربية ونظر في أيام النّاس وتعاطى قول الشعر من حداثته حتى بلغ الغاية التي فاق فيها أهل عصره وطاول شعراء وقته).

أحس المتنبي منذ نعومة أظفاره بطاقاته الفنية تتفجر ومعها نفس أبية ، وطموح إلى معالى الأمور ، لقد كان منذ صباه يبغي المجد والسؤدد ويلهج بالملك ، ويبني صروح الآمال الجسام ، وسجل ما يشير إلى ذلك في أشعار صباه فقال :

ومن يبغ ما أبغي من المجد والعلا تساوى المحابي عنده والمقاتل

وقد يعتبر بعض النقاد ذلك الطموح حمقاً ، ولكن الأمر كما قال شاعرنا :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

ومن أجل ذلك تعددت رحلات المتنبّي إلى بغداد وغيرها طلباً للمجد والسؤدد ورفعة الشأن ، ومدح أمراء تلك الحواضر ، ولكن أمانيه العذاب لم تتحقق ، فقرر العودة إلى بادية السماوة ، ويقول الثعالبي : (إنه بلغ من كبر نفسه وبعد همته أنه دعا قوما من رائشي نبله ، على الحداثة في سنه ، والغضاضة من عوده ، وحين كاد يتم أمر دعوته تأدى خبره إلى والي البلدة ، ورفع إليه ما همّ به من الخروج فأمر بحبسه وتقييده) .

لقد كان حبس المتنبّي – كما نصت عبارة الثعالبي – بسبب محاولته الثورة والخروج على الوالي وليس لادعائه النبوة كما زعمت بعض الآراء ، وهو ما أنكره المتنبّي ونفاه عن نفسه .

لقد عاش المتنبّي في فترة كانت فيها الدولة العباسية نهبا مقسما ، ورأى المتنبّي في سكان البادية سذاجة في الطّباع فجذبهم إليه بسحر بيانه وقوة عارضته ، ولم يجد أعداؤه تهمة يتخلصون بها منه إلا أن يلصقوا به تهمة ادعاء النبوة .

وسجن شاعرنا ، واستمر في سجنه حتى استعطف أمير حمص ، فأطلقه ، وخرج ليستأنف نشاطه في سبيل تحقيق مآربه ، واستمر متنقلا بين ولاة الشّام وأمرائها مدة خمس عشرة سنة يمدحهم ولا يستفيد من مدحه إلا العطاء النزر ، على كثرة ما بالغ واحتفل ، وممن مدحهم بدر بن عمار أحد ولاة الشام الذين مدحهم بشعر رائع .

وأراد الله للشاعر الكبير أن يلقى ممدوحه الكبير. فاتصل المتنبّي بأبي العشائر ، وكان سيف الدولة أمير حلب قدم أنطاكية وأبو العشائر بها ، فقدم المتنبّي إليه ، وعرفه مكانته من الشعر والأدب ، فأحسن

سيف الدولة استقباله وأنزله من نفسه منزلة كريمة حتى أصبح المتنبي من خاصة المقربين إليه ، ورأى المتنبّي في سيف الدولة الأمير العربي الذي يجدر بِدُرَرِهِ الغوالى ، وآياته الخالدات ، فانقطع إليه يمدحه ، ويقول في صحبته روائع أشعاره التي سجلت رحلاته ، ووصفت حروبه ومعاركه مع الروم ، واستمرت تلك الصحبة نحو تسع سنين نظم فيها شاعرنا اثني عشر وخمسمائة وألف بيت يضمها أكثر من سبعين قصيدة ومقطوعة ، ولا شك أن تلك الصلة بين شاعرنا وأميره كانت مذكية لعبقريته ، ومذيعة لصيته ، مما هيأ له أسباب الرضا والمجد ، وأعانه على الدخول في زمرة الخالدين ، وكان له على خطوب الأيام خير معين .

وما زالت تلك الصلة قائمة بين الأمير وشاعره ، يجني المتأدبون ثمارها اليانعة ، وقطوفها الدانية حتى دسّ له بعض الحاقدين عند سيف الدولة ، وحدثت جفوة بين الأمير وشاعره فغضب عليه واضطر المتنبّي إلى ترك حلب ، وقلبه معلق بسيف الدولة كما يظهر من أشعاره في هذه الفترة ، ورحل إلى دمشق ، وهناك زين له أحد أتباع كافور الإخشيدي حاكم مصر أن يرحل إليه ، فاتجه إلى مصر سنة 346 هـ والحق أن المتنبّي قدم كافور يجذبه الطمع في أن ينال منه ولاية ، ويصده الكبر أن يتدلى إلى مدح الأسود ، وإننا لنحس هذا الشعور من مطلع أول قصيدة مدحه بها ، والذي يقول فيه :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

وهو مما أخذه عليه بعض النقاد المتمسكين بقواعد المدح التقليدي. واستمر المتنبّي في مدح كافور ، ولما لم يتحقق حلمه عزم على ترك مصر ، وحاول كافور منعه ، ولكنه خرج خلسة ليلة عيد الأضحى سنة 350 هـ . وكان قد مرض بالحمّى ، وقال قصيدة طويلة في ذلك منها :

وزائرتي كأن بها حياء فليس تزور إلا في الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت في عظامي
يضيق الجلد عن نفسي وعنها فتوسعه بأنواع السقام(1)

وهجا المتنبّي كافورا هجاء مرا ، وكانت وجهته هذه المرة إلى الكوفة بلده ومسقط رأسه بعد غيبة طويلة عدتها ثلاثون سنة ، وقد استغرقت رحلته من مصر إلى الكوفة ثلاثة أشهر ، ولبث أبو الطيب بالعراق ثلاث سنين ، ثم غادرها إلى فارس سنة 354 ه فوصلها ومدح عضد الدولة بن بويه (324 ه / 372 ه) أحد أمراء بني بويه المتغلبين على العراق وفارس والموصل ، ووزيره ابن العميد الأديب المشهور ، وفي أثناء عودته إلى بغداد تصدى له بعض الأعراب ممن يقطعون الطريق ومنهم (فاتك بن أبي جهل الأسدي) خال (ضبة بن يزيد) الذي كان المتنبّي قد هجاه أقذع هجاء في قصيدة طويلة منها :

إن أوحشتك المعالي فإنها دارُ غربَهْ
أو آنستك المخازي فإنها لك نِسبَهْ

فأراد فاتك الانتقام لابن أخته ، كما رغب في الاستيلاء على ما يحمله المتنبّي من ثروة ، ودارت بين المتنبّي وقطاع طريقه رحى معركة بذل فيها جهد طاقته ، ولكنه قتل مع ابنه (محسد) وغلامه (مفلح) عند مكان يسمى (الصافية) على بعد ستة عشر فرسخاً من بغداد سنة (354 ه) وأخذوا جميع ما كان معه ، وكان في جملة ما أخذوا كتبه ودواوين شعره . وكانت وفاته في خلافة المطيع .

ومما عرف عن المتنبّي طموحه وشجاعته وإقدامه ، وعزة نفسه ، وترفعه عن الدنايا وصغائر الأمور ، فهو لا يشرب الخمر

---

(1) وزائرتي : يريد الحمى وكانت تأتيه ليلا . المطارف : جمع مطرف وهو رداء من حرير والحشايا : جمع حشية وهي ما حشي من الفراش مما يجلس عليه . عافتها : رفضتها. السقام : الأمراض والآلام .

لأنه يذهب بالعقل ، وينقص من قدر شاربه ، كذلك اشتهر بالفروسية والتعصب للعرب والإسلام إلى غير ذلك من القيم والمبادىء التي كان لها أكبر الأثر فيما صدر عنه من شعر .

مصادر ثقافته :

1 ـ صحب المتنبّي الأعراب وأقام بالبادية ، فسمع اللغة ، وبلغ في العلم بها وبغريبها وبشواهدها مبلغاً عظيماً حتى صار إماماً فيها .

2 ـ طلب المتنبّي العلم والأدب منذ حداثة سنه ، كما تعاطى الشعر في وقت مبكر ، حتى استقام له ، ونبغ فيه .

3 ـ كان المتنبّي يكثر من ملازمة الوراقين ، ويستوعب كل ما لديهم من كتب ، وقد وهبه الله حافظة نادرة أعانته على اكتساب المعارف ووعى الآداب .

4 ـ تلقى العلم والأدب على يد أئمة أعلام من أمثال أبي بكر ابن السراج ، وأبي بكر محمّد بن دريد ، وأبي علي الفارسي وغيرهم من رجال اللغة و لأدب .

5 ـ استفاد المتنبّي كثيرا مما قام به من رحلات ، وممن لقى في أثنائها من علماء وأدباء ، وممن اتصل بهم من ملوك وأمراء ، ومما تعرض له من مواقف وأحداث .

عوامل نبوغه :

1 ـ كان المتنبّي ذا موهبة فطرية ، فبرع في نظم الشعر منذ نعومة أظفاره ، وقد أعان على ذلك ذكاء مفرط ، وحافظة قوية ، وبديهة حاضرة ، وعقل منظم ، وظهرت آثار ذلك كله في أشعاره التي امتازت بتسلسل أفكارها وترتيب معانيها ، وإحكام موضوعاتها .

2 ـ كان نبوغه الفكري نتيجة تخرجه في العلم والأدب على يد علماء العراق والشّام وأدبائهما ، وإلمامه بالعلوم الدخيلة ، واطلاعه على الفلسفة اليونانية ، حيث اتسعت ثقافته ، ونضج تفكيره ، مما جعله في طليعة شعراء الحكمة بين سائر الشعراء ، بالإضافة إلى عمق أفكاره ، ودقة معانيه .

3 ـ وكان نبوغه اللغوي نتيجة إقامته بين قبائل البادية ، وخاصة بين قبيلة (كلب) في أرض السماوة ، فتلقى عنها اللغة ، وتعلم الفصاحة ، حتى ليقول بعض مؤرخيه : (كان وليد خباء أو غذى باللبن ، ولم يطأ الحضر ، ولم يعرف المدر) .

4 ـ عاش المتنبّي في أزهى العصور العربية علماً وأدباً ، وكان للشعراء والأدباء مكانة رفيعة عند الحكام والأمراء من أمثال الأمير سيف الدولة ، الذي سجل المتنبّي في معيته روائعه الشعرية الخالدة وقد عرف سيف الدولة بسماحة النفس ، وكرم الخلق ، فكان بحق شاعر المجد الذي سعد بصحبته شاعر اللفظ والبيان ، وهذا ما أشار إليه المتنبّي في بيته :

شاعر اللفظ خدنه شاعر المجد كلانا رب المعاني الدقاق

5 ـ كانت للمتنبّي فلسفة ونظرات صائبة في الحياة ، فهو يرى أن الحياة صراع ، والبقاء للأقوياء ، وقد انعكست آثار هذا الاتجاه على نفسه ، وحاول تحقيق مطالبه عن طريق القوة ، ولكن الظروف لم تكن في جانبه ، مما دفعه إلى السخط والتبرم بالنّاس وبالحياة ، وفاض ذلك في أشعاره ، قال في إحدى قصائده :

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

6 ـ كان المتنبّي أبياً ، معجباً بنفسه ، بعيد الهمة ، كما كان صريحاً في مواجهة الآخرين ، وقد سيطرت عليه تلك الأخلاق

فجعلته مترفعا عن شعراء عصره ، عزوفا عن مسايرتهم في اللهو والمجون معتزا بنفسه ، وأدبه ومواهبه ، يقول :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صَمَمُ
أنام ملء عيوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصمُ

7 — كان المتنبّي أنوفا شجاعاً فارساً ، محباً للمغامرات ، وكان فيه طموح للسيادة وكان يلهج بالملك ، ويرى الوسيلة إلى تحقيقه هي الكفاح والقتال ومصارعة الخطوب ، كذلك امتلأت نفس المتنبّي بحب العرب والتعصب لهم ، وكان ذلك من أسباب تعلقه بسيف الدولة والإشادة بأعماله كصورة من صور البطولة والقوة التي أرادها لنفسه ، وتمنى أو استظل بها قومه وعشيرته ، وكان المتنبّي بالإضافة إلى اعتزازه بنفسه معتزا بأشعاره ، ولم يكن يقبل النقد إلا مع سيف الدولة فإنه قبل منه نقده في البيت الآتي وهو من نص سبقت لك دراسته :

قال المتنبّي :

وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جيف القتلى عليها تمائم

فقال له سيف الدولة :

قل : ومن جثث القتلى ، فاستجاب له المتنبّي ، وقبل رأيه .

8 — كان للمتنبّي حساد كثيرون من فحول الشعراء وأعيان البيان ، يلتمسون له الهفوة ، ولذا عني بمراجعة ما يقول من شعر وتنقيحه ، وقد روى أنه كان إذا نظم قصيدة يتغنى بأبياتها بيتا بيتا ، وكلما توقف مرة بدأ يتغنى من أول القصيدة ، وكان يبذل جهدا كبيرا في الانتقال من جزء إلى آخر ، وهكذا كان يحتشد لكثير من قصائده ، ويعنى بها ، ويحتفل باختيار ألفاظه ومعانيه .

9 — كان عند المتنبّي حرص شديد على المال ينشده ليبلغ به غايته ، ويستعين به على تحقيق آماله الجسام ، وأحلامه الواسعة ،

وفي سبيله تحمل الكثير من المشاق ، وقام برحلاته العديدة إلى حلب ومصر وفارس وغيرها ، وقد كان من آثار هذا الحرص الشديد شحذ همته ، ودفعه إلى الإجادة والتفوق في شعر المدح والمناسبات .

أغــراض شعــره :

تناول المتنبّي في شعره كل الأغراض التي قال فيها الشعراء كالمدح والوصف والفخر والهجاء والغزل والرثاء والحكمة ، وقد أكثر المتنبّي القول في بعض هذه الأغراض تبعا للظروف التي مر بها كالمدح والوصف . وأما شعر الحكمة فقد كان المتنبّي فارس ميدانه بما قدم فيه من روائع الحكم الأخلاقية والاجتماعية وإليك تفصيل القول في هذه الأغراض :

الـوصف :

وصف المتنبي المعارك الحربية ، وسجل أحداثها ، بعد أن شاهدها شأن المراسلين الحربيين في الجيوش الحديثة ، ويعد شعر المتنبّي في تلك المعارك تاريخاً لمرحلة هامة من مراحل الصراع بين العرب وأعدائهم ، كذلك وصف عُدَد الحرب ، والسفر ، والبادية ، وكان أقدر على البيان في هذه الموضوعات بحيث لا يجاري في الإبانة عنها .

والتفت المتنبي إلى الطبيعة فأبدع في وصفها ، ووصف نفسه ، وطموحه ، ولم ينس أن يتناول في وصفه طبائع الناس وغرائزهم ، ويمتاز وصف أبي الطيب في كل ذلك بالقوة والواقعية . وقد سبقت دراسة نموذجين من شعر الوصف عند المتنبي أحدهما في وصف معركة الحدث إحدى معارك سيف الدولة مع الروم ، والآخر في وصف جمال الطبيعة في شعب بوان . ومن خلال دراستك لهذين النصين تدرك أن الوصف عند المتنبّي يشهد بقدرته على الإبانة والبصر بإبراز المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة .

المـــدح :

كثـر شعـر المديـح عند المتنبّي ، وقد وجد في سيف الدولة أمير حلب النمـوذج الـواضح للصفـات العـربيـة الأصيلـة ، ودفعتـه حـروب هذا الأمير وانتصاراتـه إلى الإشادة بفتـوحـه ، والتغنـي بمـلاحمـه ، فمدحـه بقصائد أطلق عليهـا الأدباء (السيفيات) وممن مدحهم أيضاً التنوخيون باللاذقية ، وبدر بن عمـار الأسدى نائب ابن رائق في طبريـة ، وكافـور الإخشيدى حاكـم مصـر ، وعضد الدولـة بن بـويـه ، ووزيـره ابن العميد بفارس . على أن المتنبّي لم يكـن يمدح إلا عن اقتناع بشخصيـة الممدوح وإعجاب بـه ، حتى إنـه ليروى أنـه أبـى أن يمدح بعض أناس لأنـه لم يـرهـم أهلا لمديحـه ، وما مدح كافـورا إلا رجاء عـونـه في تحقيق مطامعـه في السؤدد والجاه .

ويمتاز مدح المتنبّي بالتدفق والتسامي ، والميـل إلى الحكمـة ، ويتضح ذلك فـي كثيـر من أبيـات قصيدتـه التـي مـدح فيهـا سيف الدولـة ، وقـد مرت بـك .

الحكمة :

حفـل شعـر المتنبّي بالحكمـة ، وكانت نابعـة عن أصالـة ، وناتجـة عن تجربـة وخبـرة ، ومن ثم تـــرددت على كل لسان ، واستقـرت في النفـوس مـرتـاحـة إليهـا ، ضنينـة بهـا ، وليس لأبـي الطيب مثيـل في هذا اللـون من الشعـر ، فقد تسامت حكمتـه إلى درجـة لم يـرتفـع إليهـا هذا الفن في الجاهليـة أو في الإســلام .

ونجد شعـر الحكمـة عند المتنبّي مبثـوثاً في قصائده ، وقد يخصص لـه بعض القصائد كقـولـه :

صحب النـاس قبلنا ذا الـزمـــانــا وعناهـم من أمـره مـا عنـانـــا(1)

---

(1) عنـاه الأمـر : أهمـه

وتولوا بغصة كلهم منـــــه ... وإن سر بعضهم أحيانا(1)
ربما تُحسن الصنيع لياليـــه ... ولكن تكدر الإحسانا (2)
ومراد النفوس أصغر من أن ... نتعادى فيه وأن نتفانى
غير أن الفتى يلاقي المنايا ... كالحات ولا يلاقي الهوانا
ولو أن الحياة تبقى لحي ... لعددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بد ... فمن العجز أن تكون جبانا

الفخر :

كثر الفخر في شعر المتنبّي ، ويأتي في ثنايا قصائد المديح أو الهجاء أو الرثا ، حيث يفخر بنفسه ، يعلن عن طموحها ، وعظمة ما تستمسك به من مبادىء ، ومن شعر الفخر قوله :

ما بقومي شرفت بل شرفوا بي ... وبنفسي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كل من نطق الضا ... د ، وعوذ الجاني ، وغوث الطريد (3)
إن أكن معجباً فَعجْبُ عَجيبٍ ... لم يجد فوق نفسه من مزيد (4)
أنا تِربُ الندى وربّ القوافي ... وسمام العدا وغيظ الحسود (5)

الغزل :

تجنّب المتنبّي الغزل في مطالع قصائده أحيانا ، ولم يكن في غريزته من أهل الغزل ، ولكنه حينما أراد أن يتغزل استطاع ببيانه القوي الذي طبع عليه أن يجيد في هذا الفن ، ومن أمثلة ذلك قوله :

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي ... وللحب ما لم يبق مني وما بَقِي

(1) تولوا : ذهبوا . الغصة : ما غصصت به من هم وحزن ونحوهما . (2) تكدر: تشوب وتخلط — (3) من نطق الضاد : العرب . عوذ الجاني : يلجأ إليهم من جنى جناية — (4) المعجب : الذي يعجب بنفسه . العجيب : الذي يعجب بغيره — (5) ترب الندى: ترب الإنسان من ولد معه في وقت . والندى : الجود . القوافي : يقصد الشعر . السمام جمع سم

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ولكن من يبصر جفونك يعشق
وبين الرضا والسخط والقرب والنوى
مجال لدمع المقلة المترقرق

ولم يكن اتجاه أبي الطيب إلى الغزل مما يصرفه عن معالي الأمور فقد كلف بالحرب واهتم بالقول فيها حتى تغتزل بها ، فهو الذي يقول :

أعلى الممالك ما يبنى على الأسل والطعن عند محبيهن كالقُبَل(1)

الهجاء :

اتجه المتنبّي إلى شعر الهجاء نتيجة ظروف قاهرة جعلته يتبرم بالحياة ، ويضيق ذرعاً بالأحياء ، وقد يرد على بعض شانئيه ، وتغلب الحكمة على هذا اللون من الشعر ، كما يحمل طابع التهكم والسخرية اللاذعة بالمهجو ، ومن شعر الهجاء قوله في صباه يهجو القاضي الذهبي :

لما نسبت فكنت ابناً لغير أب ثم امتحنت فلم ترجع إلى أدب
سميت بالذهبي اليوم تسمية مشتقة من ذهاب العقل لا الذهب
ملقب بك ما لقبت ويك به فأيها اللقب الملقي على اللقب(2)

وللمتنبّي في هجاء كافور الإخشيدي قصائد متعددة ، ومن ذلك قوله :

إني نزلت بكذابين ضيفهم عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدي وجودهم من اللسان فلا كانوا ولا الجود
ما يقبض الموت نفسا من نفوسهم إلا وفي يده من نتنها عود

---

(1) الأسل : الرماح . (2) ويك : ويلك حذفت اللام لكثرة الاستعمال

الرثـاء :

اختلفت مـواقف المتنبي في شعـر الـرثـاء ، فبعض هذا الشعـر يغلب عليه العقـل ، وبعضـه مؤثـر يصدر عن عاطفـة صادقـة جياشـة ، ومن خـلال هذا وذاك تنطلق الحكمـة ، وتبـرز معاني العبـرة ، ومن ذلك قصيدتـه التي يعـزي فيهـا أبـا شجاع عضد الدولـة في عمتـه وقد تـوفيت ببغداد

لا بُدّ للإنسان من ضَجْعَـةٍ ... لا تَقْلِبُ المُضْجَعَ عن جَنْبِـهِ
يَنسى بِهـا ما كان من عُجْبِـهِ ... وما أذاق المـوتُ مِنْ كَـرْبِـهِ
نحـن بنـو المـوتى ، فمـا بـالُنـا ... نَعـافُ ما لا بُدّ مِنْ شُـرْبِهِ ؟
تَبْخَلُ أيدينـا بـأرواحنـا ... على زمـانٍ هُنّ من كَسْبِـهِ
فهـذهِ الأرواحُ من جـوِّهِ ... وهـذه الأنسامُ من تُـرْبِـهِ

خصائص شعره :

شعـر المتنبي صورة صادقـة لحيـاة هـذا العبقري وعصـره ، وقد صدر عن أصـالـة ، تـرجـم عن شخصيـة قـائلـه ، ونفسيتـه وصفـاتـه ، فهو طموح جرى، مغامـر ، حريص على تحقيق ما تصبو إليه نفسه من مكانة ماديـة ومعنـويـة ، وأمـا عصـره فقد غص بالأمـراء والـولاة الذين قدروا العلـم والأدب حق قدرهمـا ، فقـربـوا العلمـاء والأدبـاء ، واستمـالـوا الشعـراء ، وأجـزلـوا لهم العطـاء ، ومن ثم كثرت رحـلات المتنبي-- وتعـددت .

وشعـر المتنبي ذو طابـع خاص يميزه في معانيـه وأخيلتـه وألفـاظـه وأساليبـه ومـوسيقـاه ، فمعانيـه تتسـم بالقـوة والفخـامـة والتركيز ، وخياله يمتاز بالخصب وإحكام الصـورة وقـوة التـأثير ، وأمـا ألفـاظـه فجـزلـة ، وعباراتـه وأساليبـه رصينـة ، ومـوسيقـاه قـويـة الجرس ، تـلائـم روحـه ، وتتفق مـع طبيعـته دون اعتمـاد على الصنعـة والـزخـرف .

إن مـا خلفـه المتنبي من ثـروة شعـريـة بلغ ذروة الخلـود في الأدب

العربي ، ولقد نفخ المتنبي في الأجيال المتعاقبة من سديد رأيه وحكمته ، واستمتع عشاق الأدب على يد المتنبي بالمعنى البديع والنظم الحلو ، والكلمة الرشيقة ، والحكمة الرشيدة .

منزلته الأدبية :

يعد المتنبي أحد أئمة البيان في عصور العربية ، وهو ثالث ثلاثة أشاد بهم النقاد في العصر العباسي ، وقال عنهم ابن الأثير : أبو تمام والبحتري والمتنبي هم الذين ظهرت على أيديهم حسنات الشعر ومستحسناته ، وجمعت بين الأمثال السائرة ، وحكمة الحكماء ، وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء .

ولقد خلف المتنبّي للغة الضاد مجدا عظيماً ، وتراثاً خالدا تسامى بروائع الحكم وآيات البيان ، والمتنبي في تناول شعره كالملك الجبار : يأخذ ما حوله قهرا وعنوة ، وكالشجاع الجري : يهجم ما يريده ولا يبالي ما لقي ، ولا حيث وقع .

ولقد حظى شعر المتنبّي بالحكم والأمثال ، واختص بالإبداع في وصف مواقف القتال ، فإذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها ، وهو خاتم الشعراء ، ومهما وصف فهو فوق الوصف والإطراء .

لقد أتيح للمتنبّي مكانة رفيعة بين شعراء عصره ، وكل العصور ، وظل إنتاجه الفني نموذجا يحتذيه الشعراء لما امتاز به من معاني القوة والحيوية ، كما عني علماء اللغة والنقد بهذا الشعر منذ عصر المتنبّي إلى اليوم ، فقد قامت دراسات توفر عليها علماء أكفاء من أمثال أبي بكر الخوارزمي المتوفي سنة 383 هـ والصاحب بن عباد المتوفي سنة 385 هـ ، وأبي الفتح عثمان بن جنّي المتوفي سنة 392 هـ ، وابن القطاع الصقلي المتوفي سنة 515 هـ ، وأبي البقاء عبد الله بن الحسن المعروف

بالعبكري المتوفي سنة 616 هـ والقاضي أبي الحسن الجرجاني صاحب الوساطة بين المتنبي وخصومه ، وغيرهم كثير .

وإنما ارتقى المتنبي إلى تلك المنزلة الأدبية بفضل نبوغه الشعري النادر ، وعبقريته التي عزّت على سواه في عصر كان يموج بالمجيدين من الشعراء .

تدريب تطبيقي

المقالة الأدبية :

المتنبي شاعر الحكمة والمجد والطموح .
اكتب مقالا أدبيا تتناول فيه هذه الجوانب

السؤال الكتابى :

ما الأسباب التي هيأت المتنبي للنبوغ في كل من شعر الوصف والحكمة ؟
استشهد لما تقول بنماذج من شعره .

المراجع :

شرح ديوان المتنبي — عبد الرحمان البرقوقي
ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام — عبد الوهاب عزام
العربية — يوهان فلك — ترجمة د. عبد الحليم النجار .
نزهة الألباء في طبقات الأدباء — ابن الأنباري
المفصل في تاريخ الأدب العربي — لأحمد الاسكندري وآخرين .

ابن زيدون

موضوعات البحث

نسبه ونشأته ـ عوامل نبوغه ـ أغراض أدبه : أولا : الشعر ، ثانيا : النثر . خصائص أدبه ـ منزلته الأدبية .

نسبه ونشأته :

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله المخزومي الأندلسي القرطبي الشهير بابن زيدون ، وهو آخر شعراء بني مخزوم ، وأحد شعراء الأندلس وكتابها المشهورين ، ووزرائها المعروفين بفنون الكتابة والشعر الذين تربعوا في مناصب الملك ، وتقلبوا في مراتب الرئاسة .

ولد بقرطبة سنة 394 هـ / 1003 م ونشأ بين أسرته التي كانت تشتغل بالعلم ، فأبوه من كبار قضاة قرطبة وأدبائها وعلمائها ، ولذا نشأ ابنه ميالا إلى تحصيل العلوم ، متفرغاً للدرس والبحث ، وأخذ العلم والأدب عن علماء قرطبة وأشهر رجال الأدب بها ، وكانت قرطبة غاصة بهم فقد جعلها بنو جهور حاضرة العلم والفنون .

وعرف ابن زيدون بسداد الرأي وحسن التدبير وقوة العزيمة فلم ينقطع للأدب بل كان يشتغل بالمسائل العامة ، ويحسب من رجال السياسة فقد خاض غمار الثورة التي قلبت دولة بني أمية ، وكان من أشياع أبي الحزم جهور بن محمد الذي آل إليه ملك قرطبة فعمل ابن زيدون على تأييد ملكه ، وحكم بعده أبو الوليد محمّد بن جهور فقربه إليه ، وعلت منزلته لديه ، وجعله وزيره وسفيره لدى أمراء الطوائف وغيرهم . وفوض إليه أمر الملك فأصبح صاحب مشورته ، وقد أظهر من الحنكة والدهاء ما رفع منزلته عند ابن

جهور حتى اختص به ، وكان يرجع إليه في كل أمر من أمور الملك والسياسة ، فحسده منافسوه ، ووشوا به لدى ابن جهور ، وخوفوه عاقبة أمره ، ومازالوا به حتى أمر بسجنه ، وكان الوزير (ابن عبدوس) في مقدمة من أوغر صدر الملك على ابن زيدون فبقي سجيناً زمناً طويلا ، استعطف فيه ابن جهور بما يلين الحديد و لكنه لم يظفر بعفوه ، ففر من السجن ، واختفى بقرطبة إلى أن شفع له الوليد بن جهور لدى أبيه محمّد ، ولكن ابن زيدون لم يأمن بني جهور على نفسه فلجأ إلى (المعتضد عباد) صاحب إشبيلية الذي ألقى إليه مقاليد الوزارة، ولما صار الملك إلى ابنه (المعتمد بن عبّاد) صار وزيرا له، وحين شبت الثورة على اليهود في اشبيلية أرسله المعتمد لتهدئتها بما كان له من المنزلة عند الإشبيليين فسافر إلى اشبيلية وهو مريض ، وكان قد شاخ ووهنت قواه فلم يطق إلحاح المرض عليه فتوفي فيها سنة 463 هـ / 1071 م .

وتولى ابن زيدون الكتابة لابن جهور حاكم قرطبة ، وابن عباد حاكم إشبيلية ، وكان من كتاب الدواوين ، واشتهر في الكتابة الفنية الأدبية برسالتيه : الجدية والهزلية ، كما أن له ديوان شعر قام بشرحه وتحقيقه الأستاذان كامل الكيلاني وعبد الرحمن خليفة .

عوامل نبوغه :

1 — نشأ ابن زيدون في قرطبة وبين ربوع الأندلس بطبيعتها الساحرة ، ومناظرها الخلابة ، من حدائق غناء ، وأزاهير فوّاحة ، وجداول رقراقة ، وبلابل صداحة ، وجو صاف ، فنشأ متأملا ما حوله ، محباً للجمال في شتى صوره ومظاهره .

2 — كانت قرطبة غاصة بالعلماء والأدباء وهي في أوج عزها ، وقد جعلها بنو جهور حاضرة العلوم والفنون ، فامتلأت المجامع هناك بالأدباء والشعراء ، وأنواع اللهو والطرب ، ومظاهر الترف

والنعمة ، وكان لابن زيدون أدب جم وفضل مشهور فصار علما من أعلام قرطبة ، وبزّ أدباء زمانه ، وذاع أمره وانتشر .

3 — ثُقف ابن زيدون ثقافة أدبية ، وشب على القراءة والدرس ، وحفظ كثيرا من الشعر والأخبار والسير والحكم و لأمثال ، ومسائل اللغة ومباحثها ، وكان متقد الذاكرة فامتلأت نفسه بالمعاني التي قرأها ، وقد نبغ في قول الشعر وهو في سن العشرين .

4 — عاش ابن زيدون في عصر ملوك الطوائف ، وارتقى في ظلهم ، ثم ما لبث أن سجن ، فاتجه إلى شعر الاستعطاف ، وأجاد القول فيه .

5 — تأثر ابن زيدون بأدباء المشرق كأبي تمام والبحتري والشريف الرضى ممن اشتهروا بالإجادة في وصف الطبيعة وظواهر العمران بين شعراء العصر العباسي ، كما تأثر في النثر بكتابة ابن العميد زعيم كتاب العصر العباسي الثاني .

6 — هام ابن زيدون حباً بالأديبة الشاعرة ولادة بنت الخليفة المستكفي ، فأذكى هذا الحب من شاعريته ، وألهمه الإجادة في شعر الغزل .

أغـراض أدبـه :

أولا الشعر

قال ابن زيدون الشعر في كثير من الأغراض ، وكان من أبرز تلك الأغراض التي أجاد القول فيها ما يلي :

1 — الفخر :

كان ابن زيدون كثيرا ما يفتخر بفضله ، وينأى بنفسه عن أن يكون ألعوبة في يد الحوادث ، ويرى أن سبب شقائه موقف أعدائه الحاقدين عليه بسبب مكانه من العلم والفضل ، وكثير من فخره يدور حول هذا المعنى ، ومن ذلك قوله :

لا يُهنِىء الشامتَ المرتاح خاطره   أني مُعنّى الأماني ضائعَ الخطر(1)

هَلِ الرّيَاحُ بِنَجْمِ الأرضِ عَاصِفَةٌ
أم الكسوفُ لغير الشّمس والقمَرِ

إنْ طَالَ في السّجن إيداعي فلا عَجَبٌ
قَدْ يُودعُ الجَفنَ حدّ الصّارمِ الذّكَرِ (2)

قد كُنتُ أحْسبني والنّجمَ في قَرَنٍ
فَفيمَ أصْبَحْتُ منحطا إلى العفرِ (3)

2 ـ المدح والاستعطاف :

مزج ابن زيدون بين المدح والاستعطاف والعتب ، وكثير من قصائده في استعطاف ابن جهور وهو في السجن تعد صورة من صور البؤس الذي فتق من لسانه وأثار في نفسه عاطفة الألم والحزن ، وقد بعث ابن زيدون بإحدى رسائله من السجن إلى أبي الحزم بن جهور يمدحه فيها ، ويشكو إليه حاله ، وفيها يقول :

مَنْ يسأل النّاس عن حالي فشاهدُها
مَحْضُ العيانِ الذي يُغْني عَنِ الخَبَرِ (4)

مَا للذُّنوب التي جاني كبائرِهَا   غَيْرِي يُحَمِّلُنِي أوْزَارَها وزَرِي(5)

مَنْ لَمْ أزَلْ مِنْ تَأنِّيه على ثِقَة   وَلَمْ أبِتْ مِنْ تَجَنّيه عَلى حذرِ

ذو الشيمة الرّسْلِ إنْ هيجَتْ حَفيظتُهُ
وَالجَانبِ السّهلِ والمُستَعْتَبِ اليَسَرِ(6)

---

(1) معنى : متعب بأمانيه . الخطر : قدر الرجل ومنزلته (2) الجفن : جراب السيف . الصارم : السيف القاطع . سيف ذكر : ذو بريق. ـ (3) في قرن : في منزلة واحدة . العفر : التراب ـ (4) محض العيان : خالص المشاهدة. (5) جاني كبائرها : مرتكبها : أوزار : جمع وزر ـ وهو الذنب . وَزَرَ : معين وملجأ. (6) الشيمة : الخلق والطبيعة . الرسل السهل . حفيظته : غضبه . اليسر : السهل اللين .

مَن فيه لِلْمُجْتَلي وَالْمُبْتَلى نَسَقاً
جَمالُ مَرْأىً عَلَيهِ سَرْوُ مُخْتَبَرِ(1)

وله أيضا في الاستعطاف :

ألم يأن أن يبكي الغَمامُ عَلى مِثلي ويطلبَ ثأري البرْقُ مُنصلتَ النَّصل
هَلاّ أقامت أنْجُمُ اللّيلِ مأتَماً لِتَنْدُبَ في الآفاق ما ضاع من نبلي
ولَوْ أنصَفَتْني وهيَ أشْكالُ هِمَّتي
لألْقَتْ بأيدي الذّلّ لَمّا رَأتْ ذُلّي
وَلَوْ أنّني أسْتَطيعُ أنْ أرْضِيَ العِدَا
شَرِبْتُ بِبَعْضِ الْحِلْمِ حَظّاً مِنَ الْجَهْلِ

3 ــ الغزل :

اشتهر ابن زيدون بشعر الغزل ، وقد أجاد القول فيه لأنه يتناسب مع حياته الرغيدة ، وكان اتصاله بولادة بنت المستكفي من دواعي تفوقه في هذا الغرض الشعري وقد أكثر ابن زيدون في غزله من الوصف ، وسجل مظاهر الجمال في الطبيعة ، ومن ذلك قوله يخاطب ولادة واصفاً شوقه إلى لقائها :

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلالٌ في أصائله كأنهُ رَقَّ لي فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم كما شققت عن اللبات أطواقا

وكثير من غزل ابن زيدون يدل على سعة خيال ، وإخلاص في الحب ، كما يبث فيه عواطفه وما يجول في نفسه. وقد مرت بك قصيدته التي قالها في الغزل بولادة .

---

(1) المجتلي : الناظر ، اسم فاعل من اجتلاه بمعنى نظر إليه . والمبتلى : اسم فاعل من ابتلاه بمعنى اختبره . النسق : ما كان على طريقة نظام واحد . السرو : الشرف .

4 ـ الموشحات :

اهتم ابن زيدون بنظم الموشحات في الأغراض المختلفة للشعر ، وقد قال يذكر قرطبة وأيام صباه فيها ، ويتشوق إليها وإلى الأمكنة التي قضى فيها لهوه :

أقرطبةُ الغراءُ هل فيكِ مطمعُ ؟
وهل كبدٌ حرّى لبَيْنكِ تَنْقَعُ ؟ (1)
وهل للّياليك الحميدةِ مَرْجِعُ ؟
إذِ الحسن مَرْأى فيكِ واللّهوُ مَسْمَعُ   واذ كَنَفُ الدنيا لديكِ موطّأُ (2)
نَهارُكِ وضّاحٌ ولَيْلُكِ ضَحْيَانُ (3)
وتُرْبُكِ مَصْبُوحٌ وغُصْنُكِ نشْوَانُ
وأرْضُكِ تُكْتَسَى حِينَ جَوُّكِ عريَانُ
وَرَيّاكِ رَوْحٌ للنفُوسِ وَرَيْحَانُ   وَحَسْبُ الأماني ظِلُّكِ المتفيّأُ (4)

ثانيا : النثر

كانت زعامة الأدب في المشرق ، وظهر ابن العميد وغيره من الكتّاب بأساليبهم الطّريفة التي تسربت إلى بلاد الأندلس ، وأعجب بها ابن زيدون وغيره من الكتاب الذين تعلقو بأسلوب الصناعة اللفظية ، ولكنه لم يعبأ بالسجع كثيرا ، لأنه لم يكن كغيره مدفوعاً إلى الكتابة بالرغبة في التأنق وإنما دفعته إليها الظروف التي عاشها ، والأحداث التي مر بها .

وقد اشتهر ابن زيدون في الكتابة الفنية الأدبية برسالتيه : الجديه والهزلية ، وهما من الرسائل النادرة في الأدب العربي ، وقد عني بهما الأدباء ، واحتفت بهما كتب الأدب ، وأظهر مميزا تهما أمران:

---

(1) تنقع تروى . ـ (2) كنف : جانب . موطأ : ممهد. ـ (3) ضحيان : بارز ظاهر لا يستره ظلام لما فيه من الأضواء.
(4) المتفيأ : الذي يستظل به .

الأول : ما تدلان عليه من نفس كاتبهما ، وأخلاقه ، وشيمه .
الثاني : كثرة ما فيهما من مقتبسات في الحكم والأمثال ، والأشعار ، وحوادث التاريخ ، وأسماء الحكماء والعلماء والأدباء المشهورين .

من الرسالة الجدية :

أ ــ كتب ابن زيدون هذه الرسالة وهو في السجن يستعطف فيها ابن جهور ومما جاء فيها قوله :

يا مولاي وسيدي الذي ودادي له ، واعتمادي عليه ، واعتدادي به ، وامتدادي منه ، ومن أبقاه الله ما ضي حد العزم ، وار ى (1) زند الأمل ، ثابت عهد النعمة. إن سلبتني ــ أعز ك الله ــ لباس نعائمك ، وعطلتني من (2) حلْى إيناسك ، وأظمأتني إلى برود (3) إسعافك ، ونفضت بي كف حياطتك ، وغضضت عني طرف حمايتك ، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك ، وسمع الأصم ثنائي عليك ، وأحس الجماد باستنادي إليك، فلا غرو قد يغص الماءُ شاربَهُ ، ويقتل الدواء المستشفي به ، ويؤتى الحذر من مأمنه ، وتكون منية المتمني في أمنيته ، والحَيْنُ قد يسبق جهد الحريص .

كل المصائب قد تمر على الفتى ... وتهون غير شماتة الأعداء

وإني لأتجلد ، وأرى للشامتين أني لريب الدهر لا أتضعضع (4) فأقول : هل أنا إلا يد أدماها سوارها وجبين عض به إكليله ، ومشرفيٌّ (5) ألصقه بالأرض صاقله ، وسمهري (6) عرضه على النار مثقفه ، وعبد ذهب به سيده مذهب الذي يقول :

فقسا ليزدجروا ، ومن يك حازما ... فليقس أحيانا على من يرحم

---

(1) وارى الزند : اسم فاعل من ورى الزند ، يرى (بالكسر) وريا : خرجت ناره.
(2) عطلتني من حلي إيناسك : المراد حرمتني من سعادة الأنس بك. ــ (3) برود : يقال ماء برود : أي سائغ لذيذ ، شبه اسعافه وعونه له بالماء البارد . ــ (4) لا أتضعضع : لا أخضع ولا أذل . ــ (5) مشرفي : سيف ــ (6) سمهري : رمح صلب معتدل

هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه النبوة (1) غمرة ثم تنجلي ، وهذه النكبة سحابة صيف عن قريب تقشع ؛ ولن يريبني من سيدي أن أبطأ سيبه (2) ، أو تأخر غير ضنين (3) غناؤه (4) ، فأبطأ الدِّلاَء فَيضا أملؤها ، وأثْقَلُ السحائب أحفلها ، وأنقع الحيا(5) ما صادف جدباً ، وألذ الشراب ما أصاب غليلا . . .

ب ـ من خلال الرسالة الجدية نتبين أن ابن زيدون قد جمع فيها كل ما يمكن أن يقال في الاستعطاف والمدح بعبارات ممزوجة بالأمثال والحكم ، وأول ما يسترعى النظر في أسلوبها أن كثيرا من ألفاظها وعباراتها مقتبس من كلام الحكماء والأدباء والشعراء ، وهذا وإن لم يشهد لابن زيدون بقوة الابتكار فإنه دليل على قدرته في تأليف الكلام ، والتنسيق بين أساليبه ، كما يدل على براعته في صناعة الكلام ، واطلاعه الواسع .

وقد جمع في هذه الرسالة بين قوة المعنى وجودة التركيب ، فهو يرق في مواطن الاستعطاف مستخدما الألفاظ المناسبة ، ويشتد ويقوى في مواطن الفخر بنفسه ، والاعتداد بها معبرا بالكلمات الجزلة . وتدور أفكار هذه الرسالة حول عدة أغراض كالمدح والفخر والاعتذار ، وذم الزمان ، ولوم الأعداء ، والصبر والتجلد .

من الرسالة الهزلية :

أ ـ كتب ابن زيدون هذه الرسالة عن لسان ولادة بنت المستكفي للوزير ابن عبدوس تهجوه ، وتقطع صلتها به . ومما جاء فيها قوله :
أيها المصاب بعقله ، المورّط (6) بجهله ، البيّن سقطه ، الفاحش

(1) النبوة : الجفوة ـ (2) سيبه : عطاؤه. ـ (3) بخيل ـ (4) غناؤه : فائدته .
(5) الحيا : المطر . ـ (6) المورط بجهله: الساقط بجهله في الهلاك .

غلطه ، العاثر في ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش إلى الشهاب ، فإن العُجْب (1) أكذب ، ومعرافة المرء بنفسه أصوب ، . . ذلك بما قدمت يداك ، لتذوق وبال (2) أمرك ، وترى ميزان قدرك :

فمن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

ب — من خلال الرسالة الهزلية نتبيّن ما امتاز به ابن زيدون من قريحة وقّادة ، وذاكرة عجيبة حوت أخبار العرب وأشعارها وحكمها وأمثالها ، كما دلت على ثقافته الواسعة . ولسانه السليط ، وهجائه الفاحش ، ونقده اللاذع .

ولقد وضعها على لسان ولادة للسخرية من ابن عبدوس الذي كان ينافسه في حبها فنالت منه هذه الرسالة كل منال ، وجعلت منه أضحوكة في المجتمع الذي عاش فيه .

ولقد جمع ابن زيدون كل ما يمكن أن يقال في الذم والتهكم وأفرغه على ابن عبدوس في أسلوب خلاب يدل على تمكنه من التصرف في أساليب الكلام :

خصائص أدبه :

نستطيع بعد قراءة ما تقدم من نماذج أدبية لابن زيدون أن نستخلص خصائصه الفنية والفكرية على النحو التالي :

أ — في الشعر :

لم يكن شعر ابن زيدون ضربا من التقليد والمحاكاة ، بل كان ناشئاً من نمو ملكة الشعر في نفسه ، ومن رغبته في التعبير عن كل

---

(1) العجب : التزهو والخيلاء — (2) وبال أمرك : سوء عاقبتك.

ما يجيش في صدره ، ولم تلبث أحداث الزمان التي نزلت به أن هاجت من نفسه ، وولدت فيها تلك المعاني التي عبر عنها فجاء شعره صورة صادقة لنفسه وما يختلج فيها من آلام وأحزان وحب وغرام ، وقد امتاز شعر ابن زيدون بروعة ديباجته ، وحسن تصرفه في معانيه ، وكان غزله رقيقاً ، كما كان بارعاً في تصوير اختلاجات النفس ، ولوعة الحب ، وقد مزج غزله بوصف الطبيعة حتى جعلها تشاركه في شعوره ، وتبكي لما به من لواعج الشوق ، وحسرة الفراق ، وكان ابن زيدون طويل النفس ، وقصائده الطوال تدل على مقدرة شعرية فائقة . وكان كثير التصنع والإغراب في مدحه .

أما ألفاظ شعره فكانت مختارة موحية معبرة . وكذلك جاءت عبارته جزلة متينة ، لها أناقتها ورونقها ، وفي شعره محسنات ، فعبارته مرسلة سمحة حيناً ، ومصنوعة متكلفة حيناً آخر .

وقد تأثر ابن زيدون بمن سبقه من الشعراء المجيدين من أمثال أبي تمام والبحتري فاقتبس بعض معانيهم وصورهم .

ب – في النثر :

اتسم نثر ابن زيدون بما اتسم به شعره من الاستعانة بالصور الجميلة ، والعبارة الجزلة المونقة ، وكان متأثرا بطريقة ابن العميد وبديع الزمان من إكثار للمحسنات البديعية ، والتزام لأسلوب السجع ، كما كان يقتبس من القرآن الكريم ويضمن نثره أخبار العرب وأشعارهم وحكمهم .

منزلته الأدبية :

كان ابن زيدون كاتباً شاعرا ، ولكنه كان شاعرا أعظم منه ناثرا لتصرفه في فنون الشعر ، وامتيازه في كثير من نواحيه ، وكانوا يلقبونه ببحتري الغرب لأنه كان ينسج على منوال أبي عبادة

البحتري ، ويجاريه في خياله ، وحسن فنه ، وإشراق صوره ، وجمال ديباجته ، وتصرفه في المعاني .

وإننا لنلمح من خلال شعره وكتابته سعة أفقه ، وغزارة علمه ، وطول باعه ، وقدرته على النيل والسخرية من أعدائه .

ولابن زيدون ديوان شعر يمتاز بالرقة والأناقة ، ورسائل قوية واضحة يطنب فيها ، ويورد السجع والأمثال والأشعار كأنها منسوجة منها .

تدريب تطبيقي

المقالة الأدبية :

يلقب ابن زيدون ببحتري الغرب – فبم استحق هذا اللقب ؟ وضح رأيك مؤيداً بأمثلة من شعره .

السؤال الكتابي :

اذكر خصائص كتابة ابن زيدون من خلال تعرفك لرسالتيه الجدية والهزلية .

المراجع

ديوان ابن زيدون
المفصل في تاريخ الأدب العربي .
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة .

لسان الدين ابن الخطيب

713 ـ 776 هـ

نسبه :

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الخطيب السلماني ، نسبه إلى بني سلمان ، وهم حي يمني نزح إلى الأندلس بعد فتح المسلمين لها في أواخر القرن الأول الهجري .

وقد استقر بنو سلمان ، أجداد ابن الخطيب في قرطبة ، ثم غادروها إلى طليطلة لأسباب سياسية ، ثم هاجروا من طليطلة بشمال الأندلس ونزلوا في الجنوب بمدينة لوشة القريبة من غرناطة عاصمة دولة بني الأحمر ، آخر ملوك العرب والمسلمين في الأندلس .

وفي لوشة ولد ابن الخطيب عام 713 هـ ، في بيت عريق له مكانته الأدبية والاجتماعية ، إذ كان جده سعيد خطيباً بليغاً فنسبت إليه أسرة المترجم له ، كما كان والده عبد الله كاتباً عند بني الأحمر ، ثم أصبح وزيراً لهم . أما لسان الدين فلقب عرف به صاحب هذه الترجمة جرياً على عادة الألقاب الشائعة في عصره .

نشأته وحياته :

نشأ ابن الخطيب في مدينة غرناطة منذ حداثته ، بيد أنه ظل يحن إلى مسقط رأسه لوشة . وكانت غرناطة حينذاك مركزا عظيماً من مراكز الثقافة العربية الإسلامية ، يلتقي فيها أعلام الفقه والأدب ، والعلم والفلسفة ، مثل أبي عبد الله بن مرزوق فقيه المغرب ، وابن الفخار البيري شيخ النحاة ، وذي الوزارتين أبي الحسن علي بن الجياب إمام الكتاب والشعراء في عصره ، وأبي عبد الله اللخمي الشاعر الأديب ، والشيخ أبي زكرياء يحيى بن هذيل الحكيم الطبيب الفيلسوف وغيرهم

وقد أخذ ابن الخطيب عن هؤلاء الأعلام ثقافة واسعة جامعة تجلت آثارها في تراثه الأدبي والفكر الضخم المتنوع .

عاش ابن الخطيب حياة حافلة بجلائل الأحداث ، وقد رأينا أن نتبع في الحديث عنها طريقة السرد التاريخي القائم على تحديد السنين كيما يتسنى لنا الإلمام بجوانبها الكثيرة ، بأسلوب سهل ميسر :

ففي عام 741 هـ توفي والد ابن الخطيب ، فتولى بعده أمانة سر ديوان الإنشاء لأستاذه الوزير الأديب ابن الجياب ، وصدرت عنه ، في أثناء ذلك ، رسائل بليغة هيأته لأن يكون خلفاً صالحاً لأستاذه الذي هلك بالطاعون عام 749 هـ ؛ فأصبح ابن الخطيب منذ ذلك الحين رئيساً لديوان الإنشاء ، ثم وزيرا للسلطان أبي الحجاج بن يوسف سلطان غرناطة. فاضطلع بأعباء الوزارة ، وأظهر في تصريف الأمور كفاءة نادرة .

وفي عام 755 هـ توفي السلطان أبو الحجاج ، وخلفه في الحكم ولده أبو عبد الله الغنى بالله ، وبقي ابن الخطيب وزيرا للسلطان الجديد ، كما أوفد في هذا العام إلى المغرب في مهمته أعظم نجاح بفضل مواهبه الأدبية والسياسية ، فعلت منزلته ، وعظم نفوذه .

وفي عام 760 هـ قامت ثورة على السلطان الغني بالله انتهت بسقوطه والتجائه إلى السلطان أبي سالم المريني ملك المغرب ، وعقب هذه الثورة اعتقل ابن الخطيب ، وصودرت قصوره وأملاكه ، بتحريض أعدائه وحاسديه ، ثم نفي إلى المغرب ، فاستقر خلال منفاه في مدينة (سلا) الجميلة الهادئة ، وعاش في طمأنينة وسعادة بسبب الهبات الكثيرة التي أغدقها عليه السلطان أبو سالم المريني . والتقى ابن الخطيب في منفاه بالمفكر المغربي العظيم ابن خلدون الذي كان عيّنه السلطان المذكور لديوان التوقيع والكتابة ، فتوطّدت أواصر الصداقة بين الرجلين العظيمين ، وكتب كل منهما عن صاحبه صحائف خالدات تنم عن إعجاب شديد وحب عميق . وكانت مدة إقامة ابن الخطيب بسلا سنتين كاملتين ، تعد

من أخصب الفترات في تاريخ حياته الفكرية ، إذ كتب في هذين العامين عشرة كتب ، وعددا من الرسائل والأشعار .

وفي عام 763 هـ عاد ابن الخطيب إلى الأندلس بعد تردد تلبية لرغبة مليكه الغني بالله الذي استطاع أن يسترد ملكه بمساعدة دولة بني مرين المغربية . وعقب عودة ابن الخطيب إلى الأندلس بلغ نفوذه أقصى مدى ، إذ خلع عليه مليكه لقب ذي الوزارتين ، أي وزارة السيف ووزارة القلم ، وهو منصب شبيه بمنصب رئيس الوزراء في أيامنا كما يقول المؤرخ المعاصر محمد عبد الله عنان ، وصدرت عنه رسائل بليغة إلى سلاطين تونس ومصر نوّه فيها بمشاعر الأخوة الدينيّة التي تربط بين المسلمين في الأندلس ، والمغرب ، وتونس ، ومصر ، وصور صراع غرناطة مع العدو الأسباني ، وقيامها بواجب الجهاد المقدس ضدّه . وقد أظهر كفاءة عالية في تدبير شؤون مملكة غرناطة ، فكان لتدبيره السديد الموفق آثار واضحة في قوة هذه المملكة ، وحملاتها الظافرة ضد العدو الأسباني كما سترى .

وفي عام 764 هـ قدم ابن خلدون من المغرب إلى الأندلس بعد أن اضطرته الأحداث السياسية إلى مغادرة مدينة فاس ، فرحب ابن الخطيب بصديقه القديم ابن خلدون ترحيباً يليق به ، وأنشأ كل منهما في الآخر رسائل حافلة بالثناء والإعجاب : فابن الخطيب الذي كان يكبر ابن خلدون بنحو عشرين عاماً يخاطبه بألقاب البنوة كقوله له : (أخي ودا واعتقادا ، ومحل ولدي شفقة) ، ويصفه بأنه جم الفضائل ، عالي الهمة ، فتقدم في فنون عقلية ونقلية ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، صحيح التصور . . وابن خلدون الذي كان أصغر صديقه ابن الخطيب يخاطبه بألقاب الأبوة كقوله له : «ومحلّ والدي برّا وحنوّا» ، ويصفه بأنه صاحبنا الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب ، إمام النثر والنظم في الملة الإسلامية غير مدافع ، وبأنّه آية من آيات الله في النظم والنثر ، وفي المعارك والأدب ..

وفي عام 771 هـ شعر ابن الخطيب بضيق نفس شديد من جراء المكائد التي نصبها له تلميذه ومعاونه في الوزارة الأديب محمّد بن يوسف المعروف بابن زمرك ، وربيب نعمته القاضي النباهي ، فطلب ابن الخطيب من مليكه الغني بالله أن يسمح له بأداء فريضة الحج لكنه لم يجبه إلى مطلبه ، وفي العام التالي ، أي عام 772 هـ ، بلغت أحوال ابن الخطيب النفسية درجة بعيدة في السوء ، ذلك أنه شعر بتغير السلطان الغني بالله عليه ، فعزم على الهرب من الأندلس إلى المغرب ، وراح يترقب الفرصة المناسبة ، فواتته الفرصة في شهر جمادي الآخرة من العام المذكور ، فالتجأ إلى السلطان عبد العزيز المريني ، بعد أن ترك لأولاده وصيته المشهور التي مرت بك في هذا الكتاب ، كما ترك رسالة اعتذار للسلطان . .

وقد استقر ابن الخطيب بعد هربه من الأندلس في مدينة تلمسان ، في بلاط السلطان عبد العزيز المريني الذي أكرمه أيما إكرام ، ودامت إقامته في هذه المدينة عاماً وبضعة أشهر ، ثم انتقل في عام 774 هـ من تلمسان إلى فاس بعد وفاة صديقه السلطان عبد العزيز .

وقد عاش ابن الخطيب في ظل الوزير أبي بكر بن غازي القائم بأمور الدولة عيشة راضية، بفضل هذا الوزير الذي هيأ له أسباب السعادة وردّ الوفد الغرناطي القادم من الأندلس لاستلامه ردّاً خائباً كما ردّه السلطان الراحل من قبل ، فساءت العلاقات بين فاس وغرناطة من أجل ذلك . .

ومن تتبع سيرة ابن الخطيب يتبيّن لنا أن السبب الأول الذي دفع غرناطة إلى ملاحقته في المغرب ، بعد هربه من الأندلس ، ليس هو الزندقة كما يزعم خصومه ، وإنما هو السياسة التي تختلق شتى الأعذار إلى أغراضها ، بالحق وبالباطل . . ! فابن الخطيب كان يحرض ملك بن مرين على ملك بني الأحمر ، لاعتقاده أن الأندلس والمغرب بلد إسلامي واحد ، وأنه من الخير للمسلمين أن تتوحّد المملكتان في دولة قوية تستطيع مواجهة العدو الأسباني الذي جعل همه القضاء على الإسلام في الأندلس ، وقد

كان ابن الخطيب محقاً في رأيه ، لأن الأيام أثبتت صحة هذا الرأي مع الأسف ،

لقد لجأ ابن الأحمر ، ملك غرناطة ، إلى أسلوب الهدايا ، وإرسال الوفود من أجل استلام ابن الخطيب وإعدامه ، لأنه خصم سياسي خطير في نظره ، ولما أخفق في ذلك الأسلوب عمد إلى إثارة الفتن الداخلية في المغرب وقد استطاع ابن الأحمر في أواخر عام 775 هـ أن يوصل الأمير أبا العباس أحمد بن أبي سالم المريني إلى العرش مقابل شروط منها تسليم ابن الخطيب إليه ، فكان ما أراد . وعندها أودع ابن الخطيب السجن بمدينة فاس ، فشعر بقرب نهايته ، وراح يستصرخ أصدقاءه لإنقاذ حياته ، ومن بين هؤلاء الأصدقاء أبو حمو سلطان تلمسان ، وابن خلدون الذي كان في الأندلس آنذاك ، وقد بذل ابن خلدون أقصى جهوده لإقناع ابن الأحمر بالعفو عن ابن الخطيب لكن مساعيه ذهبت سدى ، وهكذا قتل ابن الخطيب مخنوقاً بسجنه في مدينة فاس عام 776 هـ ودفن فيها ، فطويت بموته حياة المؤرخ الكبير ، والكاتب البليغ ، والشاعر المجيد ، والسياسي القدير ، الذي ذهب ضحية الجهل والتعصب والحسد ، بل ضحية الحقد السياسي الرخيص ، وإلى ذلك يشير ابن خلدون قائلا عن صديقه ابن الخطيب : إنه الهالك شهيدا بسعاية أعدائه !

شخصيته وعوامل نبوغه :

كان ابن الخطيب مفخرة من مفاخر الأندلس والمغرب ، بل العرب والمسلمين في كل مكان ، فقد كان سياسياً قديراً ، ومفكراً كبيراً ، ومؤرخاً شهيراً ، وكاتباً عظيماً ، ، وعالماً نحريراً ، وشاعراً مبدعاً ، ونطاسياً بارعاً . . ! وابن الخطيب ، كما ترى ، عبقرية جامعة لكثير من فنون العلم والمعرفة في ميادين شتى ، ولذا يمكننا القول من غير إسراف : إن صاحب هذه العبقرية هو أعظم رجل أنجبته الأندلس في القرن الثامن الهجري بلا منازع . . وفي رأينا أن هنالك عوامل عديدة توافرت لابن الخطيب فجعلته نابغة عصره ، ومن أهم هذه العوامل :

1) مواهبه الشخصية : تدل آثار ابن الخطيب على أنه أوتي مواهب أدبية وعلمية أصيلة ، فكان ذكي الفؤاد ، قوي الذاكرة ، واسع الخيال ، جيد الاستعداد للتبريز في شؤون السياسة والإدارة ، وفي فنون النظم والنثر .

2) نشأته في بيئة غرناطة المزدهرة بألوان الثقافة والعلم ، أتاحت الفرصة لمواهبه النادرة لتتفتح عن أجمل الزهر ، وأطيب الثمار ، ولولا تلك البيئة الثقافية الراقية لما بلغت مواهب ابن الخطيب ما بلغته من النضج والاكتمال ، ومن الغنى والتنوع .

3) بعد همته وشدة طموحه : فقد كانت همته البعيدة ، وطموحه الشديد ، وآماله العريضة في الجاه والنفوذ ، وفي الشهرة والخلود . . كان ذلك كله حافزا قوياً أذكى مواهبه السامية ، وفجر طاقاته الكامنة ، ورفعه إلى بلوغ ما يريد من دهره وما يؤمل . .

4) مكانة أسرته : وابن الخطيب كما مرّ بك فقد كان يتحدر من أسرة عريقة ، لها قدم راسخة في العلم والأدب ، وفي الفقه والسياسة والرئاسة ، ومن حق أي إنسان مثله أن تتسامى نفسه منذ الصغر إلى إحراز مكانة آبائه وأجداده ، لكي يكون الفرع امتدادا حقيقياً للأصل ، و هذا ما فعله ابن الخطيب .

5) اضطلاعه بأعباء الوزارة ، وشعوره بسمو مواهبه ، وتكليفه مختلف المهام السياسية . . كل ذلك جعله يبذل أقصى ما لديه من كفاءات . وهكذا دوّت شهرته في ديوان الإنشاء بتلك الرسائل البليغة التي كتبها ، فأصبح رئيساً لديوان الإنشاء في بلاط السلطان أبي الحجاج بن يوسف ، ثم وزيراً للسلطان المذكور ، وهو شاب لا يتجاوز الثلاثين . وقد أمدته السياسة بفيض من الخبرات والمعرفة بخفايا الأمور لم يكن ليعرفها لولا مركزه السياسي المرموق .

6) التقاؤه ، في أثناء أعماله ، بثلة صالحة من ذوي العقول الكبيرة ، مثل أستاذه ابن الجياب ، والفقيه ابن مرزوق ، وصديقه المفكر ابن خلدون .

7) رحلاته الواسعة في بلاد الأندلس والمغرب ، إذ كانت الرحلات وما تزال مَعينا من الخبرة لا ينضب ، يمد أصحابه بمعرفة وافية ، واطلاع كاف على أخلاق الناس وعاداتهم ، وأنماط تفكيرهم .

8) وربما كانت النكبات المتتالية التي نزلت بابن الخطيب شيئاً مذكورا في نبوغه ، ومضاعفة إنتاجه الأدبي والفكري ، وقد مر بك من قبل أن ابن الخطيب استطاع أن يكتب خلال عامين قضاهما منفياً بمدينة سلا المغربية عشرة كتب في موضوعات متعددة ، وبعض هذه الكتب يقع في عدة مجلدات ! ولا غرو في ذلك ، فقد كان ابن الخطيب من ذوي النفوس الكبيرة التي لا يزيدها مرّ الحوادث وعضّ النوائب إلا صلابة عزيمة ، وقوة مراس ، ومزيدا من المضي في تحدي العقبات والصعاب . . .

جوانب شخصيته :

كان ابن الخطيب كما عرفت ، شخصية فذة متعددة الجوانب ، فيها نصيب وافٍ للسياسة ، والكتابة ، والشعر ، والتاريخ ، والجغرافيا والتصوف ، والطبّ ، والموسيقى . . وقد ترك في هذه الميادين آثارا قيمة بوأته مكانة رفيعة بين الأدباء والمفكرين في التاريخ العربي الإسلامي ، إذ بلغت آثاره الستين في قول ، وتجاوزت هذا العدد في قول آخر ، وستعرف شيئاً عنها من خلال هذه الكلمة الموجزة عن جوانب شخصية ابن الخطيب الواسعة الآفاق :

أ) ابن الخطيب الوزير السياسي : كان ابن الخطيب سياسياً من الطراز الأول ، ولذلك لعب منذ بداية حياته السياسية دورًا بارزا في أحداث الأندلس والمغرب ، ففي وزارته الأولى (749 / 760 هـ) كانت

الحرب لا تكاد تنقطع بين مملكة غرناطة ، ومملكة قشتالة العدو القوي. فكان ابن الخطيب يكتب رسائله البليغة على لسان حاكم غرناطة أبي الحجاج ، وابنه الغني من بعده ، ويطلب من ملوك المغرب تقديم المعونة العسكرية اللازمة لإخوانهم في الأندلس خشية أن تسقط البقية الباقية في أيدي الأسبان ، كما كان يرأس الوفود الأندلسية الذاهبة إلى المغرب لطلب النجدة ، فكانت مساعيه تكلل بالنجاح دائماً .

وفي وزارته الثانية (763 — 772 هـ) تجلت مقدرته وحنكته السياسية في الشؤون الداخلية والخارجية : ففي الميدان الداخلي قامت سياسته على تنظيم الجيش وتقويته ، وإقامة المنشآت الدفاعية على الحدود ، ومده بما يحتاج إليه من المقاتلين والأسلحة ؛ كما قامت على تنمية موارد البلاد الاقتصادية وتهدئة الفتن الداخلية ، ومراقبة نشاط المشاغبين...وفي الميدان الخارجي اهتم ابن الخطيب بإقامة تعاون فعال مع دول المغرب العربي لمجاهدة العدو الأسباني المشترك ، ومحاربته وعندما تواتي الفرصة ، أومهادنته حين لاتنفع سياسة المخاشنة والحرب.

وقد كان لسياسته الحكيمة نتائج إيجابية بعيدة المدى ، فاستطاعت بلاده أن ترد عنها كيد المعتدي ، بل تجاوزت الدفاع إلى الهجوم ، وتمكنت أن تسترد كثيرا من المدن التي كان الأسبان قد استولوا عليها من قبل مثل أطريرة ، وجيان ، وأبدة ، والجزيرة الخضراء وغيرها.

وفي الحقيقة كان ابن الخطيب خبيرا بنوايا العدو الأسباني ، متفهما لأسرار سياسته ، عارفا بخططه التي يعدها للقضاء على الأندلس ، مدركا للنهاية المفجعة التي تنتظر بلاده على أيدي الأسبان ، ولذا قضى حياته في العمل على إنقاذ وطنه قبل حلول الكارثة ، موثق علاقته غرناطة بالدول المغربية التي كانت تهب إلى نجدة إخوانها المسلمين في الأندلس ، وأقام علاقات طيبة مع الدول الإسلامية البعدة إيماناً منه بأن المسلمين

إخوة مهما نأت بلدانهم ، وبذل قصارى جهده في تبصير أبناء أمته بالمصير المحتوم ، فراح يستثير مكامن النخوة والحمية في نفوسهم ، بنثر وشعر ، يثيران المشاعر، ويمسان شغاف القلوب...وترك في هذا الموضوع سيلا كبيرا من الرسائل ، والخطب ، والقصائد ، والأشعار... ومن أمثلة نثره السياسي قوله في رسالة وجهها إلى المسلمين من أبناء غرناطة ، عندما أغار العدو الإسباني على بعض مواقع المسلمين :

« أيها الناس – رحمكم الله – إخوانكم المسلمون قد دَهَمَ العدوُّ ساحتَهم، ورام الكفرُ استباحتَهم ، وزحفت أحزاب الطواغيتِ عليهم، ومد الصليب ذراعه إليهم. وأيديكمْ بعزة الله أقوى ، وأنتمْ المؤمنون أصل البر والتقوى – و هو دينكم فانصروه ، وجواركم القريب فلا تخفروه، وسبيلُ الرشد قد وضَحَ فلتبصروه. الجهادَ ! الجهاد فقد تعين . الجارَ الجار فقد قرر الشرعْ حقه وتبيَّن . اللهَ اللهَ في الإسلام ، الله الله في أمة محمد عليه السلام ، اللهَ اللهَ في المساجد المعمورة بذكر الله ، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله ، فقد استغاث بكم الدين فأغيثوه ، وقد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه. أعينو إخوانكم بما أمكن من الإعانة ، أعانكم الله على الشدائد ، جددوا عوائد الخير يصل لكم الله جميل العوائد. أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت ، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت »...

من هذه الفقرات تستطيع أن تتبين خصائص أسلوب ابن الخطيب التي عرفتها من قبل في وصيته ، وهي الحرص على الترادف ، والتوازن ، والسجع ، فضلا عن جزالة العبارة ، وصدق العاطفة ، ووضوح الروح الدينية ، وقوّتها . .

ولكن وأسفاه ! لقد ذهبت جهود ابن الخطيب أدراج الرياح ، إذ أنها لم تحل في نهاية الأمر دون وقوع الكارثة ، فسقطت غرناطة آخر معقل من معاقل العروبة والإسلام في الأندلس بيد العدو الأسباني المتربص بعد وفاة ابن الخطيب بقرن وربع القرن ، وعفارسم الحق في تلك الربوع ، وما أشبه الليلة بالبارحة ! فالأمس ضاعت الأندلس

واليوم ضاعت فلسطين ! وذلك باجتماع الأعداء على باطلهم ، وتفرقنا عن حقنا ، فلا حول ولا قوّة إلا بالله .

ب) ابن الخطيب المؤرخ : غلبت صفة المؤرخ على مصنفات ابن الخطيب الكثيرة التي بلغت أحد عشر كتاباً ، أهمها (الإحاطة في أخبار غرناطة) ، وهو كتاب ضخم في عدة مجلدات ، وتمتاز كتاباته التاريخية بسعة الاطلاع على حوادث عصره ، وعنايته بالجانب الاجتماعي والنقدي منها . وفيما يلي مثل من كتابته التاريخية تجده في مقدمة كتابه الإحاطة. قال ابن الخطيب متحدثاً عن التاريخ وفوائده : «فإن الله عز وجلّ جعل الكتاب لموارد العلم قيدا . . ولولا ذلك لم يشعر آتٍ في الخلق بذاهب ، ولا اتصل شاهد بغائب ، فماتت الفضائل بموت أهلها ، . . فلم يرجع إلى خبر يُنْقل ، ولا دليل يعقل . . » والعبارة هنا رضية جزلة ، يغلب عليها التوازن ، والترادف ، والسجع . .

ج) ابن الخطيب الأديب المترسل : ابن الخطيب كاتب قدير ، استطاع ببراعة إنشائه أن يصل إلى مرتبة الوزارة كما وصل غيره من الكتاب ، منذ العصر العباسي ، وقد صدرت عنه رسائل كثيرة في شتى الموضوعات ، وجمعت في عدة كتب ، أهمها كتاب سماه المؤلف (ريحانة الكتّاب ، ونجعة المنتاب) . كما نقل إلينا بعض المؤلفين طائفة كبيرة من رسائله مثل المقري في كتابه نفح الطيب ، والقلقشندي في كتابه صبح الأعشى ،

وإليك نموذجاً من رسائله الإخوانية التي بعث بها إلى صديقه عندما كان مقيماً في مدينة بسكرة :

«فأنا الآن بعد التحية المطلولة بماء الدموع.. أسأل عن أحوالك سؤالَ من لقي محالاً في مجال الخلوص لك . . وقد اتّصل بي هذه الأيام ما جرى به الحال من تنويع الحال لديك ، واستقرارك ببسكرة ، محل الغبطة بك ، وباللجأ إلى تلك الرياسة الزكية ، الكريمة الأب ، الشهيرة الفضل ،

المعروفة القدر على البعد ، حرسها الله ملجأً للفضلاء ومخيماً لرحال العلماء ، ومهباً لطيب الثناء ، بحوله وقوته .. . .

وتتجلى في هذه الجمل بعض خصائص أسلوب ابن الخطيب مثل الجزالة ، والترادف والتوازن ، والسجع ، إلا أننا نلاحظ قلة احتفال الكاتب بالصنعة بالنسبة إلى النصوص الأخرى ، لأن الرسالة نابعة من قلب الكاتب وعواطفه قبل أن تكون نابعة من عقله وصنعته . .

د) ابن الخطيب الشّاعر : أوتي ابن الخطيب حظاً عظيماً من النظم والنثر ، فكان ينظم القصائد في مختلف المناسبات والموضوعات ، كما كان يكتب فيها الرسائل والفصول. وقد ترك ديوانا من الشعر سماه (الصيّب والجَهام والماضي والكَهام) في أغراض عديدة كالمدح والهجاء، والرثاء ، والتهنئة ، والزهد ، وغير ذلك. وأنشأ عددا من الموشحات سماها (جيش التوشيح). ومن أجودها موشحة (جادك الغيث) التي مدح بها مليكه الغني بالله ، وقلد عارض بها موشحة ابن زهر التي مطلعها (هل درى ظبي الحمى ؟) والتي مرت بك من قبل في هذا الكتاب. وإليك نموذجا من مدحه ، وهو قوله في صاحب المغرب السلطان أبي سالم إبراهيم المريني عقب لجوئه إلي المغرب :

زَجَرْنا بإبراهيمَ بُرءَ همومنا ... فلمّا رأينا وجهَهُ صَدَقَ الزّجْرُ
بمُنتَجب من آل يعقوبَ كلما ... رجا الخَطْبُ لم يكذبْ لعَزْمته فجرُ
تنا قلت الرّكبانُ طيبَ حديثه ... فلما رَأتْهُ صدّقَ الخَبَرَ الخُبْرُ
نَدَى لو حواه البحرُ لذّ مَذاقُهُ ... ولم يَتَعقّبْ مَدّهُ أبدا زَجْرُ
وبأس غدا يرتاع من خوفه الرّدى ... وترفُلُ في أثوابه الفتكةُ البِكْرُ
أطاعته حتى العُصْمُ في فنن الرّبا ... وهَشّتْ إلى تأميله الأنجمُ الزّهْرُ

ويُعلّق المقري صاحب نفح الطّيب على هذه الأبيات قائلا : إنها من حدّ كلامه ، وغُرر شعره ، على أنه كله غرر ، إذ جمع فيها المطلوب في ذلك الوقت بأبدع لفظ ، وأحسن عبارة في ذلك المحفل العظيم !

ولابن الخطيب مراث جيدة ، منها تلك الأبيات التي أوردها ابن خلدون في تاريخه المسمى (كتاب العبر) ، في معرض حديثه عن نهاية ابن الخطيب ، قال ابن خلدون : « وكان – عفا الله عنه – أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت ، فتجهش هواتفه بالشعر يبكي نفسه . ومما قال في ذلك ، رحمه الله تعالى :

بَعُدْنَا وإنْ جاورتْنا البُيوتْ ... وجئنا بوعظ ونحنُ صُمُوتْ
وأنفاسُنا سكنت دفعة ... كهجر الصلاة تلاهُ القُنُوتْ
وكُنَّا عظاماً ، فصرنا عظاماً ! ... وكُنَّا نَقوتُ ، فها نحنُ قُوتْ
فقلْ للعدى : ذهَبَ ابنُ الخطيبِ ... وفات ، ومنذا الذي لا يفوتْ ؟
ومن كان يفرحُ منهم له ... فقلْ : يَفرَحُ اليوم من لا يموتْ !

وهو رثاء عاطفيّ مؤثر ، صادر عن نفس حساسة ، متألّمة . .

هـ) ابن الخطيب العالم الطبيب :

كتب ابن الخطيب رسائل ومؤلفات عديدة في الطب والكيمياء ، بلغت العشرات ، وأهمّ مؤلفاته العلمية التي انتهت إلينا اثنان : الأول كتابٌ في علاج السموم ، والثاني كتاب في الطب ، وعنوانه (عمل من طبّ لمن حبّ) وقد وضعه بمدينة فاس تلبية لرغبة الملك المغربي أبي سالم المريني ، وجعله في جزءين : أولهما في وصف أعضاء الجسم ، وشرح الأمراض التي تصيب كلّ واحد منها. وثانيهما في الأمراض العامة التي تصيب سائر الجسد مثل الحمّيات والأمراض الجلدية . .

منزلته الأدبية والفكرية

يتمتع ابن الخطيب بمنزلة عالية في دنيا الأدب والفكر ، بسبب إنتاجه الأدبي والعلمي الجيد الخصب ، وبما لهذا الإنتاج من أصالة وجدة وقوة وتنوع . . ولذا يعتبره بعض الباحثين مدرسة أدبية وفكرية ظهرت آثارها في أدب الأندلس والمغاربة المعاصرين له ، وقد نوّه بمكانته كثير من المؤلفين والباحثين قديماً وحديثاً ، من المسلمين وغيرهم.

فقديماً تجد المؤلفين المعاصرين لابن الخطيب يشيدون بـه إشادة عظيمـة ، مثل ابن خلدون في كتـابـه العبـر ، والأمير أبـي الوليد إسماعيل بن الأحمـر في كتابـه (نثير الجمـان فيمن ضمني وإياهم الـزمان .) وكذلك أشاد بـه من المؤلفين المسلمين القدامى كل من ابن حجـر صاحب كتاب (الدرر الكامنـة في أعيان المائة الثامنة) ، وابن تغري بردى صاحب كتاب (المنهل الصافي)، والمقرى مؤلف كتاب (نفح الطيب) . . وقد مرت بك من قبل كلمـة لابن خلدون في ابن الخطيب فلا حاجـة إلى إعادتهـا . وإليك كلمـة أخـرى لمعاصـره الأمير ابن الأحمـر السالف الذكـر ، قال ابن الأحمـر يصف ابن الخطيب : « هـو شاعـر الدنيـا ، وعلـم المفرد والثنيا، وكاتب الأرض إلى يـوم العـرض ، لا يدافع مدحـه بالكتب ، ولا يجنـح فيـه إلى العتب . . نفيس العدوتيـن ، ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلـوم العقليـة والإمتاع بالمفهـوم النقليـة . . »

أما الأجانب والمستشرقـون فإنهم يشاركـون المؤلفين المسلمين في رأيهم في ابن الخطيب ، ويثنـون عليـه أعظم الثنـاء ، فالمستشـرق الأسباني (مـوريـنو نييوتو) يقول فيـه : « لا يـوجد في تاريخ غرناطـة الأدبـي ما يمكن أن يقـارن بـه هذا الكاتب العظيـم الخصب ، فقد كانت معارفـه مـوسـوعـة حقاً ، وكانت عبقـريتـه تدعـو إلى الإعجاب . . وقلمـا حظي أسلـوب كاتب بمثـل ما حظي بـه أسلـوبـه من البـلاغـة والـرشاقـة . . وقد برع على الأخص في علـم السياسـة والتاريخ ، وشهد حـوادث سياسية لعب فيهـا دورا كبيرا . . وإن تاريخ غـرناطـة حتى عصـره ليعـرف بالأخص من مؤلفاتـه بطـريقـة أتـم وأكمـل من أي عصـر آخـر من تاريخ الأندلس، ويعتبـر تاريخـه للدولـة النصـريـة ، وكتاب الإحاطـة ، دائمـا بين أعجب آثار الأدب الإسلامي ، ومنذ وفاة ابن الخطيب يخبـو وينهـار صرح الكـلام في الأندلس » .

والمستشـرق الألمـاني (زيبـولد) يقول عنه في دائـرة المعارف الإسلامية: « إن ابن الخطيب هو ذو الـوزارتين ، وزارة السيف ووزارة القلـم . .

وقد انكب على مختلف الدراسات بنجاح فائق حتى غدا اعظم كاتب وشاعر وسياسي في غرناطة ، بل وفي أسبانيا العربية كلها ،

وكتب ابن الخطيب نحو ستين كتاباً نحتفظ منها بثلثها ، وأعظم كتبه وأضخمها هو كتاب «الإحاطة» والمستشرق الأسباني (كونتالث بالنسيا) يقول فيه : «إن تاريخ القرن الرابع عشر الميلادي بلغ الذروة باسمين عظيمين هما ابن الخطيب : المؤرخ الأنيق والسياسي الأديب ، وابن خلدون منشيء فلسفة التاريخ» .

ومن هذه الأقوال اليسيرة التي أوردناها تستطيع أن تتبين علو منزلة ابن الخطيب الأدبية والعلمية عند العلماء والباحثين ، في القديم والحديث ، وفي الشرق والغرب على حد سواء .

مجمل القول :

ابن الخطيب شخصية فذة من شخصيات الأدب العربي ، والفكر الإسلامي ، لا في الأندلس والمغرب وحدهما ، بل في العالم العربي والإسلامي كله ، فكان ــ رحمه الله ــ صاحب عبقرية جامعة ، شاملة لفنون عصره في السياسة والتاريخ ، وفي الكتابة والشعر ، وفي العلم والطب . . وقد خلف آثارا كثيرة في جميع هذه الفنون ، طبعها بطابعه الخاص الذي يتسم بعمق الثقافة ، وسعة الاطلاع ، وجزالة الأسلوب ، وغزارة المعارف اللغوية والأدبية . . ولذا استحق ابن الخطيب إعجاب الناس قديماً وحديثاً ، وأصبح حرياً بأحفاده في كل مكان من أرض العروبة والإسلام، ولا سيما في المغرب العربي الذي ضم ابن الخطيب العظيم بين جنبيه حيّاً وميتاً . . أصبح حرياً بهؤلاء الأحفاد أن يتشبهوا بابن الخطيب في علمه وأدبه ، فالتشبه بالكرام فلاح ، وأن يحيوا آثاره ، بالبحث والتحقيق ، والدراسة والتعليق ، لأن ذلك ، في رأينا ، أدنى درجات التقدير لهذا الرجل العظيم ، بل أدنى الواجبات التي يؤديها الأبناء البررة نحو الآباء العظماء ، وإنهم لفاعلون ، إن شاء الله .

مـــراجـع :

1) الإحاطـة في أخبار غـرنـاطـة . تأليف لسان الدين ابن الخطيب .
2) تاريخ ابن خلدون المعروف بكتاب العبـر ، الجـزء السابـع .
3) نفح الطيب للمقـري . الأجـزاء الخامس والسادس والسابع .
4) دائـرة المعـارف الإسلاميـة . مـادة ابن الخطيب .
5) دائـرة معارف فـؤاد أفـرام البستاني . مادة ابن الخطيب .
6) لسان الدين ابن الخطيب . تأليف محمّد عبد الله عنان .

البلاغة

اولا ـ المجاز المرسل

ثانيا ـ القصر

أولا - المجـــاز المـــرسل

الأمثلـة :

1 ــ قال الله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يدُ الله فوقَ أيديهم » (1)

2 ــ و قال الله تعالى : « وما أنزل الله من السَّماء من رزقٍ » (2)

3 ــ وقال الله تعالى : « ومن قَتَل مؤمناً خطا فتحرير رقبة مؤمنة » (3)

4 ــ وقال الله تعال : « يجعلون أصابعهم في آذنهم من الصواعقِ حذَرَ الموتِ » (4)

5 ــ قال الله تعالى : « إنه من يأت ربهُ مجرماً فإنّ له جهنّم لا يموتُ فيها ولا يحيا » (5)

6 ــ قال الله تعالى : « إنك ميِّتٌ ، وإنهم ميتون » (6)

7 ــ قال الله تعالى :« واسأل القريةَ التي كنَّا فيها » . (7)

8 ــ قال الله تعالى : « يدخل من يشاءُ في رحمته » (8) .

الإيضاح :

مر بك في العام الماضي أن الكلام قسمان : حقيقة ومجاز ، وأن الحقيقة هي الكلام الذي استعمل فيما وضع له أصلاً ، وأن المجاز هو الكلام الذي لم يستعمل فيما وضع له أصلاً ، ومرّ بك كذلك أنه لا بد للمجاز من قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي ، وأن هذا المجاز يسمّى استعارة ، إن كانت العلاقة بين المعنيين الحقيقي والمجازي قائمة على المشابهة .

(1) الفتح / 17 ــ (2) الجاثية / 5 ــ (3) النساء / 92 ــ (4) البقرة / 19 ــ (5) طه/74
(6) الزمر / 30 ــ (7) يوسف / 82 ــ (8) الإنسان / 31

والآن تأمل في الأمثلة السابقة ، وقف عند الأول منها تجدْ أنه قد وردت كلمة (يد) مرتين ، مرة بصيغة المفرد ، ومرة بصيغة الجمع ، وأنه قصد بهذه الكلمة معنيان مختلفان : الأول هو معنى اليد الحقيقية ذلك في عبارة (فوق أيديهم) أي أيدي المؤمنين ، والثاني هو معنى القدرة ، وذلك في عبارة (يد الله) ، لأن العقل لا يقبل أن يكون للّه عز وجلّ يد على الحقيقة ، فما العلاقة بين المعنيين : الحقيقي والمجازي ؟ أتقول : إنها المشابهة ؟ لا ، وإلا فأي شبه تجده بين (اليد) وبين (القدرة) ؟ وإذن فما العلاقة التي تجمع بينهما ؟ لو فكرت قليلا لعلمت أن اليد هي العضو الذي يكون به المنح والمنع والبطش والدفع ، وغير ذلك ، وأن اليد سبب في كل هذه الأفعال فالعلاقة هنا هي السّببية ، والقرنية عقلية أو حالية . .

وانظر في كلمة (رزق) التي وردت في الآية الثانية ، وفكر في معناها ، أفتظن أنه أريد بها المعنى الحقيقي الذي هو النبات وما يكون منه من زرع وثمار ؟ وهل الرزق بمعناه الحقيقي ينزل من السماء أم ينزل غيره ؟ إن ما تراه العين ، وما يقضي به العقل هو أن الرزق لا ينزل من السماء وإنما ينزل منها المطر الذي يكون منه الرزق أو ينشأ عنه الرزق، فكلمة (رزق) في الآية مجاز علاقته المسبَّبة ، والقرنية عقلية أو حالية .

ولاحظ كلمة (رقبة) في الآية الثالثة ، وفتش عن معناها ، فهل المقصود بها ذلك الموضع المعروف من جسم الإنسان ، وهو القسم المحصور بين الرأس والجذع ؟ لا ، وذلك أن العقل يحكم بأن التحرير يشمل العبد كله لا رقبته وحدها ، إذن فلم ذكرت (الرقبة) دون غيرها من سائر أجزاء الجسد ؟ السبب واضح ، وهو أن أغلال العبودية أكثر ما تكون في رقبة العبد ، ورقبة العبد جزء منه ، فالرقبة هنا مجاز ، علاقته الجزئية ، وقرينته عقلية أو حالية .

ولو رجعت إلى كتب التفسير لعلمت أن الآية الرابعة تتحدث

عن حيرة المنافقين ، وشدة الأمر عليهم ، وعدم إدراكهم لما يضرهم وينفعهم ، وتقول : إن حال هؤلاء المنافقين شبيه بحال قوم نزل عليهم مطر من السماء فيه رعد وبرق وصواعق فوضعوا أصابعهم في آذانهم كيلا يسمعوا أصوات الصواعق خوفاً من الموت ، ولكن هل يستطيع أولئك المنافقون أو غيرهم أن يدخل أحدهم (إصبعه) الواحدة كلها في أذنه فضلاً عن أصابعه الأخرى؟ ، المعروف هو أن الإنسان لا يستطيع إدخال إصبعه كلها في أذنه ، وإنما يستطيع إدخال رأس إصبعه الواحدة فيها ، فما العلاقة بين المعنيين : الحقيقي وهو الأصابع كلها والمجازي وهو رأس الإصبع ؟ العلاقة هي أن الإصبع كل ، ورأس الإصبع جزء من ذلك الكل ، فالعلاقة هي الكلية ، والقرينة عقلية أو حالية . .

وابحث في معنى الآية الخامسة تعلم أن المقصود بها هو أن من يموت على الكفر ويلقى الله مجرماً ، فجزاءه جهنم ، لا يموت فيها فيستريح من العذاب ، ولا يحيا حياة يتمتع فيها بالسعادة والنعيم ولكن صفة الإجرام التي عليها الكافر يوم يلقى ربه يكون قد اكتسبها في الدنيا قبل لقاء ربه ، إذن ، فكلمة (مجرماً) الواردة في الآية مجاز ، علاقته اعتبار ما كان ، وقرينته عقلية أو حالية . .

وتأمل الخطاب الموجه في الآية السادسة إلى نبينا محمد (ص) تعلم أن المراد منه هو أن المخاطب سيموت فيما بعد ، وكذلك جميع الناس ، بدليل أن هذه الآية الكريمة مكية نزلت قبل وفاة النبي (ص) ببضعه عشر عاماً ، إذن فكلمة (ميّتٌ) لم تطلق على شيء وقع من قبل ، أو على شيء هو واقع الآن ، بل أطلقت على شيء سيقع أو سيكون من بعد ، فهذه الكلمة مجاز ، وعلاقتة اعتبار ما سيكون ، والقرينة عقلية أوحالية .

وانظر في معنى الآية السَّابعة التي حكي الله فيها قول كبير إخوة يوسف لوالده : واسأل القرية التي كنّا فيها ، وفكر جيدا

في هذا السؤال ، فهل يقبل العقل أن يوجه إلى القرية سؤال ، والقرية مجموعة من الحجارة والبيوت التي لا تسمع السؤال ولا تردّ الجوابْ ؟ لا شك . إذن ، في أن المقصود بالقرية هنا أهلها وسكانها لا بيوتها وحيطانها ، فما العلاقة بين القرية وأهلها ؟ العلاقة واضحة ، وهي أن القرية مكان لسكنى أهلها أو محل ، فكلمة (القرية) مجاز علاقته المكانية أو المحلية ، والقرينة عقلية أو حالية .

وتأمل الآية الأخيرة تعلم أن المقصود بكلمة (رحمته) هو (جنته)، لأن الرحمة معنى من المعاني الذهنية المجردة لا يدخل فيها الإنسان ، وإنما يدخل في المكان الذي تكون الرحمة حالة فيه ، إذن فإطلاق (الرحمة) وإرادة (الجنة) مجاز علاقته الحالية ، والقرينة عقلية أو حالية .

ومما تقدم يتبيّن لك أن في كلّ آيةٍ كريمة لفظة استعملت في غير ما وضعت له أصلاً ، لعلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي ، مع وجود قرينة ما نعه من إرادة المعنى الحقيقي ، فهذه اللفظة مجاز ، ولكن علاقته لم تقم على المشابهة ، وإنما قامت على علاقات أخرى عديدة : كالسببية ، والمسببية ، والجزئية ، والكلية ، واعتبار ما كان واعتبار ما يكون ، والمكانية ، والحالية . ويسمى هذا النوع من المجاز « مرسلا » أي معفى من قيد المشابهة الموجود في الاستعارة .

ولو أنك أمعنت النظر في الآيات الكريمة السابقة لعلمت أن للمجاز المرسل أثرا كبيرا في بلاغة هذه الآيات ، وأنه وجه من من وجوه الإعجاز فيها : ذلك أن لهذا المجاز مزايا جليلة أهمها :

- إبراز المعنى الذهني في صورة المحسوس كما في لآية الأولى .
- والخفة على اللسان والعذوبة في الموسيقى كما في الآية الثالثة
- والمبالغة في تصوير الحالة النفسية كما في لآية الرابعة .
- وتوكيد المعنى كما في الآية السادسة .
- والإيجاز الذي هو عمود البلاغة كما في الآية السابعة .

مجمل القول :

1 ـ المجاز المرسل لفظ استعمل في غير ما وضع له أصلاً ، لعلاقة غير قائمة على المشابهة ، مع قرينة ما نعة من إرادة المعنى الحقيقي .

2 ـ للمجاز المرسل علاقات كثيرة ، أهمها : السببية ، المسببية ، والجزئية ، والكلية ، واعتبار ما كان ، واعتبار ما يكون ، والمكانية أو المحلية ، والحالية .

3 ـ للمجاز المرسل أثر كبير في أداء المعنى وبلاغة الأسلوب ، ويظهر هذا الأثر في أشكال مختلفة منها : إبراز المعنوي في صورة المحسوس ، والخفة على اللسان ، والمبالغة ، والإيجاز .

تدريب نموذجي :

1 ـ اشتهرت الجزائر بنضالها وتضحيتها .
2 ـ اجتمع مجلس الوزراء .
3 ـ أكلت فاكهة الموسم .
4 ـ الاستعمار يعتمد على عيون له يبثهم في كل مكان .
5 ـ هذا هو النطاسي البارع (مشيرا بعبارتك إلى طالب يدرس الطب)
6 ـ نلبس الصوف في الشتاء ، والقطن في الصيف .

الإجابة

1 ـ المقصود بالجزائر أبناؤها لا أرضها ، فالمجار مرسل ، والعلاقة المكانية ، والقرينة حالية

2 ـ المقصود بالمجلس أعضاؤه لا حقيقته ، فالمجاز مرسل ، والعلاقة المكانية ، والقرينة حالية

3 ـ المقصود بفاكهة الموسم بعضها أو جزء منها ، فالمجاز مرسل ، والعلاقة الجزئية ، والقرينة حالية

4 ـ المقصود بعيون الاستعمار جواسيسه ، والعين جزء من من الجاس ، فالمجاز مرسل ، والعلاقة الجزئية ، والقرينة حالية.

5 ـ المقصود بالنطاسي البارع الطالب الذي سيصبح طبيباً ، فالمجاز مرسل ، والعلاقة اعتبار ما يكون ، والقرينة حالية .

6 ـ المقصود بكلمة الصوف هو الثياب التي تصنع من الصوف ، وكذلك بكلمة القطن ، فالمجاز مرسل ، والعلاقة حالية ، لأن الثياب قبل نسجها كانت صوفاً وقطناً .

تمارين

(آ)

عين المجاز المرسل ، وعلاقته ، وقرينته ، فيما يلي :

1) قال الله تعالى : « وآتوا اليتامى أموالهم » النساء /2

2) وقال الله تعالى : « إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم » الإنفطار / 13 و 14 .

3) وقال الله تعالى : « فليدع ناديه ، سندعو الزبانية » العلق /17 و 18

4) وقال الله تعالى : « يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم » آل عمران / 167 .

5) وقال الله تعالى : « فبشّرناه بغلام حليم » الصافات / 101 .

6) وقال الله تعالى : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » البقرة /185.

7) وقال النبي (ص) : « عينان لا تمسهما النار : عينٌ بكت من خشية الله ، وعينٌ باتت تحرس في سبيل الله » .

8) وقال عنترة يفتخر :

فشككتُ بالرمح الأصمّ ثيابه   ليس الكريمُ على القنا محرَّم

(ب)

في الأمثلة الآتية مجازات متنوعة ، بعضها علاقته المشابهة ، وبعضها علاقته غير المشابه .

عين كلا منها ووضح علاقته وبين قرينته المانعة من إرادة المعنى الحقيقي:

1) قال الله تعالى : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه » الأنبياء / 18.

2) وقال الله تعالى : « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر » السجدة / 21

3) وقال الله تعالى : « فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا» الكهف / 11

4) وقال النبي (ص) : « أكثروا من ذكر هادم اللذات »

5) وقال النبي (ص) « كلما سمعوا صيحة طاروا إليها » .

6) وقال الإمام علي كرم الله وجهه : « أحي المعروف بإماتته » .

7) وقال معاوية بن مالك :

إذا نزل السماء بأرض قومٍ رعيناه وإن كانوا غضابا

8) وقال البحتري :

إذا العينُ راحت وهي عينٌ على الأذى فليس بسر ما تُسر الأضالعُ

9) وقال بشّار :

وكنا إذ ادب العدو لسخطنا وراقبنا في ظاهر لانراقبُه

10) وقال أبوتمام :

اليف أصدق أنباء من الكتب في حده الحدبين الجد واللعب

11) وقال المتبي في مدح سيف الدولة الحمداني :

له أيادٍ عليّ سابغةٌ أعُدُّ مِنْها ، ولاأُعدِّدُها

(ج)

وقال المتنبّي يخاطب سيف الدولة الحمداني :

رأيتك محض الِحلم في محض قدرةٍ ولو شِئْتَ كان الِحلمُ منك المهنّدا

وما قَتْلُ الأحرار كالعفو عنهمُ ومن لك بالحرّ الذي يحفظ اليدا ؟

وضع النّدى في موضع السَّيف بالعلى
مُضرٌّ كوضع السَّيف في موضع النَّدى

اشرح الأبيات السابقة بعبارات أدبية مناسبة ، وعين ما فيها من مجاز ، واذكر علاقته وقرينته ، وبين أثر هذا المجاز في قوة المعنى وبلاغة الأسلوب .

ثانيا - القصر

الأساليب :

1) لا يحب الشعب إلا المخلص
2) إنما النجاح للمجتهد
3) فلسطينُ عربيةٌ لا صهيونية .
4) ما فلسطينٍ صهيونية بل عربية
5) ما فلسطينُ صهيونيةً لكن عربية
6) على سواعد الشّباب تبنى نهضة البلاد .

الإيضاح :

تأمل الأمثلة الستة السابقة تجد كل واحد منها قد تضمن تخصيص شيء بآخر :

فالمثال الأول يدل على أن محبة الشعب تتوجه إلى المخلص وحده دون غيره من الناس .

والمثال الثاني يفيد تخصيص النجاح بالمجتهد من بين سائر التلاميذ .
والأمثلة (3 و 4 و 5) تؤكد عروبة فلسطين . وتنفي أن يكون للصهيونية المعتدية أي حق فيها ، وتحصر هذا الحق في عرب فلسطين وحدهم .

والمثال السادس يتضمن تخصيص الشباب بنهضة البلاد دون غيرهم من أبنائها . فمن أين نشأ هذا التخصيص ؟
لو أخذت المثال (1) وحذفت منه كلمة (لا) وكلمةَ (إلا) لأصبحت الجملة هكذا : يحبّ الشعب المخلص ، ولوجدت أيضاً أن هذا التخصيص

قد زال من الجملة ، وذلك لاحتمال أن محبة الشعب قد تتوجه إلى المخلص وغيره بدلاً من أن تتجه إليه وحده ، وكلمة (لا) تفيد النفي ، وكلمة (إلا) تفيد الاستثناء ، وإذن فالنفي والاستثناء هما سبب هذا التخصيص في المثال المذكور .

ولو اتبعت الأسلوب السابق ، أي حذف (إنما) من المثال الثاني ، وحذف (لا) من الثالث ، وحذف (ما وبل) من الرابع والخامس ، لزال هذا التخصيص الموجود في الأمثلة المذكورة . وكذلك يزول التخصيص لو أنك غيرت تركيب الجملة الأخيرة فقلت : تبنى نهضة البلاد على سواعد الشباب .

فأسباب التخصيص في الأمثلة الستة المتقدمة هي : النفي والاستثناء في الأول ، والأداة (إنما) في المثال الثاني ، والأداة (لا) في المثال الثالث والأدوات (ما وبل) و(ما ولكن) في المثالين الرابع والخامس ، وتقديم الجار والمجرور على الفعل والفاعل في المثال الأخير .

ويسمى التخصيص أو الحصر المستفاد من الأساليب السابقة (قصراً) وتسمى أسبابه القصر ، أو أدواته ووسائله (طرق القصر) .

ولو عدت مرة أخرى إلى الأمثلة التي مرت بك لرأيت أن المثالين الأول والثاني يقصران المحبة على المخلص ، والنجاح على المجتهد، ويسمى النجاح (مقصورا) ويسمى المجتهد (مقصورا عليه) ، وأنت تعلم أن الاجتهاد صفة ، وأن المجتهد موصوف في المثال الثاني ، وأن المحبة صفة، والمخلص موصوف في المثال الأول، ولذلك يقال عن القصر في المثالين الأولين : أنه قصر صفة على موصوف ، أي أنّ الصفة لا تتجاوز الموصوف إلى غيره ممن يكن أن يشاركه في تلك الصفة المراد حصرها فيه أو قصرها عليه .

وفي المثال الثالث يقصر المتكلم كلمة (فلسطين) على العروبة وحدها ، وتسمى فلسطين مقصورا ، وتسمى العروبة مقصورا عليها ،

ولما كانت فلسطين موصوفة ، وكانت (العروبة) صفة لها كان القصر في هذا المثال من النوع الذي يقال فيه : إنه قصر موصوف على صفة . . !

ومثل هذا يقال في الأمثلة الثلاثة الباقية ، أي في الأمثلة (4 و 5 و 6) .

مجمل القول :

1 – القصر تخصيص شيء بآخر وفق طريقة معينة . .

2 – للقصر ركنان أو طرفان هما : المقصور ، ووالمقصور عليه.

3 – للقصر طرق كثيرة أشهرها الأربع التالية :

أ) – النفي والاستثناء : وفيها يكون المقصور عليه بعد أداة الاستثناء .

ب – إنما (وتتضمن معنى النفي والاستثناء معاً) : وفيها يكون المقصور عليه مؤخرا وجوباً عن المقصور .

جـ – العطف بـ (لا) أو (بل) أو (لكن) :

– فإن كان العطف بـ(لا) فكان المقصور عليه مقابلاً لما بعدها.

– وان كان العطف بـ(بل) أو (لكن) كان المقصور عليه ما بعدها .

د – تقديم ما حقه التأخير : وهنا يكون المقصور عليه هو المقدم .

4) ينقسم القصر باعتبار ركنيه أو طرفيه إلى قسمين :

أ – قصر صفة على موصوف .

ب – قصر موصوف على صفة .

تدريب نمـوذجـي

بين في الأمثلة الآتية طرق القصر ، وطرفيه ، ونوعه باعتبار طرفيه !

1) لا يظفر بمطلبه إلا المجد

2) لم تنل الجزائر استقلالها إلا بالكفاح المسلح .

3) إنما الاستعمار شرّ على الشّعوب .

4) المرءُ بآدابه لا بثيابه .

5) قال بشّار :

على الملك الجبّار يقتحم الردى ويصرعه في المأزق المتلاحم

6) ما المرء بثيابه لكن بآدابه

7) ما المرء بثيابه بل بآدابه

الإجابـة

رقم السؤال	المقصور	المقصور عليه	طريق القصر	نوعه باعتبار طرفيه
1	الظفر بالمطلب	المجد	النفي واستثناء	صفة على موصوف
2	نيل الجزائر لاستقلالها	الكفاح المسلح	» »	» » »
3	استعمار	الشر	إنما	موصوف على صفة
4	المرء	آدابه	العطف بلا	» » »
5	اقتحام الردى	الملك الجبار	تقديم الجار والمجرور	صفة على موصوف
6	المرء	آدابه	العطف بلكن	موصوف على صفة
7	المرء	» »	ببل	» » »

تدريبـات

بين المقصور ، والمقصور عليه ، وطريق القصر ، ونوعه باعتبار طرفيه فيما يلي :

1) قال الله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء »
2) وقال النبي (ص) : إنما الأعمال بالنيات » .
3) قال تعالى : « لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد »
4) وقال تعالى : « إياك نعبدُ ، وإياك نستعين » .
5) وقال تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، وللدّار الآخرةُ خير للذين يتقون أفلا تعقلون »
6) وقال امرؤ القيس :

ولو أنني أسعى لأدنى معيشة ... كفاني – ولم أطلب – قليلٌ من المال
ولكنّني أسعى لمجد مؤثّل ... وقد يدرك المجدَ المؤثّل أمثالي

7) وقال زهير :

وهل ينبتُ الخطيّ إلا وشيجهُ ... وتغرس إلا في منابتها النَّخلُ

8) وقال أبو تمام :

على مثلها من أربع وملاعب ... تذال مصوناتُ الدموع السواكب

9) وقال أبو الطيب المتنبّي :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارمُ

10) وقال أبو فراس الحمداني :

سيذكرني قومي إذا جد جدهم ... وفي الليلة الظلماء يفتقد البدرُ

11) وقال المعري :

تعب كلها الحياةُ ، وما أعجب ... إلا من راغب في ازدياد

12) وقال شوقي :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هُمُ ذهبتْ أخلاقهم ذهبُوا

القصر باعتبار الحقيقة والواقع

الأساليب :

1) لا إله إلا الله
2) لا يعيش السمك إلا في الماء
3) أبو تمام والمتنبي حكيمان وإنما الشّاعر البحتري
4) إنما البحتري شاعر
5) الناجح علي لا خالد : تقولها لمن يعتقد اشتراك علي وخالد في النجاح

أو تقولها لمن يعتقد العكس أي نجاح خالد دون علي
أو تقولها لمن يتردد بينهما ، ولا يدري أيهما الناجح دون الآخر

الإيضاح :

انظر في المثالين الأولين تجد أن القصر فيهما من باب قصر الصفة على الموصوف :

- فالألوهية في المثال الأول صفة خاصة بالله عز وجل ، لا يشاركه فيها أحد سواه .

وحياة السمك في المثال الثاني متوقفة على وجود الماء ، فالصفة إذن في كل من المثالين السابقين حقيقة واقعة لا تفارق الموصوف إلى سواه ، وهذه الصفة بديهة من بديهيات العقل والواقع يدركه من عنده أدنى حظ من نظر أو تأمل ، وكل قصر من هذا النوع يسمى (قصرا حقيقيا)

وانظر في المثال الثالث تجد القصر فيه من باب قصر الصفة على الموصوف أيضا ، غير أنك إذا فكرت فيه جيّدا علمت أن صفة الشعر

ليست منحصرة في البحتري ولا مقصورة عليه وحده بدليل وجود كثير من الشعراء قبله وبعده ، بل وفي أيامه أيضا ، ولكن البحتري بالقياس إلى بعض الشعراء أو بالإضافة إلى غيره منهم تغلب عليه صفة الشاعرية ، بينما تغلب صفة الحكمة على زميليه أبي تمام والمتنبي مثلا وكل قصر من هذا النوع يسمى (قصرا إضافيا) .

وانظر في المثالين الرابع والخامس تعلم أن القصر فيهما من النوع الإضافي أيضاً ، ولكنك لو عدت إلى المثال الأخير لوجدت أن التخصيص يختلف تبعاً لاختلاف حالة المخاطب النفسية ، ء وهي لا تعدو حالات ثلاث : فالمخاطب إما أن يعتقد اشتراك شيئين في صفة من الصفات ، وهنا يتعين إفراد الموصوف المتصف بتلك الصفة وإما أن يعتقد عكس الحكم الذي تضمنته الجملة ، وهنا يجب ، تصحيح اعتقاده وقلبه من الخطإ إلى الصواب ، وإما ان يكون مترددا في ذلك الحكم ، وهنا ينبغي إزالة تردده بتعيين الموصوف المتصف بالصفة التي تضمنتها الجملة .

مجمل القول :

1 – ينقسم القصر باعتبار الحقيقة والواقع إلى قسمين : حقيقي وإضافي :

أ – فالحقيقي هو أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحسب الحقيقة والواقع فلا يتجاوزه إلى غيره .

ب – والإضافي هو أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحسب الإضافة إلى شيء معين ، فهو لا يتجاوزه إلى هذا الشّيء المعني ، ويمكن أن يتجاوزه إلى غيره

2 – وينقسم القصر الإضافي باعتبار حال المخاطب إلى ثلاثة أقسام .

أ ـ قصر إفراد إذا اعتقد المخاطب الاشتراك .

ب ـ قصر قلب إذا اعتقد المخاطب عكس ما يقوله المتكلم .

جـ ـ قصر تعيين إذا كان المخاطب مترددا في الحكم الذي تتضمنه الجملة .

تدريب نموذجي :

بين أنواع القصر وطرقه فيما يلي :

1) لا خالق إلا اللهُ

2) لا جوادَ إلا حاتم .

3) المرءُ بأصغريه لا ببرديه .

4) ما جاء إلا زهير .

5) « لله ما في السّموات وما في الأرض » .

6) « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

7) بالعلم تنهض الشّعوب .

8) بالكفاح المسلح تتحرر فلسطين (ردّا على من قال تتحرّر بالمفاوضات والحلول السلمية)

الإجابــة

الرقم	المقصــور	المقصور عليه	طريق القصر	نوعه باعتبار طرفيه	نوعه باعتبار الحقيقة	نوعه باعتبار حال المخاطب
1	خــالـق	الله	النفي والاستثناء	صفة على موصوف	حقيقـي	محتمــل
2	جـواد	حــاتم	» »	» » »	إضافـي	» »
3	المــرء	أصغر يـه	العطف بـلا	موصوف على صفـة	» »	قلــب
4	جــاء	زهيــر	النفي والاستثناء	صفة على مـوصوف	» »	محتمــل
5	ما في السموات وما في الأرض	لله	التقديـم	» » »	حقيقـي	محتمــل
6	إتمام مكارم الأخلاق	النبـي (ص)	إنمــا	» » »	إضـافي	قلب أو تعييـن
7	تنهض	بـالعلــم	التقـديم	» » »	» »	محتمــل
8	تتحرر فلسطيـن	الكفاح المسلح	» »	» » »	» »	قلــب

تدريبــات

(1)

بين أنـواع القصـر وطـرقـه فيمـا يلي :

1) قال الله تعالى : « إنمـا الله إلـه واحـدٌ »

2) وقال الله تعالى : « فذكـر إنمـا أنت مذكـر لست عليهـم بمسيطر »

3) وقال الله تعالى : « إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنـون بآيات الله وأولئـك هم الكاذبـون » .

4) وقال الله تعالى : « وما محمـّد إلا رسـول قد خلت من قبلـه الرسل، أفإن مات أو قُتـل انقلبتـم على أعقابكـم ، ومن ينقلب على عقبيـه فلن يضـرّ الله شيئـاً ».

5 – وقال النبي (ص) : « ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقـت فأبقيتَ » .

6 – وقال النَّبي (ص) : « ثلاثٌ من كـن فيـه فهـو منـافق وإن صام وصلى وزعـم أنـه مسلـم :

إذا حدث كـذب ، وإذا وعـد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .

7) وقال الإمام علي كـرم الله وجهـه : « أوصيكـم بخمس لـو ضربتم إليهـا آباطِ الإبـل لكانت لذلك أهـلاً : لا يـرجُوَنَّ أحد منكـم إلاّ ربـّه ، ولا يخافَنَّ إلا ذنبـه ، ولا يستحينّ أحد إذا سُئل عما لا يعلـم أن يقـول : لا أعلـم ، ولا يستحينّ – إذا لم يعلـم الشيء – أن يتعلمـه ، وعليكـم بالصبـر ، فالصبـر من الإيمـان كالـرأس من الجسـد ، ولا خير في جسـد لا رأس معـه ، ولا في إيمـان لا صبـر معـه » .

8) وقال الفـرزدق :

أنـا الذائـد الحامـي الذّمـار وإنّمـا يـدافـع عن أحسابهم أنـا أو مثلـي

9) وقال عبد الله بن قيس الرقيات :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قوةٍ ليس فيه جبروتٌ ولا به كبرياءُ

10) وقال المتنبّي :

ومن البلية عذل من لا يرعون عن جهله ، وخطابُ من لايفهم

11) وقال أيضاً يخاطب سيف الدولة :

أجزني إذا أنشدت شعرا فإنما بشعري أتاك المادحون مردّدّا
ودع كل صوت غير صوتي فإنني أنا الطائر المحكي والآخر الصدى
وما الدّهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

12) وقال أبو فراس الحمداني يخاطب سيف الدولة من منفاه ؟

لست أجفو ، وإن جفوتَ ولا أترك حقّاً علي في كلّ حال
إنما أنت والد ، والأب القاسي يجازي بالصبر والاحتمال

(2)

أي الجملتين أبلغ في مدح البحتري ، واذكر السبب ؟

1) إنما الشّاعر البحتري
2) إنما البحتريّ شاعرٌ

(3)

استخدم كل جملة مما يلي بأسلوب من أساليب القصر التي تعلمتها واذكر نوع القصر وطريقه :

1) العلم في الصغر كالنقش في الحجر .
2) يستعد المجتهد للامتحان قبل موعده .
3) الشّباب رأس مال الأمة .
4) ترتقي الأمم بالعلم والعمل .
5) الصديق يعرف عند الضيق .

6) الفراغ مفسدة
7) الكسل مفتاح الفقر .
8) أدب المرء خيرٌ من ذهبه .

(4)

بالكفاح المسلّح تستعيد الشعوب المستعبدة حريتها :

متى يكون القصر في هذه الجملة للإفراد ؟ ومتى يكون للقلب ؟ ومتى يكون للتعيين ؟

(5)

اجعل الجمل الآتية مفيدة للقصر من غير أن تزيد عليها شيئاً أو تنقص فيها :

1) يكرم المرءُ أو يُهانُ عند الامتحان .
2) أحبّ الشباب الجادّ المهذّب .

(6)

رُدّ على من اعتقد أن البترول للشّركات الاحتكارية بأسلوب به أساليب القصر التي مرت بك ، ثمّ بيّن نوع القصر ، وطريقه في الجملة التي تأتي بها .

أغراض القصر وبلاغتـه

الأساليب :

1) مـا باق إلا الله
2) لا يعيش المـرجان إلا في الميـاه الملحـة .
2) إنمـا ينجح المُجدّ (تقولها أمـام تلميذ كسـول رسب في الامتحان)
4) وقال المتنبّي :

ومـا أنـا إلاّ سمهريّ هـززتـه فـزيّن معـروضـاً ، وراعَ مُسدّدا

5) وقـال لبيـد :

ومـا المرءُ إلاّ كالهـلال وضوئهِ يـوافي تمام الشهـر ثم يغيـبُ

6) وقال المتنبّي :

بـرجاء جـودك يُطْـرَدُ الفقـرُ وبأن تُعارى يَنْفُدُ العُمُـرُ

الإيضـاح :

تأمّـل جيّدا في الأمثلـة السّـابقـة وفكـر مليـاً في بـلاغتهـا وأثـرهـا في أداء المعانـي التي تناولتهـا تجد أن هذه المعانـي قد اكتسبت عن طـريق القصـر قدرا عظيمـاً من البـلاغـة والقـوة لم تكـن لتنـالـه لـولا أسلـوب القصر

فالمثال الأول وهـو قـولنـا (ما باق إلا الله) يعادل الجملتين الآتيتين معـاً : البقـاء لله ، وهـو الباقي وحده . والقـول الأول أوجـز وأشـد اختصار والإيجـاز ضرب من ضروب البـلاغـة ، بـل ركـن عظيـم من أركانهـا . .

والمثال الثاني يتضمن حقيقـة علميـة ثابتـة هي معيشـة المـرجان في المياه الملحـة ، ولكـن أسلـوب القصـر ساعـد نا في تحديد هذه الحقيقـة وتـوضيحهـا ، فقولنـا (لا يعيش المـرجان إلا في المياه الملحـة) أدق بكثير من قـولنـا (يعيش المـرجان في المياه الملحـة) لأن العبارة قد تحتمـل وجود المـرجان في المياه العـذبـة ، وهـذا شيء غير صحيح علميـاً .

والمثال الثالث يمكنك من التعـريض بالكسـول الذي رسب في الامتحان وإيلامـه بأسلـوب أدبي لا يلحقك بسببه أذى ، فقـولك لمن أخفق في الامتحان (إنما ينجح المجد) تأنيب مؤلم ، وتعريض موجـع ، وفيـه مخلص لك حين تريد التنصل من ذمـه .

والمثال الـرابـع يكشف لنا عن شخصية المتنبّي القـويـة ، وعن حبـه للفخـر والادعـاء نفى في هذا البيت عن نفسـه كل الصفات الأخرى ، وادعى أنـه رمح بيد سيف الدولـة يـزيّن به في السلـم ، ويخيف به أعداءه في الحـرب ، ولـولا أسلـوب القصـر لمـا تم له هذا الادعـاء

والمثال الخامس يـوضح حقيقـة الإنسان الذي يـولـد صغيرا ثم يكبـر ثم يبلـغ أشـده ثم ينتـابـه الضعف فالهرم فالفنـاء . . وقـد ساعد أسلـوب القصـر على تـوضيح هذه الحقيقـة وتمكينهـا في الذهن . . وتقريـرهـا وتـوكيدهـا .

والمثال الأخير يدل على أن المتنبّي يبالغ في المدح بالكـرم ، و قداستعان بالقصـر في ذلك فقدم الجار والمجـرور على الفعـل ، والتقـديـم طـريق من طـرق القصـر كمـا مـر بـك .

مجمل القــول :

للقصـر أغـراض مختلفـة ، وآثار قـويـة في أداء المعاني أهمهـا :

1) الإيـجاز
2) تحـديـد المعانـي تحديـدًا كامـلا .
3) التعـريض
4) الفخـر و لادعـاء
5) تمكين الكـلام في النفس وتقريـره في الذهـن .
6) المبالغـة .

تدريب نموذجي :

اذكر أغراض القصر وبلاغته فيما يلي :

1) ما كامل إلا الله —
2) الأرض متحركة ثابتة
3) إنما يتذكر أولوا الألباب
4) وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
5) «ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيرًا»
6) وما المرء إلا الأصغران: لسانُهُ ومعقولـه والجسمُ خلق مصوَّرُ

الإجابة

1) التوكيد والإيجاز
2) التوكيد والتحديد
3) التعريض
4) الفخر والادعاء
5) التوكيد
6) المبالغة

تدريبات

اذكر أغراض القصر وبلاغته فيما يلي :

1) قال تعالى : «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا»

2) وقال تعالى : «وإذ قال الله يا عيسى بن مريم : أأنت قلت للناس : اتخذوني وأمي إلـهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ، ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق . . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به ، أن اعبدوا الله ربي وربكم».

3) وقال تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون » .

4) وقال تعالى حكاية عن اليهود : « وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض ، قالوا : إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون » .

5) وقال تعالى حكاية عنهم أيضاً « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنّا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزؤون)

6) وقال تعالى : « « قل أنّما يوحى إلي : إنما إلهكم إله واحد »

7) وقال تعالى : « أفأنت تسمع الصُّمّ ، أو تهدي العمي ، ومن كان في ضلال مبين ؟ » .

8) وقال النبي (ص) : « لا صلاة إلا بسورة الحمد »

9) وقال الشّاعر :

وما المال والأهلون إلاّ ودائع ولابد يوما أن ترد الودائع

10) وقال المتنبّي :

ولا تحسبنّ المجد زقاً وقنينة فما المجد إلا السّيف والفتكة البكر

11) وقال الشّاعر :

إنما أنت والد والأب القا طع أحنى من واصل الأولاد !

12) وقال الشّاعر سليمان العيسي في ثورة الجزائر التحريرية :

في عروقي أنت في آهاتنا ، في كلّ خاطر ،
يا دويّ الصيحة الحمرا ء في قلب الجزائرْ . . .
بوميض النّار تروي قصة المجد حناجر
بوميض النّار يُملي نَفحاتِ الخلْدِ شاعرْ

المراجع

1 ـ من حديث الشعر والنثر	لطه حسين
2 ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي	لشوقي ضيف
3 ـ ابن الرومي	لعباس العقاد
4 ـ زهر الآداب	للحصري
5 ـ مع أبي العلاء	لطه حسين
6 ـ أمراء البيان جزء أول ، وثان	لمحمد كرد علي
7 ـ ضحى الإسلام	لأحمد أمين
8 ـ تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي	لأنيس المقدسي
9 ـ القصة والمقامة	لجميل سلطان
10 ـ النثر الفني في القرن الرابع	لزكي مبارك
11 ـ شعر الطبيعة في الأدب العربي	لسيد نوفل
12 ـ الطبيعة في الشعر الأندلس	لجودة الركابي
13 ـ تاريخ الأدب العربي	لحنا فاخوري
14 ـ في الأدب الأندلسي	لجودة الركابي
15 ـ تاريخ الأدب العربي	لأحمد حسن الزيات
16 ـ نفح الطيب	للمقري
17 ـ مقامات الهمذاني	
18 ـ دواوين الشعر المقرّر تدريسهم	
19 ـ مع المتنبي	لطه حسين
20 ـ تجديد ذكرى أبي العلاء	لطه حسين
21 ـ حديث الأربعاء	لطه حسين .

فهرس الكتـــاب

منشورات المعهد التربوي الوطني الجزائر

1972